الإسلام وتاريخ العرب

في أحدث المؤلفات الغربية

عرض لأهم الأعمال التي صدرت بأربع لغات:

الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية

مشروع كلمة للترجمة







الإسلام وتاريخ العرب في أحدث المؤلفات الغربية

عرض لأهم الأعمال التي صدرت بأربع لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية

إشراف عام:
جمعة القبيسي

إعداد:
د. علي بن تميم

تحرير:
د. خليل الشيخ
د. زينب بنياية
سامر أبو هواش
سعيد الغانمي
صبحي حديدي
د. صديق جوهر





المحتويات

كلمة KALIMA

مشروع «كلمة» للترجمة



تقديم

ما الداعي، اليوم، إلى مثل هذا الدليل الذي لا يدّعي الشمولية بأي حال من الأحوال؟

الجواب نجده في طيات الدليل نفسه: ثمة عشرات الكتب التي صدرت في أرجاء المعمورة، ولا سيما في أوروبا وأمريكا، خلال ربع القرن الماضي، والتي قرأنا وترجمنا كعرب ومسلمين القليل جداً منها، إن لم نقل إننا عملياً لم نترجم شيئاً يذكر منها، والتي تتناولنا نحن – في تاريخنا وحاضرنا – بالبحث والدراسة والتحليل.

بعض هذه الأعمال –كما سيكتشف متصفح هذا الدليل–، يقدّم قراءات جديدة تماماً لتاريخنا، بعضها يجدّد نقاشاً حول الدور الذي لعبه العرب والمسلمون في مسيرة الحضارة الإنسانية، بعضها الآخر تعريفي يقدّم – للقارئ الغربي – الثقافة والدين الإسلاميين، من دون أن يخلو كله من إطلاق الأحكام بهذا الاتجاه أو ذاك. على أيّ حال من الأحوال فإن هذه الأعمال تشكّل إلى حدّ كبير الطريقة التي يرانا ويفهمنا الغرب بها، اليوم، سواء كنخب ثقافية وسياسية أم كجمهور عام.

وعليه فإن قراءتها تشكل حاجة ضرورية لنا، جزئياً من باب المعرفة والاطلاع، وجزئياً من باب تعزيز الحوار مع هذا الآخر، بناء على فهم كيف يفكّر بنا. مثل هذه القراءة يجب أن تبدأ بداهة بمعرفة مثل هذه الأعمال. وهو بالضبط الهدف والفكرة الكامنة وراء هذا الدليل. وهو ما يجعل مثل هذا الدليل ناقصاً باستمرار، وبحاجة دائمة إلى الإكمال والإضافة، للوصول إلى نتيجة مرضية في النهاية.

لقد شهدت السنوات العشر الماضية – ومنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر – ما يمكن أن نسميه طفرة في الغرب في المؤلفات التي تتناول العرب والمسلمين، وعلى الرغم من أن الكثير منها خاضع لشروط «الميديا»، يستجيب لنوازع سياسية أو أيديولوجية أو تجارية مباشرة، فإن هناك عدداً لا بأس به من الأعمال الجادة التي تسعى بالفعل إلى ردم الهوة في معرفة القارئ الغربي بالحضارة الإسلامية العربية أو بالراهن السياسي والاجتماعي لها.

وإزاء الدعاوى الحربية إلى مواجهة حتمية بين الحضارتين، الغربية والإسلامية – العربية، والتي تستفيد من جهة من سعار اللحظة الراهنة، ومن جهة أخرى من ركام ضخم من الصور النمطية التحريفية والتشويهية التي ساهم الكثير من المستشرقين في بنائها، برزت أعمال تستعيد الإرث الحضاري والإنساني ومساهمة العرب والمسلمين الأساسية في مسيرة الإنسانية وتقدمها. بل لا نبالغ إذا قلنا إن الصراع بين الفريقين – الفريق الداعي إلى المواجهة والآخر الداعي إلى الفهم والحوار – يشكّل اليوم صلب النقاش الفكري والفلسفي والسياسي الغربي.

إن مشروع «كلمة» للترجمة، وإذ يقدّم اليوم هذا الدليل، إنما يفتح الباب واسعاً على قراءة هذه الأعمال، وعلى ترجمتها إلى العربية بطبيعة الحال، كخطوة أولى للمشاركة في الحوار الدائر، ولرؤية الذات مثلما تتجلى في كتابات الغربيين، على أن تتبع هذه الخطوة خطوات حثيثة، سواء في تقديم هذه الأعمال للقارئ العربي، أو في استكشافها والتعرف عليها، ذلك أن الترجمة – وكما يتبين من خلال تصفح هذا الدليل – وسمت إلى حدّ ما علاقتنا بالغرب، عبر ما نقله العرب والمسلمون في عصورهم الذهبية، من أمهات الكتب الإغريقية القديمة، التي انتقلت بدورها إلى الغرب وشكلت أساس النهضة الأوروبية الحديثة.

كتبت الأعمال الواردة في هذا الدليل بلغات أربع هي الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية، وهي أبرز اللغات التي تتناول اليوم بالبحث والدراسة العرب والمسلمين من دون أن يعني ذلك أنها الوحيدة، إذ أن جزءاً أساسياً من مهمة تطوير مثل هذا الدليل وتوسعته يقوم على استكشاف ما كتب ويكتب بلغات أخرى، وزيادة المعرفة بما كتب بهذه اللغات نفسها.

مشروع «كلمة للترجمة»،
أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة

من الاستشراق الأكاديمي إلى الاستشراق الإعلامي

سعيد الغانمي

يقال إن قبيلة إفريقية في مجاهل الغابات دخلت في حرب مع الجيش الفرنسي. فأغار الفرنسيون عليهم بطائرة حربية حصدتهم حصداً.

اجتمع زعماء القبيلة وحكماؤها للتداول بشأن هزيمتهم، فرأوا أن الجيش الفرنسي لم ينتصر عليهم إلا لأن آلهة الفرنسيين أقوى من آلهتهم. حينئذ قرَّ قرارهم على شراء طائرة. جمعت النسوة صيغتها، وأسهم الشيوخ والشباب بما يملكون، ونجحوا في إيصال الطائرة إلى أرض القبيلة. لكنهم بدل أن يغيروا بها على الفرنسيين، صاروا يرقصون الرقصات الشعائرية حولها، وهم يتوسلون إليها أن تهزم الفرنسيين.

سواء أكانت هذه القصة حقيقية أم مجرد نكتة، فإنها تضعنا في قلب مفهوم الإستشراق؛ فالإستشراق هو تعميم رؤية تنميطية ليس للشرق وحده، بل للغرب أيضاً معه. ويمثل موقف الطرفين من الطائرة موقفاً من النظرة إلى العالم؛ فالفرنسيون الغربيون يتصورون أن الطائرة لا تستخدم إلا كسلاح للإبادة، في حين أن القبيلة الإفريقية لا تتصورها إلا كإله للعبادة. وفي هذا فليس الفرنسيون وحدهم يطالبون القبيلة الإفريقية بالتطابق مع رؤيتهم، بل إن القبيلة الإفريقية تطالب الفرنسيين أيضاً بالتطابق مع رؤيتها.

يرد بعض الباحثين بدايات الإستشراق الأولى إلى حقبة المواجهات بين الحضارات الشرقية والغربية، ولا سيما في الحروب الفارسية الإغريقية. وهم ينظرون بالتالي إلى تقسيمات من طراز «الهيلينيين» و«البرابرة» بوصفها صدى لهذه النظرة الإستشراقية الطبيعية. على أن هذا التناول لا يخلو من محاولة البحث عن سابقة. فالثقافات التي تحتك ببعضها تتبادل النبذ. ولا علاقة لهذا بالإستشراق لأنه يمكن أن يظهر بين من ينتمون إلى ثقافة واحدة، كالتقسيم إلى عرب وعجم، أو حتى إلى لغة واحدة وبطن قبلي واحد، كالتمييز بين بكر وتغلب. وهناك لغات تقسم العالم بضمائر تملك تعود للقبيلة وضمائر تملك لغير القبيلة. فهل نعد هذا إستشراقاً؟ لعل تسمية لحظة المصادمات الأولى بالإستشراق أمر لا يخلو من تسرع، أو في أحسن الأحوال فهو إستشراق بدائي. أما الإستشراق الحقيقي فينبغي البحث عنه في ظل مؤسسة ترعاه وتغذيه.

يمكن تسجيل بداية خجولة للإستشراق الأكاديمي مع حملة نابليون على مصر، التي اصطحبته فيها بعثة من ثلاثمائة عالماً في مختلف التخصصات. وتحت تمثال أبي الهول وقف نابليون يخطب بجنوده: «أيها الجنود، إن خمسة آلاف سنة من التاريخ تتطلع إليكم».

لكن المسافة في عصر نابليون لم تكن كبيرة بين الشرق والغرب. وإذ انتصر نابليون عسكرياً، فقد انهزم ثقافياً، وليس تظاهره بإعلان الإسلام سوى عنوان لهذه الهزيمة الفكرية.

على أن البداية الحقيقية للإستشراق الأكاديمي ظهرت في عصر الاستعمارية (أو الكولونيالية) في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، مع الدور الذي قامت به مؤسسات إمبراطورية في رعاية الإستشراق مثل شركة الهند الشرقية. ولم يكن من المصادفة أبداً أن الجيل الأول من المستشرقين الكبار من طراز ماسنيون وفيلبي ولورانس العرب ومسز بل، كانوا ضباطاً في الجيش أو أعضاء في البعثات الدبلوماسية. وكان الدور المنوط بهؤلاء هو تطويع معرفتهم الأكاديمية بالشرق لتحقيق الأهداف الإمبراطورية الغربية. كان الاستقطاب على أشده بين الشرق البدائي المتخلف – كما يتصورونه- والغرب المتطور المتنور، ويجب أن ينقل الإستشراق مهمة التنوير الغربي للشرق المظلم، حتى لو تحقق ذلك عن طريق العنف. من هنا ارتبط الإستشراق الأكاديمي بمفهومين منذ بداياته؛ فمن ناحية ارتبط بتصور تفوق الغرب على الشرق، أي مركزية غربية شديدة، ذات طابع تنميطي ترى أن الشرق والغرب مفهومان مطلقان، وأن التفاوت بينهما أبدي في سلم الرقي، ومن ناحية أخرى، ارتبط بالاستعمارية والكولونيالية وحمل الشعوب بالعنف على القبول برسالة الغرب الخالدة، وإكراهها على تناول مشعل التنوير الغربي، أي بعبارة أخرى، إكراهها على التطابق مع التصور الغربي عنها.

نجح الإستشراق الأكاديمي منذ منتصف القرن التاسع عشر في تطبيق منهج فيلولوجي دقيق أسفر عن نتائج مذهلة. ففي حين كان ينظر الشرقيون إلى الأهرامات والزقورات التي يتوسدونها باعتبارها من المباني التي بنتها الجن لسليمان أو السحرة للفراعنة والنماردة، ولم يجرؤ شرقي على مغامرة الكشف عن تاريخية كتاباتها، انكب الإستشراق على فكّ شفرة النظم الكتابية في الشرق القديم، ودراستها وتحليلها وإعادة السياق التاريخي لها. وحين كانت النزعة المركزية الأوروبية متمثلة في فلسفة هيغل لا تخجل من وصم الشرق بأكمله من تركيا إلى الصين بأنه «مجتمعات بلا تاريخ»، بينما ترى في نابليون «وعي العالم على جواد»، كان الإستشراق الأكاديمي وحده من يتصدى لهذه النظرة الإطلاقية، ويكشف أن مجتمعات الشرق لا تقل تاريخية عن مجتمعات الغرب، وبأداة الفيلولوجيا نفسها، التي اقترحتها فلسفات القرن التاسع عشر.

وهنا بالضبط تكمن قوة الإستشراق وأهميته، وهنا أيضاً يكمن ضعفه. فهو خطاب عن الشرق موجه إلى الغرب، وليس إلى الشرق. وفي الوقت نفسه، فإن اعتبار الشرق موضوعاً، وليس ذاتاً، أي تثبيته في صورة متحجرة لا تتحرك يبحثها المستشرق، وليس التحاور معه كثقافة حية تتطور، يعني وقوع الإستشراق نفسه في أسر الفيلولوجيا، مما يفضي إلى خلق إشكاليات كاذبة أحياناً، هي من توهمات الغرب عن الشرق، ولا وجود لها في الواقع. وكم من الإشكاليات الموهومة التي صنعتها آليات الإستشراق ليكتشف هو نفسه فيما بعد أنها لم تكن سوى ثمرة من ثمار الفيلولوجيا الدقيقة التي طبقها.

> لعل تسمية لحظة المصادمات الأولى بالاستشراق أمر لا يخلو من تسرع أو في أحسن الأحوال هو استشراق بدائي

> هنا تكمن قوة الاستشراق وضعفه، فهو خطاب عن الشرق موجه إلى الغرب وليس إلى الشرق

> والحال أن الإسلام لا يتحدد ببوصلة الجغرافيا المتحولة



لكن النزعة الاستعمارية الكولونيالية نفسها سرعان ما اضطرت إلى التراجع. وأخلت ساحة الشرق لثقافة ما بعد الاستعمارية. وبالنتيجة، وجد الإستشراق، كحقل معرفي، أن عليه أن يتخلى عن التجاهر بنزعته المركزية، وأن يعيد النظر في أسسه الضمنية أو الصريحة. وحين أفلح في ترسيخ نفسه كحقل معرفي بمعزل عن الاستعمارية، وفي ثقافة الحقبة ما بعد الاستعمارية، صار يرائي بالانفتاح والتعددية. وبالطبع لم يكن الإستشراق سلبياً في تفاعله مع المناهج المتعددة الحديثة التي تولدت عن الحراك الثقافي في الغرب. بل تفاعل مع جميع المناهج، وانفتح عليها. وكأغلب الحقول المعرفية الأخرى، صار لا يكف عن ممارسة نوع من النقد الذاتي لنفسه، بهدف تطوير آلياته، والاستفادة من المناهج المختلفة. وفي هذه النقطة يستطيع الإستشراق أن ينتبه إلى ما لا يراه الشرقيون، لا لغموضه، بل لوضوحه. وليس من شك في أن بعض الأشياء تحتاج إلى مسافة فاصلة بين الرائي والمرئي لتحقيق الرؤية. بعبارة أخرى، يمكن أن يؤدي الإستشراق دور مهماز لتحريض رؤية شرقية بكشفه عما لا يراه الشرقيون بسب حضوره الساطع، وليس غيابه الآفل. على أن يظل في البال أن المعرفة البشرية هي معرفة نسبية سواء أصدرت من الشرق أم من الغرب.

بعد أحداث سبتمبر 2001، بدأ الإسلام كدين يواجه موجة غاضبة من الإعلام المضاد الذي يسعى إلى تنميطه كدين وتعميم رؤية معادية للمسلمين تصفهم بالإرهاب. وهي موجة يختفي عنها النقد تماماً، وتتسم بغياب مطلق لأية مرجعية فكرية أو ثقافية، بل مجرد هجوم شعبي انفعالي، تشبه في بعض جوانبها الهجمة التي قام بها الإعلام البريطاني في السبعينات حين حوَّل الإيرلنديين إلى سعادين وقردة، بعد شيوع ثقافة الانتحار لديهم.

لكن الموجة الإعلامية التي جوبه بها الإسلام أوسع بكثير وأقوى تأثيراً. وربما أمكن وصفها بأنها «إستشراق إعلامي». وفضلاً عن التنميطية وغياب النقد، فإن الإستشراق الإعلامي يمتاز بالغوغائية والتسلطية. فهو لا يصدر عن جهة أكاديمية مسؤولة عما تطلقه من أحكام، بل يتكون من شائعات شعبية وأفكار عدوانية متداولة، تصدر أحياناً عن جهات لا ملامح لها، ولا يمكن الرد عليها أو مناقشتها.

في برنامج تلفزيوني على إحدى الفضائيات، تحدث متكلم مرة بأن كل الأديان يمكن التعامل معها إلا الإسلام، فالمسلمون لديهم حديث يقول: سينتصر الإسلام في آخر الزمان بحيث يختفي اليهودي تحت حجر، فينادي الحجر: يا مسلم، تحتي يهودي، تعال اقتله. هذا هو موقف المسلمين من بقية الديانات. ولا يستطيع المسلم أن يرد عليه بأنه يستشهد بحديث عن نهاية الزمان، أي عن رؤية فردوسية تتكلم فيها الأحجار، وليس المسلم واليهودي فيها سوى رمزين للخير والشر، مثل «شايلوك» في مسرحية شكسبير. وأن هناك عشرات الأحاديث التاريخية التي تشرع لحقوق اليهود والمسيحيين في الدولة الإسلامية الفعلية.

ونُشِرَ في الصحف الأسترالية مقال يتهم المسلمين جميعاً بالإرهاب: السنة بالتعاطف مع بن لادن، والشيعة بالتعاطف مع حزب الله. بجملة واحدة تتم شيطنة ثلث البشرية. وهذه جملة تمتلك القدرة على الانتقال بسهولة، وتمارس تأثيرها في اللاشعور الجمعي. واستغلت بعض الكنائس المناخ المضاد للمسلمين، فصارت تنشر صوراً دعائية تقدم فيها صورتين متقابلتين لبعثة تبشيرية تحنو على الأطفال المشردين في إفريقيا، تكتب فوقها: هذه هي المسيحية، وصورة الطائرة وهي تخترق برج التجارة العالمي مكتوباً فوقها: هذا هو الإرهاب. والواقع أن كلمة «الإرهاب» هنا أكثر خطورة من الإسلام. فلو كتبت الكنيسة: «الإسلام»، لأمكن مقاضاتها بتهمة التمييز الديني، والرد عليها بأن الإسلام ليس كذلك. وبما أن المسيحية دين وليس هناك دين يقابلها اسمه الإرهاب، فإن هذه الكلمة تتحول إلى تسمية أخرى للإسلام، وهي تسمية تسلطية تروغ من القانون، وتتسم بإخراس الآخر وعدم إعطائه الفرصة للرد.

والمفارقة أن الإستشراق الأكاديمي، الذي كنا نتهمه حتى سنوات قليلة بالمركزية وتسويق نظرة عدوانية، هو الذي صار يتصدى لمثل هذه الحملات الدعائية التعميمية، ويحرص على تبديدها وكشف ما فيها من تهافت وتنميط. وفي المقابل، فإن الردود العصبية الانفعالية في الشرق، بما فيها من مظاهرات وحرق أعلام ومهاجمة سفارات، لن تسفر إلا عن تأجيج لمثل هذه التنميطية، وبدلاً من تبديدها، فهي تسهم في ترسيخها. ولا يستطيع المراقب أن يبرئ بعض الجهات من استخدام الإسلام كسلاح آيديولوجي للتهييج السياسي. فهي أيضاً، كما كانت الحال مع قصة القبيلة الإفريقية، تصر على إطلاقية الغرب والشرق. والحال أن الإسلام لا يتحدد ببوصلة الجغرافيا المتحولة، فحيثما تولوا وجوهكم فثم وجه الله. ولا خوف على الإسلام من كلمة أو كتاب أو ألف كتاب، فهو واحد من أعظم الأديان في تاريخ البشرية، وقد أوجب الإسلام أن يكون الرد على المناوئين بالحسنى والكلمة النقدية الطيبة، لأنه يعرف أن استخدام العنف في حقل الآيديولوجيا من شأنه إشعالها لا إطفاؤها.

الدراسات الإسلامية الفرنسية: ركود القاعدة وحيوية الاستثناء

صبحي حديدي

في أواخر العام 1917، حين استولى الحلفاء على مدينة القدس، شاءت المصادفة أن يكون إلى جانب جنرالات الجيش اثنان من المدنيين، كانا حينئذ في عداد كبار الباحثين في شؤون الشرق التاريخية والدينية والأدبية: لويس ماسينيون، الذي سوف يترجم ديوان الحلاج ويصبح واحداً من كبار مستشرقي فرنسا، وت. إ. لورنس (العرب)، الذي سيحتلّ بدوره مكانة رفيعة في محفل الدراسات البريطانية عن الشرق الأوسط. كان الأخير ضابطاً في الإستخبارات البريطانية، أتى إلى القدس بتلك الصفة، وليس منتدباً من جامعة أكسفورد؛ وكان الثاني في عداد فريق فرنسوا جورج ـ بيكو، الدبلوماسي الفرنسي الذي سيوقّع الإتفاقية الشهيرة مع زميله البريطاني سير مارك سايكس. ويتردد أنّ الرجلين تبادلا عبارات المجاملة باللغة العربية، وكان كلّ منهما يحاول اختبار مقدرة الآخر في الفصحى، أو يتصيّد له الأخطاء!

وبالطبع، سوف يكشف إدوارد سعيد، في كتابه الرائد «الإستشراق»، 1978، طبائع عمل ذلك الجهاز الخطير الذي سيتولى تشغيل مؤسسة الإستشراق، في بريطانيا وفرنسا بصفة خاصة؛ وطرائق التحالف بين خطاب المعرفة وخطاب السلطة، في تلك الأطوار الكولونيالية التي لم تكن تسمح البتة ببقاء البحث الثقافي أو التاريخي أو الأنثروبولوجي متطهراً من أجندة السياسة وبرامج الاقتصاد. ولعلّ ذلك اللقاء الفريد بين ماسينيون ولورنس العرب لم يكن عجيباً إلا في جانب واحد، هو إصرار الرجلين على إسباغ الطابع العلمي على المصادفة، هذا إذا جاز اعتبارها هكذا، وميل لورنس في أواخر حياته إلى نفي حدوثها أصلاً.

العقود التالية من تاريخ الدراسات الفرنسية والدراسات الإنجليزية عن الشرق الأوسط، والإسلام بالمعنى الأعرض، سوف تبرهن على حدوث توافق ضمني، بعضه كان منطقياً وتلقائياً على نحو ما، يقضي بأن تكون فرنسا هي المنطقة التي ستشهد دفن العلاقات المضطربة بين أوروبا والإسلام، وذلك طيّ الطبقات العميقة من ذلك المخزون الثقافي الشرقي السحري الذي بهر مختلف شرائح الجمهور الغربي منذ القرن الثامن عشر، وفي غمرة حمية عارمة تمكنت من توحيد مشروع فلسفة الأنوار بأساطيل فلسفة الاستعمار. ولكنّ الثمن الذي توجّب على الدراسات الفرنسية سداده دون إبطاء، وبتواتر منتظم بعدئذ، كان طغيان المظانّ الإيديولوجية على مناهج البحث وأدوات الباحثين، وسيطرة الهاجس السياسي الذي لم يكن ينبع من ظاهرة عريضة أو عارضة فحسب، بل من الوقائع اليومية وحوادث الساعة أحياناً.

وإذْ يلوح، غالباً، أنّ الباحث الإنجليزي أو الألماني أو حتى الإسباني (ابن الأندلس!)، امتلك مرونة كافية في معالجة الموضوعات الحساسة ذات الصلة بالتوتر الإسلامي ـ اللاتيني، وفي ملفات مثل الحروب الصليبية أو سقوط غرناطة أو انهيار بيزنطة في القسطنطينية؛ فإنّ الباحث الفرنسي يشتغل وهو على قلق دائم من إثارة الشجون الدينية تارة، أو جرح الحساسيات السياسية لتاريخ كولونيالي أليم طوراً. الاستثناءات توفرت بالطبع، بل يمكن القول إنها ـ على قلّة العدد، وقصور اليد ـ لعبت دوراً حيوياً في تبديل الكثير من ركود الحال السابقة، بالرغم من عراقيل عديدة، سياسية وثقافية ودينية، طرأت على المشهد الفرنسي والعالمي منذ أواسط الستينيات، وزادت في صعوبات العمل على ملفات الإسلام والمسلمين.

هنالك، أولاً، استثناء ريجيس بلاشير (1900 ـ 1973)، الذي قدّم للمكتبة الفرنسية ترجمة للقرآن سنة 1947، تقع في ثلاثة مجلدات، لعلّها الأفضل من حيث القيمة الدلالية والاجتهاد اللغوي الذي لا يفرّط في البلاغة، فضلاً عن إعادة تصنيف السور بحسب تواريخ نزولها، وتخصيص المجلد الأول للتعريف بالقرآن. وكان بلاشير قد توغل، على نحو لم يكن مألوفاً آنذاك، في باطن السيرة النبوية، فخرج سنة 1956 بعمل رصين وشامل عنوانه «على خطى محمد»، لم يكن يستهدف سرد قصة حياة الرسول، بقدر المساجلة حول تعقيدات توثيق الحكايات والحوادث و«المغازي». كما وضع بلاشير قاموساً ثلاثياً عربياً ـ فرنسياً ـ إنجليزياً باللغات القديمة والحديثة، وكرّاس تمارين على قواعد اللغة العربية، وثلاثة مجلدات في تاريخ الأدب العربي.

كلود كاهن (1909 ـ 1991) كان الاستثناء الثاني، في ميدان دراسات العصور الوسطى التي تتجلى في أبحاثها غالبية الحساسيات الفرنسية، بالنظر إلى أنها تشتمل على وقائع الحروب الصليبية في المقام الأول. امتياز الرجل تجلى، بادئاً ذي بدء، في القَطْع التاريخي ـ الذي كان معرفياً أيضاً، في أحد أبرز جوانبه ـ مع النظرة التقليدية إلى المجتمعات العربية خلال مرور الحملات الصليبية، في أنطاكية وسورية وفلسطين خاصة؛ وذلك منذ سنة 1954 حين نشر دراسة لافتة، في مجلة تصدر عن جامعة أكسفورد، بعنوان «مقدّمة إلى الحروب الصليبية». مؤلفاته، وبين أبرزها «مدخل إلى تاريخ العالم المسلم القروسطي: من القرن السابع وحتى الخامس عشر»، و«الإسلام، من الأصول وحتى بداية الإمبراطورية العثمانية»، و«الشرق والغرب في زمن الصليبيين»، سوف تجلب عليه سلسلة ألقاب وصفات مستحقة، مثل «عميد التاريخ الاجتماعي الإسلامي»، و«أحد المؤرخين الفرنسيين الكبار الأشدّ تأثيراً في الدراسات الإسلامية على امتداد القرن». ولعلّ من المفيد التذكير بأنّ كاهناً يتحدر من أسرة يهودية، ولكنه لم يزعم ايّ انتماء ديني في هذا المضمار، ولم يؤيد أو يدعم دولة إسرائيل في أيّ يوم.

الاستثناء الثالث هو مكسيم رودنسون (1915 ـ 2004)، الذي بدأ من اختصاص محدود هو اللغة الحبشية، وانتهى في آخر دراساته إلى تأسيس مقاربة اجتماعية ـ تاريخية فريدة، متميزة تماماً، في ميدان دراسة الإسلام والتاريخ الاجتماعي للمسلمين. وكانت نجاحاته في تسخير الماركسية، وأدوات التحليل الجدلية التي تتيح استكشاف العلاقات المعقدة بين البنى التحتية (الاقتصاد والمجتمع) والبنى الفوقية (الدين والفكر)، قد أثمر عملاً مبكراً لافتاً، صدر سنة 1960 بعنوان «محمد»،

يمثل كارل هاينريش بيكر نقطة تحول في الدراسات التاريخية والإستشراقية الألمانية

كان الثمن الذي توجّب على الدراسات الفرنسية سداده هو طغيان الأيديولوجيا على مناهج البحث وأدوات الباحثين

يضع الرسول في بيئته الاجتماعية والسياسية على نحو معمّق وغير مسبوق في الدراسات الفرنسية، وربما الأوروبية جمعاء. أعماله الأخرى البارزة سوف تتوالى: «الإسلام والرأسمالية»، «الماركسية والعالم المسلم»، «العرب»، «جاذبية الإسلام»، فضلاً عن كتابه الخاصّ «إسرائيل: هل هي دولة استعمارية ـ إستيطانية؟». وهذا العمل الأخير كان قد أثار زوبعة في فرنسا، منذ أن نشره جان ـ بول سارتر في مجلته «الأزمنة الحديثة»، العدد الشهير الخاصّ عن حرب 1967، ليس بسبب مضمون الأطروحة والعنوان الجسور، والاستفزازي تماماً في مناخات التعصب التامّ للدولة العبرية تلك الأيام، فحسب؛ بل كذلك ـ وهذا ما تكفّلت اللوبيات اليهودية بإثارته ـ لأنّ رودنسون كان من أسرة يهودية، وأمّه قضت في معسكر أوشفتز.

جاك بيرك (1910 ـ 1995) كان الاستثناء الرابع، ولعلّه آخر جيل من المستشرقين الفرنسيين الذين امتلكوا ركائز معرفية، ودراية عملية، ورؤية متماسكة ومتجانسة، في تناول قضايا الإسلام والشرق عموماً، وفي تسيير دفة الدراسات حولها نحو أغراض تنصف الشعوب والمجتمعات والثقافات، وتوفّر للقارىء الفرنسي مادّة معمقة ورصينة ونزيهة في آن معاً. كتابه الكلاسيكي «العرب أمس وغداً»، الذي صدر سنة 1960، كان قدوة رفيعة لعدد من أفضل زملائه الأصغر سناً، وتلامذته في فرنسا والخارج، حول ما يتوجب القيام به من حفريات معمقة في سبيل احترام موضوعات ليست البتة على النسق التبسيطي الذي قُدّمت به في الماضي، وفي الحاضر أيضاً. كتابه التالي الضخم، «مصر: إمبريالية وثورة»، 1967، كان بدوره قدوة في مضمار دراسة المجتمعات العربي الحديثة، في أبعاد سياسية ـ اجتماعية محلية، لكنها تضرب بجذورها في خلفيات تاريخية تمتد قروناً، كما حين يعود بيرك إلى تاريخ مصر منذ القرن الثامن عشر، ليستكشف حالها عشية ثورة 1952. وبالطبع، يحفظ المرء للرجل مساهمته في ترجمة القرآن، وترجمة المعلقات العشر، واستكشاف اللغات العربية (كما شاء أن يقول، في عنوان واحد من أعماله)، والخدمة الميدانية للدراسات العربية والإسلامية من خلال الوظائف الثقافية والأكاديمية العديدة التي شغلها.

غير أنّ القاعدة في الدراسات الفرنسية، أي تغليب مظانّ الحساسيات المختلفة الدينية والتاريخية على حرّية البحث وحقّ التجاوز وواجب الموضوعية، لا تزال ثابتة راكدة في الإجمال، ويحدث أن تتحرّك بين حين وآخر بفعل حجر يُرمى هنا، أو ضجة تثور هناك (كما جرى مؤخراً مع صدور كتاب سيلفان غوغينهيم «أرسطو على جبل سان ـ ميشيل»، الذي



كان ليوسف فان إس الفضل في بلورة معالم الفقه الإسلامي من خلال دراسات تناولت طبيعة هذا الفقه

أنكر أيّ دور تنويري للعرب في انتشال أوروبا من عصور الظلام). أما الاستثناء فإنه، لحسن الحظ، لم يتوقف مع الأربعة الكبار الراحلين، وثمة امتداد لما اختطّوه من مناهج ومقاربات وروحية عامة، يلمسه المرء في أعمال باحثين مخضرمين، وآخرين من أجيال شابة طالعة.

ولعلّ أندريه ميكيل هو أبرز أمثلة حاملي الراية بعد بلاشير وكاهن ورودنسون وبيرك، وعمله الموسوعي الضخم «الإسلام وحضارته»، الذي تعاون فيه مع هنري لورانس، يغطي عشرات الموضوعات غير التقليدية، في استكشاف تاريخ العرب وجغرافيتهم ومجتمعاتهم وثقافاتهم، من منطلق أنّ الإسلام حصيلة شاملة ويجب أن يُدرس بهذه الصفة، فلا يُختزل أيّ من عناصر نشوئه واستمراريته. كتابه الثاني الجدير بإشارة خاصة هو «جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر»، ويُعدّ موسوعة مكرسة للطبيعة بوصفها كياناً له ذاتية واستقلالية وروابط بين عناصر السهل والجبل والصحراء والجزيرة والنهر والبحر وسواها، بالإضافة إلى الإنسان في حياته وآماله وآلامه وسردياته وأساطيره، مع تأكيد ميكيل على أنّ نتاج الجغرافيين العرب كان أدباً وفلسفة أيضاً (الكتابان تُرجما إلى العربية، سنة 1981 و1983 على التوالي).

وفي صفّ هذا الرعيل، ثمة أيضاً إسهامات دومنيك وجانين سورديل، روجيه كاراتيني، لويس غارديه، بيير غيشار، فنسان لاغاردير، فرنسواز ميشو، وسواهم ممّن تتناول أعمالهم مسائل متنوعة في التاريخ الإسلامي، وإنْ كانت العصور الوسطى والحروب الصليبية وعلاقات المسلمين بالعالم اللاتيني تحظى باهتمام مميز. جيل الشباب، أو الرعيل الذي أعقب هؤلاء أو يعاصرهم، يميل إلى التاريخ الأندلسي والعثماني، مع أرجحية للملفات المتخصصة، وتركيز إضافي على تلبية الحاجة المتزايدة إلى توفير مقاربات ذات طابع تعليمي تستجيب لاهتمام الناشئة بشؤون الإسلام، والإسلام السياسي خاصة، كما توظّف أحدث معطيات التكنولوجيا والمعلوماتية لتقديم المادة في قالب ميسّر مفيد. وبين هؤلاء، ثمة أعمال نيكولا فاتان، جيل فنشتين، إريك جوفروا، سابرينا ميرفين، غريغور شويلر، كريستوف بيكار، إريك ليموزان، وسواهم.

وفي سياقات الحيوية التي يتمتع بها استثناء القاعدة في حقول الدراسات الإسلامية، تلعب سلسلة مثل «بابل»، وشقيقتها سلسلة «سندباد»، دوراً بالغ الأهمية في المراكمة الكمية، والتطوير النوعي، للمنشورات والترجمات وأعمال التحقيق التي تُعنى بالنتاج العربي والإسلامي. وكانت السلسلة الأولى قد تأسست سنة 1972 على يد بيير برنار، لكي تنقل إلى اللغة الفرنسية عدداً من كنوز الأدب العربي، قديمه وحديثه؛ قبل أن تتولاها دار النشر Actes Sud سنة 1995، فتطلق السلسلة الثانية التي يشرف عليها المؤرخ السوري فاروق مردم بك، وتضمّ مجموعاتها مكتبة عربية، وإسلامية، وشرقية، وفارسية، وتركية، وكلاسيكية، وأدب معاصر، إلى جانب قسم خاصّ بعنوان «الإنسان والمجتمع».

وبين ما يبهج، على صعيد آخر ذي صلة بحيوية استثناء القاعدة، أنّ معرضاً للكتاب، أقيم سنة 2006 في مرفأ سان مالو الشهير، على شواطىء فرنسا الغربية، اختار أن يكون موضوعه هو «شرق الأحلام، شرق الواقع». ولقد أراد المنظمون استعادة أعمال الإستشراق، من كتب ولوحات فنية وفوتوغرافية وتراث رحلات ومقتنيات متحفية، للبرهنة على أنّ «الشرق الحقيقي الفعلي ليس هذا الشرق الذي اخترعوه لنا، فشوّهوا روحه وملامحه»، كما عبّر ميشيل لوبري مدير المعرض.

ولعلّ سلفستر دو ساسي، شيخ الإستشراق الفرنسي وكاتب بيان دخول نابليون بونابرت إلى مصر، اهتزّ في قبره... وليس له أن يُلام في هذا!

تطور الكتابة التاريخية عند المستشرقين الألمان: مقاربة أولية

د. خليل الشيخ

اعتاد الباحثون أن يميّزوا بين التاريخ History والكتابة التاريخية Historiography، فإذا كان التاريخ يرصد مسيرة الإنسان والمجتمعات ويبين تحولاتها، فإن الكتابة التاريخية تعكس المنظور الذي يصدر المؤرخ عنه وهو يكتب التاريخ ويفسر وقائعه ويبين طبيعة حركته والعوامل التي تتحكم في تلك الحركة.

وقد أشار غير باحث إلى أن الإستشراق الألماني، قد تشكّل في إطار الدراسات الفيلولوجية التي نشأت في أوائل القرن التاسع عشر، التي كانت تهتم بالتحليل التاريخي المقارن للغة عبر اكتشاف عناصر التشابه بينها وبين مثيلاتها وتبيان أبرز التغيرات التي طرأت عليها.

يمثل كل من يوهان يعقوب رايسكه (1716 - 1774) وفريدريش روكرت (1788 - 1866) طبيعة هذه النشأة التي تجمع بين الفيلولوجيا، وتتأثر بمعطيات العصر وما فيه من أبعاد رومانسية على المستوى الابداعي.

تشكل رايسكه الباحث في إطار لغوي لاتيني ويوناني، ثم جاء إلى عالم اللغة العربية، فتعلم نحوها وصرفها في ظروف صعبة، وبجهد ذاتي خالص ومات فقيراً يعاني العوز لدرجة أنه لقب نفسه «شهيد الأدب العربي»، أما روكرت فكان شاعراً رومانسياً أصدر ديواناً سماه « زهور شرقية»، ومثل إلى جانب هذه الشاعرية، عبقرية لغوية استثنائية، سواء في عدد اللغات التي تعلمها والتي تقارب الخمسين، أو في قدرته الخارقة على الترجمة. فقد ترجم الكثير من الأعمال الشعرية العربية إلى الألمانية، وترجم أجزاء من القرآن الكريم إلى الألمانية على نحو بديع، يراعي الفواصل القرآنية ويحرص على أن يكون لها إيقاعها وأسلوبها المؤثر. لكن ترجمته لمقامات الحريري تجيء شاهداً على هذه القدرة المدهشة التي استطاعت أن تجد مقابلات لغوية في الألمانية لما تنطوي عليه المقامات من توريات وألغاز ومحسّنات بديعية وسجع وحمولات ثقافية ومعرفية.

وقد أشار الباحث أندريا نوكس – سوميوشي في دراسة نشرت له بالألمانية عام 1984 تحت عنوان:

« الإستشراق في الأدب الألماني في القرنين التاسع عشر والعشرين. من الديوان الشرقي للمؤلف الغربي لغوته إلى رباعية يوسف لتوماس مان» إلى أن مصطلح الإستشراق كان يعني في المخيال الثقافي الألماني آنذاك «خصوصية أهل الشرق وطبيعتهم» فضلاً عن «السمات البارزة للغات الشرقية» وقد أبانت هذه الدراسة أن غوته (1749 - 1832) الذي رسم في ديوانه المشار إليه صورة حالمة لشرق متخيل، قد استخدم مصطلح الإستشراق على الشاكلة المشار إليها في رسالة بعث بها إلى أحد الناشرين الألمان.

وقد لاحظ رضوان السيد في دراسة نشرت له مؤخراً بعنوان: «المستشرقون الألمان- النشوء والتأثير والمصائر» أنّ الجيل الذي تلا هذين الرائدين، وأسهم بالتالي في تأسيس حركة الإستشراق الألماني قد وفد إلى فرنسا ليتعلم في «مدرسة اللغات الشرقية الحية» التي أسسها المستشرق الشهير سلفستر دي ساسي (-1758 1828م) في الثلاثين من مارس سنة 1795م. وقد وصف دي ساسي بأنه الممثل الرائع للغات السامية الذي شكّل رؤاه اللغوية في ضوء الفيلولوجيا المقارنة.

وقد قاد الجيل الأول من الالمان بعد عودتهم إلى بلادهم حركة علمية نشطة انصب اهتمامها على العربية، نحوها وصرفها، إضافة إلى العمل على نشر مصادرها اللغوية والأدبية والتاريخية والدينية.

كان غيورغ فيلهلم فرايتاغ (1788 - 1861) وغوستاف فلوجل (1802 - 1870) وهاينريش إيفالد (1803 - 1875) أبرز هؤلاء المستشرقين.

ويمكن القول إن غوستاف فايل (-1808 1889م) الذي زار باريس عام 1830 وأمضى زمناً قصيراً في معهد دي ساسي هو من أوائل المشتغلين بالتاريخ الإسلامي بين المستشرقين الألمان. اهتم فايل بتاريخ الخلفاء ونشر خمسة أجزاء تتناول هذا التاريخ بدءاً من الخلفاء الراشدين وانتهاء بالعصر المملوكي. وسعى لكتابة تاريخ الإسلام من 632م إلى 1517، اعتماداً على مصادر عربية. ولم يكتفِ فايل بدراسة التاريخ السياسي، بل سعى ليدرس التاريخ الديني للمسلمين. وكانت أولى دراساته بعنوان: «مدخل تاريخي نقدي للقرآن» نشرت عام 1844م. وكان من الطبيعي أن يدرس فايل شخصية الرسول، عليه السلام، فقدّم عدة دراسات عنها في ضوء روايات محمد بن اسحق وسيرة ابن هشام، وأصدر عام 1843 دراسة موّسعة سماها: « النبي محمد حياته وتعاليمه في ضوء القرآن ومصادر أخرى مخطوطة». ولم يكتفِ فايل بهذين الجانيبين، فقد التفت إلى تاريخ الأدب العربي وكتب دراسة عن تاريخ الشعر العربي عام 1873. وترجم ألف ليلة وليلة إلى الألمانية بين عامي 1871 و 1872م.

وفي ضوء الحاجة الملحة إلى إدراك طبيعة التأريخ الهجري وعلاقته بالتاريخ الميلادي قام فرديناند فوستن فيلد (1808 - 1899) باعداد جدول تحويل التاريخ الميلادية والهجرية الذي أعاد شبولر عام 1961 طبعه من جديد.

غير أن الكتابة التاريخية الإستشراقيه الألمانية شهدت تحولاً نوعياً بمجيء يوليوس فيلهاوزن (1844 - 1918).

قدم فيلهاوزن إلى الإستشراق من عالم اللاهوت البروتستانتي، ودراسات النصوص الدينية اليهودية والمسيحية، وتتلمذ على هاينريش إيفالد، الذي أشرنا إليه. وقد حمل معه من دراساته اللاهوتية فرضيته التي عُرفت باسم الفرضية الوثائقية، التي تقوم على أن التوراة كونت من أربعة نصوص مستقلة، كتبت بعد موسى، عليه السلام، وقد سعى فيلهاوزن في كتابه « الدولة العربية وسقوطها» عام 1902 الذي نال شهرة واسعة في الكتابة التاريخية العربية المعاصرة إلى تطبيق تلك الفرضية على المصادر التاريخية العربية، التي يرى أنها تشير إلى أصول مفقودة، يذكر عنوان كتاب فيلهاوزن بعنوان كتاب المؤرخ الشهير إدوارد غيبون (1737 - 1794) «تاريخ أفول الدولة الرومانية وسقوطها». صحيح أن هناك اختلافات كبرى في المنظور التاريخي لكل منهما، لكن فيلهاوزن يشبه غيبون في سعيه لتفسير حركة التاريخ من منظور دينيوي، فقد كان رأى أن الصراع في الدولة العربية كان قومي الطابع، يقوم على الاختلاف بين العرب والأعاجم. وهذا المنظور الذي حاول فيلهاوزن اعتماداً على الطبري أن يستخلصه، استكمله المستشرق ڤيرنر إنده عام 1977م عندما أصدر دراسته «الأمة العربية والتاريخ الإسلامي» التي تبين معالم إشكالية التاريخ الاموي في الكتابة العربية التاريخية الحديثة فقد جعلت هذه الكتابات من تاريخ بني أمية، نقطة انطلاق لقراءات شتّى، محملة بأيديولوجيات قومية أويسارية.

يمثل كارل هاينريش بيكر (1876 - 1933) نقطة تحول في الدراسات التاريخية الإستشراقية الألمانية. ولعّل المتأمل لدراساته الكثيرة، ولكتاباته في دائرة المعارف الإسلامية، يتبين حرصه على الانتقال من التاريخانية إلى دراسة التاريخ الحضاري والاقتصادي في الإسلام. وقد التقى بيكر في جامعة هايدلبرغ مع ماكس فيبر (1864 - 1920) ومارتين هارتمان (1851 - 1918) وقد أثمر هذا اللقاء محاولة دراسة سوسيولوجيا الإسلام. وقد أشار رضوان السيد إلى بحث ليوسف فان إس عنوانه من « فيلهاوزن إلى بيكر» وفيه يوضح فان إس أن بيكر وهارتمان وغيرهما من أبناء تلك المرحلة انتقلوا بالبحث التاريخي من التاريخانية (التي تعتمد التاريخ مبدأ وحيداً في دراسة الوقائع والظواهر) إلى السوسيولوجيا وإلىالأنثروبولوجيا الثقافية.

لكن الإستشراق ظلّ يتمحور في كثير من أبعاده حول القرآن وشخصية الرسول، عليه السلام. ولعّل كتابات ايغناتس غولدتسيهر (1850 - 1921) تشكل التأسيس لهذه الكتابات. وقد كان لها صدى واسع في الفكر الإسلامي الحديث. وقد اشتهر موقف غولد تسيهر من الحديث النبوي وكتبت دراسات في مناقشته والرد على طروحاته.

كما يمكن أن نشير إلى كتاب ثيودور نولدكه (1836 - 1930) عن «تاريخ القرآن» الذي ظهر عام 1860، ويمكن أن نعد كتابات يوسف شاخت (1902 - 1969) تسير في هذا الاتجاه.

ومن الصعب أن يتوقف الباحث في هذه العجالة عند الأبعاد المتمثلة في حركة نشر النصوص العربية، التي جعلت دراسة التاريخ وكتابته ممكنة، لكن من الضروري أن يشار إلى جهود كارل بروكلمان (1868 - 1956) في كتابه الذائع الصيت « تاريخ الأدب العربي» الذي صدر بين عامي -1937 1942.

ليس هذا الكتاب تأريخاً للأدب العربي بالمفهوم الدقيق، بقدر ما يمثل سجلاً حضارياً ضخماً للتاريخ العربي، ومنهج بروكلمان فيه يجمع بين كتب التراجم والطبقات والمصنفات والفهارس.

وقد رأى فريد دونرأن التاريخ الإسلامي مرّ بثلاث مراحل في كتابات المستشرقين الأوروبيين:

أما المرحلة الأولى: فهي المرحلة الوصفية التي اعتمد فيها المستشرقون مصادر إسلامية لدراسة التاريخ العربي وتحليله. وقد أسهمت هذه المرحلة بالدرجة الأولى في نشر نصوص التاريخ العربي الرئيسية، كتواريخ الطبري والبلاذري والمسعودي وابن الأثير واليعقوبي وغيرهم. وقد أدى هذا الاتجاه الوصفي إلى بروز اتجاه متعاطف بين المثقفين الغربيين كما فعل توماس كارلايل في « الأبطال».

أما المرحلة الثانية: فهي مرحلة نقد المصادر. وقد أفادت هذه المرحلة من المنهج التاريخي – النقدي التحليلي الذي استخدم في تحليل النصوص الدينية لليهود والمسيحيين. ومن المعروف أنّ الكثير من المستشرقين الألمان جاءوا من خلفيات لاهوتية مسيحية أو يهودية. كما كان الكثير منهم أبناء لرجال دين مسيحيين. وقد تجلّى ذلك أول ما تجلى في تحليلات فيلهاوزن لتاريخ الطبري، كما سبق أن أشير، في فرضيته الوثائقية. فالطبري أو تاريخه مؤلف من نصوص تنتمي إلى مصادر أكثر قدماً ضاعت. لكن نقد المصادر هذا قد آل إلى نقد الروايات التاريخية وهذه هي المرحلة الثالثة، وفحص أسانيدها وتحليل دور الميول الحزبية والعصبيات، بشتى أنواعها، في نشأتها، فضلاً عن الدور الشفوي في هذا الأمر.

لكن اهتمامات الكتابة التاريخية بدأت بالتغيّر بعد الحرب العالمية الثانية، فبدأ التركيز على حقب لم تنل حظها من الاهتمام، حيث بدأ الاهتمام بالدولة الفاطمية والعصور المملوكية، والدولة العثمانية. لدرجة أنّ باحثا ألمانيا يدعى راينهاردت شولتسه تحدث عن القرن السابع عشر الميلادي في العالم العربي والإسلامي بوصفه يمثل محاولات تنويرية وتحديثية، كانت سابقة على مجيء نابليون إلى مصر عام 1798م، لكن فكرة شولتسه ومصادره وأدبياته لقيت معارضة شديدة وتخطئة في دراسات المستشرقين.

توقف هاينز هالم عند الدولة الفاطمية، ونشر دراسة تفصلية عن انتشار المذهب الشافعي وتحولاته في العالم الإسلامي، وبدأ بول كاله (1875 - 1964) بنشر نصوص أساسية في التاريخ المملوكي مع تلميذه محمد مصطفى. كتاريخ ابن إياس « بدائع الزهور في وقائع الدهور» وتوقف أولريش هارمان عند «مصادر دراسة التاريخ المملوكي المبكر».

وكان ليوسف فان إس الفضل في بلورة معالم الفقه الإسلامي، من خلال دراسات تناولت طبيعة هذا الفقة وعلاقته بتحولات المجتمع العربي الإسلامي في القرنين الثاني والثالث الهجريين. وتعد دراسته الواقعة في ستة أجزاء رائدة في هذا المجال نظراً لما تتميّز به من دقة وعمق واستقصاء. فضلاً عن جهوده مع هاينز كونج بالتعريف بالإسلام في إطار الحوار بين الأديان والسعي لبناء مايسمى بالأخلاق العالمية. وهذا المنظور قاد إلى دراسة الإسلام من منظور علم الأديان المقارن، بهدف المزيد من التفهم لبنية الإسلام الداخلية وشعائره بعيداً عن مسائل الصحة التاريخية والتأثيرات الخارجية.

بعد الحرب العالمية الثانية انقسمت ألمانيا إلى دولتين، واحدة تخضع للحزب الشيوعي سمت نفسها «ألمانيا الديمقراطية». وأخرى رأسمالية التكوين هي «الألمانية الاتحادية» وقد ركزت دراسات المستشرقين الألمان في القسم الشرقي من ألمانيا على البحوث ذات المنحى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والايديولوجي. أما في القسم الغربي من ألمانيا فقد اضيفت إلى الموضوعات التقليدية القديمة، اهتمامات جديدة باللهجات، وبالأدب العربي المعاصر الذي يعود الفضل فيه إلى المستشرق

ظل الإستشراق الألماني متمحوراً حول السيرة النبويةوالقرآن الكريم ومصادر التاريخ الإسلامي

بعد ظهور كتاب إدوارد سعيد «الإستشراق» حصلت تغييرات بنيوية في معاهد الإستشراق وفي المفهوم عموماً

ما زلنا نقرأ دراسات تضخم من مسائل تعدد الزوجات والرق والحريم والقدر



جورج كامبفماير (1846 – 1936) الذي قدّم دراسات عن أعلام الأدب العربي في مصر والعراق وغيرهما من الأقطار. وقد اهتم بالآداب العربية الحدثية كل من شتيفان فيلد، وروتراود فيلاندت وبيتر باخمان وأنجليكا نويفرت.

لكن الإستشراق ظلّ يتمحور حول الموضوعات التي اعتاد التمحور حولها وهي السيرة النبوية والقرآن الكريم ومصادر التاريخ الإسلامي، فقد توقفت أنجليكا نويفرت عند بنية السور المكية، التي سبق لنولدكه متأثراً بفان فلوجل الحديث عن مراحلها، زاعماً أن لهذه السور في مراحلها الثلاث صفات أسلوبية ومضمونية تجمع سور المجموعة الواحدة، وإن كانت نويفرت قد درست بنية تلك السور في ضوء آليات التحليل البنيوي.

إذا كان التاريخ يرصد مسيرة الإنسان والمجتمعات ويبين تحولاتها، فإن الكتابة التاريخية تعكس المنظور الذي يصدر المؤرخ عنه

وقد عاد رودي بارت إلى دراسة شخصية الرسول عليه السلام، التي درست في تاريخ الإستشراق الألماني من منظورات متعددة، وقد أضاف بارت إلى انشغاله بذلك ترجمة للقرآن الكريم، صارت معتمدة في الدراسات الإستشراقية.

وسيتوقف عدد من المستشرقين أمثال ألبرشت نوت وفيرنر شموكر وتلمان ناغل عند مصادر التاريخ واتجاهات الروايات التاريخية، وقد جرى تتبع أشكال الكتابة التاريخية، كالسير والأخبار والأنساب مثلما جرى تتبع مصطلحاتها.

وبعد ظهور «الإستشراق» لإدوارد سعيد (هذا الكتاب الذي ملأ الدنيا وشغل الناس) حصلت تغييرات بنيوية في معاهد الإستشراق وفي المفهوم عموماً، فقد سعى إدوارد سعيد كي يبين أنّ الإستشراق خطاب لا يعكس بالضرورة حقائق أو وقائع بل يصور تمثيلات تتخفّى فيها المؤسسة والقوة والسلطة والمصالح. فصار يحل محل مصطلح المستشرق مصطلحات أخرى مثل: باحث في العلوم الإنسانية، عالم جتماع، عالم لغوي، عالم أديان.. وطغى الحديث عن كون هذه الكتابات أقرب إلى الأيديولوجيا منها إلى العلم، كما تعمّق الحديث عن الصلة بين الاستعمار والإستشراق.

كان مصطلح الاستشراق يعني في المخيال الثقافي الألماني «خصوصية أهل الشرق وطبيعتهم» فضلاً عن السمات البارزة للّغات الشرقية

على مستوى الألمان، فشلت السياسة الألمانية، رغم مساعيها الحثيثة في الحصول على مستعمرات في العالم الإسلامي، وهو ما قاد بعض الدارسين إلى الاعتراض على اطروحة سعيد في هذا المجال، على اعتبار أن الألمان يقعون خارج الدائرة.

وعلى الرغم من أن باحثاً مثل رضوان السيد قد اعترض على تلك مقولة سعيد وعلى نتائجها التي قادت في رأيه إلى تلاشي التيار الإستشراقي الموسوعي النزعة، لصالح تيار آخر يرى في المسلمين كائنات أنثروبولوجية غير قابلة للتطور، إلا أن رضوان السيد يسلم بأن الإستشراق الألماني لم يكن بريئاً من توجيهات الدولة وسطوتها.

وقد سبق لشتيفان فيلد وهو يرسم بعض تاريخ الاشتراكية القومية (النازية) في الشرق العربي أن وضحّ أن الجهود المتعثرة لترجمة « كفاحي» لأدولف هتلر إلى العربية قد قادت على نحو ملتو وغير مباشر، وبطريقة يجتمع فيها الطريف والمأساوي، إلى أن يضع المستشرق هانز فير (1909 – 1981) معجمه الشهير للغة العربية المعاصرة المكتوبة. لكن المستشرق الألماني لم يذهب بعيداً في تلك العلاقة مع السلطة، مثلما لم يذهب بعيداً في نقده للمصادر الإسلامية، كما فعلت باتريشياكرون ومايكل كوك في « الهاجرية»، عندما زعما أن المصادر الإسلامية المبكرة قد تشكلت في عصور لاحقة وأن لا موثوقية لها على الإطلاق.

لقد نشأ الإستشراق في سياق أوروبي، وهو خطاب موّجه للغربيين بالدرجة الأولى على المستويين المفهومي والمنهجي، وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع أن يزيل العديد من الصور المشوّهة القديمة التي أحاطت بالقرآن وبشخصية الرسول الكريم. وإن ظلّ هذا النوع من الدراسات يعاني، عموماً، من الثبات على مستوى المفاهيم، فما زال يطلع علينا بين حين وآخر، دراسات تشكك في الوجود التاريخي للرسول، عليه السلام، أو ترى في الإسلام تلفيقاً دينياً تشكل في سياقات محددة، وما نزال نرى «دراسات» تضخم من مسائل تعدد الزوجات والرّق والحريم والقدر، وترى أن هناك « عقلية» عربية غير قادرة على التطور على الإطلاق.

لكن ذلك كله لا يمثل الصورة بكليتها، فهي تفصيلات قد تشوب بعض صفاء المشهد، لكنها غير قادرة على أن تحجب ما قدمه الإستشراق الألماني من جهود في دراسة التاريخ الإسلامي وأبعاده الكبرى.

تاريخ الإسلام في إسبانيا تحت النقاش

د.زينب بنياية

غالبا ما يعتدُّ الاستعراب الإسباني بأنه كان سبَّاقا في كل أوروبا، وغالبا ما يسارع المستعربون الإسبان إلى نفي «تهمة الإستشراق» عنهم مذ ارتبط هذا المصطلح عند المسلمين والعرب بخدمة الامبريالية الكولونيالية، وثمة من يدَّعي للاستعراب الإسباني «نقاء فكريا» لم «يتلوث» بتيارات الإستشراق الأوروبية ولم يصطبغ بالإيديولوجية الكولونيالية، وهي مزاعم صحيحة إلى حدٍّ كبير، إذ أن الإستشراق الإسباني أو الاستعراب –حتى لا يغضب أصحاب الشأن– منذ نشوئه المبكِّر، كرَّس ذاته لدراسة اللغة العربية وحضارة المسلمين وعلومهم في شبه الجزيرة الإيبيرية، بشكل شبه حصري، دون تجاوزها إلى لغات أو ثقافات شرقية أخرى، ودون حتى الخروج عن حدود الأندلس، إذ نادراً ما نجد دراسات عن الإسلام تتعدى الإطار الجغرافي أو الزمني للأندلس المسلم، باعتباره جزءا من الذاكرة الإسبانية و»شرقها الخاص». وفي هذا الصدد يقول بيدرو مرتينث مونتابيث أن «الاستعراب الإسباني هو دراسة في الأندلسيات أكثر من أي شيء آخر وهذا شيء له تفسيره، فالعربي والإسلامي لا يُنظَر إليه كشيء خارجي وإنما كشيء يوجد في ثقافتنا وتراثنا وداخل بلادنا».

ويقول كل من أسين وغرثيا غومث: «الدراسات العربية بالنسبة إلينا هي حاجة عاطفية وحميمية، لكونها ترتبط بالعديد من صفحات تاريخنا، تكشف خصائص قيِّمة من أدبنا، من فكرنا وفنِّنا، تدخل في لغتنا، ولربما حتى في حياتنا».

تميز الاستعراب الإسباني بعدم التزامه بالمغامرة الاستعمارية وموقفه الحيادي منها

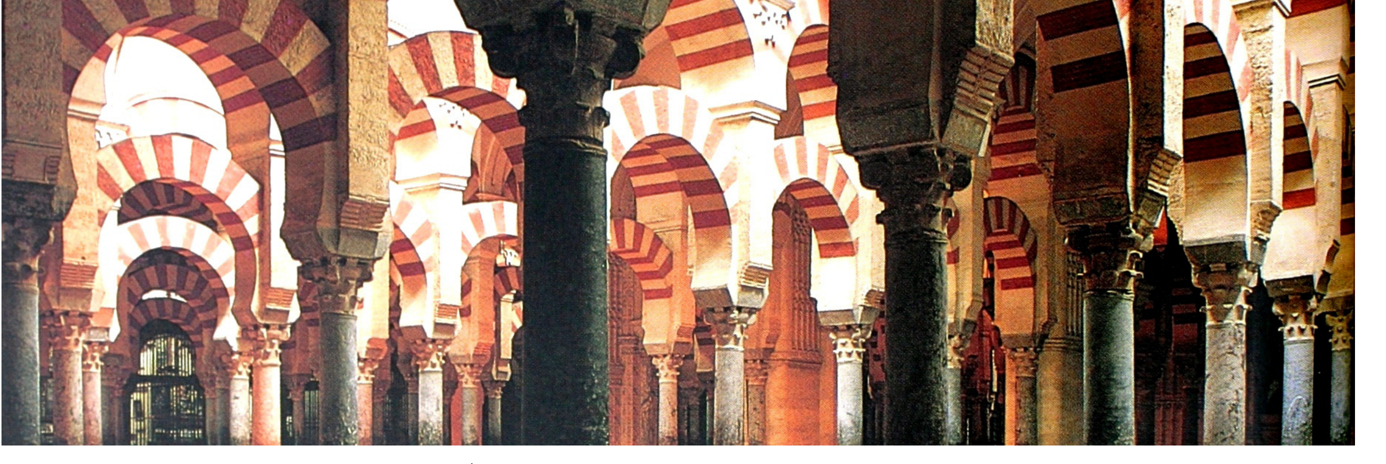
كما تميز الاستعراب الإسباني بعدم التزامه بالمغامرة الاستعمارية وموقفه الحيادي منها، وما إن تقاطعت الأهداف الاستعمارية مع هذه الدراسات حتى انبثق عنها تيار جديد، سُمِّي بالافريقانية، أوفى بالغرض وتخصَّص في شؤون المغرب المستعمَر، ليظلَّ الاستعراب حركة أكاديمية نخبوية، على هامش كل من التطلعات الاستعمارية الإسبانية والتيارات الإستشراقية الأوروبية.

إلا أن هذا الإرث الإسلامي الذي اعتبره بعض المستعربين «شرقهم الخاص»، اعتبره بعضهم الآخر نقطة سوداء في تاريخ البلاد الأوروبية المسيحية وحَجر عثرة حال دون لحاق إسبانيا بركب التطور الأوروبي، وهنا مربط الفرس، إذ أن التأريخ الإسباني يقوم على هذه الجدلية الثنائية التي لا تكاد تختفي من السطح حتى تطفو من جديد على ساحة النقاش.

تعود بوادر الاستعراب الأولى في إسبانيا إلى القرنين الثالث والرابع الهجري مع بداية انتشار الإسلام في الأندلس الأموي

تعُود بوادر الاستعراب الأولى في إسبانيا إلى القرنين الثالث والرابع الهجري، مع بداية انتشار الإسلام في الأندلس الأموي، ولعل في كلمات الراهب القرطبي آلبرو دي كوردوبا –وهو أول من بدأ حملة تفنيد الإسلام باللغة اللاتينية– في كتابه «الدليل المضيء» Indiculus luminosus سنة 845، وفي تحسُّره على أبناء دينه المنصرفين إلى الإسلام عن دينهم المسيحي، وصفا دقيقا لما كانت عليه هذه الحركة آنذاك من ازدهار وما كان عليه الإسبان من ولع بالتراث العربي:

«إن إخوتي في الدين يجدون متعة كبرى في قراءة الأشعار العربية



ويُقبِلون على دراسة الفلاسفة المسلمين، لا ليردُّوا عليهم ويدحضوهم، بل ليتمكنوا من هذه اللغة ومبادئها ويجيدوا استعمالها. وأين تجد اليوم رجلا واحدا من غير رجال الدين يقرأ الكتب المقدسة أو حياة القديسين (...)؟ يا للحسرة! إن الشباب المسيحي لا يجد المتعة الروحية اليوم إلا في قراءة الكتب العربية وآدابها وتجده ينفق الأموال الطائلة لشراء هذه الكتب وتشكيل مكتبات ضخمة (...) وإذا حدثتهم عن الكتب المسيحية أجابوك بازدراء «إنها لا تستحق الاهتمام» (...) يا للتعاسة! إن المسيحيين قد نسوا لغتهم، وبين ألف شخص منهم لا يوجد واحد يحسن كتابة رسالة إلى صديقه باللغة اللاتينية، ولكن إذا طلبته للكتابة باللغة العربية أجاد كل الإجادة بحيث أن الكثيرين من إخواننا في الدين يحسنون اللغة العربية أفضل من العرب أنفسهم «.

وجاءت مدرسة طليطلة للمترجمين لتكرِّس دور هؤلاء المستعربين الأوائل وتلعب دورا محوريا في نقل المصنَّفات العربية إلى اللاتينية والقشتالية، حتى إن الفقيه الإشبيلي ابن عبدون ـ في القرن الثاني عشر الميلادي ـ غيرةً منه على مؤلفات المسلمين سيحثُّ على «ألاَّ يباع من اليهود ولا من النصارى كتاب علم إلاَّ ما كان من شريعتهم. فإنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين».

مع سقوط آخر معقل للأندلس، وبداية عملية «الاسترداد» من الملوك الكاثوليك، عرفت حركة الاستعراب تراجعا كبيرا، يعزى إلى سياسة القمع التي انتهجتها الكنيسة ومحاكم التفتيش آنذاك، بملاحقتها للمسلمين وإحراقها للكتب العربية وتجريمها لكل ما يمتُّ إلى الإسلام أو العروبة بصِلة، مما حال دون وصول أغلب هذه المصنفات والمؤلفات للمستعربين الإسبان الأوائل.

فترة عصر الأنوار ستشهد ولادة استعراب جديد يختلف عن نظيره الكنسي القروسطوي –ذي الطابع الدفاعي التبشيري–، سينطلق مع عهد فرناندو السادس وكارلوس الثالث، نظرا لتزايد الاهتمام بالبحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا، وبدافع إعادة استكشاف «الشرق المحلي» الذي مثَّله الأندلس. من الشخصيات التي لمعت خلال هذه الفترة الانتقالية نحو الإستشراق الحديث هي شخصية خوسي أنطونيو كوندي الذي يعدُّ من أوائل الدعاة إلى إحياء الماضي العربي، والذي كسر صمت الدراسات التاريخية الطويل حول إسبانيا القروسطوية المسلمة، بكتابه «تاريخ السيطرة العربية على إسبانيا» إذ مثَّل تغييرا جذريا في موقف التأريخ الإسباني، بتحيُّزه لما هو عربي ورفضه للفوقية التاريخية السائدة في إسبانيا على مرِّ ثلاثة قرون، منطلقا من مصادر عربية، وإن عُوتب لتأويله لها ربما ب»حرية زائدة».

موقف كوندي كان بداية لجدل تاريخي لاحق، مشحون بالصراع الإيديولوجي بدت معالمه جلية مع انتشار التيار الرومانسي في القرن التاسع عشر. هذه النزعة الأدبية التي طبعت القرن واقترنت بالليبرالية والمنفى، اتخذت من صورة العربي المسلم غرضا أساسيا، وجد في الماضي الأندلسي مادة خصبة وأرضا زاخرة، لكن هذه الصورة الوردية البعيدة عن الواقع، أسبغت على المسلم أوصافا شعرية موغلة في الرومانسية والمثالية. واستقطب هذا «الشرق القريب» العديد من الكتاب والرسامين الأوروبيين، كغوتيي ومِريمي الذين قدموا إلى إسبانيا ليستلهموا أعمالهم امن هذا الجو الأندلسي وليكرِّسوا بذلك لفكرة «غرناطة المسلمة» الرومانسية التي انتقلت من ثمَّ إلى المخيلة الشرقية حيث ما زالت تحتفظ بها إلى الآن.

الاستعراب الحديث –الذي ارتبط بالتيار الليبرالي أيضاًوموقفه المتعاطف مع المسلمين– لن ينُظَر إليه من قِبَل التيار التاريخي التقليدي بعين الاستحسان، وهذه الأصداء التي تدعو إلى ضرورة إعادة قراءة وتقييم التاريخ الأندلسي وتقييمه لن يتلقاها التقليديون برحابة صدر ولن يقفوا حتى مكتوفي الأيدي ليروا كيف هؤلاء المستعربون الذين هم بمثابة «أسطول لغزاة جدد لتاريخنا الكلاسيكي» يقضون على الوطنية والمسيحية الكاثوليكية. إذ يقول بيثينتي دي لا فوينتي: «المدرسة الحديثة معروف عنها أنها حليفة للمسلم، أو كما يقال عنه الآن، العربي، فهذا الذي في أرضه (...) هو إنسان خامل، كسول، مرائي، سارق وخبيث، في إسبانيا أصبح من الجدية بمكان تصويره جدَّ نبيل، فارسا، أمينا، متصوفا، فنانا، فلاحا، وحتى عالم لاهوت». قبل أن يستطرد قائلا: «تقريبا كل أعداء الرب، وأعداء الكنيسة الكاثوليكية والتراث القديم ومبدأ السلطة وقفوا في صف المستعربين (...)، ضد أعلام التاريخ، أو بتعبير آخر، ضد الكاثوليك».

الجدير بالذكر، أن الاستعراب الذي طغت عليه مواقف ليبرالية في هذه المرحلة، سيدخل في مواجهة إيديولوجية عنيفة مع مدرسة التأريخ الرسمية التقليدية، المرتبطة بتيار الإصلاح والتي تحدوها نزعة تعصب ديني وعاطفة بغض قومي عميق، وسيتدخَّل كل من غجانغوس وسآبيدرا وإميليو لافوينتي ألكانترا في هذه الإشكالية لفرض نظرة مؤيدة للماضي الإسلامي. لكن تجدر الإشارة أيضاًإلى أن هناك من المستعربين من انضم إلى التيار التقليدي، كفرنثيسكو سيمونيت، الذي لم يجد غضاضة في أن يتهم التاريخ الليبرالي الإسباني «بضعف الإيمان والوطنية والإحساس التاريخي».

بِتجاوز هذه المرحلة الإشكالية، سيدخل الاستعراب الإسباني مرحلة البحث العلمي التجريبي، في ظل المنهج الوضعي، الذي تبناه المستعرب الكبير فرنثيسكو كوديرا (1836–1917). هذا الرجل الذي نذر حياته للبحث في الأدب والتاريخ العربي الإسلامي، أسَّس نهضة حقيقية في مجال هذه الدراسات وقام بعمل جبار في تحقيق المكتبة الأندلسية، وفهرسة مخطوطات الإسكوريال، التي كان قد ألقي بها من النوافذ لإنقاذها من الحريق. كما قام بنشر مجموعة «المكتبة العربية الإسبانية» وكل هذا بروح تطوعية بحتة، إذ –كما هو متوقع– لم يحْظَ بدعم كبير من المؤسسات الرسمية التقليدية، ولطالما اضطر إلى طباعة الكتب على نفقته الخاصة. إذ كان لدى كوديرا إيمان عميق بأن تاريخ إسبانيا لا يمكن قراءته إلا من خلال المصادر الأصلية العربية، حيث يقول: «بما أن تاريخ هيمنة المسلمين على إسبانيا يشغل أكثر من نصف تاريخ إسبانيا، ليعلم الجميع أنه من المستحيل أن نقيِّم الأحداث التي وقعت، دون الدراسة المتعمقة والموجَّهة للوثائق العديدة التي نحتفظ بها من العرب».

ساعده في هذا العمل الجبار نخبة من التلاميذ المميزين سيطلق عليهم اسم «بني كوديرا»، لاتباعهم لنهجه ومدرسته الفكرية، كان خوليان ريبيرا، وآسين بلاثيوس، وآنخيل غونثاليث بالينثيا، وغارسيا غوميث أبرزهم وأغزرهم نتاجاً. إلا أن هذه المدرسة أعطت لباقي الدارسين أو المختصين في حقول أخرى ذات صلة، انطباعا بالانغلاق وكأنها جعلت الدراسات العربية حكرا عليها، تسيِّرها بشكل حصري من منبرها الجامعي أو الأكاديمي. لكن ما لا يمكن إنكاره هو أن هذه الفئة المستعربة أضفت على هذا المضمار ثراء لم يعهده من قبل. وإذا كان كوديرا مؤرخ المدرسة بامتياز، فإن تلامذته قد تشعَّبت اهتماماتهم ومشاربهم ليصبح الأندلس، في بداية القرن العشرين ورشة أو مختبرا حقيقيا لدراسة الآثار الأندلسية في كل من اللغة والفكر والفلسفة والأدب والمعمار.

لكن المنهج العلمي لم يُنحِّ الخطاب التقليدي الذي ظلَّ حاضرا رغم كل شيء، وفي التاريخ المعاصر، لا بدَّ لنا من استحضار المعركة الفكرية التي دارت رحاها بين مؤرِّخَيْن لم يكن أحد منهما مستعربا، هما أميركو كاسترو وكلاوديو سانتشيث ألبورنوث حول دور الأندلس الإسلامي في تشكُّل الهوية الإسبانية. فبينما يذهب كاسترو إلى أن لا مجال للحديث عن هوية إسبانية إلا ما بعد الغزو الإسلامي، وأن ما يسمى «إسبانيا» اليوم هو حصيلة للتركيب الروحى الناتج عن تعايش الديانات الثلاث: المسيحية واليهودية والإسلامية على أرض الأندلس، مؤكِّدا على الدور الرئيس الذي لعبه الإسلام بشكل خاص في بناء الهوية المعاصرة لإسبانيا، كمكوّن أصيل وفاعل، يذهب سانتشيث ألبورنوث، الذي يمثل الخطاب التقليدي ونظرية «إسبانيا الخالدة»، إلى أن الجذور الإسبانية هي مسيحية لاتينية، ضاربة في التاريخ، تعود إلى العصر الروماني والقوطي، الذي ظل إحساس الإسبان بالانتماء إليه عميقا، وأن الإسلام جاء على شكل صدفة تاريخية، إلى بلد كانت بناه غربية ومختلفة جذريا عن تلك الشرقية التي حاول زرعها. ومع ذلك، ظلت ظاهرة الأسلمة والتعريب سطحية ولم تكد تؤثر على جوهر الثقافة الإسبانية المسيحية، وما إن رحل المسلمون حتى رحلت معهم ثقافتهم لتستعيد إسبانيا هويتها المسيحية من جديد. ويذهب ألبورنوث إلى أبعد من ذلك عندما يجزم أن الوجود الإسلامي لم يكن له أي دور إيجابي، بل كان سببا في تأخر إسبانيا عن ركب الحضارة الأوروبية.

هذا الجدل الفكري ما زال قائما إلى الآن، وإلى الآن تُسمَع أصوات هنا وهناك تتنكر للماضي الأندلسي، بل تستنكر هذا الوجود الدخيل الذي عرقل مسيرة تطور إسبانيا، وما زالت أصوات هنا وهناك تتصدى لهذا الزعم، وإلى الآن، مازال تاريخ الإسلام في إسبانيا تحت النقاش.



الإسلام وقراءاته



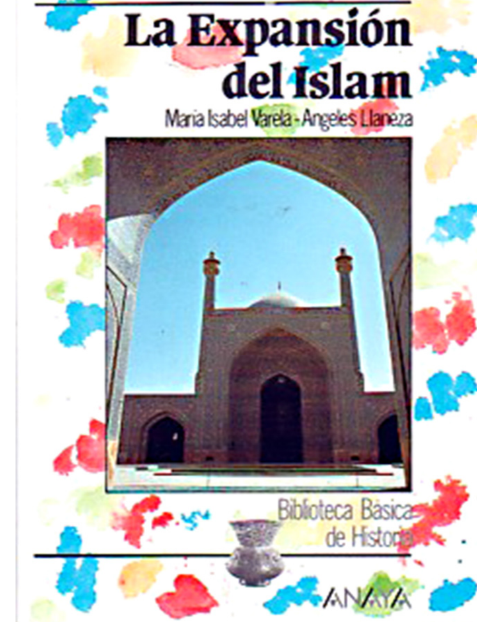
توسع الإسلام

«توسع الإسلام» دراسة تاريخية مختصرة، لكن جد شاملة ومتكاملة، حول تاريخ الإسلام منذ جذوره، مرورا بمختلف التطورات التي طرأت عليه ومراحل التوسع التي عرفها عبر العصور، إبان انتشاره في الشرق وأفريقيا والأندلس.

المؤلِّفتان، أنخليس جانيثا وماريا إسابيل باريلا، أستاذتان للتاريخ وعضوتان في معهد الجغرافية والتاريخ الدائم في جامعة لا لاغونا، بعد وصف تحليلي للقواعد الأساسية التي ينبني عليها الإسلام كدين، تتناولان في هذه الدراسة النظام السياسي والإداري والاقتصادي للحضارة الإسلامية بتفصيل دقيق، وتعطيان معلومات محورية وضرورية لتقديم مختلف مراحل التوسع الإسلامي من منطلق وصفي، ربما كانت أهم ميزاته عدم السقوط في أحكام تقييمية.

يخطُّ هذا الكتاب مسارا يبدأ عند نشأة الإسلام كنظام ديني جديد، في ظل مجتمع ما قبل الإسلام، محللاً وضعه السياسي وتركيبته الاجتماعية والثقافية، حيث أن الجزيرة العربية لم تكن منطقة منعزلة عن العالم، بل بؤرة للنشاط التجاري ونقطة استراتيجية تتوقف عندها القوافل التجارية التي تقطعها ذهابا وإيابا، في مسارها ما بين الهند والبحر الأحمر. هذا الوضع الاستراتيجي للمنطقة جعلها محطَّ أطماع خارجية، ولم تكن بمعزل عن نفوذ القوتين المسيطرتين آنذاك: بيزنطة وفارس. في الداخل، يسود نظام قبلي عشائري، وإن كانت هناك أيضاًتحالفات سياسية لا تقوم على رابطة الدم، التي ينبني عليها بالأساس هذا النظام. من الناحية العقائدية، نجد مزيجا من الديانات والمعتقدات، من بينها الابراهيمية، إلا أن الوثنية مترسِّخة إلى حد كبير، جسدت مكَّة آنذاك، كقِبلة للحج ومزارٍ للآلهة، أبرزَ معالمها.

بعد هذا التقديم للوضع العام لمرحلة ما قبل الإسلام، ينصبُّ تركيز الكتاب على شخصية الرسول ومنشئه في مكة، بغية وضع القارئ في الإطار الاجتماعي والثقافي لهذه المرحلة المصيرية من تاريخ الإسلام: هذا الدين الذي انطلق من قلب الجزيرة العربية، وتبلور في ظل نظام وثني وقبلي متعصِّب إلى أبعد الحدود،



وتمحور حول شخصية تنتمي إلى هذا المحيط ذاته، هي شخصية الرسول -الذي سيصبح مع مرور الزمن مؤسس إحدى أهم الديانات، معتمدا القرآن كنص شامل لمنهجه-، سيحقق انتشاراً مذهلاً في وقت بسيط، وينشئ إمبراطورية واسعة في أقل من قرن، ستبلغ ذروتها في العصر الأموي.

سجَّلت الخلافة الراشدية -برغم الصراعات الداخلية الحرجة التي عرفتها- المراحل الأولى لهذا التوسع، وشكَّل ضعف بيزنطة وفارس أهم العوامل المساعدة لهذا الامتداد، حيث أن الإسلام على عهد أبي بكر، وعلى إثر حروب الرِّدَّة، استطاع إخضاع القبائل التي كانت قد انشقَّت عن الإسلام بعد وفاة الرسول، ثم في خلافة عمر بن الخطاب كان قد ضمَّ سوريا وفلسطين وفارس ومصر، واستطاع على عهد عثمان أن يصل إلى آسيا الصغرى، وشمال أفريقيا وخراسان. إلا أن الصراع الداخلي ثم مقتل عثمان سيكونان سبباً مباشراً في التوقف المؤقت لهذا التوسع الجغرافي. في العصر الأموي، الذي مثَّل تغييراً سياسياً جذرياً وشهد إنشاء نظام ملكي متوارث لأول مرة في تاريخ الإسلام -كسر نظام الشورى الشعبي الذي انتهجه الخلفاء الراشدون حتى هذه اللحظة- سيواصل هذا الامتداد مساره بشكل لا نظير له، وسيصل أوجَه باكتساحه لآسيا الوسطى والساحل الغربي للمحيط الأطلسي. رافق هذا التوسع السياسي ازدهار تجاري واقتصادي جعل المسلمين يتزعَّمون الصدارة في هذا المجال ويصبحون قوة سياسية واقتصادية هائلة، يحسب لها ألف حساب.

فترة الخلافة العباسية، على دمويتها في الفترة الانتقالية -حيث أنها قامت على أنقاض الأمويين وإبادتهم عن بكرة أبيهم-، إلا أنها سياسياً وعلى جميع الأصعدة شكلت امتداداً لفترة الازدهار الذي عرفه التاريخ الإسلامي في العصر الأموي.

تميزت هذه الفترة بانفراج ثقافي كبير وانفتاح على مدارك الشعوب الأخرى، خصوصاً منها الإغريقية والشرقية التي نهل منها المسلمون، فنشطت بذلك حركة الترجمة لمختلف المعارف من أدب وفلسفة وعلوم، وأصبحت بغداد القبلة الأولى للثقافة والعلوم.

أما على المستوى السياسي، فقد تميزت هذه المرحلة بانفتاح أكبر أيضا، وسجلت لأول مرة وصول عناصر غير عربية إلى سدَّة الحكم، أو إلى مناصب حسَّاسة، على إثر التوسع الهائل الذي عرفته الإمبراطورية الإسلامية، حيث أن المعيار الأول لانتقاء رجال الدولة، لم يكن العرق، بل الولاء والكفاءة قبل كل شيء. للخلافة العباسية. إلا أن نظام الحكم المركزي الذي انتهجه العباسيون وتفويض السلطة لولاة محليين سيكون بمثابة «عقب أخيل» للدولة العباسية والنواة الأولى لقيام دول مستقلة لاحقا وتفكك الخلافة.

يتناول الكتاب أخيرا أزمة الخلافة العباسية ثم تفككها، ابتداء من القرن العاشر، حيث فقدت هذه الأخيرة قوتها السياسية، حتى باتت صورية أمام سلطة الحكام المحليين التي كانت، في المقابل، في تصاعد مستمر. كما ساعد وجود محاور تجارية مهمة في كل اقليم على التطور من وضع شبه مستقل إلى وضع مستقل تماما.

هذا التطور الحاصل تمخضت عنه عدة قوى أو كيانات مستقلة، يتناولها الكتاب أخيرا بالدرس: الأمويون في الأندلس الإسلامي، الدولة الفاطمية في مصر، الأتراك السلاجقة، ثم في شمال أفريقيا، الدولتان المرابطية والموحدية، على التوالي.

المؤلف: أنخليس جانيثا وماريا إيسابيل باريلا – عدد الصفحات: 96 ص – تاريخ النشر: 2009
التوثيق الأجنبي: Ángeles Llaneza / María Isabel Varela. LA EXPANSIÓN DEL ISLAM. Anaya, Madrid, 2009.
اللغة : الإسبانية

ضد الإسلام: النظرة المشوهة للعالم العربي في الغرب

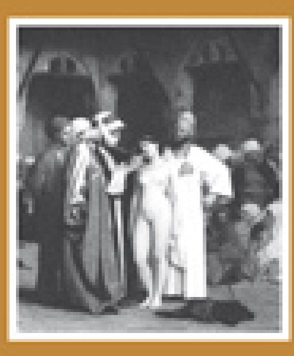
لاورا نابارو، دكتورة في الاتصالات السمعية البصرية وباحثة نشطة، تقدِّم من خلال دراستها «ضد الإسلام» رؤية ثاقبة ونقداً عملياً يستثير العديد من الأسئلة التي ترمي من خلالها الكاتبة إلى تسليط الضوء على حقيقة مزعجة مقلقة، ألا وهي الصورة المشوَّهة التي تعكسها وسائل الإعلام الغربية عن الإسلام والتي تتراءى في الوقت الراهن محفوفة بالسلبية.

الكتاب وثيقة في غاية الأهمية، حيث أنه يعطي المفاتيح الأساسية لفهم الصورة النمطية التي ترسخت لدى ثقافة الجماهير وباتت جزءا من الرصيد الثقافي العام، وهي صورة تُستغلُّ باستمرار لأهداف سياسية غير مسؤولة، تكرَّست بشكل أكبر على إثر تبعات الإرهاب المتطرِّف.

تؤكد الباحثة أن التَّفاوت الموجود بين الدول في مجال الإنتاج السينمائي لا يُعزى فقط إلى افتقار بعضها إلى التطور الصناعي، بل يعود أساسا إلى الاحتكار الذي تمارسه الولايات المتحدة في مجال التوزيع العالمي، احتكار أقرب ما يكون إلى استعمار تتجسَّد معالمه إلى حدٍّ كبير في النَّظرة ما بين التَّحقيرية والمتوجِّسة التي تشكَّلت لدى الغرب حول الإسلام والعالم العربي، أشبه ما يكون أسلوبه بالحرب الباردة مع «العدو» السوفياتي، مع أن هذه الأخيرة قد تمَّ تجاوزها بمراحل، مما يقتضي ضرورة إعادة النظر في كل من السياسة المنتهجة وطريقة التفكير التي تقف وراءها.

تخصِّص الدراسة عدَّة فصول لمعالجة الواقع الاجتماعي للمهاجرين المقيمين بالمجتمعات الغربية وتركِّز على العاملة التي يتلقَّاها العرب والمسلمون في إطار الإعلام سواء منه المسموع أو المرئي أو المقروء، كما تخصِّص فصلاً للحديث عن السينما ودورها كأداة سلطة تُسهم بشكل مباشر-أو غير مباشر- في نشر وتكريس الصورة النمطية السائدة في المجتمع الأوروبي، وفي هذا الإطار، توجِّه الكاتبة نقداً صارماً لشركات الإنتاج والنشر الضخمة وأبطالها، وتُبرز بشكل خاص النزعة العامة إلى تأطير الإسلام ضمن خانة سلبية في المعالجة الإعلامية، تجعله مبعث شك وريبة بالنسبة للمتلقِّي، وذلك بطرحها الذي لا يخلو من الأحكام المسبقة ولا من التحيز، خصوصاً عندما يتعلَّق الأمر بصراعات سياسية أو عسكرية.

الجدير بالذكر هو أننا لسنا أمام كتاب مُحابٍ في تحليله أو في طريقة نقده، وإنما أمام بحث علمي يرمي إلى إيصال وجهة نظر أقلية تعيش في ظل مجتمعات تواجه فيها العديد من التَّحديات وهي في طريقها إلى الاندماج، ولعل هذا



الطريق يصبح أيسر عندما يتعلَّق الأمر بمجتمعات تأخذ بعين الاعتبار قيما كالاحترام المتبادل وعدم السعي إلى إلغاء الآخر والمساواة في فُرص الارتقاء الاجتماعي، بحيث تشمل الكل وتكون مرتبطة بالمجتمع ككلّ، دون تمييز أو استثناء.

ثم إن هدف الكتاب لا ينحصر في النقد السهل للحكومات والإجراءات الموجَّهة غالبا للوقف أو الحدِّ من تدفُّق الهجرة إليها، ولا يكتفي بإدانة وسائل الإعلام والأساليب التي تعتمدها، بل يتعدَّاه ليصبح الهدف الرئيسي هو كشف القواسم المشتركة للتفكير الغربي أو ثقافة الجماهير في الدول المصنَّعة والمتطورة فيما يتعلق بالإسلام، والاستنتاج الذي تخلص إليه الدراسة للأسف، هو سيادة رؤية ضِّيقة وتحليل من زاوية واحدة تقترن فيها صورة المسلم أو العربي دائما بالانحراف والإرهاب والعنف وغيرها من الآفات التي صارت ملازمة للإسلام.

لدعم هذه الحقائق، بالإضافة إلى القيام بدراسة تحليلية لبعض الأفلام أو الأخبار التي تعكس هذه الصورة، تلجأ المؤلفة إلى الدراسات الإحصائية الاجتماعية، كما تُدرج اقتباسات من تصريحات بعض المحلِّين السياسيين والمختصِّين الاجتماعيين تعزِّز هذا الطرح، وقد وُفِّقت في تبيان موقفها، إذ برهنت من خلال هذه الدراسة أن هناك ثمة خطأ ذهنياً فاصلاً يضع المهاجرين ضمن مجموعة دخيلة على المجتمع، غريبة عنه، وضمن نسق واحد يجعلها لا تصنَّف إلا كـ«آخر» في خط المواجهة.

وهذا ما يفسِّر ربما وجود تصرفات وسلوكات في الثقافة الأوروبية عموماً والإسبانية خصوصاً، تصبُّ في الإقصاء الاجتماعي، والخوف من الآخر والرفض للمسلمين والعرب. وربما كان هذا الشعور أيضاً وراء المبالغة في تقدير النتائج السلبية التي قد يؤدي إليها تدفُّق الهجرة، ذات الأصول المسلمة، ويهيىء للشعور بنوع من الرفض إزاء هذه الشريحة المجتمعية.

ومع ذلك، هذا الكتاب لا يهدف إلى حثِّ صُنَّاع الإعلام على خلق صورة زاهية أو طوباوية لحركات الهجرة الاجتماعية ولا إلى التغاضي عن الجوانب السلبية التي قد ترافقها، لكن التحدي الحقيقي هنا هو السعي إلى تقديم حلول ناجعة وإجابات ملائمة لإشكالية الاندماج الاجتماعي لهذه الشريحة، للمُضي قُدماً نحو بناء مجتمع متعدِّد الثقافات -أو ما بين ثقافي- يأخذ بعين الاعتبار كل الاختلافات في الوقت نفسه الذي يجعلها تنصهر في إطار واحد.

وعلى هذا الأساس، تطالب لاورا نابارو بضرورة تشخيص أوجه الإساءة والتزييف في وسائل الإعلام، وتدعو إلى إعلام مسؤول وموضوعي، يكون أوَّل الطريق إلى تفاعل اجتماعي إيجابي مع المشكلة.

ومن هذا المنطلق، لا مجال هنا لنماذج أحادية التوجُّه، ترتكز على العرق أو الدين أو تعتمد التمييز على هذا الأساس، منذ اللحظة التي تتعارض فيها مع ما ينصُّ عليه الدستور.

رغم أن الكاتبة، لاورا نابارو، أحياناً كثيرة لا تعالج بالعمق الكافي بعض المواضيع التي تشكِّل هدف بحثها، إلا أنها تحرِّك -بلا شك- ضمير القارئ، عندما تضعه أمام حقيقة قد يجهلها، على قُربها منه أو بديهيتها.

المؤلف: لاورا نبارُو – عدد الصفحات: 368ص – تاريخ النشر: 2008
التوثيق الأجنبي: Laura Navarro. CONTRA EL ISLAM: LA VISIÓN DEFORMADA DEL MUNDO ÁRABE EN OCCIDENTE. Almuzara, Córdoba, 2008
اللغة: الإسبانية

مؤامرة العلماء: هل هناك إمكانية إسلام غربي؟

كتاب جريء، يطرح العديد من الأسئلة الضرورية: هل الإسلام دين بدائي وشاذ كما يقول أعداؤه، أم أنه حلّ لمشاكل الإنسانية كما يؤكد الإسلاميون؟ محمد، نبي المسلمين هل كان يدعو إلى العنف أم أنه كان مصلحاً مُحِباًّ للسلام؟ ما هو الدور الذي لعبه علماء الدين في المسار التاريخي للإسلام؟ هل يمكننا الحديث عن إسلام غربي؟ هل الإسلام والديموقراطية متوافقان؟ كل هذه الأسئلة يطرحها الكاتب من خلال حواره مع د. منصور إسكوديرو، رئيس الجماعة الإسلامية بإسبانيا وأحد أهم منظِّري الإسلام في إسبانيا.

فرنثيسكو لوبيث باريوس، دون أن يكون مؤرِّخاً، يدخل غمار التاريخ مزوَّداً فقط بحقيبة وفضول الصحفي وطفولة عاشها في المغرب، وذاكرة مُترعة بالحنين إلى هذه الفترة التي قضاها يلعب ويتشاجر مع أطفال مسلمين ومسيحيين ويهود. صدرت له عدة كتب، حصل بعضها على جوائز أدبية قيِّمة.

يأخذنا لوبيث باريوس من خلال «مؤامرة العلماء» إلى مسرح بعيد، لكنه مع ذلك مألوف في المخيِّلة الجماعية: إسبانيا، سيفاراد والأندلس، ثلاثة مفاهيم شكَّلت لمدة قرون، جذرا واحدا غذَّى بالتبادل والتسامح تعايشَ الثقافات الثلاث. لذا، فإذا كانت إسبانيا قد اختارت الآن أن تنتمي إلى الحضارة المسيحية الغربية، ووضعت مسافات وحدوداً واضحة تفصلها عن الحضارة الإسلامية، حرصاً منها على الحفاظ على «هويتها القومية المتغايرة» التي بنتها بجهد كبير، فإنها بذلك تتجاهل حِقباً طويلة مورست خلالها شعائرُ الإسلام في الأندلس. إلا أن أصحاب هذا التفكير الأحادي المحدود سرعان ما يتُوهون عندما يصطدمون بحقائق صارخة، كمعمار الخلافة القرطبية أو بمشاريع ثقافية أوروبية بحجم وضخامة مدرسة طليطلة للمترجمين، فلا يعرفون كيف بإمكانهم مواراة ماضٍ متنوِّع تعلَّموا كيف يتجاهلونه، يدلُّ على أن الشرق والغرب قد مضيا -على مرِّ قرون- يدا بيد، في شبه الجزيرة الإيبيرية. ومع أن طمس آثار الماضي جهد لا طائل منه، إلا أن إصرار البعض على تأويل الماضي فقط من منظور ذهنية «الاسترداد»-وهومصطلح يطلق على فترة ما بعد طرد المسلمين من الأندلس و «استرداد» إسبانيا من قِبل المسيحيين-مصطلح يطلق على فترة ما بعد طرد المسلمين من الأندلس و «استرداد» إسبانيا من قِبل المسيحيين.، لا يسمح بتجاوز هذا الفكر الضيق.

وفي هذا الصدد، يقول الكاتب أن إسبانيا، إذا ما أرادت أن تنطلق من الصِّفر وتلغي طريق اللاتسامح الذي مشت فيه طويلاً، لتدخل منعطفاً آخر يقودها إلى احترام الآخرين وحقِّهم في مساحة للتعبير عن وجودهم على قدم المساواة مع غيرهم، فهذا الخيار لا يجب أن يشمل نسيان ذاكرة غير بعيدة، ما زالت تشير إليها بالبنان وتشهد على تهجير زرافات من المسلمين واليهود السيفرديين، لا لشيء إلا بسبب هويتهم الإسلامية أو اليهودية، وعليها ألاّ تكتفي بمجرد تمارين تدخل في إطار التنميق الإعلامي. فإذا كانت القناعات الديموقراطية حقيقة متجذِّرة وإذا كان احترام الدستور ليس مجرَّد حبر على ورق، يجب أن تستعدَّ إسبانيا لتصفية حسابات ما زالت عالقة مع تاريخها: أوَّلها مع السيفرديين، لنقض الملوك الكاثوليك التحالف الذي ظلوا بمقتضاه حماة وكفلاء لهم زهاء قرن من الزمن، وثانيها مع الموريسكيين، لنقض الملوك المسيحيين العهد الذي وقَّعوه في «سانتا في» مع المملكة النَّصرية في غرناطة، الذي كان ينصُّ فيما ينصّ على ضمان الحرية الدينية للمسلمين الذين لم يقبلوا بالهجرة بعد الاستسلام.

الكتاب يرسم صورة لحوض البحر الأبيض المتوسط في القرن السادس، ويبدأ بالحديث عن التأثيرات الثقافية والدينية النابعة من حضارات سابقة، لتأطير اللحظة التي سينشأ فيها الدين الجديد الذي سيتبنَّى بعضاً من هذه الجوانب ويضيف إليها قيماً أخرى جديدة. يتناول ببعض التفصيل سيرة الرسول، ثم يتابع توسُّع الإسلام نحو الشرق والغرب ويراجع إسهاماته في مختلف المجالات ويذكِّر بإنجازاته العظيمة، وأيضاً بالعوائق التي واجهها منذ البداية والتي ما يزال بعضها مستمراً إلى الآن.

في إسبانيا، كان هناك تواصل وتبادل مستمر مع بربر المغرب من موحدين ومرابطين قدموا من أفريقيا، لكن كان هناك تواصل أكبر بين الساكنة الأصلية والعربية، تمخضت عنه بؤرة إسبانية-عربية اكتسبت مع مرور الوقت هوية خاصة بها، وأوجدت رصيداً ثقافياً مشتركاً، برغم الخلافات التي كانت تنشب بين الفينة والأخرى، يُحَلُّ بعضها بطريقة سلمية، وأخرى باللجوء إلى القوة.

يطرح الكتاب أمام القارئ كبرى الإشكاليات التاريخية التي نشأت في العالم الإسلامي: ضرورة التقيُّد بالظاهر أو التأويل، خيار اتباع الطقوس بشكل رئيسي أو طريق الإيمان الداخلي. كما يتطرق لمشكل ركود المجتمعات المسلمة في الوقت الراهن والتحديات التي لا تجد لها حلولا فعلية. وحول هذه النقطة، ينشأ بين الكاتب ومنصور إيسكوديرو -ممثِّل الجماعة الإسلامية بإسبانيا- حوار هام، يتصدَّره سؤال جوهري: هل هناك إمكانية إسلام غربي؟ وهنا يعترف د.إسكوديرو بأن المشاكل التي يواجهها العالم الإسلامي حاليا لا يمكن معالجتها بسهولة، إلا أنه يؤكد قناعته بإمكانية إسلام غربي يهتمُّ بمشاكل الإنسانية المعاصرة ويطوِّر نفسه من الداخل لمواجهة تحديات العصر، وفي هذا الصدد، يقول إيسكوديرو بأن هناك محاولات لمسلمين غربيين -بالتعاون مع مسلمين في الشرق وأفريقيا- للقيام بتغييرات جذرية وإيجابية تعني صُلب الإسلام.

المؤلف: فرانثيسكو لوبيث باريوس – عدد الصفحات: 323ص – تاريخ النشر: 2008
التوثيق الأجنبي: Francisco López Barrios. LA CONSPIRACIÓN DE LOS ULEMAS
Almuzara، Córdoba، 2008
اللغة: الإسبانية

الجناح الراديكالي للإسلام: الإسلام السياسي - حقيقة ووهم

بغض النظر عن تاريخها غير الوجيز، بدَت الحركات الإسلامية أو ما يسمَّى بالتيار السياسي للإسلام، خلال العقدين الأخيرين، أكثر قوة من أي وقت مضى. دخلت المعترك السياسي بنشاط ملفت، مكتسحة فضاءات كانت تشغلها ربما قبل فترة بسيطة تنظيمات وتوجُّهات فكرية ذات طابع علماني.

ومع أن هذه التيارات، من وجهة نظر غربيةٍ صرفة، تُصنَّف على أنها كلٌّ متجانس يحتلُّ فيه العنف دورا محورياً، إلا أنَّ هذه الحركات السياسيةِ التي تنطلق من قاعدة دينية تشكَّل، في الواقع، حقيقة مركَّبة ومتنوعة، تعِّبر عن ذاتها -في أغلب الأحيان- وعلى عكس التصور الغربي-بطريقة سلمية.

د. وليد صالح الخليفة كاتب وباحث من أصل عراقي، أستاذ بجامعة لا أوتونوما بمدريد ورئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كلية الفلسفة والآداب في جامعة مدريد المستقلة، يقوم في هذا الكتابِ بتحليل مفصَّل ومعمَّق لهذه التيارات والتنظيمات التي تشكِّل الإسلام السياسي.

سلسلة أعمال العنف التي قامت بها هذه الحركات المتطرِّفة، خلال السنوات الأخيرة، جاءت بمثابة صفارة إنذار للأنظمة الغربية، وزادت من قلق المجتمعات المسلمة والغربية على حد سواء، مشكِّلة في الوقت ذاته الذريعة المناسبة لبعض الحكومات لنهج سياسات وقائية أكثر منها تعسفية، بحجة مواجهة التطرف. وفي هذا الصدد، يذكِّر الكاتب بأن هذه الأعمال العنيفة، وبرغم الخطاب الغربي الرَّنان، قد تركت بصمتها التي لا تمحى أيضاً في مجتمعات تدين بالإسلام طالتها يد الإرهاب دون تمييز، الشأن الذي ولَّد بين هذه الشعوب إحساساً بالرفض تجاه هذه الحركات، وهذا يعني أن هذه التيارات، بصفة عامة، لا تحظى بدعم ولا حتى بتعاطف شعبي في البلدان الإسلامية.

من جهة أخرى، يشير د. وليد صالح إلى أن الإسلام الراديكالي يعتمد جرعة عالية من السياسة بالإضافة إلى جرعة دينية بسيطة، ومن ثمَّ، يؤكد على أن الدواعي التي تحرِّك هذا النوع من التنظيمات هي ليست دينية وإنما سياسية بحتة، لذلك فهي تضرب أينما وحيثما سنحت لها الفرصة دون تمييز أو اعتبارات من أي نوع، عند رسم أهدافها. ويشير أيضاً إلى أن بعض الحركات الإسلامية المتطرفة تستغل مساحة الحرية التي لا تتمتع بها في ظل الأنظمة العربية الإسلامية، والتي تسمح بها الأنظمة الغربية، التي تعتبر النشاط السياسي أمرا مشروعا وأحد الدعائم الأساسية للديمقراطية، وتخول لأي كيانٍ كان حق التعبير عن نفسه بالشكل الذي يتصوره ملائماً، ما لم يكن في ذلك التعبير مساساً بمصلحة وأمن الدولة.

يقوم الكتاب بتحليل دقيق ومعمَّق للتطرف الإسلامي، من خلال مستويين: المستوى الأول يتناول الوعاء الإيديولوجي الذي يستمد أصوله من كبار المفكرين الإسلاميين المعاصرين، كحسن البنا وسيد قطب والخميني، والذين، بدورهم، ينطلقون من نصوص تراثية لأعلام ورموز دينية كابن حنبل، وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب. ثم يوضِّح المفاهيم التي يرتكز عليها الفكر الإسلامي السياسي والتي تتلخص في أربعة أسس: كونية الإسلام، الذي يجب أن يوجِّه ويسود العالم، جهل العالم غير الإسلامي الذي يحتاج إلى قيادةٍ إسلامية، الجهاد المشروع ضد «الجهل» و«الكفر»، وأخيراً، السِّلم، الذي سيأتي كنتيجة لتطبيق المفاهيم السالفة الذكر، لكي تعيش الإنسانية جمعاء في ظل العدالة الاجتماعية والمساواة.

المستوى الثاني للكتاب، يسلِّط الضوء على الحيثيات الاجتماعية- الاقتصادية التي قد تدفع جماعات أو أفراد إلى تبني مواقف متطرفة، باسم الإسلام، تجاه أنظمة سياسية أو حكومات أو أحزاب أو إيديولوجيات تبتعد فكرياً ومنهجياً عن هذا الفكر، خاصة الغرب باعتباره العدو الأول، بما أنه بدافع عن قيم ومصالح نقيضة.

ومن جهة أخرى، يتناول الكتاب الأحداث التاريخية والسياسية التي كان لها أثر في تعزيز وضع التيارات الإسلامية المتطرِّفة، كالثورة الإسلامية في إيران والانقلاب العسكري في السودان وإلغاء نتائج الانتخابات الجزائرية في 1992، وظهور تنظيم القاعدة، لينتقل فيما يلي إلى دراسة الظرف الاجتماعي السياسي للعالم العربي الإسلامي، الذي يشكل الذريعة المثلى للتطرف الإسلامي، حيث يعتمد في دعم فكره على بعض الحقائق التي يعاني منها الواقع العربي، بشكل فعلي، كاستبداد الحكومات العربية والإسلامية بصفة عامة، الصراع العربي الإسرائيلي، الحرب على أفغانستان والعراق، الأمية والوضع الاجتماعي المتردي للمرأة المسلمة، وضعف اقتصاد هذه الدول.

يذهب د. وليد صالح كذلك إلى أن فشل القوى الليبرالية والاشتراكية والقومية في تنفيذ برامجها السياسية داخل العالم العربي والإسلامي، والذي خلَّف إحباطاً كبيراً بين المواطنين، ربما يكون قد أسهم إلى حدٍّ كبير في ترسيخ وتجذر التيارات الدينية المتمثلة في الأحزاب والجماعات الإسلامية التي أخذت المبادرة مستغلة الفراغ الناتج عن عدم وجود بدائل أخرى لترشِّحَ نفسها كبديل أوحد قادر على إنقاذ المنطقة من حالة التدهور التي يعيشها.

يخصَّص الكاتب أيضاً حيِّزاً مهمّا للحديث عن الإسلام السياسي في علاقته بالغرب، انطلاقا من 11 سبتمبر وما سمِّي بمكافحة الإرهاب، والذي كان من شأنه أن يخلق فوضى عالمية، ومروراً بآخر مبتكرات الإدارة الأمريكية السياسية، التي اتخذت مسمَّى «الشرق الأوسط الكبير»، متطرِّقاً لنتائجه الكارثية على المنطقة، هذا من جهة.

من جهة أخرى، يتناول سياسة استغلال الدين وأدلجة الإسلام من طرف التيارات العنيفة بدعوى التصدي للتأثير الغربي في الدول المسلمة، ثم يفرد بعد ذلك فصلاً يستقرئ فيه ظاهرة العمليات الانتحارية ويخصُّ بالتحليل الأسباب الكامنة وراء إضفاء البعض صبغة «الشهادة» عليها، بينما يعتبرها البعض الآخر إجراماً يكون منفِّذه مجرد أداة مطوَّعة في يد الإرهاب.

ينتهي الكتاب بجرد لأهم المجموعات الإسلامية السياسية، مع مسرد لأهم المصطلحات، مما يتيح للقارئ فرصة تأمُّل هذه التركيبة المعقَّدة التي تتمتع بها التيارات الإسلامية في الوقت الحالي، فضلاً عن قراءة موضوعية، بعيدا عن الأحكام المطلقة أو ضبابية الإعلام ، لكل ما هو حقيقة أو وهم في واقع هذه الحركات.

المؤلف: وليد صالح الخليفة – عدد الصفحات: 248ص – تاريخ النشر: 2007
التوثيق الأجنبي: Walid Saleh Alkhalifa. EL ALA RADICAL DEL ISLAM: EL ISLAM POLÍTICO . REALIDAD Y FICCIÓN. Siglo XXI، Madrid، 2007
اللغة: الإسبانية

بزوغ فجر الإسلام

مؤلف هذا الكتاب مؤرّخ وأستاذ جامعي في التاريخ وعلم الاجتماع، صاحب مؤلف رائد بعنوان «ما هو الإسلام»، وآخر بعنوان «تقديم الإسلام إلى طفلتي»، حظي بشعبية واسعة لدى القرّاء. وهو هنا، يطمح إلى توفير أكبر مقدار ممكن من المعلومات والحقائق التاريخية التي تساعد القارىء الغربي على فهم ظاهرة الإسلام، بعيداً عن التداعيات الراهنة، أو بالأحرى التشوهات، التي نجمت عن اقتران الإسلام في أذهان أبناء الغرب بأعمال التطرف والتعصب والإرهاب.

والكتاب ينقسم إلى 20 فصلاً، تنقسم بدورها إلى موضوعات فرعية، وتبدأ بتمهيد يعلل خيارات المؤلف المنهجية، في الاتكاء على الحقائق التاريخية المبكرة ليس خلال سنوات الإسلام الأولى فحسب، بل كذلك في قراءة مشهد المنطقة الإجمالي قبل فجر النبوة وانطلاق الدعوة. فالمسلمون، منذ سنة 632 حين توفي الرسول وحتى سنة 762 حين تأسست مدينة بغداد، احتكوا بعالم شاسع يقع خارج حدود الجزيرة العربية، في نطاق المتوسط كما في آسيا وأفريقيا وأوروبا. وهذا ميدان هائل تحتشد فيه أقوام وديانات وتواريخ طويلة معقدة، يستعرض المؤلف خصائصها ضمن مقاربة جغرافية، مثمناً إنجازاتها، ومناقشاً آثار احتكاك المسلمين بها، من وجهة إيجابية وأخرى سلبية.

وهو يرى أن سنة 636، تاريخ الفتح الإسلامي لمدينة دمشق، محطة حاسمة بالنسبة إلى عالم ظلّ رومانياً زمناً طويلاً، ثمّ كفّ بعدئذ عن الانتماء إلى روما. بقايا هذه الإمبراطورية حافظ عليها جوستينيان في القسطنطينية، وبعض البرابرة والجرمان والترك في تخوم أوروبا وسهولها، عبر نهرَيْ الدانوب والراين، وصولاً إلى البلقان. في شمال ما تبقى من هذه الإمبراطورية، كان الفرس يناوشون ملوك بيزنطة في أصقاع سورية وفلسطين ومصر، ولن يطول الوقت حتى تتهاوى ممالكهم تحت ضربات الفتوحات الإسلامية الظافرة.

ولا يهمل المؤلف الإشارة إلى أنّ تلك الأصقاع كانت، منذ القرن الخامس، قد شهدت سجالات واسعة ضدّ شطر من المسيحية مناهض للقسطنطينية، هو المذهب النسطوري الذي انطلق من الإسكندرية وأنطاكية، وتناول شخصية المسيح وما إذا كان بشراً أم إلهاً، وأسفر عن قرارات زجرية اتخذها ضدّه مجمع نيقية سنة 325. أما في إيران فقد توجب على الإسلام أن يجابه عقائد أخرى، مثل المزدية والمانوية، كانت تقوم على أسس زردشتية في الحالة الأولى، وأخرى بوذية عرفانية (غنوصية) في الحالة الثانية.

ويعقد المؤلف فصلاً خاصاً لدراسة مشهد آسيا قبل الإسلام، هذه التي سوف تكون مسرحاً للطور الثاني من الفتوحات الإسلامية، وكانت قبلئذ ميدان سكنى وصراعات البداة أو البربر القادمين من الشمال، وجيوش إيران والهند والمتوسط. وقبل مجيء الإسكندر الأكبر، واستيطان السلاجقة في آسيا، كان الفرس الأخمينيون قد سيطروا على المنطقة بعد أن هزّوا أركان أثينا وبلغوا نهر الأندوس. وتلك هي الأحقاب التي سوف تتيح ولادة ثقافة هندو ـ إغريقية، وتَعاقُب الممالك والمذاهب قبل المسيحية، وحتى السنة 30 م. وبالطبع، لا يتجاهل المؤلف مملكة تدمر العربية، التي قامت على الحدود الأخرى للإمبراطورية الفارسية وفي قلب الصحراء السورية، وشهدت مجداً قصير الأمد عند نهاية القرن الثالث، قبل أن تدمّرها روما فتختفي معها واحة عربية ظلت محطّ القوافل طيلة 300 سنة.

في الفصل الخاص بجزيرة العرب يسعى المؤلف إلى إضاءة ما يسميه «التاريخ المنسي»، فيتقصى هوية أولئك العرب الذين سيغيّرون وجه آسيا في القرن السابع، والكثير من أرجاء المعمورة بعدئذ. وهو يشدد على أنّ العرب ليسوا دخلاء ولا وافدين جدداً إلى المنطقة، فهم عاشوا في جوار الهلال الخصيب، وفي محاذاة إمبراطوريات ما بين النهرين، منذ آلاف السنين. لقد أنشأوا مملكة الأنباط، وأقاموا في ذرى جبال اليمن ممالك زراعية وتجارية مزدهرة، استحقوا عليها لقب «بلاد العرب السعيدة»، قبل أن تتدهور ثرواتهم تدريجياً، ويضعف سلطانهم، في انتظار موعدهم التاريخي مع فجر الإسلام، خاصة منطقة الحجاز على الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة.

في تلك الاثناء كان الكثير من عرب الجنوب قد توجهوا صوب الشمال، وانضوت قبائل عديدة في كنف الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية. قبائل أخرى من البداة أخذت تتجول في أرجاء سورية وفلسطين وبلاد ما بين النهرين، ولن يطول الوقت حتى تسمح هذه الحركة بهيمنة لهجات معينة دون سواها، صارت أقرب إلى اللغة المشتركة التي احتوت السِّيَر الشعبية والملاحم وقصائد الشعر ومفردات التجارة والصكوك والأحلاف. وباستقرار اللغة المشتركة بات كلّ شيء جاهزاً، كما يقول المؤلف، لمجيء نبيّ يهدي العرب إلى ديانة جديدة.

وينجز رشدي عليلي سلسلة فصول مكثفة في وصف شخصية الرسول، والخلفاء الراشدين، والفتوحات، والخلافتين الأموية والعباسية، ومجموعة المشكلات الداخلية وحركات الإنشقاق والتمرد والانفصال التي أخذت تعصف بأركان الدولة. ويتوقف ملياً عند منعطفات كبرى، مثل نسخ القرآن الكريم، وصك العملة العربية، وصعود أنشطة الفقه والكلام والتأليف، وازدهار العلوم والفلسفة والترجمة، وسواها. وفي فصل أخير، بمثابة خاتمة وخلاصة، يستعرض ما يسمّيه «الصيغة الإسلامية» التي أتاحت لولاية مسلمة في إسبانيا أن تنتمي إلى العالم المسلم، بالرغم من كل مظاهر الاختلاف الديني والتباعد الثقافي.

وإذْ يدعم المؤلف كتابه بخرائط مفصلة، وكشّاف أعلام غني، فإن نقص المراجع العربية، بل اقتصارها في الواقع على المراجع الفرنسية وحدها تقريباً، يُفقر بعض خلاصات الكتاب، ولكنه لا يُفقدها الكثير من قيمتها في الجوهر.

المؤلف: رشدي عليلي – عدد الصفحات: 358ص – تاريخ النشر: 2004
التوثيق الأجنبي: Rocgdy Alili. L' Eclosion de l' islam. Editions Dervy، Paris 2004
اللغة : الفرنسية

حكم الله: الحكومة والإسلام

يُعتبر الكتاب من أفضل ما كتبته الأستاذة الدكتورة باتريشيا كرون والكتاب يتكون من 22 فصل حيث تتناول المؤلفة بالتحليل الفكر السياسي في الإسلام بالإضافة إلى التشريعات ذات الطابع الديني منذ مطلع الإسلام في القرن السابع الميلادي وحتى العصور الوسطى. كما تشير المؤلفة في ثنايا الكتاب إلى تأثير الفكر السياسي اليوناني والفارسي على الإسلام مؤكدة أن المجتمع الإسلامي لم يكن مجرد قافلة يقودها الخليفة أو الإمام.

وترى المؤلفة أنه لا يوجد فكر إسلامي سياسي موحد ولا توجد عقيدة سياسية إسلامية أُحادية لأن الإسلام السياسي أكثر تعقيداً من ذلك وهكذا استطاعت المؤلفة أن تدحض كل ادعاءات الإسلاميين المحافظين وأعداء الإسلام المعاصرين الذين يضعون جميع أفكار الإسلام السياسي في بوتقة واحدة.

وفي الجزء الأول من الكتاب تستطلع المؤلفة المذاهب الإسلامية الدينية المختلفة كما تشير إلى الخلافات السياسية والدينية التي تنامت داخل المجتمع الإسلامي بعد مرور قرنين على ظهور الإسلام. وفي هذا الصدد تشير المؤلفة إلى الأفكار السياسية والدينية والفلسفية التي نادت بها الجماعات الإسلامية المتعددة مثل الشيعة والمعتزلة والزيديين وغيرهم من التيارات والحركات الإسلامية المعروفة.

وفي الجزء الثاني من الكتاب تتناول المؤلفة بالتحليل والدراسة أدبيات الإسلام السياسي كما وردت في الدراسات الفارسية واليونانية، كما اشتمل هذا الجزء على دراسة وافية للفكر السني وفكر الطائفة الإسماعيلية منذ القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر.

أما الجزء الثالث من الكتاب فيتناول وظائف الحكومة الإسلامية ومفاهيم الحرية والمجتمع وعلاقات المسلمين بغير المسلمين وبأهل الذمة. وفي هذا الجزء تستطلع المؤلفة وجهة نظر جميع المذاهب والطوائف الإسلامية تجاه العديد من القضايا السياسية والدينية والاجتماعية.

ويعتبر الجزء الثالث وخاصة الفصل الذي يتناول دور الحكومة في الإسلام وطبيعة الحكم داخل المجتمع الإسلامي والمسائل التي تتعلق بتطبيق الشريعة الإسلامية من أهم الفصول في هذا الكتاب.

ومن الفصول المهمة في هذه الدراسة الفصل الذي



يتناول علاقة المسلمين بالشعوب الأخرى وبالطوائف المتعددة داخل المجتمع الإسلامي.

ففي هذا الفصل تناقش المؤلفة مفهوم «الحرب المقدسة / الجهاد» باعتباره انعكاسا لما أسمته المؤلفة بالإمبريالية الإسلامية والتي توجد مبررات للغزو الإسلامي والفتوحات الإسلامية. كما تتناول المؤلفة العديد من القضايا الجدلية ومنها رأي الإسلام في غير المسلمين وحكم الإسلام على المرتدين عنه أو الذين تركوا الإسلام واعتنقوا أدياناً أخرى.

كما ناقشت المؤلفة رأي الشريعة الإسلامية في المسلمين الذين تمردوا على السلطة الدينية الإسلامية وخرجوا على الملة ولذلك وجبت الحرب ضدهم.

ولقد استطاعت المؤلفة في هذه الدراسة الشاملة الأفكار السياسية والدينية التي كانت سائدة في المجتمعات الإسلامية في الشرق الأوسط وأواسط آسيا وفي الأندلس. وسعت المؤلفة – بين الحين والآخر- لعقد مقارنات بين الفكر السياسي الإسلامي والفكر السياسي الأوروبي أو اليوناني أو الفارسي في محاولة لتقديم سردية تاريخية ذات دلالات عالمية.

ويرى بعض النقاد أن هذا الكتاب يحتوي على معلومات مهمة وأفكار معقدة لا يفهمها سوى المتخصصون في التاريخ الإسلامي. بينما يرى نقاد آخرون أن المؤلفة أغرقت القارئ في تفاصيل كثيرة لا تهم القارئ غير المتخصص ويرى قلة من النقاد أن المؤلفة كان يجب عليها أن تركز على شرح طبيعة التشريعات الإسلامية التي أثرت على الفكر السياسي في الإسلام بدلاً من الغوص في تفاصيل فلسفية وأحداث تاريخية أرهقت القارئ حيث لجأت المؤلفة إلى اقتباس العديد من الأشعار كدليل على بعض الأفكار السياسية التي سادت في العصول الإسلامية.

وبالرغم من أن الكتاب قد تناول الفكر السياسي في الإسلام من عام 650 إلى عام 1250 إلا أن الدراسة لم تتناول جميع جوانب أفكار الإسلام السياسي. وعلى سبيل المثال لم تستطلع المؤلفة دور الإسلام السياسي إبان الخلافة الأموية حيث رأى الأمويون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم من ورثة الرسول.

كما أن السلطة السياسية إبان الخلافة العباسية لم تكن سلطة مطلقة تقع على عاتق الخليفة مثلما ذكرت المؤلفة وإنما كانت هناك جماعات معارضة عديدة. ويرى بعض النقاد أن المؤلفة فشلت في فهم الأفكار التي وردت في كتابات «الفارابي» حيث أكدت أن الفارابي من المؤلفين الذين يصعب فهم أفكارهم. ويُجمع معظم النقاد أن المؤلفة حاولت فرض رؤيتها للإسلام السياسي على القارئ دون ترك مساحة للآخرين كي يعرضوا آراءهم.

المؤلف: باتريشيا كرو – عدد الصفحات: 462ص – تاريخ النشر: 2004
التوثيق الأجنبي: Patricia Crone. God's Rule – Government and Islam: Six Centuries of Medieval Islamic Political Thought. New York: Columbia University Press. 2004
اللغة : الإنجليزية

محمد نبي الإسلام

يقول إدوارد سعيد في تعريفه بكتاب مكسيم رودنسن «محمد نبي الإسلام» ما نصه: «موضوع رودنسن بالغ الصعوبة، ويشكل تحدياً، وبالطبع يأتي في أوانه. وسواء اتفق المرء مع تأويله حياة محمد أم لا، فلا شك أن كتاب البروفيسور رودنسن هو أهم عمل غربي معاصر عن النبي، وينطوي على قراءة أصيلة».

ومكسيم رودنسن هو واحد من أبرز الباحثين في تاريخ الإسلام والمجتمع الإسلامي، درّس في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في السوربون. وتشمل قائمة كتبه الأخرى: «إسرائيل والعرب»، و«الإسلام والرأسمالية»، الذي صدرت طبعته العربية عن دار الطليعة في بيروت سابقاً.

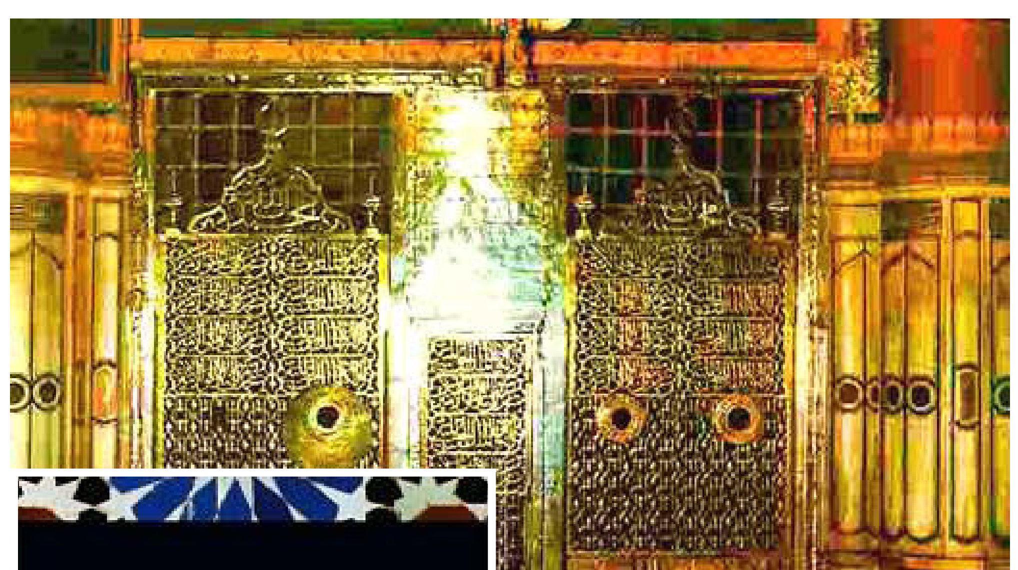
يقع كتاب «محمد نبي الإسلام» في سبعة فصول مطولة تغطي أكثر من ثلاثمائة وخمسين صفحة. وتضم عناوين فصوله : «تقديم عالم»، «تقديم أرض»، «مولد نبي»، «مولد فرقة»، «النبي المسلح»، «مولد دولة»، «الانتصار على الموت».

وبالرغم من أن الكتاب سبق أن صدر عام 1971، فإن طبعته الجديدة الصادرة عام 2002 تنطوي على زيادات كثيرة فضلاً عن مقدمة جديدة للكتاب، وخاتمة جديدة هي عبارة عن حوار أجرته صحيفة «الفيغارو» الفرنسية مع المؤلف بعد الهجمات على «مركز التجارة الدولية».

يعي رودنسن أنه بتناوله النقدي لوقائع حياة السيرة النبوية قد يثير حساسية المسلمين. ولهذا فهو في الجديد الذي يضيفه لهذه الطبعة يدعو المسلمين إلى أن يميزوا بين آليات النقد التاريخي وآليات الدعوة الإيمانية، فيقول:

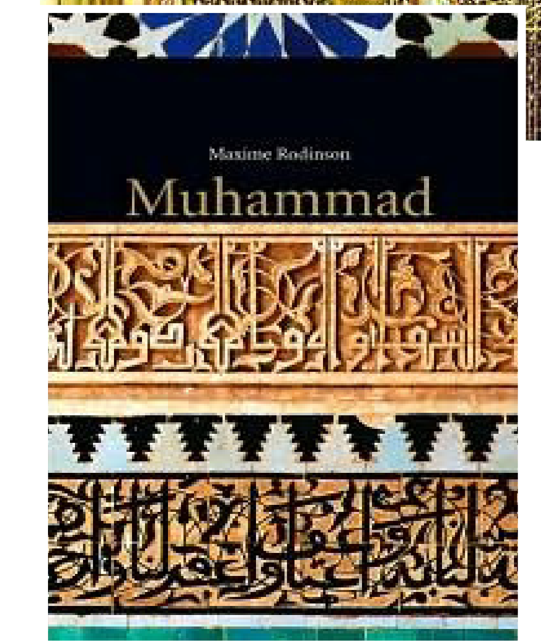
«أدعو قرائي من ذوي الخلفية الإسلامية إلى ألا يسارعوا باتهامي بالجهل وضعف الإيمان إذا وجدوا أن الوقائع التي يعدونها ثابتة رسّخها التاريخ هي موضع نزاع أو مبالغة في الصفحات التالية. لأن الموقف العلمي، كما في التاريخ الروماني أو تاريخ الكتاب المقدس، لا يبدأ قرار قبول شيء ما باعتباره واقعة إلا إذا ثبت أن مصدره صحيح يمكن الاطمئنان إليه. وهذا يعني أن عدداً من الأحداث التي اعتقد مؤرخو الفترة ما قبل النقدية أنها راسخة على نحو ثابت لا بد أن تعد خرافية، مزوقة، أو في الأقل ذات مصداقية مشكوك فيها. ولا علاقة لهذا المنهج بالاستعمار والمركزية الأوروبية.

وقد أدرك علماء المسلمين في القرون الوسطى الحاجة إلى مثل هذا الموقف النقدي، لكنهم لم يمتلكوا الوسيلة لتطبيقه على نحو نسقي ولا تطويره إلى منهج دقيق بحق. أما



الباحثون الأوروبيون فقد مضوا قدماً في هذا الاتجاه، وطُبِّقت جهودهم النقدية الأولى على تاريخهم الخاص. وربما استمد بعضهم شيئاً من الرضا الخبيث من تجريد الشعوب غير الأوروبية هكذا من الخرافات المنمقة. ويستحق هذا الموقف اللوم، لكنه لا ينفي مبدأ التناول النقدي للمصادر، الذي هو مطلب عام للدراسة العلمية».

ومثلما يعي رودنسن في تقديمه حساسية التناول النقدي للشأن الديني التأسيسي، تعي الخاتمة حساسية التناول النقدي للشأن المعاصر. فجواباً عما إذا كان رودنسن يعتقد أن الإسلام والشيوعية يشتركان في النسب، وأن لهما عدواً واحداً هو الرأسمالية، يجيب رودنسن قائلاً: «لست أدري ما إذا كان هذا أمراً يمكن قوله فعلاً. فالإسلام والرأسمالية ظاهرتان تقعان على مستويين مختلفين. وهما يختلفان حتى في جوهرهما. الرأسمالية هي بنية من العلاقات الاقتصادية، وكذلك المشاركة في تلك المنظومة. أما الإسلام، فهو كما قلت، أشياء كثيرة مرة واحدة، ولكن مع الأحداث الأخيرة، ربما قوي الإغراء بمساواته لنوع من البربرية. وهذا ما يجب مقاومته



بوضوح، لأن الإسلام أيضاً هو الكلمات المحلقة لكبار مفكري المسلمين. وقد عرف واحد من أساتذتي، هو لويس ماسنيون، الذي كان كاثوليكياً تشبع بالتقوى الإسلامية، أي كنوز عظيمة تدخرها المستودعات الفكرية للإسلام».

المؤلف : مكسيم رودنسن – عدد الصفحات : 366ص – تاريخ النشر : 2002
التوثيق الأجنبي: Maxime Rodinson. Muhammad Prophet of Islam
Tauris Parke Paperbacks، 2002
اللغة : الإنجليزية

هدايات إسلامية: هويات دينية خلال الإسلام المتوسطي

الإهتداء الديني، وهو سيرورة قيام الأفراد أو المجموعات بالدخول في يقين ديني وشعائر وعادات اجتماعية ومادية مختلفة عن تلك التي ولدوا فيها، سمح أولاً ببناء هويات ثقافية واجتماعية وسياسية في إسلام حوض البحر الأبيض المتوسط، وهو منطقة مفضّلة لدراسة تشكيل الجماعات الإثنية والدينية، وتحليل التفاعلات فيما بينها، وتعايشها المشترك، فضلاً عن توتراتها ونزاعاتها على مرّ القرون. وكانت هدايات إلى الإسلام، طوعية أو قسرية، قد نشأت خلال القرون التي أعقبت الفتح العربي ـ الإسلامي وحتى ظهور الدول ـ الأمم، مع نهاية الاستعمار والإمبراطورية العثمانية.

مرسيدس غارثيا ـ أرينا، محررة الكتاب، هي مديرة أبحاث في المجلس الأعلى للأبحاث العلمية في مدريد، وهي مؤرخة مختصة بتاريخ المغرب والأندلس والأقليات المسلمة في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبين أبرز إصداراتها كتاب بعنوان «بين الإسلام والغرب»، وآخر عن محاكم التفتيش، وثالث عن شخصية أحمد المنصور، ورابع مهم بعنوان «شتات الأندلسيين». وهي تقرّ، منذ مقدّمة كتابها الذي نعرض له، أنها اختارت تقسيماً تقليدياً يعتمد التحقيب الزمني (العصور الوسطى أو القرون الثلاثة الأولى من الإسلام، والعصور الحديثة وفي عدادها أحقاب الإستكشاف والأنوار والاستعمار، ثمّ الطور المعاصر والراهن).

في الجزء الأول تكتب جيوفانا كالاسو عن سرديات الإهتداء إلى الإسلام لدى بعض أهل البصرة، كما يرويها «كتاب الطبقات» لابن سعد، ولكنها تشير إلى اعتمادها على الكثير من الأبحاث الغربية التي سبقتها إلى هذا الجانب في الكتاب. وبعد ان تعرض لحالات اهتداء منتقاة، معظمها تمّ في حضرة الرسول وبتأثير من شخصيته، تميّز بين جنسيات الإهتداء (بين عرب وأفارقة)، وجغرافيته، ودلالات هذه الإعتبارات. دافيد فاسرشتاين يناقش اهتداء اليهود خلال القرون الخمسة الأولى بعد ظهور الإسلام، متطرقاً إلى الرأي القائل بأنّ قلّة من اليهود اهتدوا إلى الإسلام بالقياس إلى المسيحيين وسواهم، ملحّاً على ضرورة المزيد من تحليل هذه الأطروحة، وضرورة العودة إلى مراجع أصلية غير تقليدية.

أنّا فرنانديز فيليكس تبحث في أوضاع أطفال تمّت هدايتهم إلى الإسلام ضمن ظروف معينة، هي حالة الردّة، ووقوع ذويهم في الأسر، وتعود إلى مرجع شرعي هو «المستخرجة» أو «العتبية»، نسبة إلى أبي عبد الله محمد العتبي، في الأندلس. كاميلا أدانغ تختار موضوع الإنتقال من مذهب إلى مذهب ضمن الدين

Conversions islamiques
Identités religieuses en Islam méditerranéen
Dirigé par / directed by Mercedes García-Arenal
Islamic Conversions

الإسلامي الواحد، أو «الإهتداء الداخلي» في عبارة أخرى، وتميّزه عن مسألة اختيار مذهب دون آخر، وتضرب مثال الفقيه وجيه الدين الواسطي الذي كان حنبلياً، ثمّ انتقل إلى الحنفية، وبعدها الشافعية. وهنالك، بالطبع، المثال الخاصّ لابن حزم، مع المذهب المالكي والشافعي والظاهري. وفي أقسام لاحقة، تكتب أنا إيشيفاريا أرسوغا عن اهتداء الفرسان المسلمين في قشتالة إلى الديانة المسيحية، عند نهايات الحملة العسكرية المسيحية ضدّ غرناطة، وكان لافتاً أنهم قُبلوا بعدئذ في سلك الحرس الملكي، بناء على أوامر مباشرة من خوان الثاني ملك قشتالة.

الجزء الثاني من الكتاب يشارك فيه دومنيك دو كورسيل، الذي يكتب عن اهتداء آدم نويسر إلى الإسلام في القرن السادس عشر، وكيف أنّ خشيته من الإضطهاد الكنسي بسبب آرائه امتزجت بتعطشه إلى حقائق كونية أخرى غير تلك التي كانت أحقاب الأنوار توفّرها. برنار فنسان يناقش المشهد العريض لحال المسلمين إزاء الهداية، في إسبانيا القرن السابع عشر. ويتابع ج. وايغرز حالات اهتداء الأوروبيين إلى الإسلام في المغرب، والكتابات الإشكالية للموريسكيين.

وفي سياق هذه المساهمات، تجري الإشارة إلى ما تصفه المصادر العربية بـ«العلج»، أي المرتد الذي يتعاون مع الأعداء، ضمن ظاهرة شاعت بين صفوف مسيحيين اهتدوا من قبل إلى الإسلام، ثمّ عادوا إلى ديانتهم الأصلية، اعتباراً من طرد الموريسكيين المغاربة، وخلال الفترة بين 1500 و1750.

الجزء الثالث يشارك فيه برنار هيبرجر، عن الحدود الإيمانية بين الشرق والغرب؛ ولوسيت فالنسي، عن علاقة الجماعات الدينية في سياقات الإهتداء المتبادل؛ وفردريك أبيكاسيس، عن الهدايات الدينية والهويات الوطنية في مصر، مطلع القرن العشرين، وجيرزي زدانوفسكي، عن البعثات التبشيرية في منطقة الخليج العربي؛ وسلفاتوري بونو، عن الإهتداء إلى الإسلام في المرحلة الكولونيالية؛ وكلير موراديان، عن استقبال الإسلام في أرمينيا، خلال الإمبراطورية العثمانية؛ وسليم درنجيل، عن الهداية إلى الإسلام بوصفها دعامة للهوية عند الأكراد اليزيدية؛ ويختتم زدانوفسكي بمادّة عن اهتداء المهاجرين البولنديين في تركيا العثمانية.

لكن هذه الدراسات لا تتناول الهدايات إلى الإسلام فحسب، بل كذلك صورة الإهتداء المثيرة، ومسألة الإرتداد، والإهتداء من دين ثانوي إلى آخر، واستكشاف أنساق الانتماء إلى الجماعة. كذلك يتمّ تحليل النماذج المختلفة التي يتبدّى عليها المسلم، وسيرورات القبول والإقصاء داخل صفّ جماعة المؤمنين، والممارسات الإجتماعية التي تشترك فيها مجموعات دينية متباينة، واستراتيجات المهتدين في التنازل أو المساومة، والتظاهر الزائف بالإهتداء أو الإنتساب إلى حركات دينية محددة أو ذات طابع طائفي، والهداية بوصفها بحثاً عن الخلاص والمنجاة الفردية، إلى جانب التحوّل الروحي.

والجنسيات المختلفة للمشاركين في الكتاب تغني جوانبه من جهة أولى، كما أنها تضفي عليه صبغة تعددية يحتاجها الموضوع في الأساس، من جهة ثانية. مراجع الكتاب محدودة، للأسف، لكنّ هذا النقص لا يؤذي صدقية المعلومات، ولا يختزل خلفياتها التاريخية، كما أنه لا يضعف سوية التحليلات والخلاصات.

المؤلف : مرسيدس غارثيا ـ أرينال –عدد الصفحات : 460ص – تاريخ النشر : 2001
التوثيق الأجنبي: Mercedes García-Arenal. Conversions islamiques: identités religieuses
en islam méditerranéen. Maisonneuve & Larose، Paris 2001
اللغة : الفرنسية

الإسلام، ذلك المجهول

مؤلف هذا الكتاب فيلسوف ورياضيّ وموسوعي، وضع وحده «موسوعة بورداس» في 23 مجلد، وإليه ندين بموسوعة مفصّلة عن الأقليات في العالم. أعماله الأخرى عن الإسلام تتضمن ثلاثة كتب: «محمد: سيرة نبي»، «مدخل إلى الإسلام»، و«عبقرية النزعة الإسلامية». لكنه هذه المرّة اختار أن يغوص في تاريخ، أو بالأحرى تواريخ الإسلام، منذ الجاهلية، هادفاً إلى التعريف بهذا الدين الذي يظلّ، في نظره، مجهولاً لدى قطاع واسع من الفرنسيين.

الجزء الأول يعالج فيه المؤلف العرب الساميين أبناء إسماعيل، ودول جنوب الجزيرة العربية قبل حمير وبعدها، واللغة العربية وموقعها ضمن شجرة اللغات السامية، ولهجات الشمال قياساً على الفصحى، والكتابة العربية بأساليب خطوطها الستة، فضلاً عن الإطار الجيو ـ سياسي الذي أحاط بالإسلام، خاصة تجاور الإمبراطوريات الكبرى البيزنطية والفارسية مع عرب الجاهلية البداة.

الجزء الثاني يخصصه كاراتيني للإسلام ديناً، فيقتفي سيرة ابن اسحق كمصدر رئيسي لاستعراض عائلة الرسول، والفترة المكية قبل الوحي وبعده، وأوائل المؤمنين بالرسالة، ومعارضة قريش، وصولاً إلى الهجرة. وفي قسم ثانٍ من هذا الفصل يتناول المؤلف حقبة المدينة، والأحزاب، والعلاقات بين المسلمين واليهود، والمعارك ضدّ المكيين في بدر وأحد والخندق. كذلك يعقد قسماً خاصاً لدراسة ملامح الدولة الإسلامية كما شرع يبنيها الرسول، خاصة تحديد مفهوم الأمة، وواجبات الصدقة والزكاة، وصلة هذه الخطوات بتعاليم القرآن، ووضعها في إطار سلوكي يومي من خلال الأحاديث النبوية، وبدء الاشتغال على فقه الشريعة.

وفي قسم آخر من هذا الفصل يتوقف كاراتيني عند أركان العقيدة الإسلامية، فيستعرض مفهوم الجلالة في القرآن، ومسائل الخلق والتكوين والروح والنفس ومشيئة الله والفناء والقيامة وعلوم الدين. ويبسط رأي الإسلام في بعض الرسل الأساسيين قبل محمد، خاتم الأنبياء، مثل إبراهيم وعيسى وموسى، إلى جانب هارون وداود وإدريس وإسحق ويعقوب ويحيى ويونس ونوح وسليمان وهود وصالح وشعيب، وسواهم. كما يقدّم عرضاً وجيزاً لصورة الملائكة، ويخصّ ميكائيل وجبرائيل وعزرائيل، وصورة الجان، كما تتوفر في نصّ المعتقد الإسلامي والتصوّر الشعبي على شاكلة المخيال في ألف ليلة وليلة خاصة. ويختم كاراتيني هذا الجزء بإطلالة على ما يسمّيه «تنويعات» الإسلام الكبرى: السنّة، والشيعة، والخوارج، والمعتزلة، والإباضية، واليزيدية...

الجزء الثالث مكرّس لتفصيل تاريخ الإسلام في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، ثمّ تفكك الإمبراطورية الإسلامية وبدء عصر السلاطين. ويشير كاراتيني إلى الصعوبات الداخلية التي واجهتها الدولة في هذه الأحقاب، من حيث مزاعم النبوّة، وحركات التمرّد، والإنشقاق عن السلطة المركزية، وظهور العصبيات الشعوبية، لكنها، أيضاً، كانت أطوار إبداع في ميادين تنظيم الدولة، وتأسيس الحقوق، وتطوير الفنون، وتنشيط حركة الترجمة والعلوم التطبقية والفلسفة والطبّ والفلك، وما إلى ذلك.

ويرى المؤلف أن تأسيس مدينة سامراء لتكون عاصمة جديدة للخلافة، في سنة 836، كان علامة على بدء انحدار الخلافة العباسية، وبين سنة 861 وحتى 945 تعاقب على الحكم 12 خليفة من العباسيين كانوا في الغالب مجرّد العوبة في أيدي فريقين: النقباء الأتراك، أو الوزراء الذين كانوا من الشيعة عموماً. وترنحت الدولة أمام مزيد من الضربات التي أتت من حركات العصيان، وتفاوتت هذه بين الزنج والقرامطة والثورات الشيعية هنا وهناك. و«عصر السلاطين»، كما يسمّيه، كان نتيجة طبيعية لتفكك الدولة المركزية في أواخر فترات الخلافة العباسية، فصعد بذلك السلاجقة الاتراك، وتفجّر مركز الحكم على يد سلاطين من أصول تركية أو فارسية.

أما تاريخ الإسلام في الأندلس فإنّ المؤلف يتعامل معه كجزء من تطورات الخلافتين الأموية والعباسية، فيرصد فتوحات عقبة بن نافع في المغرب العربي، ثمّ موسى بن نصير وطارق بن زياد، وعبور القوات المسلمة إلى ما بعد جبال البيرنيه، نحو مناطق فرنسية في ناربون ونيم وكاركاسون، وأعمال عبد الرحمن الغافقي وبلوغ أعتاب مدينة بواتييه. وفي ثنايا هذا العرض يتوقف كاراتيني عند دولة الأغالبة، في القيروان ومالطة وصقلية، ودولة الموحدين، والمرابطين، والأدارسة في فاس، والفاطميين والإخشيديين والطولونيين، وسواهم.

وفي المشرق سوف يقف حكم الأيوبيين وجهاً لوجه أمام التحدي الأكبر للحروب الصليبية، قبل أن تتعاقب الأعاصير على يد جيوش جنكيز خان وتيمورلنك. ويختم المؤلف هذا القسم بعرض لنشوء وصعود، ثم انحطاط وانحدار، الإمبراطورية العثمانية، بسبب سلسلة عوامل بينها: الحجم الهائل غير المتجانس للإمبراطورية، وشيوع الفساد و«مؤامرات الحريم» مقابل الثورات الشعبية، والضعف الذي أخذ يعتور الجيش الإنكشاري، ثمّ فشل حصار فيينا وطرد العثمانيين من هنغاريا.

الفصول الباقية يخصصها المؤلف للمنجزات العربية في مختلف ميادين الفقه والعلوم والأدب والفلسفة والإدارة، على امتداد الخلافات الثلاث، وكذلك في عهود السلاطين والأمراء. وهو يصف الشاعر في صحرائه، والنحوي أمام مخطوطاته، والفيلسوف (الكندي والفارابي وابن رشد والغزالي بصفة خاصة) في تأملاته، والعالِم في مختبره، والفلكي خلف مرصده، والكيميائي إذ يغامر بتحليل سوائل مجهولة، والجغرافي أمام خرائطه، والرياضي في غمرة ارقامه ومعادلاته...

ورغم مشكلة غياب مراجعه العربية الأصلية، ومنهجه الوصفي الذي يهمل الإستقراء والتحليل في مواضع كثيرة، فإنّ كاراتيني ينجح في اقتياد قارئه الفرنسي نحو إسلام معلوم بنسبة كبيرة، أو لم يعد مجهولاً على أقلّ تقدير.

المؤلف : روجيه كاراتيني - عدد الصفحات: 787ص - تاريخ النشر :2001
التوثيق الأجنبي: Roger Caratini. L'islam، cet inconnu. Michel Lafont، Paris 2001
اللغة : الفرنسية

العالم العربي الإسلامي المعاصر: تاريخ سياسي

العالم العربي مفهوم ثقافي وتاريخي مرتبط بتطور عمليتين متزامنتين: الأولى دينية متعلِّقة بالأسلمة، والثانية لغوية متعلقة بالتعريب، تمَّتا بشكل أساسي ما بين القرنين السابع والثامن. في هذه الدراسة، يقوم الكاتب بمقاربة شاملة إلى التاريخ العربي المعاصر، من خلال المسار السياسي لهذه الثقافة الغنية بالتنوع والتميز.

برنابي لوبيث غرثيا، أستاذ تاريخ الإسلام المعاصر في قسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة لا أوتونما بمدريد، لديه أعمال سابقة لهذا الإصدارحول تاريخ المغرب العربي والشرق الأوسط، رشَّحته للقيام بهذا المشروع، وهو عمل تعليمي بشكل رئيسي، ملأ فراغاً مهماً في حركة التأريخ الإسبانية، لكنه يعتبر مرجعاً أساسياً ليس فقط بالنسبة للطلاب وإنما أيضاً للمهتمين والدارسين لهذه المرحلة من تاريخ العالم العربي الإسلامي.

إلا أن هذه الصبغة التعليمية التي هي من أبرز خصائص الكتاب والتي تُلمَس في بساطة التعاريف والتنظيم المنهج للأحداث التاريخية والوثائق والنصوص المختارة بعناية، لا تنتقص من الدقة التاريخية العالية للكتاب، ولا من قيمته كدراسة تعطِّي نظرة كاملة شاملة عن العالم العربي الإسلامي المعاصر، لا تركِّز فقط على الجوانب المطروقة في الدراسات المتوفرة إلى تلك اللحظة، بل تتطرق لأخرى لم يسبق أن سلَّط عليها الضوء من قبل، ويتناول دولا كانت غائبة عن هذه الدراسات كموريتانيا، السودان، ليبيا، إلخ... فالكتاب يسعى إلى أن يكون أداة عمل مفيدة، دون الادعاء المعرفي أو العرض الصَّارم لنظريات سياسية معقَّدة.

ينقسم الكتاب إلى ثمانية فصول، تتناول الثلاثة الأولى منها تاريخ العالم العربي منذ بداية القرن العشرين حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. الفصلان التاليان، يحلِّلان وضع المنطقة العربية خلال فترة ما بين الحربين (1918-1945)، أما السادس والسابع، فيتناولان بالدرس تطور الشرق الأوسط والمغرب العربي، ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف عقد السبعينات (1975-1946)، وبالنسبة للفصل الأخير، للكتاب فهو مخصَّص للحديث عن وضع العالم العربي الحالي في السنوات الأخيرة (1996-1975).

الفصل الأول، بعنوان «الهيمنة العثمانية في العالم العربي»، يتناول بالشرح مفهومَي العالم العربي والحضارة الإسلامية، ويدرس البنية التنظيمية للإمبراطورية العثمانية، حتى فترة الانحطاط، مع بداية ظهور كيانات مستقلة على أطرافها، مثل المملكة المغربية والوهابية في شبه الجزيرة العربية.

الفصل الثاني، «من فشل الحلم القومي المصري إلى السلفية»، يخصصه الكاتب بشكل شبه حصري، للحديث عن مصر ما



قبل الحرب العالمية الأولى، منذ حملة نابوليون إلى ظهور الحركة الإصلاحية السلفية، ويعير اهتماماً خاصاً لشرح التوجه الإصلاحي لفكر محمد عبده، والمسارات المتعددة التي اتخذها هذا الفكر فيما بعد.

في الفصل الثالث، «الاستعمارات الأوروبية في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر»، يحلِّل الكاتب إشكالية الغزو الاستعماري في كل من المغرب والجزائر وتونس، كما يدرس التدخل الفرنسي في لبنان والأطماع البريطانية في مصر والسودان عارضا للأحداث التي أدت إلى نشـأة ما يسمى بـ«قضية الشرق الأوسط».

في الفصل الرابع، «الشرق الأوسط ما بين الحربين: نشوء دول- قوميات»، يعرض الكاتب بالدرس لفترة ظهور القوميات العربية وأوائل الدول المستقلة في هذه المنطقة العربية والوضع العام بعد اتفاقية سايكس بيكو: الملكية المصرية والحماية البريطانية، العراق الهاشمي، الدولة المتعددة الأديان في لبنان، الوصاية الفرنسية على سوريا ولبنان، القومية السورية، الاحتلال البريطاني في فلسطين وبداية هجرة اليهود إلى هذه البقعة، وأخيرا نشأة المملكة العربية السعودية.

الفصل الخامس من الكتاب، «المغرب العربي المستعمر في القرن العشرين» مخصص لدراسة بلدان شمال أفريقيا خلال فترة ما بين الحربين (1918-1945)، ويتطرق الكاتب في هذا المحور لظهور الحركات الوطنية الاستقلالية: الشباب الجزائري وحزب الاستقلال بالمغرب وحركة دستور والنضال النقابي في تونس، كما يتحدث عن الحماية الفرنسية الإسبانية في المغرب والاحتلال الألماني في تونس والإيطالي في ليبيا.

في الفصل السادس، «الشرق الأوسط في ما بعد الحرب الثانية: ثورة وقومية (1946-1973)»ـ يصب برنابي لوبيث اهتمامه على الحيثيات الأساسية التي أدت إلى توتر العالم العربي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى بداية عقد السبعينات، كما يعرض بالذكر لوقائع جوهرية، كإنشاء رابطة الدول العربية والحروب العربية الإسرائيلية، إبان الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، أزمة السويس وثورة الضباط الأحرار في مصر، الاشتراكية السورية العراقية، الحركات القومية، الأزمة المدنية في لبنان والوضع في الأردن بعد ظهور المشكل الفلسطيني.

الفصل السابع، «المغرب من الاستقلال إلى نزاع الصحراء» (1975-1956)، يدرس الأحداث التي وقعت متزامنة مع تلك التي يتناولها الفصل السابق، في بلدان شمال أفريقيا، تحديدا، مرحلة انتقالها إلى دول مستقلة، ثم الصراعات والأزمات الأولى التي واجهتها في فترة ما بعد الاستقلال: سقوط بن بلا في الجزائر، أزمة الملكية والانقلابات العسكرية في المغرب، الانتقال من الاشتراكية إلى اللبرالية الاقتصادية في تونس، وأخيراً، الثورة الليبية والقذافي في ليبيا.

الفصل الثامن والأخير، «العالم العربي الحالي» (1973 - 1996)، يغطي السنوات الأخيرة والصراعات التي طبعت هذه الفترة من التاريخ الحديث في المنطقة العربية الإسلامية، والتي لا يزال بعضها مستمراً إلى الآن، كالصراع العربي الإسرائيلي.

الكتاب مرجع تاريخي يكتسب أهمية بالغة لكونه مشروعا جد شامل، يغطِّي الحقبة الأخيرة والتطورات التي عرفها العالم العربي الإسلامي المعاصر بدقة تاريخية فريدة وببساطة في الأسلوب، تجعل منه كتابا في متناول الطالب المبتدئ والباحث العلمي المُلِمّ، على حدٍّ سواء.

المؤلف: برنابي لوبيث غرثيا – عدد الصفحات: 351ص – تاريخ النشر: 2000
التوثيق الأجنبي: Bernabé López García. EL MUNDO ARABO-ISLÁMICO CONTEMPORÁNEO. Una historia política. Madrid، 2000
اللغة: الإسبانية

رجال الإسلام: مقاربة للذهنية

كيف تمكنت القِيَم التي نادى بها الإسلام من البقاء على امتداد العصور؟ ومَن هم رجال الإسلام أولئك، الذين رفعوا رايتها ودافعوا عنها منذ القرن السابع؟ وأي منهج، بل أيّ علم، يتيح الحديث عن القيم وحامليها، دون الانزلاق إلى الأحكام المسبقة والأهواء غير العلمية؟ تلك هي بعض أسئلة هذا الكتاب الرائد، كما يطرحها ويسعى إلى الإجابة عنها مؤلفه لوي غارديه، الإختصاصي في الفكر الإسلامي، والذي صرف سنوات طويلة وهو يدرّس الفلسفة المقارنة والدراسات الإسلامية في المعهد الدولي للفلسفة، جامعة تولوز، وصاحب «مدينة الإسلام» و«الإسلام: دين وجماعة».

ينقسم الكتاب إلى أربعة أجزاء، يعالج الأول منها إمكانية استخلاص صيغة تاريخية ملموسة لتمثيل المراحل الأولى مما يمكن اعتباره «ذهنية عربية» سابقة على الإسلام، ومحاولة تشخيص سماتها العامة، في وسطها التاريخي والجغرافي، بغية الإنتقال بعدئذ إلى تلمّس ما أدخله الإسلام على تلك الذهنية، وكيف تبدّلت، ومتى، ولماذا. وفي قسم خاصّ من هذا الجزء يناقش غارديه أثر القول، الخطابة والشعر والبلاغة واللغة عموماً، في تكييف ميول العربي؛ قبل أن يحتسب القيمة النفسية الكبرى لصفات شخصية ترتقي إلى ما يشبه الفضائل الجماعية، أو فضائل الأمّة بأسرها، مثل الكرم والحلم والمروءة والبأس. ولا يفوته التوقف عند مكانة المرأة في المجتمع، وبالتالي دورها التربوي، فيتحدث عن هند بنت الخص، المرأة الجاهلية التي قد تكون بعض أفعالها قد ضُخمت، دون أن تمسّ جوهر شخصيتها الشهيرة الجسورة؛ وكذلك خديجة بنت خويلد، أولى زوجات الرسول؛ وهند بنت عتبة، زوجة أبي سفيان؛ وسواهنّ.

وإذا كان يوافق ابن خلدون في حكمه بأنّ العرب من أصعب الشعوب حكماً أو خضوعاً للحاكم، كما يتحفظ على الآراء التي تقول إنّ مجالس القبائل وأنساق الشوري كانت شكلاً من أشكال «الديمقراطية الأوتوقراطية»، فإنّ غارديه يرفض في الآن ذاته اعتبار المجتمع العربي ـ عشية الإسلام، أو في معظم أطوار الخلافتين الأموية والعباسية ـ محض «إقطاعية بدوية». وفي قسم خاصّ يتوقف عند مصطلح «الموالي»، ويدقق في معناه الأصلي وتطوراته اللاحقة، لكي يخلص إلى مفهوم للمواطنة الإسلامية نجح في ضمّ اليهود والمسيحيين والوثنيين والصابئة والمزدكية. وفي أقسام لاحقة يتطرق إلى صفات العقل والحكمة، والإحسان والإخلاص، وجملة أخرى من السلوكيات التي استجمعتها شخصية الرسول، بعد أن كانت تتفرّق إلى ميول دنوية وأخرى دينية.

الجزء الثاني يخصصه المؤلف لدراسة خصائص الذهنية المسلمة في «العصر الكلاسيكي» كما يسمّيه، فيجهد لترسيم صورة عن المقولات المتنوعة، الاجتماعية والسلوكية والاقتصادية والثقافية، وبالتالي النفسية والتربوية، في نطاق أوسع هو دار الإسلام عموماً، أو في نطاقات أضيق تخصّ مجتمعات بعينها، ذات سمات منفردة نسبياً. وهو يطري تأثيرات احتكاك المسلمين بسواهم، وتنامي مفهوم «الآخر» على نحو أوضح، لكنه يحذّر من الوقوع في فخّ تشويه تلك العلاقة عن طريق استنساخها على غرار ما يجري في حكايات ألف ليلة وليلة، أو ما نقلته مخيلة الإستشراق حول مناخات الشرق الخرافية السحرية، منقطعة الصلة عن الحقائق الفعلية على أرض الواقع وفي قلب المجتمعات.

وفي مناقشة مختلف مقولات المجتمع الإسلامي، يبذل غارديه جهداً خاصاً لتبرئة ساحة المتصوفة مما علق بسلوكهم من أوشاب، عن حسن نية أو عن سابق تصميم في تشويه موقعهم داخل السلّم الفكري والديني والاجتماعي؛ ويفرد لشخصية الحلاج مساحة خاصة في ميدان قمع التصوّف ورمي المتصوفة بالإلحاد، رغم أنه لم يكن الوحيد «المقتول»، في التعبير الصوفي، بل شاركه المصير متصوفان بارزان هما عين القضاة الهمذاني والسهروردي. وضمن سياق مماثل، يعيد المؤلف قراءة شخصية أشعب والطفيليين عموماً، لكي يستنتج أنّ النوادر العربية لم تنصف هذه الفئة، بل أفرطت في إسباغ البشاعة عليها، إلى جانب صفات الطمع والجشع وبشاعة الخلق، لأسباب تتعلق بضيق طبقة الأغنياء من النقد، أو عزوفهم عن مشاركة الناس في النعمة. وهذا أمر تكفّل بفضحه الجاحظ، الذي يخصّه المؤلف بالكثير من الفضل في تنمية مناخ موسوعي، نقدي وفكري إنسيّ، ويطري من خلاله شخصية الكاتب بصفة عامة.

الجزء الثالث يستهدف تكوين «تيبولوجية» دينية، أو مخطط عريض «لأنماط السلوك والتيارات والفِرَق والمدارس، سواء نهضت على ركائز دينية أم إثنية أم فلسفية، ويبدأ من الخوارج في مختلف أرجاء انتشار عقيدتهم، بما في ذلك أقوام البربر في المغرب العربي. ثمّ ينتقل إلى «العالم الشيعي» كما يسمّيه، محتسباً الإعتزال في صفوفه، ومناقشاً مفاهيم علم الكلام والعقل والنقل، وبعدها معاني الغيبة والرجعة، والانقسامات الكبرى في الصفّ الشيعي، مع تفصيل خاصّ للتنوّع الإسماعيلي والفاطمي. وفي استعراض التباينات داخل المذهب السنّي، يشير غارديه إلى صراع الفقهاء على أكثر من جبهة، بعضها يخصّ حماية الفقه من التحوير أو التطوير، وبعضها ينازل الفرق الباطنية والمذاهب المختلفة (كما فعل الغزالي وابن تيمية على سبيل المثال)، وبعضها يجهد لكي تتصف الشريعة بمقدار كافٍ من المرونة لملاقاة تطلبات الحياة وتغيّر أحوال الدنيا.

وخلاصات غارديه، في الجزء الرابع، توجز ملامح الذهنية في أحقاب الإنحطاط، وتقدّم نقداً معمقاً للأحكام المسبقة التي نهضت عليها معظم الدراسات الغربية حول هذه المواضيع، كما تقترح صيغة تركيبية تاريخية ـ إيديولوجية للتحوّلات الكبرى التي طرأت على ذهنية المسلم منذ فجر الدعوة، واحتمالات تطوّرها في ظلّ المعطيات الراهنة لواقع علاقة الإسلام بذاته وبمحيطه. ومراجعه العربية الواسعة، وكشوف المصطلحات وأسماء العلم والأماكن، تُضفي مصداقية عالية على غالبية تلك الخلاصات.

المؤلف : لوي غارديه – عدد الصفحات : 445ص – تاريخ النشر : 1999
التوثيق الأجنبي: Louis Gardet. Les Hommes de l'Islam: approche des mentalités. Editions Complexe، Paris 1999
اللغة : الفرنسية

العالم المسلم: من الأصول وحتى القرن الحادي عشر

يعتبر المؤلف، وهو أستاذ تاريخ القرون الوسطى في جامعة بواتييه، أنّ الإسلام ليس ديانة فحسب، بل هو حضارة أشرقت وازدهرت وانبسطت من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي خلال أقل من قرن، ولا تزال شواهدها حاضرة في أوابد خالدة مثل قصر الحمراء في غرناطة، والجامع الأموي في دمشق، وأعجوبة تاج محل في الهند. وفي أعماله السابقة عبّر فيليب سيناك عن هذه الأطروحة، في سياق محدد هو احتكاك تلك الحضارة بالغرب، كما فعل في كتابَيْه «صورة الآخر»، و«علاقات بلدان الإسلام مع العالم اللاتيني: من القرن العاشر وحتى الثالث عشر».

وهو يشدد دائماً على أنّ سطوع هذه الحضارة ينبغي أن لا ينسينا حقيقة أنّ تاريخ الإسلام ليس معروفاً بما يكفي، ومن المؤسف أنه يُختزل أحياناً إلى مشاهد سياحية هنا وهناك، أو إلى مصطلح غائم مثل «الجهاد»، أو منظمة مثل «القاعدة»، وسوى ذلك من مسائل سياسية تزيد في إساءة فهمها طرائق استخدام مفردة «الإسلام» في الإعلام العالمي اليومي. كتابه هذا يستهدف، إذاً، تزويد الراغب في معرفة الإسلام بإطار زمني يسرد أهم الوقائع، وبمعطيات أساسية جوهرية من حول تلك الوقائع، عن جوانب الإسلام السياسية والاجتماعية والاقتصادية، تساعد في استكمال البحث المستقبلي.

وفي قسم خاص عنوانه «مذاكرات وأدوات»، يعرض المؤلف السمات الرئيسية للدين الإسلامي، من خلال شرح المسائل المتصلة بالقرآن الكريم، والحديث النبوي، وأركان الإسلام، وموقع المسجد في حياة المسلمين، والخلاف داخل الصفّ الإسلامي، وأصول مفردة «عربي»، وسواها. كما يضيف مسرد مصطلحات تمّ اختيار محتوياته بعناية، وشاء المؤلف إدراجه في مستهلّ الكتاب ليكون بمثابة دليل يخدم القارىء، على نحو قاموسي تقريباً.

والفصل الأول، الذي يحمل عنوان «جزيرة العرب عند نهاية القرن السادس»، يبدأ بعرض إطار المنطقة الطبيعي، وموقعها الجغرافي، وخصائصها المناخية؛ ثمّ ينتقل إلى شرح الخصائص السكانية وأنماط العيش والعمل، بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وبين «العرب العاربة» و«العرب المستعربة»، وأشكال التنظيم الإداري، والأنشطة التجارية والاقتصادية والاجتماعية (ولا يغفل المؤلف الإشارة، هنا، إلى المعلقات ودور الشعر والشاعر عموماً). وبعد استعراض العقائد السابقة على الإسلام، في ما يخصّ الحرم والكعبة والأحناف، وليس عبادة اللات والعزى فحسب، يبلغ سيناك خلاصة وجيزة حول تأثر جزيرة العرب بالنزاعات التي كانت قائمة في أواخر القرن السادس بين الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، وأهمية تجارة القوافل في حياة قريش ومدينة مكة تحديداً.

الفصل الثاني يخصصه المؤلف لحياة الرسول وبدايات ظهور الدعوة، فيتناول سلالة النبي في فرعها الهاشمي، ثمّ يسرد الحوادث البارزة في تلك الفترة: زواج النبي من خديجة بنت خويلد، ونزول الوحي، وأوائل المؤمنين بالديانة الجديدة، وردود فعل قريش، والهجرة إلى المدينة. وفي هذا الشطر لا يكتفي سيناك باستعراض حروب الرسول مع المشركين، في بدر وأحد والخندق، ومشكلاته مع يهود المدينة، بل يتطرق كذلك إلى اهتمامه بالركائز الأولى في بناء الدولة وتنظيمها، واعتماد السنة القمرية والتقويم الهجري.

الفصل الثالث يتناول الخلفاء الراشدين، والوضع العام في جزيرة العرب ساعة وفاة الرسول، وظهور بعض حركات المعارضة، ، كما يرصد كيفية تنظيم الأراضي بعد استكمال الفتح. ويُختتم الفصل بعرض لوقائع الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان ومبايعة علي بن أبي طالب، ومعركة صفين، وصعود الأمويين، فيستخلص سيناك أنّ هذه الفترة العاصفة من عمر الإسلام شهدت نجاحات خارجية باهرة، وصراعات داخلية قاتلة، وفيها انقسم المسلمون إلى سنّة وشيعة وخوارج، وذلك خلال أقل من جيل واحد بعد وفاة الرسول.

الخلافة الأموية، موضوع الفصلين الرابع والخامس، هي أطوار السياسة والدولة والمؤسسات، إذ رغم الصعوبات العديدة التي واجهها الخلفاء الأمويون، والنقد الشديد الذي تعرّضوا له، وحركات المعارضة والإنشقاق، فإنّ القرن الأموي في نظر سيناك هو مرحلة بذل أقصى الجهود الخلاقة لبناء الدولة على أسس متينة، وتنظيم الإدارة، والتعريب، والعمران المضطرد الذي أتاح صعود مدن مثل البصرة والكوفة والقيروان. وهو، هنا، يميّز ثلاث مراحل: الإضطرابات التي أعقبت وفاة معاوية، والإستقرار الذي رسّخته خلافة عبد الملك رغم تعاظم معارضة الشيعة والخوارج، ثمّ بروز مجموعة جديدة من المصاعب التي انتهت إلى سقوط الخلافة على يد العباسيين.

في الفصلين السادس والسابع يتناول سيناك الخلافة العباسية، والقرن المضطرم الذي شهد توطيد سلطة بغداد، ومحاربة حركات التمرد والعصيان في صفوف الخوارج والشيعة، وبدايات ضعف الخلافة كما تمثلت في واقعة اغتيال المتوكل سنة 861، وتنامي نفوذ قادة الجند خصوصاً بعد قمع حركات الزنج والقرامطة والثورات المدينية والفلاحية الأخرى. وخلال أقل من عشر سنوات، تمكن البويهيون من وضع خاتمة حزينة لخلافة امتدت على قرنين، وشهدت إزدهاراً اقتصادياً وتجارياً وثقافياً وعلمياً باهراً في نظر سيناك، الذي يضرب ابن سينا والرازي مثالَيْن على تألق تلك الحقبة.

وفي فصول لاحقة، تسير على منوال منهجي مماثل، يتحدث المؤلف عن أفريقيا الشمالية، والأندلس، ومصر، والحمدانيين، والغزنويين، والبويهيين، كما يختتم الكتاب بعدد من الوثائق المختارة التي تعين القارىء، وتشكّل فضيلة إضافية لهذا الكتاب المفيد.

المؤلف : فيليب سيناك – عدد الصفحات : 192ص - تاريخ النشر : 1999
التوثيق الأجنبي: Philippe Sénac. Le monde musulman des oringines aux XI siècle. SEDES، Paris 1999
اللغة : الفرنسية

تحدي الإسلام: الأزمة الطويلة للعالم العربي المعاصر

«تحدِّي الإسلام» للمستعرب الكبير والخبير بشؤون العالم الإسلامي، بيدرو مرتينث مونتابث، الذي يعمل حاليا كأستاذ شرَقيّ بجامعة لا أوتونوما بمدريد، كتاب يتحدَّى الفكر النَّمطي السائد في الأوساط الغربية عامَّة، دون استثناء الثقافية منها، التي تشكو الكثير من القصور أو اللامبالاة فيما يخصُّ تحرِّي الحقائق وتوثيقها عندما يتعلَّق الأمر بالإسلام.

يقوم مونتابِث من خلال هذا الكتاب بمقاربة للثقافة الإسلامية، بهدف فهم هذه الظاهرة الدينية السياسية التي قُدِّمت في المجتمعات الغربية بشكل جدِّ سلبي ومجتزأة، وهكذا أمام تيارات التهويل التي تنزع إلى تصوير الإسلام كالخطر الأول الذي يتهدَّد «العالم الحرّ»، يرى الكاتب أن هذه الطُّروحات هي الثمرة البديهية لجهل تاريخي عميق، إن لم تكن لمبالاة ثقافية أو تحقير الفرد الغربي المثقف لكلِّ ما هو إسلاميٌّ عربيّ.

يقف الكاتب برَوِيَّة عند كل هذه النَّظريات التي نشأت حول «صدام الحضارات» المزعوم، ويستحضر التاريخ ليكون شاهداً له وحليفاً على هدم هذه التصوُّرات والأحكام المكرورة حتى الثمالة، دون تمحيص ولا استدعاء للأسباب التي تقف خلفها. لذا، يَعْمَدُ مرتينث مونتابث إلى مراجعة حيثيات الأزمة الطويلة التي يعبرها العالم العربي المعاصر، منذ الاستقلال إلى تداعيات حرب الستة أيام، ليفسِّر ظاهرة انبثاق الحركات الإسلامية من جديد، كبديل لحلم الوحدة العربية المُجهَض، الذي مثَّلته، إلى حدٍّ كبير، قوميَّة عبد الناصر، ذات الطابع الاشتراكي قبل أن تُتوَّج بالفشل الذريع.

تقع الدراسة في فصول أربعة –تتفرع إلى عناوين ثانوية– و»كلمة أخيرة» تختم الكتاب. الفصل الأوَّل، «التحدِّي الجديد للرسالة الدينية»، يعطي نظرة شاملة عن الإسلام وتعريفاً واسعاً لهذا المفهوم، منوِّهاً بتعددية المنحى والأسلوب داخل الفكر الإسلامي، ومشيراً إلى الجوانب الموحِّدة التي تجمع كل المسلمين والمبادئ التي قد تتعدَّد عندها الآراء أو تختلف عندها المواقف. ثم يتأمل عن كثب نظرتين متضاربتين، يتراءى الإسلام من خلال أُولاها ديانة تسعى إلى تحرير الإنسان، ومن خلال الثانية دينا يحفِّز على العنف ويمتهِن كرامة الإنسان. وكنقطة أخيرة، يعالج قضية الإيديولوجية الدينية كمحرَّك ثوري أو نواةٍ للتطرف الديني.

الفصل الثاني يركِّز بشكل خاص على واقع «العالم العربي المعاصر» ويتناوله من منطلق حقيقته الجغرافية والتاريخية وحقيقته –أو حقائقه– الروحية، مسلِّطا الضَّوء على الواقع الملموس وسلبياته واحتياجاته، وعلى الحقيقة الروحية وإمكانياتها.

الفصل الثالث، «الفكر السياسي المعاصر في العالم العربي الإسلامي»، والذي يشغل حيِّزا مُهِماً من الكتاب، يتطرَّق لقضية الفكر السياسي في العالم العربي الإسلامي، ويتوقَّف عند مسألة حسَّاسة، وهي النزعة الاختزالية في الغرب التي تختصر الفكر الإسلامي في التَّطرف، دون حتى أن تتساءل إذا ما كان هناك تطرُّف واحد أم عدَّة، فكر واحد أم تيارات مختلفة داخل الفكر نفسه، ولربما كان يكفي أن تتوقف عند فكرها المتعدِّد لتستنبط أن الفكر السياسي لا يمكن أن يشكِّل كتلة واحدة، أحادية المنحى. ومن هذا المنطلق، الذي يأخذ بعين الاعتبار تنوُّع المشهد السياسي في العالم العربي الإسلامي، يشرع الكاتب في مراجعة مراحل التطور التي مرَّ بها الفكر السياسي في هذا الإطار، وتأثير التيارات الخارجية التي لعبت دوراً أساسياً في تحوُّر هذا المشهد، سواء تُرجِم هذا الأثر في سلسلة من الإنجازات أو المثاليات أو حتى الإحباطات.

الفصل الرابع والأخير عبارة عن نظرات أو تأملات مستقبلية حول مصير الإسلام. وفي هذا الصدد، يقول مرتينث مونتابث إن المستقبل مرهون بالتفاهم الداخلي والوفاق ما بين مختلف التيارات المتنافرة قبل كل شيء، ثم مرهون بفهم الآخر. وهنا يرى مونتابث أن الحركات الإسلامية المتطرِّفة لا مستقبل لها ولا لرسالتها الدينية السطحية المتعصبة في إطار ثقافة كونية تحتضن كل الأطياف. وإلى جانب هذه التَّكهُّنات أو الفرضيات، يُعرِب الكاتب عن قناعته الرَّاسخة بأن الإسلام سيظل سِمةً لهوية العالم العربي، بينما ينبغي على العالم الغربي أَن يتوقَّف عن سياسة الكيل بمكيالين وعن التعامل مع هذا الكيان القائم بذاته كهدف لتجربة استعمارية جديدة أو التدخل السَّافر في شؤونه الداخلية، بحُجَّة دَمَقْرَطَة أو عصْرَنة لم يسأله إياها.

«في الأخير» كلمة أخيرة يختتم بها الكاتب هذه الدراسة القيِّمة، ويدعو القارئ من خلالها إلى أن يُمعِن النَّظر قبل أن يصدر الأحكام الجاهزة.

يشير مونتابِث إلى أن أزمة كالَّتي يمرُّ بها العالم الإسلامي لا تملك «حلولاً سحرية»، كما لا تملكها أية أزمة من هذا القبيل –إذ أن الأزمات لا تقتصر على العالم الإسلامي فحسب–، إلا أن الإنسان يملك «المصباح السحري والمارد» معاً، والعالم العربي لا يشذُّ عن هذه القاعدة. استيعاب هذه الحقيقة يشكِّل تحدِّياً ليس فقط للعالم الغربي، بل قبله تحدِّيا للإسلام والعالم العربي.

في «تحدِّي الإسلام» استطاع الكاتب، بقراءته المتمعِّنة للإسلام واستقرائه لواقعه الملموس وإطاره الجغرافي والتاريخي، ولبعده السياسي والاقتصادي والديمغرافي، أن يرسم بوضوح مشهداً معقَّداً، بما يميِّزه من تعدُّدية وتنوُّع، واستطاع بذلك إبراز ما هو بديهي، لكنه مع ذلك، ما زال يُنكَر.

المؤلف: بيدرو مرتينث مونتابث – عدد الصفحات: 259ص – تاريخ النشر: 1997

التوثيق الأجنبي: Pedro Martínez Montávez. EL RETO DEL ISLAM. LA LARGA CRISIS DEL MUNDO ÁRABE CONTEMPORÁNEO. Temas De Hoy، Ensayo، Madrid، 1997

اللغة: الإسبانية

الأبعاد الصوفية للإسلام-تاريخ التصوف

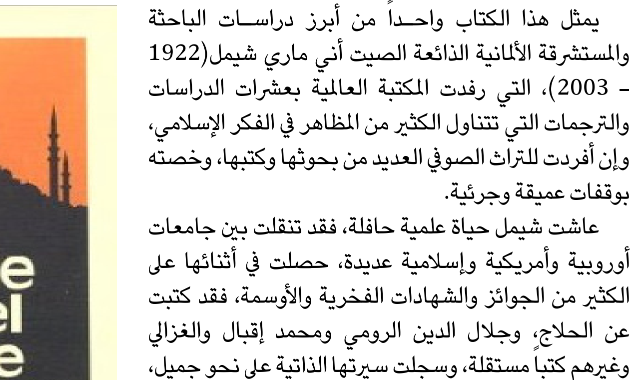
يمثل هذا الكتاب واحداً من أبرز دراسات الباحثة والمستشرقة الألمانية الذائعة الصيت أني ماري شيمل(1922 – 2003)، التي رفدت المكتبة العالمية بعشرات الدراسات والترجمات التي تتناول الكثير من المظاهر في الفكر الإسلامي، وإن أفردت للتراث الصوفي العديد من بحوثها وكتبها، وخصته بوقفات عميقة وجرئية.

عاشت شيمل حياة علمية حافلة، فقد تنقلت بين جامعات أوروبية وأمريكية وإسلامية عديدة، حصلت في أثنائها على الكثير من الجوائز والشهادات الفخرية والأوسمة، فقد كتبت عن الحلاجٍ، وجلال الدين الرومي ومحمد إقبال والغزالي وغيرهم كتباً مستقلة، وسجلت سيرتِها الذاتية على نحو جميل، والمعروف أن شيمل تكونت صوفياً، بمعنى من المعاني، فقد رأت في التصوف بعداً إنسانياً عالمياً، والملاحظ كذلك أنها تتماهى مع دراساتها، فتعيش فيها على نحو رائع، وتذوق تجارب أصحابها، وإن ظلت قادرة على أن تتمتع بحياد علمي وقدرة رائعة على التحليل.

توضح شيمل في مقدمة هذا الكتاب أن دراستها تسعى لتحليل التصوف الإسلامي من منطلقين: منطلق تاريخي تتبع فيه تطور هذه الظاهرة وتحولاتها، وآخر ظاهراتي تدرس فيه الصوفية بوصفها ظاهرة تدرس كما تدرس الظواهر الانسانية المركبة، لكن شيمل توضح في مقدمة الكتاب أن الكتابة عن تاريخ التصوف على نحو تاريخي، يشمل تجلياته التاريخيةٍ في الأقطار الإسلامية منذ نشأته إلى يوم الناس هذا، مروراً بالعصورِ الأموية والعباسية والأندلسية والعثمانية، يبدو مستحيلاً منذ الخطوة الاولى، وكلما سار المرء قُدُماً في هذا الطريق أدرك صعوبة الوصول إلى الهدف؛ لهذا توضح شيمل أن كتابها هذا الذي يبلغ سبعمائة صفحة أو يزيد سيضع الخطوط العريضة للصوفية، مشيرة في الوقت نفسه إلى ضخامة المصادر والدراسات التي درست هذا التاريخ وتلك الظاهرة، ويجد المتتبع للكتاب أن عدد صفحات المصادر تقع بين صفحتي 621 و665، لكن شيمل وهي شاعرة تكتب الشعر الصوفي بالألمانية والإنجليزية وبغيرهما من اللغات، تشير في مقدمة الكتاب أنها ستفرد جزءاً من كتابها هذا للكتابة الصوفية بوصفها حمالة أوجه، متوقفة عند الشعر الصوفي في لغاته الإسلامية العديدة وعصوره المختلفة وأقطاره المتباينة؛ لتكتشف روح خطابه الذي يشكل أرضاً لاحتمالات شتى.

يتكون هذا الكتاب من ثمانية فصول هي:

1. ما هي الصوفية؟. 2. تطور الصوفية التقليدية.
3. السبيل 4. الإنسان والطريق إلى الكمال
5. الطرق الصوفية والتآخي الصوفي.
6. الصوفية والثيوصوفية.
7. الورد والبلبل: الشعر الصوفي الفارسي والتركي.



8. الصوفية في باكستان والهند.

يدرك قارئ هذه الفصول الثمانية عمق معرفة شيمل بتاريخ الصوفية الإسلامية في مصادرها العربية والفارسية والتركية والأوردية وفي الكتابات الإستشراقية بطبيعة الحال.

توضح شيمل مفهومها للتصوف من خلال تطواف رائع يجمع بين التتبع التاريخي والتحليل النصي، بعدها تعود شيمل لتحكي تاريخ التصوف منذ صدر الإسلام، وتتوقف عند رواد الصوفية، وعند أعلامها، الحلاج والشبلي والغزالي.

بعد هذا الحديث التاريخي المستوعب القادر على إبراز معالم اللحظة الصوفية، تعود شيمل إلى الظاهرة الصوفية فتتوقف في الفصل الثالث عند مدارج السالكين، فتناقش الخطوات التي يتوجب على المريد أن يسلكها للوصول. بعدها تتوقف عند بعض المظاهر الفكرية في الصوفية، كالخير والشر والشيطان في رؤية بعض المتصوفة، ومن الضروري أن يشار في هذا المقام إلى تعاطف بعض المتصوفة معه كالحلاج كما يتبين ذلك في «الطواسين» وفريد الدين العطار وغيرهم. بعدها تناقش مفهوم الكرامات وعشق الصوفية وتقديسهم للرسول الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، لتنتقل بعدها إلى المظهر الإجتماعي للتصوف؛ فتتحدث عن التآخي الصوفي والجماعات الصوفية.

تناقش شيمل بعدها بعض المظاهر الفكرية والفلسفية كالثيوصوفية التي تعني الحكمة الآلهية، كما برزت عند السهروردي وابن عربي وابن الفارض لتعود فتتحدث عن رؤية ابن عربي لوحدة الوجود.

يشكل الجزء الأخير من الكتاب الأبعاد الفنية والجمالية للتصوف، وإذا كان الإستشراق يتهم في العادة، بضعف مستوى تذوقه للنص الشعري العربي والإسلامي؛ فإن في كتاب شيمل وقفات تحليلية جميلة، تدرس الشعر الصوفي في بلاد فارس وتركيا، وتفرد لفريدِ الدين العطار ومولانا جلال الدين الرومي حديثاً تحليلياً رائعاً. وإذا كان المستشرق الالماني هلموت ريتر(1892– 1971) قد سبق له أن أصدر دراسة باهرة عن فريد الدين العطار بالألمانية سمّاها «بحر الروح» صدرت عام 1955 ولم تترجم إلى العربية. فإنّ دراسة شيمل تختلف عن دراسة ريتر، فكتابة شيمل عن التصوف كتابة متذوق له، قريبِ الاحساس بتجربة أصحابه، في حين تأخذ دراسة ريتر طابعاً تحليلياً عميقاً، فيه صرامة الناقد الأكاديمي والدارس التحليلي المتعمق.

تعود شيمل لتتحدث عنِ التصوفٍ في الموروث الشعبي التركي، وتفرد بعدها حديثاً طويلاً للصوفية في باكستان والهند؛ لتعطيِ للشاعر الباكستاني محمد إقبال(1877–1938) مكاناً بارزاً في هذا السياق، ومن المهم أن يشار هنا إلى أن شيمل قد توقفت عند إقبال فيٍ دراسة لها، وترجمت شعره إلى الألمانية ترجمة شعرية، نقلاً عن اللغة الأوردية في ديوان سمته «رسالة مشرق» التي يرد فيها إقبال على غوته في ديوانه الشهير «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» لتختم حديثها بالحديث عن التصوف في اللغات الهندية المحلية.

هذا كتاب موسوعي، يتناول ظاهرة مركبة، عابرة للقرون، تبدأ من صدر الإسلام وما تزال تأخذ أبعاداً شتى، وتجليات لا تنتهي، وهو كتاب علمي، مشرق الأسلوب عظيم الفائدة، ومن الضروري أن يشار إلى أنها وضعت أبياتاً شعرية في مقدمة واحد من كتبها، الصادر بالألمانية واسمه «وأن محمد رسول الله» تقول:

قد لا أكون مؤمنة، وقد أكـــــون
أما حقيقتي فالله وحده؛ هو العالم بــها
ولكنّي أرغب في أن أضع نفسي خادمة
للأميـــر الأعظـــم في المـــدينة

وهي أبيات شعرية أثارت الكثير من الأسئلة والتحليلات، وجعلت الباحثين يتوقفون طويلاً عند دلالاتها ومراميها.

المؤلف: أني ماري شيمل – عدد الصفحات: 734ص –تاريخ النشر : 1995

التوثيق الأجنبي: Anne marie Schimmel. Mystische Dimensionen des Islam. Die Geschichte des Sufismns. Muenchen، Diederichs: 1995

اللغة: الألمانية

التصوف في مصر وسورية

المؤلف، وهو أستاذ الإسلاميات في جامعات ستراسبورغ (فرنسا) وبرشلونة (إسبانيا) ولوفان (بلجيكا)، يُعدّ أحد أبرز اختصاصيي التصوّف في صفوف الباحثين الفرنسيين المعاصرين، وله حول الموضوع مجموعة أعمال، بينها: «مدخل إلى التصوف»، و«جهاد وتأمل: حياة وتعاليم متصوّف أثناء الحروب الصليبية»، و«البرهة الصوفية». في كتابه الضخم الذي نعرض له، اختار إريك جوفروا التركيز على التصوف في نطاق «الإسلام السوري ـ المصري»، كما شاء أن يسمّي الإطار الجغرافي لعمله، وضمن فترة تاريخية حافلة تمتد على قرن ونيف.

وهو يعتبر أنّ التصوف في أواخر العهد المملوكي تميّز بالتعددية و«التراخي المذهبي»، وشيوع طرق صوفية عديدة في آن معاً، واتباع شيوخ ذوي اتجاهات روحية متباينة، وطبائع مختلفة. كذلك يقرّ المؤلف بأنّ التصوف حظي، في تلك الفترة، باعتراف واسع من ثقافة أهل السنّة والجماعة، وبخاصة في بلاد الشام ومصر، بفضل استناده على «الأنموذج النبوي» و«انبهار المجتمع بفكرة الولاة». ومع ذاك، فإنّ الخلاف ظل محتدماً بين الصوفية والعلماء المتشددين، والمفارقة أنه أسفر عن تعزيز التصوف بسبب تلك النزاعات تحديداً.

الجزء الأول من الكتاب يركز على المقاربة التاريخية للمسألة، وينقسم إلى ستة فصول تتناول النطاق الجغرافي للبحث، وإطاراته الزمنية، والمراجع الرئيسية التي استند إليها، سواء أكانت تاريخية أم أدبية أم أعمال تراجم، فضلاً عن الأعمال الحديثة العربية والأجنبية التي درست التصوّف. ويبحث جوفروا، بتفصيل جيد، الهياكل السياسية والوظائف الاجتماعية في الحقبة المملوكية، ويتوقف بتفصيل مماثل عند أدوار العلماء في دمشق والقاهرة، وتأثير الأقليات الإثنية، وتباين المذاهب (الشيعة في مواجهة فئة العلماء)، أو اختلاف الدين (مثال اليهود والمسيحيين). ويختم هذا الجزء بفصل خاصّ عن التيارات الكبرى في المذهب السنّي المملوكي، والنتاج الأدبي والثقافي الموسوعي، والعلائم الأولى على دنوّ عصر الإنحطاط.

الجزء الثاني يناقش العلاقة بين التصوف والمجتمع الإسلامي، والوشائج التي ربطت المتصوفة بالسنّة، والتناغم العالي بين السلوك الصوفي والأحاديث النبوية. وفي فصل خاصّ يرصد المؤلف خمسة أنساق من حضور «الصلاح» في الحياة العامة: حجاب الولاية، الذي يتمتع به «رجال الحقّ المستورون»؛ و«أقطاب العالم الخافية»، أو «رجال الغيب»؛ والتوسط بين عالمين، أو «الشفاعة»؛ وإحقاق التكامل بين دور «الفقيه» وموقع «الحقير»؛ وتثبيت الزاوية كمؤسسة في خدمة الجماعة، وفي منح «الكرامات».

بعد مناقشة مبدأ «الصلاح»، الذي يخصّ علاقة المتصوف بالجماعة، يتناول المؤلف علاقة المتصوف مع الأمير والحاكم، ويتابع تلك الصلات على المستويات التالية: شرعة متفق عليها في تنظيم العلاقة، وولاء علني للمتصوف الصالح، وحلف وثيق بين الطريقة أو النظرية (على غرار مبدأ «وحدة الوجود» مثلاً) ومؤسسة الحكم. ويضرب جوفروا أمثلة من طبائع العلاقات بين حكام المماليك والعثمانيين من جهة، وكبرى الطرق الصوفية في تلك الفترة، من القادرية إلى النقشبندية والشاذلية والرفاعية، من جهة ثانية.

الجزء الثالث من الكتاب يناقش عالم التصوف التعددي ومختلف أنماط الإنتساب إليه، من مرتبة المعلّم الأوحد (أو «شيخ التربية»)، إلى الشعائر المختلفة التي تتضمن «إلباس الخرقة» و«عهد العهد» الأشبه بمبدأ البيعة، و«تلقين الذكر»، وما إليها. وفي فصل خاصّ يعدّد جوفروا أبرز تيارات التصوف في مصر (الأحمدية، المطوعية، الشاذلية، الوفائية، الحنفية، الرفاعية، القادرية، السهروردية، الخلوتية، العويسية...)؛ وفي سورية (اليونسية، الخواطرية، الختمية، الرفاعية، السعدية، القادرية، الموصلية، الصمدية، البسطامية، المولوية، الأدهمية، الحمدانية...). ولا يختم هذا الجزء دون أن يقيم الوشائج المقارنة والتأثيرات المتبادلة بين التصوف في سورية ومصر من جهة، والتصوف البكتاشي من جهة أخرى، حيث يرى أنّ هذا الأخير شكّل بوتقة انصهرت فيها تأثيرات شامانية ومسيحية وشيعية وحروفية، بين طرق وتيارات أخرى أقلّ شيوعاً.

أما التصوف المغربي فتتجلى تأثيراته في حركة الهجرة الكبرى التي جاءت بكبار المتصوفة المغاربة والأندلسيين إلى المشرق، وبلغت ذروتها في القرنين السادس والسابع للهجرة، حتى أنّ المرء لا يكاد يتخيل التصوف المشرقي دون أفكار وأعمال رجل مثل محي الدين ابن عربي، صاحب «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية».

الجزء الرابع من الكتاب يتالف من ستة فصول، ويسعى إلى تكوين ما يشبه «النمط الروحي» لشخصية المتصوف: الزاهد، العالِم، العامل، الشيخ الأمّي (في مسائل العلم المكتسب، والعلم الموحى به، والعلم الفطري)، «المجذوب» الذي يتسم سلوكه بالبركة والكشف... واعتماداً على هذا التنميط، المفيد تماماً، يناقش جوفروا نُظُم تراتبية المتصوفة فردياً وجماعياً.

والجزء الخامس، وهو بين الأقسام الأكثر حيوية، يتابع المواجهات والسجالات والنزاعات بين «الفقهاء» و«الفقراء»، أو في عبارة أخرى: بين العلماء الذين يعتبرون أنفسهم أوصياء على فقه السنّة والشريعة، والمتصوفة الذين يضعون القدوة النبوية نبراساً لسلوكهم وتفكيرهم وتفسيرهم لشؤون الدين والدنيا والآخرة. وهنالك، بالطبع، مسائل «التكفير» و«التأويل» و«الإصلاح» و«الفتوى» و«الكشف» و«العيان» و«المذهب» و«الكلام»، وما إليها من موضوعات دارت حولها سلسلة مجابهات صنعت قسطاً وافراً من الحياة الفكرية، وليس الدينية وحدها، في أصقاع الإسلام.

وإلى جانب كشّاف بالأعلام والأماكن، يعقد جوفروا كشافاً ثالثاً خاصاً بالمصطلحات الصوفية، يتميز بالغنى والدقة، وكشافاً رابعاً للمفردات والمصطلحات العربية العامة وذات الشأن.

وبهذا فإنه يستكمل عملاً متميزاً، فيه الكثير من جهد البحث ورصانة الإستنتاج وشغف المعرفة.

المؤلف : إريك جوفروا – عدد الصفحات : 595ص – تاريخ النشر : 1995
التوثيق الأجنبي: Eric Geoffroy. Le soufisme en Egypte et en Syrie. Institut Français de Dams، 1995
اللغة: الفرنسية

الإسلام في صراعه بين الموروث والعصر الحاضر

صدر هذا الكتاب في سلسلة تحمل عنوان: دراسات علمية في الأديان التي يحررها أ. خوري ولودفيج هاغي مان. ويحمل الكتاب الرقم (24) في هذه السلسلة.

يعد اسماعيل بالك (1920 - 2002) من المستشرقين المعروفين، وقد حصل على درجة الدكتوراه عام 1945م في علم المكتبات من جامعة ڤيينا في النمسا، ودرس في غير جامعة أوروبية، وكان أول مدير لمعهد الدراسات البوسنية، لأن البوسنة ثقافة وتاريخاً ظلت محور أبحاث باليك واهتماماته العلمية.

يتكون هذا الكتاب الذي يقع في 240 صفحة من القطع المتوسط من ثلاثة فصول كبرى هي: 1.الإسلام: كيف يعي ذاته؟ 2. الإسلام والمجتمع 3.الارتباط بتقاليد قديمة.

تسعى الفصول التسعة الأولى التي يتكون الفصل الأول منها، إلى تقديم الإسلام من منظور يغاير المنظور الإستشراقي تماماً، وإن كان يستخدم آلياته ومصطلحاته.

يحرص باليك على تقديم الإسلام تقديماً يتسم بالوضوح والبساطة والدقة، وعدم الجدل مع الطروحات الإستشراقية، التي يقدم نقداً لها من خلال رسمه للاسلام ومصادره ورموزه من وجهة نظر مغايرة. فالكتاب يبين مثلاً أهمية شخصية الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، في الإسلام لكن باليك يحرص على أن يبين أن هذه الأهمية تختلف عن تلك التي حاول الإستشراق تبيانها والتركيز عليها. فالرسول، صلى الله عليه وسلم، بشر بكل ما في الكلمة من معنى لا تضفي عليه العقيدة الإسلامية منحى غير بشري، لهذا تراه يرفض تسمية المسلمين بالمحمديين. كما أن الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، بشر يوحى إليه، لهذا فهو ليس مؤسس الإسلام Stifter كما يقال في أدبيات الإستشراق بل هو رسول الإسلام، من هنا يفرد باليك دوراً مهماً للوحي بوصفه ناقلاً للنص القرآني إلى الرسول الكريم.

ينتقل باليك في الفصل الثاني من الكتاب المكون من سبعة فصول إلى المستوى الاجتماعي، أي إلى العقيدة في تمظهراتها المجتمعية. وفي هذا الفصل يناقش باليك مشكلات اجتماعية وعلمية وسياسية، فيتوقف عند الزواج، ووضع المرأة في الإسلام (الموضوع الاكثر بحثاً في الغرب) وعن الطب والأمراض وعن الإسلام في مجتمع يقوم على التعددية. وعن العلاقة بين الدين والسياسة.

يتعرض باليك في هذا الفصل لقضايا مجتمعية خلافية. لهذا تتغيّر نبرة خطابه ويبدأ أكثر اتفاقاً مع الإستشراق والمستشرقين في هذا التناول. ويشير إلى أدبياته المعروفة في هذا المجال. ولمّا كان باليك لا يتوقف عند النص الديني المقدس، بل يحلل طبيعة المجتمعات الإسلامية عموماً وموقفها من هذه المسائل، فإنه كان أكثر قدرة على تحليل تلك الظواهر من منطلق نقدي، وهو يرى أن ما تعانيه تلك المجتمعات من تخلّف يرجع، بالدرجة الاولى، إلى غياب الوعي، وإلى النقص الواضح في التعليم السليم وفي التنمية.

بعدها يتحدث باليك عن الحركات في الإسلام المعاصر. وعن أبرز أعلامها وعن الاختلافات بينها وينهي حديثه بإشارة دالة حيث يتوقف عند كل من الماوردي في «الأحكام السلطانية» والجويني. وفي حين يبدو له الماوردي منظّراً مثالياً لمسألة العلاقة بين الإسلام والدولة. يبدو له الجويني منظراً يتسم بالواقعية. وتمثل تنظيراته إرهاصاً لمسألة فصل الدين عن الدولة.

في الفصل الثالث تأخذ المسائل أبعاداً فلسفية، ويتم مناقشة مجموعة من القضايا تتصل بالهوية الإسلامية، والصلة بين النص والواقع، ودلالات الأصولية الإسلامية، وبنية السلطة التشريعية في الإسلام والصراع بين الإيمان والروح النقدية والإسلام والقومية. في مسألة الهوية يرى باليك أن ما يعرف بالحركات النهضوية في الإسلام ماتزال تعاني من مسألة الـ Nativism ، وهو مصطلح متعدد الوجوه، فهو قد يعني تقديم مصالح السكان المحليين على غيرهم من مصالح المهاجرين. وقد يعني الرغبة في إحياء الثقافات الفرعية وتعزيز دورها، وهو عند ديكارت يشير إلى أنّ المرء لا يكتسب قدراته من خلال العلاقة مع محيطه الخارجي، بل من خلال قدراته واستعدداته الموروثة لكن باليك يرى أن الحركات الإسلامية ظلت تتوقف عند المعالم الكبرى في ثقافاتها، وتسعى إلى ربطها بالإسلام معتقداً وتاريخاً. وفي حديثه عن الإيمان والروح النقدية وكيفية التعايش بينهما يوضح باليك أن هذه المسألة لا تختص بدين دون غيره، وأنها موجودة في المسيحية واليهودية، لكن منسوب الانتقاد يقل في المجتمعات المغلقة. ويخلص إلى أن الانتقاد في ضوء علم اللاهوت الحديث، يسعى إلى توظيف العلم على نحو غير مباشر، لصيانة العقيدة، اعتماداً على العقلانية.

في هذا الفصل يناقش باليك بتركيز واختصار مسائل تهدد الذات أو النص أو الوعي أو الإيمان أو الانتماء، يدعو إلى المزيد من الانفتاح والوعي مثلما يدعو إلى الابتعاد عن الشمولية، ويتحدث عن وضع المسلمين في الدول الشيوعية، في السابق، ويبين ما وقع لهم من اضطهاد جرّاء تلك النظم الشمولية.

والخلاصة أننا أمام كتاب يغاير الرؤية الإستشراقية في تصوير الإسلام معتقداً ورموزاً وتاريخاً، ولكنه يسعى بعد ذلك إلى تشخيص الواقع الإسلامي، ويقدم من الأسئلة أكثر مما يقدم من الإجابات.

أما مصادره فهي كثيرة ومتعددة ومتنوعة وغنية، تجمع بين النص العربي والإسلامي ودراسات المستشرقين فضلاً عن أبعاد معرفية غنية، تقدم في إطار يخلو من التعقيد.

المؤلف : اسماعيل بالك – عدد الصفحات: 240 ص – تاريخ النشر : 1993
التوثيق الأجنبي: Author: Smail Balić. Der Islam im Spannungsfeld von Tradition und heutiger Zeit. echter und oros verlag: 1993
اللغة : الألمانية

الفقه والمجتمع في القرنين الثاني والثالث الهجريين، تاريخ الفكر الديني في الإسلام المبكر

هذا الكتاب هو الجزء الثالث من بين الأجزاء الستة التي أصدرها المستشرق والباحث الألماني جوزف فان إس ما بين عامي 1991 و1995م، وهو باحث معروف بدراساته التي تناولت على نحو دقيق نشوء المدارس الفقهية والكلامية في تاريخ الإسلام.

تتناول هذه السلسلة تاريخ الفقه الإسلامي في علاقاته مع تحولات المجتمع في تلك الحقبة، وتضيء عبر متابعات دقيقة جدلية العلاقة بين النصوص الدينية والواقع وما أفرزته هذه العلاقة من تحولات وإشكالات. وهذا الجزء ينتمي إلى تلك السلسلة ويقع في أوسطها وهو يتناول تطور التفكير الفقهي والكلامي في القرنين الثاني والثالث الهجريين اعتماداً على المصادر العربية الإسلامية، كما تتجلى في العصر العباسي على وجه التحديد. يحتوي هذا السفر على جزئيات كثيرة، يصعب تتبعها، لكن فان إس يصنع من هذه الفسيفساء المتناثرة خارطة ترسم للقارئ ملامح هذا التطور وابعاده، ويستطيع القارئ المتفحص أن يتبين أن هذا السفر الذي يقع في خمسمائة صفحة ونيف من القطع الكبير ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى، هي:

1. بغداد 2. تقسيم المُلْك ونذر الحرب الاهلية. 3. المأمون في بغداد وازدهار الاعتزال.

يناقش فان إس في القسم الأول من كتابه نشوء بغداد، بوصفها عاصمة العباسيين وحاضرة العالم الإسلامي وأثر ذلك في تطور التفكير الديني في الإسلام. يبدأ فان إس برسم الملامح الفكرية لبغداد ابتداءً من زمن الخليفتين المنصور والمهدي، متوقفاً في هذه الأثناء عند الكثير من الجزئيات. كالراوندية، ومطاردة الزنادقة والعلاقة مع النصارى، ومع الشيعة وبدايات الاعتزال، مثلما يتوقف عند ضرار بن عمرو(110– 180هـ)، ويوضح أهميته في تاريخ الفقه ومؤلفاته ورؤيته للوجود وعلاقته بعلوم الأوائل وتصوره للإنسان، ومصادر المعرفة في نظره ونظريته السياسية، كما يتحدث عن تلاميذه من أمثال معمر بن عباد السلمي (– 215هـ).



يدرس فان إس جوانب شتى من فكر السلمي ويتوقف عند منهجه، ورؤيته للجوهر الفرد والفلسفة الطبيعية ونظرية المعنى ورؤيته للإنسان. بعدها يتحدث عن نكبة البرامكة، ورؤية الرشيد للاعتزال، وتأثير التدين الشعبي. في تلك الأثناء يتوقف فان إس عند بشر بن المعتمر (–210هـ)، ومنهجه ونظرية التولد عنده، وعن إرادة الله ولطفه وعن الإيمان ومرتكب الخطيئة وعن رؤيته السياسية، والأبعاد الصوفية في الاعتزال، ويختتم حديثه في هذا الفصل بالحديث عن أبي موسى عيسى بن صبيح المردار(– 226هـ) ورؤيته للإنسان.

أما في القسم الثاني من الكتاب فيتحدث فان إس عن تمرد أبي السرايا الملقب بأسد شيبان، وعن علاقة المأمون بعلي الرضا،وعن الفقهاء وعلماء الكلام الذين كانوا يحيطون بالمأمون مثل ثمامة بن الأشرس؛ ليتحدث بعد ذلك عن حركة إبراهيم بن المهدي، ويناقش بعدها آراء بشر المريسي ويشير إلى إعدام محمد بن الفرات ليتوقف عند إسماعيل الجوزي (– 220هـ) والحشوية وعند عودة المأمون إلى بغداد ومقتل الفضل بن سهل ووفاة علي الرضا.

في القسم الثالث من الكتاب يبدأ فان إس برسم ملامح فكرية عامة للمامون وبوصف الحياة الفكرية في بلاطه، ليبدأ بعدها بالحديث عن المنظّرين الكبار من المعتزلة، ومنهم:

أبو الهذيل العلاف (– 227هـ)، ويتحدث كالعادة عن منهجه ومؤلفاته وآرائه والجسد والجوهر والعرض والحركة ووضع الارض في الفضاء والهواء والنور والزمن والوحدة والتنوع وعن منظوره للإنسان ووحدته وسلوكه وموته وبعثه وعن إبليس والجن وموقفه من التأويل وتفسير القرآن الكريم وموقفه من الأحاديث النبوية وعن تصوره لله عز وجل، وعن الوحدانية والقدم والعظمة الإلهية والإبداع والخلق وعن كلام الله سبحانه وتعالى وعن آراء العلاف السياسة.

بعدها يتحدث فان إس عن النظّام(– 231هـ)؛ فيتحدث عنه بوصفه أدبياً وشاعراً وفقيهاً، ثم يتحدث عن آرائه الكلامية في الطبيعة وعن سجالاته وعن نظريته في مسألة» الوثبة» وعن معرفته بالأوائل وفلسفتهم وعن رؤيته للإنسان والجسد والنار والعناصر الأخرى وعن علاقته بالطب آنذاك وعن كثير من المسائل الفكرية والعلمية الأخرى.

بعدها يفرد فان إس حديثاً مطولاً عن إعجاز القرآن، وعن السجالات التي دارت بين علماء الكلام وأتباع الديانات الاخرى وفيها حديث دقيق عن موضوعات السجال الكلامية التي تدور حول الدهر والإدارة والخلق والمشيئة والعدالة وعن القرآن بوصفه كلام الله سبحانه وتعالى، بعدها ينهي فان إس كتابه بالحديث عن المحنة؛ أي محنة خلق القرآن، ويتتبع موقف ابن حنبل ومحاكمته، مثلما يتتبع تطورات المحنة في الأمصار، وينهي فان إس الكتاب بسيرة القاضي ابن أبي دؤاد بوصفه يشكل نهاية هذه المحنة.

إنّ قارئ هذا السفر لابد أن يلحظ الدقة والتتبع والحرص على قراءة النصوص في ضوء سياقاتها المتعددة، وإدراك مراميها في ظلال تلك التحولات المجتمعية الكبرى، مثلما لا بد أن يلحظ قائمة المصادر والمراجع الدقيقة التي تتوقف عند النصوص العربية الأصلية سواء أكانت فقهية أم كلامية أم تاريخية.

المؤلف : جوزف فان إس – تاريخ النشر : 1992

التوثيق الأجنبي: –Josef Van Ess. Theologie und Gesellschaft im 2. und 3. Jahrhundert Hidschra. Eine G schichte des religioesen Denkens im fruehen Islam. Band III Walter de Gruyter. Berlin. Newyork: 1992

اللغة: الألمانية

الإسلام

مع أن الإسلام يشكِّل جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الإسبان، إلا أن العالم العربي–الإسلامي ما زال حقيقة مغيَّبة عن الإسباني العادي الذي لا يعلم عنه الشيء الكثير، أو يتعامل معه انطلاقا من مفاهيم مغلوطة يتلقَّاها بشكل مستمر من إعلام يتوخى الإثارة قبل المصداقية. وبالتالي تلك النظرة الموسومة بالأحكام الجاهزة تخضع للكثير من الزِّيف وتعكس صورة مشوَّهة، بسبب خلط المفاهيم الذي طالما يقع فيه الإعلام الغربي مكرِّسا لفكرة غالبا ما يبدو الإسلام من خلالها دين ركود وجمود، وفكراً معقَّداً لدرجة يصعب معها تحديد هويته.

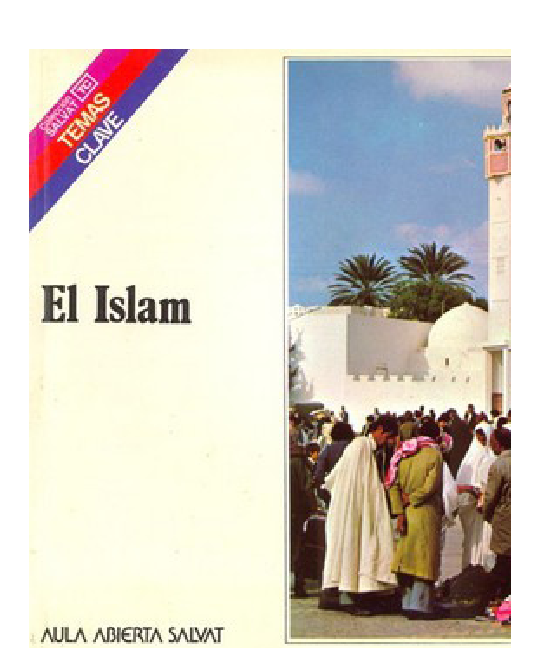
يهدف مرتينث مونتابث، من خلال هذا الكتاب، إلى تقريب القارئ الإسباني غير المختص من هذه الحقيقة، بأسلوب بسيط وقريب، لكن في الوقت نفسه، علمي وممنهج، يتناول الإسلام من منطلق تاريخي واجتماعي وثقافي في ذات الآن، ويعرض بالتحليل والشرح للعديد من المصطلحات الجديرة بالتوقف عند معانيها، إذ عادة ما تبتعد عن مدلولها الحقيقي عندما تُشرح بعيداً عن سياقها، أو تتمُّ إحاطتها بهالة من الغموض والضبابية ليظلَّ معناها بالنهاية غائبا أو غير واضح بالنسبة للسواد الأعظم من القرَّاء.

يعدُّ بيدرو مرتينث مونتابث أحد أهمِّ المستعربين الإسبان المختصِّين بالفكر الإسلامي والخبراء بشأن العالم العربي المعاصر والشرق الأوسط، شغلَ منصب مدير المركز الثقافي الإسباني في القاهرة، وانتقل بين عدة جامعات إسبانية، قبل أن يشغل أخيرا منصب أستاذ شرفي في جامعة لا أوتونوما بمدريد. لديه العديد من المؤلفات في هذا الصدد من بينها «أوروبا الإسلامية»، «سحر حضارة ألفية»، «الأندلس»، تحدِّي الإسلام»، «إسبانيا في الأدب العربي المعاصر»، على سبيل الذِّكر لا الحصر.

في كتابه «الإسلام ، يفتح مرتينث مونتافيث الأبواب على ثقافة بعمق الثقافة الإسلامية بطريقة مبسَّطة وسلِسة، ويضمِّن الكتاب العديد من الصُّور والمعطيات المهمَة بهدف نبذ الصُّوَر النَّمطية التي ترسَّخت في عقول أغلبية الناس في المجتمع المعاصر، والتي تعطي للكتاب من جهة أخرى، صبغة شيِّقة وتجعل قراءته في متناول أي قارئ متطلِّع إلى تكوين فكرة شاملة عن الموضوع.

ينقسم الكتاب إلى ستة محاور تضمُّ ثلاثين فصلاً.

المحور الأول –الذي يشمل الفصول الأربعة الأولى – يشرح الأسس العامة التي يقوم عليها الإسلام، مشيراً إلى أنه ليس دينا



فقط ، بل ثقافة فريدة ومتجذِّرة، «بل يتعلق الأمر بإحدى أهمِّ الإسهامات للحضارة الكونية وبتراث إنساني حقيقي»، كما يؤكد الكاتب.

المحور الثاني، والذي يضمُّ الفصول السبعة التالية، يتناول الجانب الديني، ومن خلال هذه الفصول يعرض الكاتب للحديث عن القرآن الكريم وبنية النص القرآني، عن الرسول وسيرته والمراحل الأولى لتلقِّي الوحي، ثم يتطرَّق إلى شرح مفهوم السُّنَّة والحديث، موضِّحاً الفرق بين المصطلحين.

بالإضافة إلى ذلك، يتحدث هذا المحور عن الإنسان المسلم، عن الأركان الخمسة، ثم ينتهي بالحديث عن الخلفية التاريخية وحيثيات الانقسام الذي سيقع داخل الإسلام بين السُّنَّة والشِّيعة.

المحور الثالث، من ستَّة فصول –من الثاني عشر إلى السابع عشر تحديداً – يخصِّصه الكاتب لتاريخ الإسلام ويعرض فيه بإسهاب كبير لمختلف الحِقب التاريخية التي مرَّ بها، منذ نشأته إلى العصر الرَّاهن، بدءا بصدر الإسلام، مرورا بعصر التَّوسع أو الفتوحات الإسلامية، دون إغفال التطورات التي واكبت هذه الحقبة والتي تمخَّضت عنها مختلف التَّفرعات والطوائف الدينية، ثم بعد ذلك يواصل سرده التاريخي ليتوقف عند فترة الحروب الصليبية، ثم الإمبراطورية العثمانية والتي شكَّلت بنهايتها نهاية هيمنة الإسلام كقوة سياسية.

تأتي بعد ذلك فترة الامبريالية الغربية بشتى انعكاساتها على العالم الإسلامي ككلّ، والأثر السلبي العميق الذي خلَّفه الاستعمار عليه والأوضاع التي عاشها عبر التاريخ، والتي كرَّست لترسُّخ هذه الامبريالية وجعلت من الإسلام ما هو عليه اليوم.

المحوران الرابع والخامس يخصِّصهما الكاتب لكلِّ ما هو متعلِّق بالأدب والفن، وفي هذا الإطار، يُبرِز مرتينث مونتابث مكانة الشعر، كجنس رئيس داخل الأَدب الإسلامي. أما بالنسبة للفنون، فيُبرِز أهمية المعمار والمباني التي ما زالت إلى الآن شاهدا حيا على شموخ الحضارة الإسلامية، من قصور وجنان ورياض ومدارس ومُصلَّيات وجوامع، مُشِيدا بالدَّور التعليمي لهذه الأخيرة، إلى جانب تأدية مهمتها كَدُورٍ للعبادة، ناهيك عن كَونها ملتقيات اجتماعية ومرتعا للثقافة والعلم.

المحور الأخير، والذي يشمل الفصلين الأخيرين، يلقي فيه الكاتب نظرة بانورامية على الوضع الراهن للمجتمع الإسلامي، وفي قراءة واقعية وموضوعية، يشير مرتينث مونتابث إلى أن العالم الإسلامي اليوم –ومنذ فترة غير قصيرة– يمرُّ بإحدى المراحل الأكثر حرجا في تاريخ وجوده، ويسلِّط الضوء على النُّشوز الواضح أو المواجهة الشديدة القائمة بين العالمين الإسلامي والغربي، مقترحاً بعض الحلول التي من شأنها أن تمهِّد للتصالح أو التقارب ما بين الموقفين.

«الإسلام» كتاب أساسي يحتوي على العديد من المفاتيح التي تتيح فهماً أكبر للثقافة الإسلامية بمختلف جوانبها، ضمن نسق سهل ممتع، لكن أيضاًبعمق ونضج شخصية وكاتب متمرِّس كمرتينث مونتابث.

المؤلف: بيدرو مرتينث مونتابث– عدد الصفحات: 96ص – تاريخ النشر: 1991

التوثيق الأجنبي: Pedro Martínez Montávez. EL ISLAM. Salvat Ediciones، Barcelona، 1991.

اللغة: الإسبانية

القرآن واليهود..... تاريخ مأساة

مؤلف هذا الكتاب هو الباحث والمستشرق يوهان بومان (1918 – 1998) الذي عمل أستاذاً في جامعتي ماربورغ وبروسل، وله دراسات كثيرة نذكر من بينها:

الله والإنسان في القرآن، صيغة بنيوية للأنثروبولوجيا الدينية.

المسيحية والإسلام في الميزان، الحياة تصوغ الموت.

المسيحيون والمسلمون، ما يجمع بينهم وما يفرقهم.

صدر كتاب «القرآن واليهود» عام 1990م والكتاب يتكون من 130 صفحة من القطع المتوسط، ويحسن قبل الحديث عنه أن نشرع في عرض محتوياته.

يتكون الكتاب من مدخل وستة فصول هي:

1. الجزيرة العربية في عصر الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، مسرح المأساة.
2. الرسول والقرآن في الحقبة المكية:
أ. المحتوى القرآني للسور الاولى
ب. المعارضة المكية.
ج. اليهود وتاريخهم بوصفهم شهوداً على الحقيقة.
3. الرسول واليهود في المدينة:
أ. الهجرة إلى المدينة عام 622 للميلاد.
ب. يهود المدينة.
ج. تقرّب الرسول من يهود المدينة
د. سلوك اليهود في المدينة
هـ. ظهور عداء الرسول ليهود المدينة
4. موقف القرآن من اليهود
5. العواقب:
أ. اليهود في ظل الميثاق الدولي.
ب. الإسلام ودولة إسرائيل.
6. تذييل: المأساة.

من الملاحظ أن يوهان بومان قد بنى كتابه بناءً متنامياً؛ ينطلق من فكرة معدة سلفاً، ظل يقتنص الشواهد للبرهنة على صحتها، كما ينطلق الكتاب من ذهنية الهولوكست وما تعرض له اليهود في ألمانيا على أيدي النازيين من مذابح وهذا

Johan Bouman
Der Koran und die Juden
Die Geschichte einer Tragödie

الأمر يتضح في البعد العاطفي للكتاب الذي لايخفيه مؤلفه، فالهدف من الكتاب في نظر صاحبه هو بناء عواطف لدى القارئ، وتشكيل منظور جديد كما يشير في مقدمة الكتاب القصيرة، ولعل هذا الأمر يتضح بجلاء في المدخل الذي يتكون من ثماني صفحات؛ فقد كان المؤلف حريصاً على رسم صورة العداء الذي يحيط بإسرائيل منذ نشوئها، وهو في هذا يسعى إلى بناء صورتها بوصفها ضحية في محيط عربي وإسلامي معادٍ!

أما على مستوى التحليل المتعلق بقراءة بومان لصورة اليهود في القرآن، فإنّه يجيء توكيداً للنظرة الإستشراقية العامة للقرآن الكريم، فهذا الكتاب الكريم في نظر الكثيرين منهم، هو مزيج من نصوص وقصص وتعاليم يهودية ومسيحية، لهذا يسرف بومان في المقارنة بين القرآن والتوراة للبرهنة على صحة هذه النظرة. لكن بومان يسعى إلى تقسيم صورة بني إسرائيل إلى مراحل بغية تبيان ما ينطوي عليه النص القرآني من ذرائعية؛ فبومان يزعم أن لجوء القرآن إلى قصص بني إسرائيل والحديث عن تاريخهم كان يتزايد كلما زادت المعارضة المكية، ويتحدث عن قصص الانبياء الذين ذكروا في هذه المرحلة بوصفها مثالاً على أخذ القرآن لهذا الميراث اليهودي!

أما في المدينة فقد « تحول» الموقف القرآني، وشرع القرآن يستخدم بالتدريج أنبياء اليهود وقصص التوراة كالقنبلة الموقوتة، فعندما رفض اليهود نبوة الرسول وأنكروها أظهر العداء لهم، بمعنى أن القرآن كان يوظف الميراث اليهودي على نحو حر، فتارة يكون وسيلة للاقتراب من اليهود، وتارة أخرى يكون وسيلة للابتعاد.

في الفصل الرابع من الكتاب يقر بومان أن الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، قد جابه يهود المدينة أول ما احتك بهم بنوايا طيبة، رغبة في ان يدخلوا في الإسلام لكن المأساة تكمن، كما يزعم بومان، في كون الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يكن يعرف كثيراً عن أصول العقيدة اليهودية، لهذا أصيب بخيبة أمل عند رفضهم الإسلام وتحول اليهود إلى أكثر الناس عداء للإسلام.

يتحدث بومان بعد ذك عن يهود المدينة، كبنى قينقاع وبني النضير، وبني قريظة ويهود خيبر، ويصور ما حدث لهم بوصفه تراجيديا، تشبه المآسي الكلاسيكية؛ ليقفز في خاتمة المطاف للحديث عن نشوء إسرائيل وموقف المسلمين منها، وهو حديث يضعه المؤلف بعد ترتيب عاطفي لأبرز الوقائع التاريخية الكبرى في تاريخ الإسلام.

صحيح أن بومان يعترف أن بقاء الجماعات اليهودية في ديار الإسلام ظلّ طبيعياً على امتداد التاريخ، وأن المواجهة مع القوة السياسية لليهود من خلال قيام دولة إسرائيل شكّل تحدياً سافراً للمسلمين. لكنه يرى أن على الإسلام أن يعيد التامل في هذا الأمر، وأن لا يشكل تاريخه هذا في التعامل مع اليهود نموذجاً يحتذى.

من الواضح أن بومان يعرف المصادر الإسلامية، ويفهمها؛ لكنه يقرأ تلك المصادر وما يتولد عنها من أحكام وآراء قراءة إسقاطية تمزج الديني بالسياسي والتاريخي بالمعاصر، دون حياد أو موضوعية بل عبر انحياز كلي للطرف الآخر، وقد يكون بومان أحد الذين يشعرون بالذنب تجاه المحرقة اليهودية في الغرب، لكن نقل آثام تلك المجازر إلى التاريخ الإسلامي، يظل عملاً غير علمي، ولا يقوم على موضوعية في الرؤية والتحليل.

المؤلف: يوهان بومان – تاريخ النشر: 1990
التوثيق الأجنبي: Johan Bouman. Der Koran und die Juden، die Geschichte einer Tragoedie. Wissenschaftliche Buchgesellschaft: Darmstadt: 1990
اللغة: الألمانية

مقدمة إلى التراث الإسلامي

منذ الصفحات الأولى من كتاب «مقدمة إلى التراث الإسلامي» يشعر القارئ بتعاطف المؤلف مع الثقافة الإسلامية. فهو يقسم الأعمال التي ظهرت في الغرب عن الإسلام إلى أعمال كتبها مسلمون وأعمال كتبها غير مسلمين، ولكنه لا يجد أن الصنف الثاني مسيء بالضرورة، ولا أن الصنف الأول متعاطف بالضرورة.

إذ ربما كتب المسلمون عن الإسلام وهم يتابعون الغربيين في كتاباتهم. «وعلى وجه التحديد فمن منظور الموقف التقليدي يمكننا أن نفصل بين الحداثي والمحافظ، ونميزهم عن المفكرين التقليديين.

والإسلام، مثل سائر تقاليد البشرية الأخرى، لديه نظرة إلى العالم تجسدت في حضارة ما برحت تنمو بسرعة».

يقع الكتاب في ثمانية فصول. يعنى الفصل الأول المعنون بـ «دورات الوحي» بتوصيف الدورات النبوية المتعاقبة حسب التصور القرآني، والتمييز بين النبي والرسول، ويلاحظ أن الأنبياء أكثر عدداً من الرسل، لسعة المهمة الملقاة على عاتق الرسول.

ويتطرق في هذا الفصل إلى الإشارة إلى النبي إبراهيم، ودين الحنيفية، وهو يجد أن الحنيفية لم تترك صورة واضحة المعالم في ذاكرة العرب قبل الإسلام، وبرغم أن الحنفاء الذين ظهروا قبل الإسلام بقليل كانوا يصرحون بالانتساب إليها، فإن أخبارهم تدل على أن عقيدتهم كانت توحيداً يخالطه شيء من الشرك.

في الفصل الثاني «محمد الرسول» يتابع المؤلف وقائع السيرة النبوية، مركزاً على الأحداث التي تشكل بذوراً يمكن أن تتفتح فيما بعد عن بعض الأفكار لدى المسلمين اللاحقين. ويتعرض بخصوص الإسلام المكي إلى نقاد النبي الغربيين، والضرورة الروحية لرسالة النبي، والأحداث الإعجازية في شباب النبي، وقصي واللغة العربية، ليتحول بعدها إلى الإسلام المدني، وسنة النبي، ويركز على نحو خاص حول خطبة الوداع.

Victor Danner
THE ISLAMIC TRADITION
An Introduction

في الفصل الثالث «طبيعة القرآن»، يتناول المؤلف الفرق بين التنزيل والتأويل والمعجزة القرآنية، وترتيب آيات القرآن الكريم، وجمع القرآن وتلاوته والقرآن والمسيح وشروح القرآن وتفاسيره، والتعليم الجوهري للقرآن والله في القرآن والنعيم والجحيم والإنسان خليفة الله على الأرض، وترجمات القرآن، والتفاسير الحديثة.

ويميز الفصل الرابع «طريق الصوفية الروحي» بين الظاهر والباطن، وأصول التصوف واشتقاقات الكلمة، والصراع والتوفيق بين أنصار الشريعة الظاهرية وأنصار الطريق الباطني الروحي، والمؤسسات الصوفية والإحياء الذي شهده التصوف في القرن الثالث عشر (أي الطريقة القادرية)، ومفهوم السلسلة الصوفية، ونقاد التصوف.

لكن الفصل الخامس «الشريعة المقدسة للإسلام» يعود إلى التركيز على مفهوم «الشريعة»، في مقابل مفهوم «الحقيقة» في التصوف. وهكذا يتناول مفاهيم مثل الإيمان والإسلام والإحسان، والحديث، والمذاهب والعلماء والدولة في الإسلام، والتشيع والتسنن، والحرب المقدسة، والزواج وفق تقاليد الإسلام، ودور المرأة في الحضارة والدين الإسلاميين، والمظاهر الاقتصادية، والفقراء والأغنياء، والقانون والتخلف.

ولعل الفصل السادس، «التراث العقلي الإسلامي»، هو من أغنى فصول الكتاب. إذ يرى المؤلف أن الوحي ينطوي على أفكار بذرية للتأليف بين المدارس الفكرية.

وهنا يقترح أن كلمة (عقل) العربية لا تشير إلى المعنى العملي الاستدلالي للعقل أي الحصافة والتدبر، بل هو يميل إلى تفسير المتصوفة للعقل بمعنى أنه الروح الكونية، وأن هذه الروح الكونية هي التي تربط المؤمن بالله كنور. وهو يستند في ذلك إلى الحديث المشهور: أول ما خلق الله العقل.

وفي رأي المؤلف فإن التصوف يقيم هوية بين هذه الألفاظ باعتبارها العقل الكوني الكلي، والروح، ونور محمد، واللوغوس(أي كلمة العقل الكوني).

ثم يعرض للمعتزلة وعلم الكلام المدرسي والأشعرية، والعقيدة والفلسفة الإسلامية ومحتوياتها، وتطور مفهوم الفلسفة، وعلاقتها بالدين، والأفلاطونية المحدثة في الإسلام، وتأثيرها.

وعنوان الفصل السابع هو «فنون الإسلام». وفيه يتناول مبادئ الفن المقدس، والفن التجريدي غير التمثيلي في الإسلام، والفنون العربية، والقرآن والسنة كأسس جمالية، والخط والنحت، والجامع، والزاوية، وأضرحة الأولياء، وأصناف الخط الإسلامي، والأرابيسك والموضوعات الهندسية، والفنون الصغرى، والآداب الإسلامية، والغرب والفن الإسلامي.

أما الفصل الأخير «العالم الإسلامي المعاصر» فيعنى بتطور الحضارة الإسلامية، ومجيء الغرب، والتأخر والإصلاح، وتجدد التصوف وتعرضه للهجوم، وعملية الغربنة أو تعرض البلدان الإسلامية لتأثيرات الغرب، ومحدثين ومحافظين، والنزعة الارتقائية في الغرب والإسلام، والأصولية في الإسلام وتأكيد الإسلام الكلاسيكي لذاته.

المؤلف: فكتور دانر – عدد الصفحات: 268ص – تاريخ النشر: 1988
التوثيق الأجنبي: Victor Danner. The Islamic Tradition، An Introduction
Amity House، New York، 1988
اللغة: الإنجليزية

تاريخ الإسلام في ألمانيا

مؤلف هذا الكتاب (1931 -) مختص بالأبعاد العالمية للإسلام، وبتاريخ الحوار الإسلامي المسيحي، وله عدد من الدراسات والبحوث التي تتناول جوانب تاريخية ومعرفية في هذه العلاقة، أما محررو، هذه السلسلة فهم مستشرقون وباحثون معروفون باسهاماتهم في التاريخ الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية. يقع هذا الكتاب في حوالي 230 صفحة من القطع المتوسط، ويحتوي على أربعة فصول هي:

التطور التاريخي [للعلاقة بين الإسلام وألمانيا]

الهجرة - مسلمون أجانب في ألمانيا.

مسألة الاعتراف.

حال اللقاء الإسلامي المسيحي.

يناقش المؤلف في هذا الفصل الأول مسألة التطور التاريخي للعلاقة بين الإسلام والألمان، ويستعرضها على نحو دقيق وممتع، وإذا كان كثير من الدارسين يعيدون العلاقة بين الإسلام والألمان إلى الحروب الصليبية، التي شارك الجرمان فيها، فإن مؤلف هذا الكتاب يعيد بداياتها الى عام 777م يوم استقبل شارلمان والي سرقوسة الطريد، الذي طرده سليمان العربي أمير قرطبة، ليوقع شارلمان مع ذلك الوالي معاهدة تحالف. بعد هذه الحادثة بأربعة عشر عاماً، شرع المؤرخون يرسمون أبعاداً لعلاقة أسطورية بين شارلمان هذا وهارون الرشيد.

لكن بداية الاحتكاك الفعلي تعود إلى القرن الثامن عشر، يوم وضع دوق كورلاند عام 1731، عشرين شاباً تركيا من طوال القامة في خدمة ملك بروسيا فريدريش ڤيلهلم الأول (1713- 1740م) الذين وصل عددهم في السنوات اللاحقة إلى مائة وكانوا من الخيّالة. وقد أمر الملك البروسي (وبروسيا: دولة تاريخية كانت تشكل ألمانيا الحالية الجزء الأكبر منها) عام 1732 ببناء قاعة لهؤلاء الفرسان بالقرب من الكنيسة العسكرية، لتكون بمثابة مصلّى لهم، وقد حكى أحد الروائيين الألمان وهو يوخن كلبر في روايته التاريخية «الأب» أنّ فريدريش فيلهلم كان يحب أن يعبد الله في بوستدام بلغات الأرض كلها، وأن يجري معاملة أصحاب تلك العقائد بقدر من المساواة. وقد أرسل هذا الملك عام 1724 وزير بلاطه إلى السلطان العثماني ليأذن له بشراء عدد من الخيول، فأذن له وأهداه فرساً أصيلة، كريمة النسب.

ويروي المؤلف أن عام 1763 هو العام الذي شهد وصول أحمد أفندي، وهو أول سفير للخليفة العثماني في بلاط الملك البروسي، ومن الطريف أنّ هذا السفير قد كتب للسلطان العثماني أن أهالي برلين لا يخفون أنهم على استعداد للدخول في الإسلام، ويرى المؤلف أن انطباع السفير الخاطئ هذا، جاء نتيجة للاستقبال الودي الذي اعتاد أن يستقبل أهالي برلين به ضيوفهم.

يتحدث المؤلف بعد ذلك عن شخصيات مهمة، كانت رائدة في هذه العلاقة ويتوقف عند شخصية الدكتور إدوارد شننتسر Schnitzer Eduard (1840- 1892).الذي اعتنق الإسلام عام 1878م وصار يدعى محمد أمين باشا، وتولى حكم مقاطعة مصرية تقع على خط الاستواء.

يمضي المؤلف في سرده التاريخي لتطور هذا العلاقة في العصور اللاحقة فيحكي عن تأسيس المساجد والروابط الإسلامية في ألمانيا، والنزوح التركي إلى ألمانيا بعد عام 1945 لحاجة ألمانيا إلى الأيدي العاملة؛ ليتوقف في خاتمة هذا الفصل عند مفردة سمّاها «الألمان في خدمة القرآن»، مشيراً بذلك إلى مثقفين وشعراء ومستشرقين ألمان قدموا خدمات جليلة للثقافة الإسلامية. من أمثال الشاعر الألماني غوته (1749 – 1832) الذي استلهم القرآن الكريم في أشعاره، وكتب مسرحية قصيرة فيها تمثّلٌ إيجابيٌ لشخصية الرسول الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، إلى المستشرق الكبير فريدريش روكرت (1788- 1866) الذي نقل معاني القرآن الكريم إلى الألمانية على نحو يمتاز بالجمال والدقة، إلى آخرين أسهموا في إضاءة جوانب مهمة في هذا الكتاب المقدس.

يعقد المؤلف الفصل الثاني من الكتاب عن هجرة المسلمين إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية بحثاً عن فرص عمل، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء المهاجرين من الأتراك، الذين يبلغ عددهم طبقاً لاحصاءات 2006 حوالي ثلاثة ملايين ونصف.

يناقش المؤلف هذا الوجود الإسلامي من جوانبه المختلفة؛ فيتحدث عن الأبعاد الثقافية والحضارية، مثلما يناقش الأبعاد الاجتماعية، والاقتصادية والقانونية، ويتحدث عن التجمعات والروابط الإسلامية في هذا الإطار.

ولا شك أنّ الوجود الإسلامي في ألمانيا يشكل واحدة من القضايا الإشكالية في الحياة الألمانية المعاصرة التي يجري النقاش حولها من وجهات نظر متعددة، مثلما يجري الحديث عن أجيال متلاحقة من هؤلاء المسلمين، يختلف الجيل الثاني عن الأول، مثلما يختلف الجيل الثالث منهم عن اسلافه، والاختلاف هنا، يتحدد في قدرة هؤلاء المسلمين على التكيف والاندماج في المجتمع الألماني، الذين يرفضون تهمة الفشل في التكيف ويطالبون بالمساواة في فرص العمل والتعليم وبخاصة أنّ أبناء المهاجرين المسلمين وأحفادهم من مواليد ألمانيا، يتحدثون لغتها ويحمل معظمهم جنسيتها.

في الفصل الثالث من الكتاب يناقش المؤلف مسألة اعتراف الدولة والمجتمع في ألمانيا بالإسلام، وهو يعني بالاعتراف الإقرار القانوني للمجتمع بالحقوق القانونية للإسلام بوصفه ديناً يمتلك الحق في المشاركة العلنية في الحياة الاجتماعية، وفي ممارسة شعائره. يشير المؤلف إلى الآراء المتضاربة حول هذه المسألة، ويتوقف عند موقف الكنيسة الألمانية تجاه مسألة الاعتراف، ويبين أن موقفها المعلن متقدم على مواقف الدولة. ويشير المؤلف إلى مؤتمر الكنائس الأوروبية، عام 1977 بخصوص «الكنيسة والوجود الإسلامي في أوروبا» ويقتبس جزءاً من التوصيات النهائية لهذا المؤتمر، يشير إلى معاناة الجماعات الإسلامية في ألمانيا، ويؤكد ضرورة تغيير هذه الأوضاع؛ ليغدو بمقدور الكنيسة الألمانية « العمل مع الإسلام والمسلمين لايجاد مناخ حر لهم» مثلما يؤكد هذا البيان ضرورة « الاعتراف العلني والقانوني بالإسلام».

المؤلف: محمد . س . عبد الله – عدد الصفحات: 230 ص – تاريخ النشر: 1981

التوثيق الأجنبي: Mohammad s. Abdullah. Geschichte des Islams in Deutschlad. Verlag styria: 1981 Herausgeber: M. Fitzgerald، A. h. Khoury، W. wanzura

اللغة: الألمانية

تاريخ العبادات في الإسلام، أبحاث في تطور العبادات وتنظيمها في ضوء تاريخ التشريع ونقد الأحاديث: صيام رمضان نموذجاً

يبين عنوان هذه الدراسة، أنّ صاحبها وهو المستشرق كلاوس ليش الذي مات في ظروف غامضة في إسبانيا وقد كان يعمل في جامعة بون أستاذاً للدراسات الإسلامية، وباحثاً في تاريخ الحديث النبوي الشريف، ينظر إلى تاريخ العبادات نظرة تمزج بين البعدين الوضعي والتطوري؛ فالعبادات الإسلامية في نظره هي مجموعة من الطقوس التي تولّدت حصيلة مجموعة من التحولات الإجتماعية والثقافية؛ لهذا يصرح ليش في مقدمة دراسته التي تقع في 352 من القطع الكبير أننا عندما نشرع في دراسة تاريخ العبادات في الإسلام؛ فإننا نجد أنفسنا على صلة بتحليلات لا حصر لها تناقش الموروث التشريعي والعقائدي في الإسلام، وهو موروث لا يعود، بالضرورة، إلى عصر النبوة، في نظره، لأن هناك من الوثائق والأدلة ما يبين أن تطور غالبية الاحكام التشريعية قد وقع في القرنين الأول والثاني الهجريين.

يسير ليش في هذه الدراسة من حيث الرؤية والمنهج على هَديْ سلفيه السابقين المستشرق المجري الاصل ايغناتس غولدتسيهر(1850- 1921) والمستشرق الالماني جوزف شاخت (1902- 1960). فقد زعم غولدتسيهر في الجزء الثاني من كتابه « دراسات محمدية» الذي صدر عام 1890م أنّ من الصعوبة بمكان أن نتعرف الاحاديث الصحيحة؛ لأن هذه الاحاديث وجدت نتيجة للتطور الديني والاجتماعي والتاريخي في القرنين الأول والثاني للهجرة، وتابعه شاخت في كتابه «أصول التشريع الإسلامي» الصادر عام 1959م؛ فراى أن ما يُروى عن الصحابة من أحاديث لا يمثل العصر النبوي، بقدر ما يعكس حياة الناس في القرنين الأول والثاني للهجرة. ودلل شاخت على ذلك بقوله:

إن الطريقة المثلى للبرهنة على ان تقاليد بعينها لم توجد في عصر معين هو البرهنة على أن تلك التقاليد لم تكن حاضرة في السجالات ولم تستخدم بوصفها حجة تشريعية.

صحيح أن ليش يرى أن ما توصل إليه شاخت بعد تلك المقدمة التي يراها صحيحة، كان مفاجأة، لأنه كان بذلك يقف على شفا مسألة مركبة يصعب البرهنة على صحتها، وبخاصة عندما يزعم أن تطور التشريع الإسلامي، يدلل على صلته بالنظم القانونية القديمة التي ظلت حية، وهو ما يخالفه ليش لأن تلك النظم القانونية القديمة لا تتفق في جوهرها مع السنّة النبوية، لكن ليش لا يخالف شاخت في جوهر رؤيته ويكاد يستغرب اعتراض المستشرق يوهان فوك على تلك الرؤية، بوصفه الوحيد الذي عارضها ولم يقتنع بصحتها.



يرى ليش أن الإسلام لم يصدر عن رؤية منظمة ومحددة لشهر رمضان، وأن مفهوم الإسلام للصيام قد تشكل ونما، على المستوى التاريخي، تحت ضغط العلاقات السائدة يوم ذاك على اختلاف ما بينها. وهو يرى أن تطور العبادات في الإسلام بعامة، ومن بينها الصيام يجيء دالاً على ما شهده الإسلام في تاريخه من عدم القدرة على الموازنة، بين الأبعاد الجمعية للعبادات والأبعاد الفردية القائمة على التنسك.

تتكون دراسة ليش من سبعة أجزاء موزعة على النحو الآتي:

1. المدخل: ويحتوي على نقطتين: الإشكالية والتحديد المصطلحي للصيام.
2. صيام شهر رمضان في القرآن.
3. صيام شهر رمضان في الفقه والحديث.

وهو من أكثر الأجزاء طولاً في الكتاب، ويقع في 184 صفحة وفيه تسعة أقسام تناقش مدة الصيام، ومعنى الشهود وبدء الصيام، وتقديمه، وصيام شعبان وبداية الإمساك والإفطار والوصال.

4. الخلاصة
5. الهوامش
6. المصادر والمراجع
7. الفهارس العديدة.

وتقع الأجزاء الثلاثة الاخيرة في تسعين صفحة، أما مصادر الدراسة فكثيرة، تجمع بين المصادر العربية من تفسير وحديث وسيرة ومعاجم وتاريخ، فضلاً عن الدراسات التي كتبها المستشرقون الغربيون.

ومن الحق ان يقال إن هذه الدراسة جادة، ومنظمة، وتسعى إلى قراءة هذه العبادة على نحو دقيق. ويكشف عن ذلك بوضوح تتبعها لمسائل كثيرة خاصة بالصيام من حيث الأحكام والانواع فضلاً عن مسائل أخرى تتعلق ببدايات الشهر ونهاياته وبلحظتي الافطار والإمساك، ومحاولة قراءة آراء الفقهاء ومناقشتها في ضوء الاحاديث النبوية.

ولكنه لا يخفى أن ليش يسعى إلى البرهنة على ما أشار إليه في المقدمة؛ فهو يحاول أن يبين مثلاً عند التمييز بين «أيام معدودات» و «شهر رمضان» البعد التطوري في الصوم في الإسلام، ولعل من المعروف أن هذه المسألة لم تكن غائبة عن المفسرين والفقهاء الذين تصدوا لبيان أحكام الصيام وتاريخه. وقد وقف الكثيرون عند الفرق بين الآيات التي جاء فيها « أيام معدودة» وهذه الآية على سبيل المثال وبينوا أن معدودة في غير العاقل تدل على الكثرة، أما معدودات فتدل على القلة، فالقول أيام معدودات قد يشير من الناحية البلاغية إلى لون من التقليل لتلك الايام يهدف إلى تهوين الامر على الصائم.

المؤلف: كلاوس ليش – عدد الصفحات: 352ص – تاريخ النشر: 1979

التوثيق الأجنبي: Klaus Lech. Geschichte des islamischen Kultus Rechts historische und hadith–kritische untersuchung zur Entwicklung und systematik der ibadat. Band I das Ramadan fasten: Harrassowitz. Wiesbaden: 1979.

اللغة: الألمانية

الروابط الحرفية والتآخي في الإسلام

مؤلف هذا الكتاب هو الباحث والمستشرق الالماني فرانتس تيشنر(1888–1967)، وهو باحث مختص بالتاريخ الإجتماعي للحضارة الإسلامية. أما كتابه هذا فقد نشره الباحث الألماني هاينز هالم (Halm Heinz) بعد وفاة المؤلف إثر صراع طويل مع المرض.

شكل موضوع الفتوة، نقطة مركزية في دراسات تيشنر، وهي نقطة ظل يعمل على جلاء جوانبها طيلة أربعين عاماً، كما يوضح في مقدمة الكتاب. ويضيف بأنه سبق لرائد الإستشراق النمساوي يوسف فون هامر بورغشتال(1774–1856) أن مسّ موضوعة الفتوة مسّاً رفيقاً، لكن الفتوة مع ذلك ظلت لغزاً أو شبيهاً باللغز.

ولعّل من الضروري أن تتضح رؤية تيشنر لهذا المصطلح قبل الحديث عن الكتاب الذي يقع في 670 صفحة من القطع المتوسط.

يوضح تيشنر في مقدمة كتابه أن الفتوة مصطلح جامع للفضائل التي يتوجب على الفتى التحلي بها، ومن أبرزها فضيلتي الشجاعة والكرم إضافة إلى الأمانة والتواضع والوفاء والاستقامة والطهارة، ويبين أن الفتوة تشتبه بمصطلح آخر هو المروءة أو«المرّوة» من حيث المعنى، لكنها تطلق على الرجولة في حين تختص الفتوة بالشباب. ويمثل تيشنر على المروءة في الجاهلية بحاتم الطائي وفي الإسلام بعلي بن أبي طالب حيث يقال: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي».

وكان لفظ الفتى في الجاهلية يشير إلى فئة من الشباب تجمع بين الكرم والشجاعة والفروسية، واللهو وشرب الخمر والسعي وراء اللذات.

حمل الإسلام معه –كما يرى تيشنر– معطيات حضارية إبان حركة الفتوح وكانت الفتوة واحدة من تلك المعطيات الحضارية التي صار لها ظلالات دينية ترتبط بالجهاد. لكن تيشنر يرى أن المصطلح ظل مقتصراً من حيث الانتشار والحضور على الشرق الأدنى، فقد انتشر في بلاد مابين النهرين وبلاد فارس وآسيا الصغرى، أمّا في مصر فكان مصطلحاً دخيلاً، بينما لم يحظَ المصطلح بأي قدر من الانتشار في المغرب والشمال الافريقي والأندلس.

استخدم القرآن الكريم كلمات فتى/ فتية/ فتيان. بدلالات مختلفة، ففي حين كانت الكلمة تحمل معنى الفتوة القادرة على مواجهة التحدي في قوله تعالى:﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يُقال له إبراهيم﴾[الأنبياء: 60] وفي قوله تعالى:


" Such as I have give I thee."—Acts iii. 6.

﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾[الكهف:13] فإن الكلمة تحمل دلالات مغايرة تماماً في الآيات:

﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾ [الكهف: 60]، و ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم﴾ [يوسف: 62].

فالفتى في الآيتين تشير إلى الخادم أو العبد.

وقد استّدل بعض المتصوفة على الفتّوة من الآية الكريمة المتعلقة بإبراهيم، عليه السلام، وهي فتوة تمثلت في تحطيم الأصنام، وينبغي أن تشكل النموذج الذي يحتذيه الصوفي لكسر صنم الذات. وقد عرف التاريخ الإسلامي إجازة الفتّوة وإجازات الصوفية والروابط الحرفية، وهي إجازات يمنحها شيخ الطريقة أو الحرفة للتلميذ وفق مراسيم خاصة، ويؤخذ العهد من التلميذ أو المريد بالتقيد والالتزام بتقاليدها.

ينقسم هذا الكتاب إلى سبعة فصول. وقبل الحديث عنها ينبغي أن يشار إلى منهجية تيشنر في بناء كتابه، وهذه المنهجية تقوم على التحليل التاريخي للظاهرة، مصحوباً بترجمة النصوص الأصلية المأخوذة من آداب العالم الإسلامي إلى اللغة الالمانية، كي توضح طبيعة تلك الظاهرة وأبعادها.

أما عناوين تلك الفصول فهي:

1. أصوات عن الفتوة من الدوائر الصوفية.
2. روابط الفتوة بوصفها جماعات جهادية.
3. فتّوات بلاط الخليفة الناصر لدين الله.
4. نهاية فتّوات البلاط في الحقبة المملوكية.
5. تلاقي الفتّوة والدروشة في إيران في عصر المغول.
6. الفتّوات البرجوازية. التآخي في الأناضول في العصر السلجوقي وما بعده.
7. الفتوة بوصفها مبدأ منظماً للروابط الحرفية في السلطنة العثمانية على وجه الخصوص.

يجمع هذا الكتاب بين التحليل التاريخي للظاهرة الواسعة الانتشار في العالم الإسلامي في حقبة تاريخية طويلة، والاعتماد على نصوص تاريخية وصوفية واجتماعية تمثل تلك الظاهرة وتحولاتها، وترجمة تلك النصوص إلى الألمانية. وهي نصوص عربية وفارسية وتركية.

يُعد هذا الكتاب بتحليلاته ومختاراته واحداً من كلاسيكيات الإستشراق الألماني في مجال الفتوة. وإن كان ينبغي أن يشار إلى جهود المستشرق الفرنسي الماركسي Cahen Claude (1909 – 1991) في مجال التاريخ الاجتماعي في العصور الإسلامية الوسيطة.

ينتقي تيشنر عدداً من النصوص، التي تؤكد في مجموعها ما طرأ على مفهوم الفتّوة من تحولات. فقد صارت الفتوة بمثابة النقابات التجارية، مثلما صارت ذات وجه اجتماعي تكافلي في وجهها الآخر. وكان لها في إبان حركة الفتوح وجه جهادي. وقد اتخذت حركة الفتوة شكلا تنظيمياً دقيقاً في خلافة الناصر لدين الله (...– 553هـ) الذي تبنى تلك الحركة وأضفى عليها بعداً عملياً.

يختار تيشنر نصوصاً من الأدب الصوفي تعود إلى أعلام التصوف من أمثال: عبد الرحمن بن محمد السلمي وأبي القاسم عبد الكريم القشيري، وابن عربي وفريد الدين العطار.

أما على المستوى التاريخي والاجتماعي فان تيشنر يختار نصوصاً من كتب الفتوة مثل كتاب الفتوة لابن معمار(... – 642هـ) ومن كتاب: نفائس الفنون في مسائل العيون لمحمد بن محمود الأمولي ومن كتاب تحفة الوصايا لأحمد بن إلياس النقاش الخرتبرتي. كما يتوقف عند كتاب السهروردي «رسالة الفتوة»، وعند كتاب الفتوة لنجمي زركوب إضافة إلى مصادر تركية فارسية عن الفتوة لأمير سيد علي الهمداني والبرغازي ومولانا النصيري وسلمان غول شهري.ليتوقف في خاتمة المطاف عند كتاب إلياس قدسي «نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية».

إن قارئ هذا الكتاب لا بد أن يلحظ تنوع مصادره وغناها، ودقتها ومعرفة المؤلف بالتطور التاريخي والحياة الإجتماعية في دول العالم الإسلامي.

المؤلف: فرانتس تيشنر –تاريخ النشر: 1979
التوثيق الأجنبي: Franz Taecshner. Zuenfte und bruderschaften im Islam. Texte zur Geschichte der Futuwwa. Artemis Verlag. Zuerich und muenchen: 1979
اللغة: الألمانية

انتشار المذهب الشافعي منذ بداياته حتى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي

يشكل كتاب المستشرق الألماني هاينز هالم عن انتشار المذهب الشافعي واحداً من الدراسات التي تنتمي إلى التاريخ الثقافي، والتي صدرت بوصفها من الأعمال المساندة لما يعرف بأطلس توبنجن للشرق الأوسط (TAVO) وهذا الأطلس التاريخي الذي أشرفت عليه جامعة توبنجن ينقسم إلى قسمين كبيرين:

واحد جغرافي يتتبع المسائل الجغرافية المتعلقة بالشرق الأوسط، موقعاً، وبيئة ومناخاً، وتربة إلى غير ذلك من المسائل، وآخر تاريخي يتتبع تاريخ هذا الجزء من العالم منذ العصور الحجرية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

حصل هاينز هالم على الدكتوراه من جامعة بون عام 1967م، وهو مايزال يعمل أستاذاً للدراسات الإسلامية في جامعة توبنجن، وقد أصدر عدداً من الدراسات المهمة التي تتناول تاريخ المذهب الشيعي، وإن كان هاينز هالم قد نال شهرته من خلال سجاله مع اثنين من مراسلي الإعلام الألمانيين «المختصين» بالعالم العربي والإسلامي، وقد بيّن هالم في واحد من كتبه يحمل عنوان « منتحل الله» جهل هذين المراسلين، وما تحتويه كتبهما من أخطاء وسرقات.

من المعروف أن الإمام الشافعي استقر في مصر بعدما ذهب إليها من بغداد عام 199هـ. وقد ميّز دارسو فقه الشافعي بين القديم والجديد؛ فالجديد هو ما دوّنه الشافعي في أثناء إقامته في مصر (199 – 204 هـ) حيث غير الكثير من آرائه، واجتهاداته، وأعاد تصنيف كتبه، وحمل مذهبه تلاميذ مثل: البويطي والمزني والربيع. ويمثل « الام» و«الرسالة الجديدة» المرحلة المصرية من فقه الإمام الشافعي. ومن المهم ان يشار في هذا السياق إلى أن الدولة السلجوقية قد تبنت مذهب الإمام الشافعي، وقامت بإنشاء المدارس النظامية لتدريس هذا المذهب.

يتوقف كتاب هاينز هالم عند مسألة الانتشار في كتابه المشار إليه، على نحو يجمع بين العرض التاريخي المتسلسل والتحليل الذي يحاول أن يبين أسباب الانتشار أو أسباب الانحسار؛ فقد انحسر هذا المذهب بعد الهجمة المغولية، حيث ساد المذهب الحنفي في تركيا وفي شمال العراق ووسطه، في حين ساد المذهب الشيعي في إيران بعد قيام الدولة الصفوية، كما انحسر هذا المذهب في مصر بعد قيام الدولة الفاطمية، ولم يعد المذهب الشافعي إلى مصر والشام والحجاز واليمن إلا بعد قيام الدولة الأيوبية، ليمتد بعد ذلك إلى شرق أفريقيا وجنوب الهند، وأندونيسيا وماليزيا.

يتكون كتاب هالم من بضع وثلاثين مفردة، معظمها يعود إلى أصقاع العالم الإسلامي التي وصل إليها المذهب الشافعي، وبعضها يتحدث عن مصادر الشافعية أو صلاتها بالمذاهب الإسلامية الأخرى.

يتوقف هالم في البداية عند كتب طبقات الشافعية بخاصة وطبقات الفقهاء عموماً ويسعى لتبيان أهميتها وطبيعة مصادرها ودورها في تبيان طبيعة المذهب؛ لينتقل بعد ذلك للحديث عن بدايات المذهب الشافعي، والمرحلة المصرية وما قبلها؛ ليتوقف بعدها عند مصطلحي رئيس المذهب والقاضي وليوضح بعدها طبيعة العلاقة بين الشافعية والاشعرية. بعدها يبدأ هالم برسم خارطة تاريخية تبين انتشار هذا المذهب؛ فيتحدث عن:

خراسان، خوارزم، الهند، وسط آسيا، قومس، جرجان، طبرستان وجيلان، الري، أذربيجان، أصفهان، العراق، الموصل، ديار ربيعة، ديار بكر، سوريا، آسيا الصغرى، مصر والقاهرة، الصعيد، وسط مصر، الوجه البحري، الحجاز، اليمن، حضرموت، شرق إفريقيا، المغرب.

وعندما يتتبع هالم المذهب الشافعي في هذه الأمصار؛ فإنه لا يكتفي بتقديم أسماء تلاميذ الشافعي وأنصاره في تلك البلاد، بل يقدم دراسة تاريخية دقيقة تتبع نشوء المذهب في ذلك البلد وما طرأ على ذلك المذهب من تحولات، ويعدد بعد ذلك أبرز الفقهاء وكتبهم ولإيضاح ذلك نكتفي بالحديث عن العراق. يستغرق حديث هالم عن العراق سبعين صفحة، يتتبع فيها بالتفصيل التاريخي الدقيق تاريخ المذهب الشافعي، ويقسم العراق إلى:

بغداد ص 155– 171

البصرة ص 171 – 175

الكوفة ص 175 – 181

مناطق أربيل ص 182 – 184

وهو في هذا العرض الذي يمزج فيه بين الجغرافيا والتاريخ، يقدم عملاً موسوعياً صغيراً عن هذا المذهب، مثلما يقدم عرضاً مسهباً لأبرز الاتجاهات الفقهية التي شهدها العالم الإسلامي، التي تتصل بهذا المذهب بصلة.

لقد دون الإمام الشافعي مذهبه بنفسه، واعتنى بالقواعد الكلية، وحاول أن يمزج بين مدرستي الحجاز والعراق، أي بين مدرستي الأثر والرأي.

ولعل القاضي أبو العباس، قاضي شيراز الذي لقب بالباز الأشهب، هو من الذين أسهموا في نشر هذا المذهب.

والمتأمل لكتاب هالم يجد أن مصادره دقيقة وواسعة وكثيرة، وأن فهارسه هي الأخرى على غاية من الأهمية والدقة. والكتاب في الخلاصة معرفي الغايات، تحليلي الأبعاد، تاريخي المنهج.

المؤلف: هاينز هالم – تاريخ النشر: 1974
التوثيق الأجنبي: Heinz Halm. Die Ausbreitung der Šâfichitschen Rechtschule von den anfaengen bis zum 8/14 jahrhundert..ludwing reicher. Wiesbaden: 1974
اللغة : الألمانية

جلال الإسلام

مونتغمري وات واحد من كبار المستشرقين الذين عرفوا بكثرة الإنتاج. ولد عام 1909، ودرّس الفلسفة لمدة أربع سنين قبل أن يتحول إلى حقل الدراسات الإسلامية، بكتابة رسالة دكتوراه بعنوان: الإرادة الحرة والقدر في الإسلام المبكر. أصبح رئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة أدنبرة عام 1947.

وتشمل قائمة أعماله الطويلة كتباً كثيرة منها: «محمد في مكة»، «محمد في المدينة»، «الإسلام واندماج المجتمع»، إسبانيا الإسلامية»، «تأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى»، «الحقبة التكوينية للفكر الإسلامي».

صدر كتاب «جلال الإسلام» في سلسلة كتب «الحضارات العظيمة» التي تصدرها دار نشر سدجويك وجاكسن، وكان قد صدر فيها «حياة قرطاج وموتها»، و«تركيا ما قبل العثمانيين»، و«أعجوبة الهند»، و«الهند البريطانية»، و«عظمة بابل»، و«مجد الإغريق»، و«قوة آشور»، و«بهاء مصر»، و«إنجاز الفايكنغ».

يغطي كتاب «جلال الإسلام» تاريخ العالم الإسلامي في عصوره التكوينية الأولى، التي استمرت لأربعة قرون ونصف، بدءاً من مطلع العصر الأموي وانتهاء بآخر أيام العصر السلجوقي.

حول الحقبة الأموية من 661 – 750، يراجع المؤلف أساس قوة معاوية ويعرض للحرب الأهلية الأولى بعد وفاة ابنه يزيد (680 – 705) وصولاً حتى حكم عبد الملك بن مروان (685 – 705)، الذي امتاز عصره بشيء من الاستقرار النسبي، ليعرض أخيراً لأسباب سقوط الأمويين. ويسترعي انتباهه على نحو خاص ما شهده العصر الأموي من اتساع للإمبراطورية العربية، التي امتدت شرقاً وغرباً، لكنها مع ذلك عجزت عن الاتساع شمالاً. وحول أشكال الحكم في العصر الأموي، يرى أن الدولة في هذا العصر كانت اتحاداً قبلياً، تنضم فيه كثرة من القبائل لتسيطر على الدولة ضمن تراتب قبلي محسوب، حظيت فيه الجماعات غير المسلمة بالحماية من لدن الدولة نفسها. ويتناول المؤلف ضروب الإدارة وأنواع الضرائب، ومسؤوليات رأس الدولة، وطبيعة النظام الأموي. ولأن الدولة كانت اتحاداً لقبائل عربية دخلت الإسلام بأكملها، فقد كان من الطبيعي أن يغيب عنها التفكير غير الإسلامي. هكذا خرجت جميع الفرق الإسلامية الدينية من رحم التفكير الإسلامي المزوج بالطابع القبلي. فظهرت حركات سياسية ودينية ذات طابع قبلي عربي مثل الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية.

وبموازاة ذلك يحرص المؤلف على بيان أن بدايات الثقافة الإسلامية قد نمت بالتفاعل مع التكوينات الاجتماعية. ففي هذه التكوينات ظهرت المناقشات القانونية الأولى، والاهتمام بالكتابة التاريخية، وتدوين الحديث النبوي، والشعر والأدب.

يرى المؤلف أن انهيار الحكم الأموي بمقتل الخليفة مروان الثاني عام 750م، وصعود أبي العباس السفاح إلى السلطة يعود إلى أربعة عوامل، هي: تنامي قوة الموالي والمسلمين غير العرب وتذمرهم، وتفكك وحدة القبائل العربية، واستياء أغلب الزعماء الدينيين، والرغبة الواسعة بظهور منقذ سياسي وقائد يستقطب اهتمام الناس. يعتقد المؤلف أن نجاح الدعوة العباسية يقترن باستجابتها لهذه العوامل.

فقد استفادت من تنامي قوة الموالي في تجنيدها إياهم في الصراع مع الأمويين، وتبنت حركة دينية، فكان الخلفاء يقدمون أنفسهم كأئمة أكثر منهم أمراء، وحاولت إطفاء النزاع بين القيسية واليمانية، وفي الوقت نفسه صار الخلفاء العباسيون يعلنون عن أنفسهم كمنقذين أو «مهديين»، بل صار يطلق على الخليفة «خليفة الله»، و«ظل الله في الأرض».

وبينما كان العباسيون يجهدون في المحافظة على سلطتهم، كانت قوى المعارضة تعمل في الخفاء. وأول إقليم فقده العباسيون هو إسبانيا التي ضاعت منهم عام 755، بعد حروب متواصلة بين العرب والبربر. وسرعان ما أعقبتها أجزاء من شمال إفريقيا، حيث سيطرت الإباضية على جبل نفوسة في ليبيا وتاهرت في الجزائر، وكذلك الحال في سجلماسة.

وبعد أقل من قرن بدأت مناطق خراسان بالاستقلال على أيدي الطاهريين والصفاريين. في هذه الحقبة تكونت العلوم الإسلامية في الفقه والكلام والتاريخ والأدب، فظهرت المدارس الأربع في الفقه الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، كما ظهرت المدارس الكلامية لدى المعتزلة والشعوبية والشيعة (الإمامية والإسماعيلية والزيدية)، وعلوم القرآن، والسنة والتاريخ والتصوف.

ويعرض المؤلف للحقبة البويهية (945 – 1055)، والإمبراطوريات الإقليمية عند السامانيين والغزنويين والحمدانيين والفاطميين حتى نهاية إسبانيا الأموية. وهو يرفق تناول الحركات السياسية بتناول الحركات الفكرية التي تصاحبها كالأشعرية عند السنة في العصر السلجوقي والإسماعيلية عند الفاطميين في مصر، والتركيز وإحياء اللغة الفارسية وتطور العلوم والفلسفة كالطب والرياضيات والهندسة، وعلاقة الإسلام بالهيلينية، وصولاً حتى الحروب الصليبية.

المؤلف : مونتغمري وات – عدد الصفحات: 276ص – تاريخ النشر : 1974
التوثيق الأجنبي: W. Montgomery Watt. The Majesty that was Islam. Sidgwick and Jackson، 1974
اللغة: الإنجليزية

الوحي والتاريخ في فكر المسلمين المحدثين

مؤلفة هذا الكتاب الذي يقع في مائة وثمانين صفحة من القطع الكبير، هي الباحثة والأستاذة الجامعية روتراود ڤيلاندت، التي حصلت على الدكتوراه من جامعة توبنجن Tuebingen في جنوب ألمانيا عام 1970م، ونشرت بعد ذلك عدداً كبيراً من الدراسات والكتب لعل من أهمها كتابها الضخم، وهو بعنوان: صورة الأوروبي في الأدب العربي القصصي والمسرحي الحديث.

وقد صدر هذا الكتاب بالألمانية عام 1980م، ويقع في ستمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير، لكن قارئ دراسات روتراود ڤيلاندت يكتشف أنها تكوّنت فلسفياً، فقد درست الفلسفة، وعلم الأديان المقارن، في جامعات توبنجن وميونيخ وإسطنبول.

يتوقف كتاب «الوحي والتاريخ» عند مسألة قديمة وحديثة، وقف القدماء عندها، مثلما شغلت حيزاً مهماً في الدراسات الدينية المقارنة. ترى ڤيلاندت أن بروز هذه الإشكالية في الفكر العربي الحديث جاء على نحو بارز بعد صدمة الغرب التي جاءت إبّان الحقبة الاستعمارية. إذ شرع المسلمون، كما ترى، الذين تعرض وعيهم للكثير من المراجعة والتأمل، يعيدون قراءة هذه الإشكالية ويحللون أبعادها، فالوحي، كما هو معروف، لحظة تقع خارج التأطير الزمني، وإن كانت تنتمي إلى لحظة زمنية محددة، وهو مايسري على النص الديني المقدس الذي لا ينتمي إلى اللحظة التي تنزّل فيها، وإن ظلّت قراءات تلك النصوص الدينية وتأويلاتها تنبع من شرائط تاريخية وثقافية محددة.

تسعى هذه الدراسة الفلسفية الأبعاد لقراءة هذه الإشكالية من خلال بابين وتمهيد، يقع الباب الأول والتمهيد في ثمان وأربعين صفحة، في حين يقع الباب الثاني في مائة صفحة ونيف، أما الخاتمة فتقع في حوالي ثلاثين صفحة، تليها قائمة المصادر والمراجع الغنية بالدراسات والنصوص والإشارات العديدة.

يتكون الباب الأول من فصلين:

الفصل الأول: الوحي والتاريخ في القرآن الكريم، وفي هذا الفصل تناقش المؤلفة عدداً من الجزئيات، فتتوقف عند علاقة الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، بالتاريخ كما يعرضها القرآن، وتتحدث عن مجريات تاريخ الوحي في ضوء التصور القرآني، وتقف أخيراً عند الوحي وتاريخية الإنسان في المنظور القرآني.

أما الفصل الثاني فعنوانه: الشرائط التاريخية لطبيعة هذه الإشكالية في الإسلام المعاصر وتناقش ڤيلاندت ذلك من خلال إيضاحها لأمرين:

الأمر الأول: يوضح موقف مفسري القرآن الكريم من الفكر التاريخي في الموروث الإسلامي، والثاني: يتكفل بإيضاح الوعي التاريخي ومشكلة التفسير القرآني في مواجهة أوروبا الحديثة: سياسةً وثقافةً.

أما الباب الثاني فتذهب فيه ڤيلاندت لمناقشة أبعاد هذه الإشكالية الفلسفية المركبة عند مفكري الإسلام المعاصرين.

تتوقف ڤيلاندت عند مجموعة من المفكرين المختلفي الاتجاهات، فهم في مجموعهم يشكلون خارطة عريضة تجمع بين الإصلاحيين والسلفيين، والمحافظين والليبراليين.

تتوقف الدراسة عند كل من: محمد عبده (1849–1905)، ومحمد رشيد رضا(1865–1935)، وعلي عبد الرازق(1888–1966)، وعباس العـقـاد(1889–1964)، ومالك بن نبي(1905– 1973)، ومحمد أحمد خلف الله (1916 – ...).

تناقش ڤيلاندت آراء محمد عبده من خلال سؤال التاريخ وأسباب حركته، مثلما تتوقف عند مفهوم الوحي عنده في ضوء حركة التاريخ؛ لتتوقف في خاتمة المطاف عند تاريخية الإسلام ووظيفة الحاضر. أما عندما تناقش موقف تلميذه رشيد رضا، فإنها تناقش دور الوعي التاريخي عنده، وتتحدث عن الإسلام، كما يراه، بوصفه رسالة العرب التاريخية، لتتوقف أخيراً عند المبادئ الموحى بها وطبيعة تحولاتها بعد تطبيقها على أرض الواقع.

أما في مناقشتها للمسألة عند علي عبد الرازق، صاحب الكتاب الذي أثار ضجة كبرى جرّاء حديثه عن «مسألة الخلافة وأصول الحكم»، فتتوقف عند مسألة أثارت جدلاً واسعاً وهي زمنية النصوص الدينية عنده.

تتوقف ڤيلاندت عند العقاد لتبين التحولات التي عاشها والتي قادته إلى الإسلاميات، وتبين أسباب التحول، وما كان يعيشه العقاد من أزمات روحية وفكرية؛ لهذا يجيء المدخل الأساسي لفكر العقاد من خلال العلاقة بين الإيمان والدراسات التاريخية للأديان.

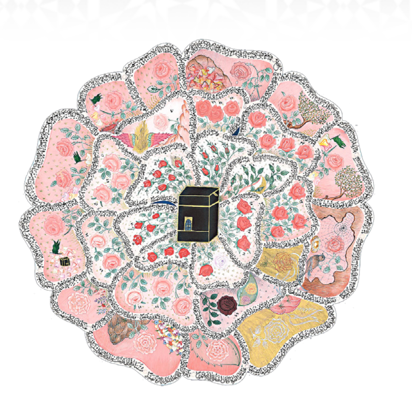
تدرس ڤيلاندت مالك بن نبي من خلال كتبه المؤلفة بالفرنسية وخصوصاً كتابه الشهير«الظاهرة القرآنية» وتناقش رؤاه من منطلق ايمانه بأن المصدر الإلهي للقرآن الكريم هو حقيقة تاريخية، مثلما تدرس مقارناته بين القرآن والكتب المقدسة الأخرى وموروثها الديني.

أما توقف ڤيلاندت في خاتمة كتابها عند صاحب الكتاب الإشكالي محمد أحمد خلف الله «الفن القصصي في القرآن الكريم» الذي أثار ضجة كبرى لاتقل عن الضّجة التي أثارها كتاب علي عبد الرازق؛ فإن ڤيلاندت تحلل رؤاه من منظوره لواقعية القصة القرآنية وسعيه في البحث عن مصادر لها.

من الواضح أن المؤلفة سعت لقراءة هذه الإشكالية في القديم، وتوقفت طويلاً عندها في الفكر الحديث، من خلال تأمل لكتابات مختلفة في الفكر الإسلامي.

إن العلاقة بين الوحي والتاريخ مركبة: فالقرآن ليس مجرد نصّ تاريخي؛ لأن جوهره المتعالي يتعالى على الوقائع التاريخية ويسمو فوقها والتاريخ مُعطى متغير، نظلّ نعيد قراءته وتأمله في ضوء معطيات الحاضر وما يطرحه من إشكالات ومعارف. واطلاع ڤيلاندت على تلك المعطيات في هذا الكتاب أمر واضح تماماً.

المؤلف: روتراود ڤيلاندت – عدد الصفحات: 650ص – تاريخ النشر: 1971
التوثيق الأجنبي: Rotraud Wielandt. Offenbarung und Geschichte im Denken Modernen Muslime. Franzsteiner Verlag. Wiesbaden: 1971
اللغة: الألمانية



تاريخ العرب والمسلمين

بين روما ومكة: البابوات و الإسلام

مؤلف هذا الكتاب الإشكالي هو الباحث اللاهوتي هاينز يواخيم فيشر، الذي حصل على الدكتوراه في اللاهوت المسيحي والفلسفة من جامعة ميونيخ عام 1973م. عمل بعدها مراسلاً لصحيفة «عموم فرانكفورت» الألمانية لشؤون إيطاليا والفاتيكان. وهو في الوقت نفسه، ناشر أصدر عدداً من الكتب أهمها سلسلة «كتب ممنوعة».

لهذا الكتاب عنوانان: رئيسي يشير إلى مدينتين لهما أهمية قصوى في الجغرافيا الدينية الخاصة بكل من المسيحية والإسلام، والعنوان يقوم على التضاد أو على التقابل في أحسن الأحوال، وآخر فرعي يطرح إشكالية العلاقة بين الكرسي الرسولي والإسلام وهي علاقة طويلة ومعقدة ومملوءة بالجراح.

يتكون هذا الكتاب من اربعة أبواب إضافة إلى فصل تمهيدي وفهارس ومجموع صفحات الكتاب 385 صفحة من القطع المتوسط.

أما الفصل التمهيدي فيحمل عنواناً غريباً هو: «من تمارا إلى بنيدكتوس السادس عشر. مقاربة ذاتية» وهو فصل وجداني ممتع يسرد فيه فيشر تأملات فكرية في إطار عدد من التجارب التي تعود إلى بدايات الشباب. أما تمارا فهي فتاة تركية، مسلمة، جميلة وخجولة كانت حبه الأول، وقد قادته علاقته البريئة بها إلى محاولة التعرف على الإسلام وهو الفتى الكاثوليكي المتدين. اكتشف فيشر، في أثناء هذه المحاولة كما يقع للمثقفين الأوروبيين عموماً، كتاب ألف ليلة وليلة وعوالمه السحرية فافتتن بهذا العالم الغامض. المملوء بالأسرار والفتنة. واكتشف بعدها كتابات الروائي الألماني كارل ماي التي ترسم للشرق صورة خيالية مملوءة بالإثارة من خلال مغامرات شخصيات ألمانية وأخرى مسلمة، ثم جاءت دراساته للاهوت وخبرته في عالم الصحافة والنشر لتمكنه من الحديث عن عالم الإسلام هذه المرة من بوابة الفاتيكان ورموزه التاريخية وتحولاته الكثيرة.

سمّى فيشر الباب الأول من كتابه « على المحك» وهو باب يتفحص فيه موقف أوروبا من الفاتيكان، وموقف الفاتيكان منها، مثلما يعود ليتحدث عن تاريخ العلاقة بين الفاتيكان والإسلام عقيدة وتاريخاً مشيراً إلى الإرث التاريخي الذي ظلّ يتحكم بأساس هذه العلاقة ويضع محددات سياستها.

أما الباب الثاني فعنوانه آخر البابوات وفيه يتحدث فيشر عن الكرسي الرسولي منذ عام 1939م ويلم بالمواقف السياسية الكبرى التي سادت العالم آنذاك ويتحدث عن مواقف الباباوات منها، ويفرد للعلاقة مع العالم الإسلامي جانباً مهماً من الفصل، لكن حديثه ظلّ يتسم بالوقوف عند أبعاد هي أشبه بالعلاقات العامة والمواقف الديبلوماسية. ومن الطبيعي أن يتوقف فيشر عند الأب يوحنا بولس الثاني مطولاً متتبعا زيارته وأنشطته وتصريحاته الخاصة بالعالم الإسلامي.

لكن وقفة الكتاب في الباب الثالث عند البابا الحالي بنيدكتوس السادس عشر وهو لاهوتي ألماني اسمه الأصلي يوسف آلوئيس راتسينجر ولد في عام 1927م وكان أستاذاً للاهوت منذ عام 1959م في غير جامعة ألمانية ليصبح منذ عام 1977م رئيساً لأساقفة ميونيخ وكردينالاً، وليتم انتخابه في 2005/4/19 بابا الفاتيكان، إن هذه الوقفة هي أكثر الوقفات في الكتاب ذات الاتصال بالمناحي الفكرية.يبدأ فيشر كتابه هذا بالاشارة إلى اللاهوتي راتسينجر قبل أن يصبح البابا، ويتحدث عن رؤاه الفكرية واللاهوتية ، لكنه يفرد للمحاضرة التي ألقاها البابا في الخامسة من مساء الثاني عشر من سبتمبر 2006 مساحة واسعة، فقد ألقى البابا محاضرة يومها في جامعة ريغنسبورغ Regensburg عنوانها. الإيمان والعقل والجامعة» أثارت ردود فعل واسعة في العالم الإسلامي. يحكي الحبر الأعظم في المحاضرة عن حوار منسوب إلى إمبراطور بيزنطي وعالم مسلم، يدّعي فيها الامبراطور أن الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، « أمر باستعمال السيف لنشر العقيدة التي جاء بها» وقام البابا باستبعاد آية ﴿ لا إكراه في الدين﴾ زاعماً أنها نزلت قبل أن يكون للإسلام دولة، لتظل مسألة انتشار الإسلام بالسيف هي الأساس. مع أن هذه الآية جزء من سورة البقرة المدنية باتفاق المفسرين، يتتبع فيشر ما أثارته المحاضرة من ردود أفعال في العالم الإسلامي، ومطالبته بالاعتذار لكن البابا اكتفى بالإيضاح ثم بإبداء الأسف، مشيراً بعد ذلك إلى استئناف الحوار الإسلامي المسيحي في المنتدى الذي عقد لهذه الغاية من 4- 6/ 11/ 2008 في روما.

أما الفصل الرابع، فيعود فيه فيشر إلى الجذور الأولى للكرسي الرسولي في العلاقة مع الإسلام، ولعلّ الدارس لتاريخ الصراعات والحروب وبخاصة تاريخ الحروب الصليبية يكتشف عمق هذا الدور. ويمكنني أن أشير في هذا المقام إلى دور البابا غريغوريوس الثالث في الحملة الصليبية الثالثة عام 1187م وإلى دور البابا انوسنت الثالث في الحملة الصليبية الرابعة عام 1202م وإلى دور البابا غريغوري التاسع في الحملة الصليبية السادسة عام 1228م. أما فيشر فيبدأ حديثه على المستوى التاريخي بالإشارة إلى الدور الذي لعبه البابا أوروبان الثاني الذي أقام بجولة أوروبية واسعة لحشد الرأي العام المسيحي في أوروبا ودفعه تجاه الحروب الصليبية.

ودعا لؤتمر في كليرمونت بفرنسا عام 1095م، وأطلق فيه صحيفته الشهيرة: « إنها إرادة الرب» يستعرض فيشر بعد ذلك أسماء أمراء الحرب في أوروبا بين عامي 1453 و 1571 ودورهم في التحريض على الإسلام، مشيراً في الوقت نفسه إلى مفكرين قاموا بدور تنويري أمثال ليسنج وسبينوزا.

تكمن أهاية هذا الكتاب في تناوله لهذه العلاقة المعقدة على نحو يجمع بين التاريخ والحاضر، وهو يتخذ من الحاضر نقطة انطلاق دون أن يغفل عن هذا الإرث التاريخي الثقيل الذي ورثه الفاتيكان من ذلك الصراع الطويل والحرب على العالم الإسلامي.

ومن الملاحظ أن تعاطف فيشر مع البابا بنديكتوس السادس عشر لا يخفى، ومحاولته لإظهار رؤيته للاديان التي تتسم، في رأي فيشر، بالانفتاح تمثل هذا التعاطف. كما أن أهمية الكتاب تكمن في محاولة وضع أسس للحوار بين الأديان تقوم على نبذ العنف والاحترام المتبادل، والابتعاد عن المسائل الجوهرية التي لا يتنازل الدين عنها والاكتفاء ببناء مجموعة من المفاهيم القيمية المشتركة التي توّسع دائرة المصالحة. وإن كان فيشر يختم كتابه بالدعوة إلى ما يسميه قيام حركة تنويرية للإسلام تشبه ما قام به مفكرو الغرب تجاه دينهم.

المؤلف : هاينز يواخيم فيشر – عدد الصفحات : 384 ص – تاريخ النشر : 2009
التوثيق الأجنبي: Heinz – Joachim Fischer. Zwischen Rom und Mekka. Die Paepste und der Islam c. Bertelsmann. Muenchen. 2009
اللغة: الألمانية



من بابل إلى التراجمة: تأويل الشرق الأوسط

كتاب برنارد لويس «من بابل إلى التراجمة» عنوان ينطبق على هوية الكتاب تماماً، فهو يضم مجموعة كبيرة جداً من المقالات تشمل إحدى وخمسين مقالة، كتبها لويس حول موضوعات متفرقة، وفي أزمنة متفاوتة، ليجمعها أخيراً في هذا الكتاب الذي صدر عام 2004م.

قسم المؤلف، بخبرته الموسوعية، الكتاب إلى ثلاثة أقسام. أعطى القسم الأول منها عنوان: «التاريخ الماضي»، ويضم هذا القسم إحدى وعشرين مقالة تناقش موضوعات مختلفة: مسجد إسلامي، من بابل إلى التراجمة، أعياد الشرق الأوسط، إيران في التاريخ، رقوق التاريخ اليهودي، ملاحظات حول الأرض والنقود والسلطة في إسلام القرون الوسطى، تأويل للتاريخ الفاطمي، الدعاية في الشرق الأوسط ما قبل الحديث، الملكية في الشرق الأوسط، الدين والجريمة في الشرق الأوسط، المغول والعثمانيون، أوروبا والأتراك: حضارة الإمبراطورية العثمانية، أوروبا والإسلام: المدارك والتجربة، الحرب الباردة والانفراج في القرن السادس عشر، من الحُجّاج إلى السواح: مسح لأسفار الشرق الأوسط، الانتداب البريطاني لفلسطين في المنظور التاريخي، العروبة، انبثاق إسرائيل الحديثة، ملاحظاتاستشراقية حول المعاهدة بين الاتحاد السوفيتي والجمهورية العربية المتحدة عام 1971، تصنيف الكراهية الجماعية، الإسلام والغرب.

والقسم الثاني بعنوان: «التاريخ الحالي» يضم ثلاثة وعشرين مقالة: الشرق الوسط: مغرباً رغماً عنه، الشرق الأوسط في الشؤون الدولية، أصدقاء وأعداء: تأملات بعد حرب، العودة إلى القاهرة، الشرق الأوسط يصلي، في الأمم المتحدة، الحل المضاد للصهيونية، اليمين واليسار في لبنان، الشيعة، الثرة الإسلامية، أعداء الله، جذور غضب المسلمين، مشكلات الشرق الأوسط الأخرى، هل قلت: «الإمبريالية الأمريكية؟»: القوة والضعف والاختيارات في الشرق الأوسط، شريعة الإسلام، ليس كل شخص يكره صدام، دول الشرق: الرهون لم تعد من الألعاب التوسعية، ما خربه صدام، «الرجل المريض» يسعل اليوم قريباً من بيته، إعادة نظر في مفارقة تركيا الحديثة، يجب أن نكون واضحين، تفكيك أسامة ودفاعه الشرير، الاستهداف بتاريخ من الكراهية، وقت للتداعي.

أما القسم الثالث، «حول التاريخ»، فيضم ست مقالات نظرية تشمل: دفاعاً عن التاريخ، سرد المتكلم في الشرق الأوسط. وفي هذه المقالة الأخيرة يتعرض المؤلف لعدد من السير لاذاتية العربية.

وهو يرى أن استخدام ضمير المتكلم يعود على عصر تغلات – بليسر الملك الآشوري الذي عاش زهاء عام 1115 ق م. وبالإمكان القول إن تاريخ استخدام ضمير المتكلم أقدم من ذلك بكثير، حيث كتبت «أسطورة مولد سرجون الأكدي» بضمير الشخص الأول.

لكن الأمر لا يعني وجود رابطة بين السيرة الذاتية وهذه الأسطورة. كما أن هناك أخباراً تقول إن أحد أباطرة الصين القديمة حرم استخدام ضمير المتكلم لغير الملك. ولذلك فإن حضور المتكلم أو غيابه لا يعني بالضرورة السيرة الذاتية. ثم تأتي مقال: تأملات حول كتابة التاريخ في الإسلام، الأرشيف العثمانية: مصدر للتاريخ الأوروبي، كتابة التاريخ والإحياء القومي في تركيا، حول الاستغراب والإستشراق.

يدرك كتاب «من بابل إلى التراجمة» أنه يميل دائماً إلى تصوير لحظات المواجهة، وربما كان وضع مقالة «حول الاستغراب والإستشراق» في نهاية الكتاب إعلاناً عن هذا الإدراك. وهذه المقالة تبدأ بالإحالة إلى كتاب مخطوط لمؤرخ الموسوعات التركي «حاجي خليفة» عنوانه «دليل الحيارى إلى تاريخ اليونان والروم والنصارى» عام 1655.

يرى لويس أن حاجي خليفة كتب هذا الكتاب لأن الأوروبيين صاروا يحاصرون البلاد العثمانية المحمية إلهياً من الجهتين، وينتزعون منها الأراضي التي كانت من قبل جزءاً من دار الإسلام، فصارت جزءاً من دار الحرب. وفي لحظات المواجهة والصدام، تظهر نزعات الاستغراب والإستشراق، التي تحث الطرفين المتصارعين على بلورة بعض الأفكار عن النقيض لدى كل منها.

وفي معرض حديثه عن التهم التي توجه للمستشرق حديثاً، يرى المؤلف أن أهم هذه التهم تكمن في إخفاء الإنجازات الإسلامية أو التقليل منها، والتشويه المتعمد للموضوعات الفردية، وسرقة المستشرقين لملكية الناس الذين يدرسون تاريخهم وأدبهم. وهو يلاحظ أن هذه التهمة الأخيرة لم تأت من المشارقة، بل من الغرب نفسه.

ففي مؤتمر عقد في لندن عام 1958 حول كتابة التاريخ في الشرق الأوسط، وحين «أصبح معروفاً أن هذا المؤتمر سيعقد في لندن، وقبل أن يُنشر أو حتى يقدم منه أي شيء، شُنت عليه حملة صحفية، كان مفادها العام: هذا تاريخي، ولا حق لك في دراسته. أنت تسرق شيئاً ينتمي لي. وهذا التناول للدراسة الأكاديمية ومشكلاتها صار مألوفاً لسوء الحظ، وأصبح له أثره على هذه الدراسات في الجامعات».

المؤلف: برنارد لويس – عدد الصفحات : 438ص – تاريخ النشر : 2005
التوثيق الأجنبي: Bernard Lewis. From Babel to Dragomans. Interpreting the Middle East. Phoenix. 2005
اللغة: الإنجليزية

100 بطاقة من تاريخ العصور الوسطى: بيزنطة والعالم المسلم

ينطلق مؤلف هذا الكتاب، الفريد في صيغته، من أنّ تاريخ القرون الوسطى (بيزنطة، والعالم المسلم، والحروب الصليبية) غير معروف بما يكفي لدى أوساط الطلاب، إذ يلوح لهم «معقداً» أو «مختلفاً» أو غير محدد. وبفضل تسلسل حوادث مبسط، وبطاقات تتراوح بين صفحتين وأربع صفحات، مقسمة إلى معلومات، مع وسائل إيضاح أخرى كالخرائط ومسرد المصطلحات، يطمح هذا الكتاب إلى سدّ النقص في الكتب التعليمية حول تاريخ الشرق الأوسط في العصور الوسطى، من القرن الرابع وحتى الاستيلاء على القسطنطينية سنة 1453. وهكذا يمكن للقراءة أن تستعيد وتستوعب العلاقات والتفاعلات بين الإسلام القروسطي، والإمبراطورية البيزنطية، والعالم الأرثوذكسي، ولكنها تستهدف الذهاب أبعد، كأن تحارب الكليشيهات والأحكام المسبقة والتنميطات، وتزوّد القارىء بمعرفة أفضل، مستمدة من خيرة الكتابات التاريخية المتوفرة.

وفي مقدمة الكتاب يقول إريك ليموزان، أستاذ التاريخ في جامعة بريتاني الجنوبية، فرنسا، إنّ مناهج التاريخ في المدارس الثانوية الفرنسية تعطي أهمية بالغة لبيزنطة وللإسلام في أحقاب العصور الوسطى، ولكنّ الإطار الزماني – المكاني للشرق الأوسط في تلك الأحقاب يظلّ غامضاً أو غائماً. وليس تحديده بالأمر الصعب لولا أنّ اعتبارات تاريخية، وبعضها ثقافية وسياسية، تحول دون ذلك. وهذا ما يسعى إليه كتاب البطاقات المئة. ولكي يكون تركيب المادة مفيداً ومنسجماً، بالمعنى المنطقي والتعليمي في آن معاً، يضرب المؤلف صفحاً عن القرون الوسطى اللاتينية، إلا ما كان منها على صلة مباشرة بما جرى في المنطقة ذاتها، بيزنطة والعالم المسلم، كما في مثال الحروب الصليبية، أو التجارة مع المدن الإيطالية.

وقد استقرّ ليموزان على التسلسل التاريخي للحوادث، إذْ بدا له أنّ هذا الخيار هو الأقدر على تبيان الديناميات المتعاقبة خلف العلاقات والتفاعلات، إذ حين يتناول المرء الموقف البيزنطي في القرن الخامس عشر، فإنّ دراسة الإمبراطورية دون دراسة العثمانيين تصبح مستحيلة، الأمر الذي لا يعيق المؤلف عن إقامة الوشائج بين فترة تاريخية وأخرى، على مستوى الموضوعات المتقاربة. وهذا ما يجعل البطاقات مقاربة أولية وتمهيدية، وليست مادة بحثية عويصة، لاكتشاف وإعادة اكتشاف الإسلام القروسطي وبيزنطة والعالم الأرثوذكسي، من أجل فهم مبسّط بقدر ما هو دقيق.

القسم الأول من البطاقات يحمل العنوان التالي: إمبراطورية مسيحية جديدة، وتهديدات جديدة»، وفيه بطاقات عن القسطنطينية وتأسيس الإمبراطورية، والأباطرة من القرن الرابع حتى السابع، والتنظيم الإداري لإمبراطورية الروم الشرقية، والجيش والدبلوماسية في الفترة ذاتها، وتنظيم الكنيسة الشرقية، وتنصير السكان، وتأسيس الإمبراطورية البيزنطية على يد جوستينيان، وأزمنة الأزمات مع الفرس الساسانيين، وعهد هرقل، والغزو البلقاني الجديد. ثمّ تنتقل البطاقات إلى جزيرة العرب ما قبل الإسلام، ثمّ إعلان الدعوة وشخصية النبي محمد، وبدء تنزيل القرآن، والخلفاء الراشدين وانطلاق الفتوحات الإسلامية، وتبلور مفهوم دار الإسلام، وصعود الأمويين، مترافقاً مع ولادة التشيع، ومعنى أن يكون المرء مسلماً في العصور الوسطى.

هنا تنتقل البطاقات إلى طور المواجهة بين بيزنطة والإسلام، وتتناول مشكلات الإمبراطورية، وحركات الإنشقاق داخل الصفّ المسيحي، ومجمع نيقية المسكوني الثاني، وتأسيس الأرثوذكسية.

عنوان القسم الثاني من البطاقات هو: «بيزنطة المتجددة والرسوخ العباسي: تبادلات ومواجهات»، وفيه موادّ عن الكنيسة الأرثوذكسية، والعقيدة البيزنطية وشعائرها، وشخصيات البابا والبطريرك والإمبراطور، والسلالة الملكية البيزنطية، والمسيحية القوقازية. وفي موضوع مرتبط، تتناول البطاقات مسألة الأقليات في أرض الإسلام، والخلافة العباسية، وتقاليد عمل الخلفاء وطبائع حياتهم، والسلطات المحلية التي يمنحها الخليفة لولاته، دون أن يغفل المؤلف البحث في ما آلت آليه مسائل الخلاف بين الشيعة والسنّة، والقانون والنظام السياسي، والمجتمع والاقتصاد والثقافة والمدن (وثمة بطاقة خاصة لمدينة بغداد). يعود المؤلف إلى الميدان البيزنطي والإيديولوجيا الإمبريالية للمقدونيين، مقترنة بالقانون البيزنطي، وإعادة غزو آسيا الوسطى، وتنظيم المجتمع على الحدود الشرقية، وهداية الشعوب المستعبدة، والعلاقات بين بيزنطة وكلّ من بلغاريا وممالك الغرب، والتوازنات بين الفلاحين والطبقة الأرستقراطية في بيزنطة، وخصوصية جبل آثوس المقدّس في اليونان، وإمبراطورية باسيل الثاني.

القسم الثالث، والأخير، يحمل عنوان «هجمة الترك والصليبيين على الشرق الأوسط»، وتتابع بطاقاته رصد الصراعات داخل الإمبراطورية البيزنطية، عشية تعاظم واقتراب الأخطار الخارجية (وهنا يفرد المؤلف بطاقة مفيدة تماماً، تتضمن المقارنة بين وضع كلّ من فينيسيا والقسطنطينية، في ما يتصل بالعلاقة مع المسلمين).

ولا ريب في أنّ الوسائل المعينة العديدة التي يحشدها المؤلف ساعدت كثيراً في حسن توليف المادة التاريخية، وربما تلطيف وقائعها أيضاً، فخرجت البطاقات وقد أدّت قسطاً كبيراً من وظيفتها التعليمية، وحافظ مؤلفها على منهجية متجانسة في ترتيب الحوادث واستقراء مواقعها ضمن ذلك المشهد الحافل لتلك القرون الوسطى العاصفة.

المؤلف : إريك ليموزان – عدد الصفحات : 286 ص – تاريخ النشر : 2005

التوثيق الأجنبي : Éric Limousin. 100 Fiches d'histoire du Moyen Age: Byzance et le monde musulman. Editions Bréal، Paris 2005

اللغة: الفرنسية

جيو . تاريخ الإسلام

يبدأ المؤلف فقرة الكتاب الأولى باقتباس من المفكر والناقد الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد، من كتابه «تغطية الإسلام»، جاء فيه: «كلما جرى الحديث عن الإسلام، جرت معه تصفية الزمان والمكان، بهذا القدر أو ذاك. إنّ مصطلح الإسلام يغطي جزءاً صغيراً مما يجري في العالم المسلم، الذي يشمل مليار نسمة، ويضمّ عشرات البلدان، والمجتمعات، والتراثات، واللغات، فضلاً عن عدد لا متناهٍ من التجارب بطبيعة الحال. وإنه لمن الزائف، ببساطة، محاولة اختصار كل هذا إلى إسلام واحد».

والحال أنّ هذا الإلتباس العميم هو ما يسعى باسكال بوريسي إلى كشف أنماطه المتعددة، من خلال قراءة مباشرة مدعمة بالوثائق، تعتمد منهجية المتابعة الجيو ــ تاريخية، أي وضع الحدث التاريخي في سياقاته الجغرافية، واستقراء مختلف الخصائص المحلية للحضارات والثقافات التي صنعت وتصنع مشهد العالم المسلم اليوم. وهذه منهجية تتيح للمؤلف أن يتلمس طبيعة الحضارة الإسلامية، من حيث كونها سلسة مرشحة للتطويع والتطوير، ومرنة قابلة للتأثر والتأثير. ولكنها، في الآن ذاته، منهجية لا تعميه عن رؤية عناصر الوحدة في «أرض الأمّة»، كما يحلو له وصف دار الإسلام، برغم التنوع الهائل في مكوناتها الحضارية، وربما بسبب هذا التنوع تحديداً.

ولقد اختار المؤلف صيغة طباعية تتيح تقديم المحتوى بطرائق إيضاحية مبسطة، عن طريق استخدام اللون الأحمر بين حين وآخر، للتشديد على اسم علم أو مصطلح؛ إلى جانب الخرائط والجداول والبيانات والخطاطات، حيث يلعب اللون دوره التوضيحي هنا أيضاً. كذلك حرص بوريسي على تثبيت الهوامش والتعريفات في ذيل كل صفحة على حدة، وليس في نهاية الكتاب، وعلى إدراج نصّ قصير داخل مربع مستقلّ، بين الحين والآخر، يتضمن اقتباساً من مرجع ما، يضيء المادة موضوع المعالجة.

والكتاب ينقسم إلى ثمانية فصول، يتناول أولها موقع الديانة في قلب الإسلام، فيستعرض أصول العقيدة من حيث النصّ القرآني والسنّة النبوية والحديث الشريف، ثمّ السياق العربي للرسالة وكيف اتسع ليشمل الشعوب والأديان والحضارات الأخرى. كذلك يشرح المؤلف معنى أن يكون المرء مسلماً، فيشير إلى أركان الدين الخمسة، وإلى «وجوه» الإسلام (حسب الوصف الذي يعتمده للتعبير عن السنّة والشيعة والخوارج)، دون أن يغفل تفاسير القرآن وطرق التصوف. وفي هذا الفصل أيضاً، يتناول الصلات بين السياسة والدين، وموقع الشريعة في حياة الأمة المسلمة، ومسألة الخلافة، والحدود بين «دار العهد» و«دار الإسلام»، وقضايا الجزية والخراج، ونظريات ممارسة السلطة في الإسلام.

في فصل تالٍ ينتقل المؤلف إلى تطبيقات مباشرة لمنهجيته في القراءة الجيو ــ تاريخية لحضارة الإسلام، معتبراً أنّ رسالة النبي محمد كانت في الآن ذاته استمرارية حضارية للمناخات التي ولدت فيها، وقطيعة مع النظام السابق في أنها وحّدت القبائل والإمارات والكيانات.

وكان المؤرخ الفرنسي الكبير فرناند بروديل قد بيّن أنّ الدين التوحيدي الجديد شكّل تقاطع طرق ثقافياً وتجارياً بين ثلاث قارّات وكتلتين بحريتين، مختلفة تماماً فيما بينها، فدمج غالبية عناصرها المتباينة، لتكون الحصيلة تشكيل حضارة جديدة اصيلة.

ويناقش بوريسي التوازن القلق بين معطيات الصحراء ومعطيات السهوب، ضمن عوامل ضاغطة أساسية مثل القبيلة ومفاهيمها، وروح الترحّل البدوي (وهو هنا، يدخل في سجال مع مقولةاستشراقية شائعة، مفادها أنّ الإسلام كان ديناً للبدو وحدهم)، والهجرات الكبرى (وكانت تنطوي على نشر، وانتشار، المذاهب والفرَق)، والملامح العريضة التي يمكن الإتكاء عليها في الحديث عن «ثقافة بدوية» مترحلة.

مادة كثيفة، وشيقة، عن الحياة في الخباء، وتقاليد القوافل التجارية، والخانات، والبيوت الدينية، والواحات... تدخل في مقارنات ذكية مع نظائرها في نطاق المحيط الهندي، مقارنة بحوض المتوسط، ومع مراكز العمران والمدن والأمصار والأسواق.

ويؤمن بوريسي بأنّ المدن هي مراكز السلطة في نهاية المطاف، ولكنه لا يغمط الأطراف حقوقها وتأثيراتها، خصوصاً في إنتاج المعارف والفنون والبضائع، وتناقلها. وهو يتوقف عند نموذج المزيج الحضاري المشترك، التركي ــ الهندي ــ الفارسي، وكيف أنّ حصيلته الإسلامية تفاعلت بحيوية مذهلة على نطاق جغرافي واسع، من البلقان إلى الصين، ومن إسلام السواحل إلى إسلام السهوب والسافانا القارّية، ومن اللغات الأفريقية إلى تلك الآسيوية والأوروبية.

وفي مناقشة مفهوم أرض الإسلام المقدسة، أو «الحرم» في المعنى الأعمّ، يعقد المؤلف فصلاً خاصاً لشرح دلالة الحجّ المركزية، تاريخياً ودينياً وشعائرياً ورمزياً، فلا يقتصر في هذا على مكة والمدينة، بل يتناول بيت المقدس والعتبات الشريفة عند الشيعة أيضاً. وإذْ يبيّن أصولها في التراثين اليهودي والمسيحي، وكذلك جذورها الضاربة عميقاً في تاريخ المنطقة، فإنه يشدد على أنّ الإسلام جعل المسجد، وليس الضريح أو المقام أو المزار، هو مركز التلاقي الاجتماعي بين المسلمين. وفي نتيجة جانبية، ولكنها مهمة، كان موقع المسجد الأثير قد أتاح ولادة تراثات لامعة في عمارة الجوامع، وتقاليد الخطابة من المنبر، ورفع الأذان، وما إليها.

وفي واحدة من خلاصاته المهمة، يقول بوريسي إن ضعف العناصر التي تخصّ المدينة في التشريعات الإسلامية المبكرة، لا يطمس الحقيقة الكبرى التي تشير إلى أنّ أحد أسباب انتشار الإسلام كان التفاعل الديناميكي بين الصحراء والمدينة. والمؤلف أستاذ تاريخ القرون الوسطى والعلاقات بين الشرق والمغرب في المركز الوطني الفرنسي للأبحاث، وله مساهمات مهمة في دراسة الجوانب الجيو ــ سياسية للحدود التي كانت تفصل بين الإسلام والمسيحية. وكتابه هذا خطوة نوعية على طريق تعميق أطروحاته، وتأصيل منهجيته.

المؤلف : باسكال بوريسي – عدد الصفحات : 335 ص – تاريخ النشر : 2004

التوثيق الأجنبي: Pascal Buresi. Géo-politique de l' islam. Belin، Paris 2004.

اللغة: الفرنسية

العرب في العصور القديمة:
تاريخ العرب منذ العهد الآشوري إلى العصر الأموي

في بادئ الأمر كان المؤلف يحاول كتابة نص يتناول تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام كي يستعين به طلاب أقسام اللغة العربية والدراسات الإسلامية ودراسات الشرق الأوسط في جامعات أوروبا ثم تحول الأمر إلى مشروع أكاديمي معقد تولى المؤلف من خلاله دراسة تاريخ العرب ولغتهم لمدة ترنو على 1500 عام وكان هذا المرجع هو نتاج البحث .

من خلال قيامه بدراسة تاريخية وأخرى ميدانية يزعم المؤلف أن كلمة «العرب» لا تشير إلى قومية معينة أو إثنية ذات ملامح محددة، وإنما تشير إلى طبقة من الناس لها علاقات بقبائل معروفة أو شيوخ في البادية (أو الحضر).

ولقد اعتمد المؤلف على دراسة لغوية ميدانية قام بها في صحراء سورية و صحراء النقب والتقى عدداً من أفراد القبائل هناك بالإضافة الى تحليله لبعض النصوص التاريخية واللغوية الواردة من الصحراء العربية. ويرى المؤلف أن كلمة «عرب» لا تشير إلى البدو أو سكان الصحراء فقط وإنما لها دلالات أخرى. ومن الأمثلة التي استخدمها المؤلف للتدليل على ذلك ما يلي:

عندما سأل سائقه العربي في سورية عن اسم إحدى القبائل التي تقيم في الصحراء رد السائق قائلاً: تقصد أي نوع من العرب تنتمي إليه هذه القبيلة؟ وهذا يعني أن هناك أكثر من «عرب».

يرى المؤلف أن هناك فارقاً بين «عرب الديرة» و«البدو الرحل» و«الحضر». أما «الحضر» فهم سكان الجبال (قبائل الشمر)، التي كانت تقيم في أواسط الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، وكانوا يسكنون القرى، أما «البدو«فهم القبائل التي نزحت إلى بلاد الرافدين قادمة من جزيرة العرب. ويرى المؤلف أن هناك فوارق بين الحضر و الفلاحين وسكان البادية، وكل منهم يدعى أنه من«العرب» ، وفي حين أن البدو جميعهم من العرب فإن العرب ليسوا جميعاً من البدو حسب رأي المؤلف. و«البدوي» هو في الأصل راعي الأغنام الذي يرحل من مكان إلى مكان سعياً وراء العشب والمرعى أما «العربي» فهو ليس بالضرورة بدوياً.

سمع المؤلف بعض البدو يستخدمون كلمة عرب في السياقات التالية:

هيا أقدموا يا «عرب، إنهم «عربنا» و«ليسوا عربكم» وكلمة



«عرب» هنا تعني الأهل والمقربين.

سأذهب إلى «عرب صهري» و«عرب أبناء عمومتي». وهكذا فإن كلمة «عرب» تعني الأهل والأقارب ومن ينتمون إلى قبيلة واحدة أو عشيرة واحدة.

لاحظ المؤلف أن كلمة «عربان» تشير إما إلى اسم قبيلة (عربان شمر) أو تشير إلى اسم مكان (عربان حائل).

ويخلص المؤلف إلى أن كلمة «عرب» تعني أهل أو أقرباء أو من ينتمون إلى نفس العشيرة سواء في الصحراء العربية أو صحراء سورية. ولذلك يؤكد المؤلف أن كلمة العرب لا تعني مجموعة إثنية معينة وإنما تعني الانتماء إلى قبيلة ما مثل الشمر أو عنيزة أو بني صخر.. إلخ. ويمكننا القول بأن القبائل هي أمم عربية ، وهنا تشابه بين الأفراد الذين ينتمون الى هذه القبائل ونبلاء أوروبا الذين ينتمون إلى أمم معينة كالإنجليز والأسبان والبلجيك وسكان الدنمارك .. إلخ.

ولذلك فإن «العرب» لا ينتمون إلى «عرق» يسمى «العرب» وإنما إلى قبائل أو عشائر عن طريق علاقات الدم والنسب.

ولذلك فالعربي قد يكون «بدويا» في الصحراء وقد يكون مزارعاً في قرية، وقد يكون ممن يربون الإبل والمواشي، ومن رعاة الأغنام، وقد تكون من سكان المدن. ولقد كان أصحاب الجمال عبر التاريخ من النبلاء ومن الأرستقراطين العرب حسب رأي المؤلف، كما كان العرب في جنوب الجزيرة من سكان المدن والقرى وليسوا من البدو الرحل.

ويرى المؤلف أن القبائل في صدر الإسلام كانت تعتبر نفسها قبائل عربية في حين إن جيرانهم لم يكونوا يطلقون عليهم اسم «العرب» وإنما أسماء أخرى ومنها «أتباع إسماعيل» ويعتقد المؤلف أن العرب قد عاشوا في الجزيرة قبل ظهور الإسلام بحوالي 1400 عام.

وبعد استعراض صورة العرب في التوراة والتلمود وآراء الرومان والإسكندر الأكبر فيهم بالإضافة إلى الحديث عن العرب في جنوب الجزيرة وصورتهم في ثقافات وحضارات ما قبل الإسلام، وبعد مناقشة بعض المسائل اللغوية والدينية الخاصة بالإسلام والوثنية، انتهى المؤلف إلى ما يلي:

1 - إن كلمة «عرب» (في العصور الماضية) كانت تشير إلى مجتمع شبه عسكري يجنح دائماً نحو الحروب والصراعات وعلى رأس هذا المجتمع بطل مقدس يحكمه ويتحكم فيه ويعتمد في حروبه على استخدام الجمال التي تم ترويضها.

ولكن هناك من المؤرخين من عارض التعريف السابق لكلمة عرب ، وعلى سبيل المثال فإن بطليموس لم يربط بين كلمة «عرب» وبين الحروب التى استخدمت فيها الجمال كما هو وارد أعلاه. وهناك إشارات في مصادر تاريخية أخرى عن التشابه بين القبائل في جنوب الجزيرة العربية والقبائل الأمازونية التي كانت تقيم بالقرب من نهر الأمازون وكانت نزاعة إلى الحروب والصراعات.

ومن المؤرخين من أطلق اسم العرب على القبائل التي عاشت أثناء الخلافة الأموية.

كما اقترن اسم العرب بالنساء «العربيات» في جنوب الجزيرة العربية المتزوجات من «العرب» أو المتحدرات من أصول عربية.

وبالنظر إلى مصطلح «عرب» كما ورد في المصادر الإسلامية وغير الإسلامية فإن الكلمة لا تشير نهائيا إلى «البدو»، سكان الجزيرة العربية وليس للإسم علاقة بأي جنسية مهما كانت، ولقد ورد في المصادر التاريخية أن «العرب» في الأصل كانوا مجموعة من العبيد الذين يمتلكهم رجل له صفات الزعيم الروحي وكانوا يشكلون قوة بوليسية تجوب البلاد أثناء بعض المواسم والطقوس، وكانت هذه المجموعات من العرب متواجدة في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية وفي المناطق الحدودية .

المؤلف: جان رستو – عدد الصفحات: 684ص – تاريخ النشر: 2003
التوثيق الأجنبي: Jan Retso. Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads. London: Routledge Curzon, 2003
اللغة: الإنجليزية

تاريخ العرب والمسلمين

الكتابة والمشافهة في صدر الإسلام

يناقش هذا الكتاب مسألة بالغة الأهمية في التاريخ الإسلامي، سادت القرنين الأوّل والثاني للهجرة، وهي العلاقة بين الكتابي والشفاهي في تناقل القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية أو النصوص الأخرى، أياً كانت موضوعاتها وأجناسها. وبمعزل عن محاولات تدوين القرآن، فإنّ أولى «المصنفات» ذات المحتوى المتجانس، لعدد من المؤلفين في موضوعات محددة، لم تظهر إلا في أواسط القرن الثامن.

يتألف الكتاب من سبعة فصول، تتناول هذه المسألة في الجاهلية، ثمّ ما يتصل بالقرآن، فالحديث النبوي والسيرة والتفسير، ومجالس الحكم وما اقترن بها من أنشطة تأليف وترجمة، وشيوع روح التصنيف، والبذور الأولى لعلوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة، وصولاً إلى عصر القراءة بمعناها الشعبي العريض، وظهور المجاميع والمكتبات. وبعد قرابة مئة سنة من الاعتماد الكلي على التناقل الشفهي للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والقصائد والخطب، تكوّن أدب عربي مكتوب شديد التنوع والثراء، تميّز بانتشار الكتاب والمخطوط.

وإذا كان القرآن هو الكتاب الأول في الإسلام، وكذلك في الأدب العربي، فهذا لا يعني أنّ استخدام الكتابة لم يكن شائعاً قبل الإسلام، خاصة في تدوين العهود والمواثيق والأحلاف والصكوك التجارية، وما إليها. ويكفي هنا التذكير بنصّ صلح الحديبية بين الرسول وأهل مكة، وقبلها الإتفاقية التي كتبها القرشيون للتعاهد على عدم التزاوج مع بني هاشم وعبد المطلب (يقول ابن اسحق في السيرة إنهم «كتبوا كتاباً»، و«كتبوا في صحيفة»). ويتبنى المؤلف وجهة ناصر الدين الأسد وفؤاد سيزغين القائلة بأنّ بعض الشعر العربي الجاهلي كان قد كُتب بالفعل في صحائف، رغم أنّ الإلقاء الشفهي ظلّ هو السائد في الغالبية الساحقة من الأنشطة الشعرية آنذاك.

ولا يستثني شويلر الأدب العربي المسيحي قبل الإسلام، فيشير إلى أنّ بعض الباحثين الغربيين (مثل أنتون بومستارك) ذهبوا إلى حدّ ترجيح وجود ترجمة عربية للتوراة، قياساً على قيام الكنيسة بترجمة بعض أعمال الرسل إلى لغات محلية، وبالتالي من غير المنطقي أن تكون قد استبعدت اللغة العربية من تلك الترجمات. وبمعزل عن هذا الافتراض النظري، فإنّ العالِم المسلم علي بن سهل ربّن الطبري كان قد اقتبس من التوراة نصوصاً ترجمها بنفسه عن السريانية، وضمّها إلى مؤلفه «كتاب الدين والدولة». كذلك تجب الإشارة إلى أعمال عدد من المؤلفين العرب المسيحيين الذين اقتبسوا التوراة، مثل تيودور أبو قرة وعبد المسيح الكندي.

Écrire et transmettre
dans les débuts de l'islam
Gregor Schœler
Islamiques
puf

الفصل الثاني من الكتاب يخصصه المؤلف للقرآن الكريم، مذكراً منذ البدء بالآية الأولى «اقرأ باسم ربّك...» التي نزلت على نبيّ كان أميّاً، لكنه سارع إلى تلاوة التنزيل على عدد من الصحابة، كان بينهم زيد بن ثابت، «كاتب الوحي» كما سُمّي، فتمكنوا من حفظ القرآن شفاهاً. وينتقل شويلر إلى قراءات القرآن السبع التي صارت تُدرّس في مختلف أرجاء أرض الإسلام، على يد نافع في المدينة، وابن كثير في مكة، وأبو عمرو بن العلاء في البصرة، وابن عامر في دمشق، وعاصم وحمزة بن حبيب والكيسائي في الكوفة.

ولهذا فقد نشأ أدب مستقل حول القراءات، وظهرت أعمال في «كتابة القراءة» على وجه التحديد، تُنسب إلى أبي عمرو بن العلاء أو الكيسائي، وأعمال أخرى في مناقشة اختلاف القراءات والقراء (كما في كتاب «اختلاف نافع وحمزة»)، أو تصنيفها وتصنيفهم (كما في «طبقات القراء» لابن الجزاري).

الفصل الثالث يعقده المؤلف لبدايات علوم الدين، في ميادين السيرة والحديث النبوي والتفسير، فيتوقف أولاً عند شخصية عروة بن الزبير بوصفه أحد أهمّ أوائل المؤلفين المسلمين في تلك الحقبة. لقد كان يعلّم أصول الدين في المدينة، وكان يقوم بتحفيظ الأحاديث النبوية، وجمع مقداراً كبيراً من وقائع حياة الرسول، أو ما صار يُسمّى «المغازي» التي تفيد معنى أوسع من وصف الغزوات العسكرية. من جانبه كان مجاهد بن جبر ممثل المدرسة المكية في تفسير القرآن، وكان بين أبرز فقهاء مكة ومحدّثيها، رغم أنه ليس من اصحاب القراءات السبع.

وأخيراً، كان ابن شهاب الزهري، وهو أبرز تلامذة عروة بن الزبير، الشخصية الأهمّ في الجيل الثاني من التابعين، وإليه يعود الفضل في تطوير التدوين وتوثيق الأحاديث النبوية والنغازي ومسائل الفقه. والمفارقة أنّ الزهري كان في البدء مناوئاً لفكرة التدوين (كما ينقل مالك بن أنس، الذي كان تلميذاً عنده)، ثمّ صار فيما بعد لا يسير إلا حاملاً قرطاساً أو لوح كتابة، يسطّر كلّ ما يسمعه ويراه جديراً بالتدوين، حول مختلف علوم الدين.

تاريخ التدوين في مجالس الخلفاء والأمراء والولاة اتخذ منحى جديداً، دشّنه ميل الحاكم إلى تكليف مؤلف بكتابة عمل محدد، لأغراض سياسية أو دينية أو أدبية. ونعرف، مثلاً، أنّ الخليفة معاوية أراد من زيد بن ثابت، كاتب الوحي في عهد الرسول، أن يدوّن ما سمعه من كلام النبيّ. وفي مستوى آخر لعبت مهنة الكاتب، ومثلها وظيفة عامل ديوان الرسائل، دوراً حيوياً في تطوير الكتابة والتدوين، وتوفّر بذلك أدب ضخم بأقلام عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وسواهما. وكان طبيعياً أن يحث، يتلاقى مع، تقدّم علوم اللغة والعروض، عند أمثال سيبويه والفراهيدي.

وعلى هذا المنوال تسير منهجية شويلر في رصد انطلاق الظاهرة الكتابية من عوامل خارجية، سياسية أو دينية غالباً، ثمّ استتباب تقاليدها كظاهرة اجتماعية وثقافية ومعرفية مستقلة بذاتها. وهو يبلغ الخلاصة التالية، في ختام كتابه: هذا أدب زاخر هائل لا يُقارن إلا بالأدب الصيني أو الهندي، ومع ذلك فقد بدأ من كتاب واحد هو القرآن، وظلّ طيلة قرن كامل لا يعتمد في تناقل نصوصه إلا على المشافهة وحدها!

المؤلف : غريغور شويلر - عدد الصفحات : 171ص - تاريخ النشر :2002
التوثيق الأجنبي: Gregor Schoeler. Ecrire et transmittre dans les debuts de l'islam PUF, Paris 2002
اللغة: الفرنسية

الحشاشون، أو أصول الإسماعيلية

يحظى هذا الكتاب، الذي ظهر لأول مرة عام 1967، باهتمام حالي كبير لم ينله عندما صدرت طبعته الأصلية. ولعل تاريخ الطبعات اللاحقة أمر يشير إلى ذلك. فقد أعيد إصدار طبعته الإنجليزية الأصلية مراراً في كل من بريطانيا والولايات المتحدة، وظهرت له ترجمة فرنسية في باريس عام 1982، مع مقدمة طويلة ومهمة كتبها مكسيم رودنسن. ونشرت له ثلاث ترجمات منفصلة في اللغة العربية.

وصدرت له ترجمة فارسية غير مرخص بها مرتين في طهران، مرة في العهد الملكي ومرة في العهد الجمهوري. وتلت ذلك ترجمات إلى اليابانية والإسبانية والتركية والإيطالية والألمانية والعبرية.

ولعل في العناوين الفرعية التي أضافها المترجمون والناشرون الأجانب خير ما يشير إلى الطبيعة المتغيرة للاهتمام بالموضوع وبالتالي بالكتاب. فقد اكتفى الأصل الإنجليزي بالعنوان الذي يحمله فقط: (الحشاشون: الفرقة الغالية في الإسلام). لكن العنوان الفرعي تغير في الترجمة الفرنسية –وهي أول نسخة تظهر في لغة أجنبية– فصار (الإرهاب والسياسة في إسلام القرون الوسطى). أما المترجم الإيطالي فقد أبقى على عنواني الفرعي وأضاف إليه: (الإرهابيون الأوائل في التاريخ)، وهو بالمناسبة حكم مغلوط. وكان العنوان في الترجمة الألمانية: (الحشاشون: حول تراث القتل الديني في الإسلام المتطرف).

ومن الواضح أن جميع هذه التعديلات إنما قصد منها الإيحاء بالتوازي بين الحركات والأفعال التي يصفها هذا الكتاب والحركات والأفعال التي تؤثر الآن في كثير من أنحاء الشرق الأوسط، وقد صارت في الوقت الحاضر تؤثر في العالم الغربي أيضاً. ولا ريب أن المشابهة بين حركة الفدائيين في القرون الوسطى ونظائرهم في العصر الحديث أمر مدهش: الارتباط السوري الإيراني، الاستعمال المحسوب للعنف، التفاني المطلق لدى جواسيس الفدائية، إلى حد التضحية بالذات من أجل القضية التي يموت في سبيلها المنتحر، وفي توقع نيله التعويض من السماء. ووجد بعضهم مشابهة أخرى، هي أنهم في الحالتين وجهوا هجماتهم إلى عدو خارجي، هم الصليبيون في الحالة الأولى، والأمريكيون والإسرائيليون في الحالة الثانية.

وفي الحقيقة قد يصح القول بمثل هذه المشابهة، لكنها ستقوم على سوءٍ فهم أكثر مما تقوم على الواقع الفعلي لهذه الهجمات. واستناداً إلى وجهة نظر شائعة في العالم الغربي منذ العصور الوسطى، فقد كان عنف الفدائيين وأسلحتهم موجهين في الدرجة الأساس ضد الصليبيين. وهذا أمر غير صحيح ببساطة. ففي القائمة الطويلة من أسماء ضحاياهم، كانت هناك قلة قليلة جداً من الصليبيين، وحتى هؤلاء يشار إليهم كنتيجة لحسابات داخلية بين المسلمين. وقد كانت الغالبية الساحقة من ضحاياهم من بين المسلمين، وكانت هجماتهم موجهة ليس ضد العالم الخارجي، الذي ما كان ليعنيهم أمره في الأساس، بل ضد النخبة المهيمنة والأفكار السائدة في العالم الإسلامي لذلك العهد. وحقاً أن بعض الجماعات الإرهابية الحديثة تركز على الإسرائيليين والغربيين. لكن هناك جماعات أخرى، قد تكون أكثر أهمية على المدى الطويل، تتركز أهدافها في الأنظمة الموجودة –المرتدة من وجهة نظرها– للعالم الإسلامي، وتتمثل مساعيها في استبدالٍ هذه الأنظمة بنظام جديد يقيمونه. وقد انبثقت هذه النقاط انبثاقاً واضحاً من البيانات التي أطلقها من اغتالوا الرئيس المصري أنور السادات. حين أعلن زعيم الجماعة متفاخراً: «لقد قتلت فرعون»، فمن الواضح أنه لم يكن ليدين فرعون لأنه عقد معاهدة سلام مع إسرائيل، بل توافقاً مع النموذج القديم –الوارد في القرآن كما في التوراة– عن الطاغية المارق.

هناك أيضاً تشابهات وتباينات مثيرة في مناهجهم وإجراءاتهم. فغالباً ما كانت الضحايا التي يختارها فدائية القرون الوسطى، وعلى نحو لا يكاد يتغير، محصورة بحكام النظام القائم وزعمائه، من ملوك وأمراء ووزراء وقائمين بالأعمال الدينية الرئيسة. وخلافاً لنظرائهم الحديثين، ما كان الحشاشون يهاجمون إلا الكبار والأقوياء، ولم يلحقوا الأذى أبداً بالناس العاديين الذين كانوا يؤدون أعمالهم. وكانت أسلحتهم في الأعم الأغلب هي نفسها: الخنجر، الذي يغمده الفدائي المعين في صدر الشخص القتيل. ومن الضروري الإشارة إلى أنهم لم يستعملوا في الواقع أي سلاح أكثر أمناً من الأسلحة التي كانت متوفرة تحت أيديهم في ذلك الوقت، كالسهام والنصال والقذائف والسم. حتى ليصح القول إنهم اختاروا أكثر الأهداف صعوبة وأشدها حماية، وأخطر أنواع الهجمات. وكان الفدائي نفسه، بعد أن يهاجم ضحيته المطلوبة، يثبت في مكانه ولا يهرب، ولا تجري أية محاولة لإنقاذه. بل على النقيض من ذلك، كان ينظر إلى الخلاص من المهمة بوصفه فضيحة.

من هذه الناحية، ومن هذه الناحية فقط، يمكن أن يعدّ الحشاشون مثالاً يقتدى به للمقاتلين الانتحاريين في الوقت الحاضر. غير أن المقاتل الانتحاري يؤشر في ناحية مهمة نقطة افتراقٍ جذرية من الإيمان والممارسة السابقين. فقد كان الإسلام دائماً يذمّ الانتحار ويعدّه خطيئة كبرى. ولذلك يدحض الانتحار أية دعوى بنيل الجنة، مهما كانت قوية، ويحكم على المنتحر بالعذاب الأبدي في جهنم، حيث ينطوي تعذيبه على تكرار لا ينتهي للفعل الذي ارتكب به الانتحار. فهناك فرق واضح بين إلقاء النفس في التهلكة على يد عدو قوي قاهر، وبين الموت بيد المرء نفسه. كان الأول، إذا ما خيض في حرب مقدسة تحظى بجواز شرعي صحيح، جواز مرور لدخول الجنة، وكانٍ الثاني مصدر لعنة وشنار. وتعمية هذا التمييز الخطير سابقاً كان العمل الذي قام به بعض علماء اللاهوت المسلمين في القرن العشرين، الذين أوجزوا النظرية الجديدة، التي وضعها الانتحاريون موضع التطبيق.

والإسلام، شأنه شأن المسيحية واليهودية، دين أخلاقي، لا مكان للإرهاب والابتزاز في معتقداته وتعاليمه. وحتى حين يصدر أمر الشرع الإسلامي بخوض حرب مقدسة كواجب ديني، فإنه يضع قواعد مستفيضة للسلوك الحربي، بما فيها قضايا بدء الاشتباكات وانتهائها، ومعاملة العزل، وتجنب استخدام بعض الأسلحة العمياء التي لا تميز. مع ذلك، ظهرت كما تظهر الآن، لدى المسلمين كما لدى غيرهم، جماعات مارست القتل باسم دينهم، ولذلك قد تؤدي دراسة فرقة الفدائية من الإسماعيليين في القرون الوسطى وظيفة مفيدة، ليس كدليل على المواقف الإسلامية الرئيسة من الاغتيال، بل كمثال علىٍ الكيفية التي أعطت بها بعض الجماعات دوراً متطرفاً وعنيفاً للجمع الرئيسي بين الدين والسياسة في الإسلام، وحاولت أن تستعمله لتحقيق أغراضها الخاصة. وقصة فدائيي القرون الوسطى، الذين ظهروا في إيران وانتشروا في الجبال السورية واللبنانية، يمكن أن تكون ذات قيمة

المؤلف : برنارد لويس – عدد الصفحات : 166ص – تاريخ النشر :2002

التوثيق الأجنبي : Bernard Lewis. The Assassins. Perseus Publishing 2002

اللغة: الإنجليزية

الشرق الأوسط ألفا عام من التاريخ من نشوء المسيحية حتى الوقت الحاضر

تشمل كتب برنارد لويس الكثيرة: «العرب في التاريخ» (1950، ط6، 1993)، «انبثاق تركيا الحديثة» (1961، ط2، 1968)، «إسطنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية» (1963)، «الحشاشون» (1967)، «اكتشاف المسلمين لأوروبا» (1982، 1994)، «اللغة السياسية في الإسلام» (1988)، «العرق والعبودية في الشرق الأوسط» (1990)، «ثقافات متصارعة: المسيحيون والمسلمون واليهود في عصر الاكتشاف» (1995). وقد ترجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة منها العربية والفارسية والتركية والمالاي والإندونيسية.

يغطي كتاب «الشرق الأوسط: ألفا عام من التاريخ»، كما هو واضح من عنوانه، مساحة تاريخية واسعة، تشمل ما يزيد على ألفي سنة بدءاً من صراع الإمبراطوريات القديمة في الشرق الوسط بين الرومان والفرس، وانتهاء بحرب الخليج الثانية في التسعينات. وقد شهدت الألفان المنصرمتان موجات متعاقبة من الإمبراطوريات والحضارات والديانات واللغات والمذاهب والصناعات والمواجهات والحروب والفلسفات... إلخ. غير أن المؤلف كان من الذكاء بحيث أحاط بأهم مفاصل التغيرات الرئيسة التي حدثت في مساحة تمتد من الهند حتى النهاية القصوى لإفريقيا، هي الشرق الأوسط. والطريقة التي اعتمدها هي التركيز على بؤر الصراع البارزة خلال هذه الفترة. على سبيل المثال، يولي تغيير الأزياء أهمية خاصة، ما دام تغيير الأزياء يمثل ظاهرة اجتماعية، وكذلك التغير اللغوي والثقافي. وهذا ما جعل أحد الكتاب يصفه في صحيفة الديلي تلغراف بقوله: «هذا الكتاب رائعة من الروائع...يجمع بين العمق العلمي الرصين وبين المعرفة الموسوعية بالشرق الأوسط، وفوق كل شيء، ما ينطوي عليه من جاذبية».

ولعل أهم ما يستطيع أن يلمسه قارئ كتاب «الشرق الأوسط» هو محاولة العثور على مظاهر الصراع الثقافي في المواجهات المتواصلة بين قوتين تمثلان الشرق والغرب: الرومان والساسانيين، المسيحية والإسلام، المغول والمسلمين، الدول الأوروبية والدولة العثمانية، ثم الغرب الحديث والشرق الأوسط المعاصر. غير أن هذه النقطة بالذات تجعل منه ضمناً عملاً معنياً بتسجيل النقاط الحدية في المواجهات الدائمة، ومثل هذه النقاط الحدية تحمل بالضرورة وجهة نظر معينة. وهذا ما يتضح على خير وجه في عنايته بالدولة العثمانية. إذ تميل وجهة النظر دائماً لصالح مركزة النظرة الغربية وتهميش الدولة العثمانية الشرقية، حين توصف الأحداث في الغالب من هلال وجهة نظر مراقبين أوروبيين.



من ناحية أخرى، ينطوي أسلوب المؤلف على ما تسميه صحيفة الديلي تلغراف بالمقروئية. لكن هذه المقروئية نفسها تجتذب القارئ أحياناً بتهريب مضامين مضمرة لا تلفت إليها القراءة السريعة. على سبيل المثال، يقول لويس: «في الثقافة العربية، حتى للشحاذين شعرهم الخاص». وليس من شك في أن المؤلف يقصد شعر الكدية والقصائد المعروفة بالساسانية. وهو نمط أدبي كان يلجأ إليه شعراء محترفون يتصنعون الانتماء إلى الكدية، ويتظاهرون بها، دون أن يكونوا شحاذين بالضرورة. وهذا شيء يختلف تماماً عن القول إن للشحاذين شعرهم الخاص.

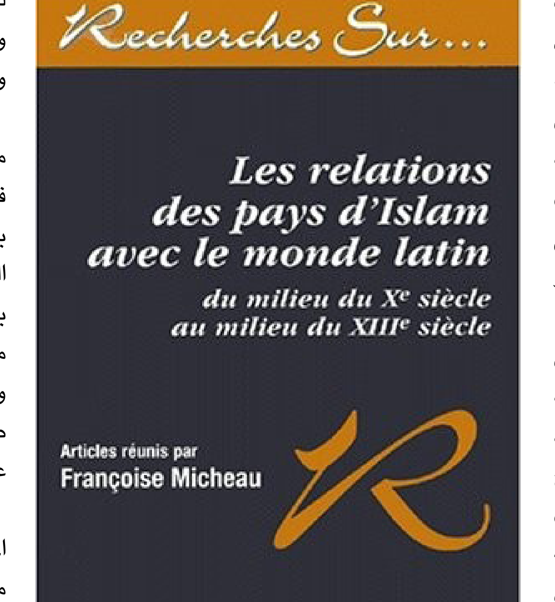
هناك شعور آخر يحس به القارئ للكتاب، وهو أن هذا التجوال الثقافي والرصد المتتابع لعمليات الحراك الحضاري تظهر له دائماً وكأنها حديث ودي يجري في مقهى، أو جولة استعراضية أليفة، برغم حرص المؤلف على التوثيق وإدراجه لعدد كبير من المصادر. ولم يكن من المصادفة أبداً أن يشير المؤلف إلى المقاهي في الشرق الأوسط بقوله: «بالنسبة إلى زائر غربي، فإن أبرز السمات اللافتة في المقاهي الموجودة في كل مكان في الشرق الأوسط هي قلة النساء، أو عدم ظهورها إطلاقاً في المشهد، وإذا حصل أن وجدن فإنهن أجنبيات. فالموائد يحتلها الرجال، فرادى أو جماعات، وفي التجمعات المسائية للشباب يتجولون في الشوارع بحثاً عن التسلية. ويظل تحرير المرأة بطيء الخطى وراء التغيرات في منزلة الرجال، وفي كثير من أجزاء المنطقة هو الآن بالعكس. والصورة التي تتبلور هي أن هذه منطقة قديمة وذات ثقافة وتقاليد عميقة الجذور. فقد كانت مركزاً انطلقت منه الأفكار والبضائع وأحياناً الجيوش في كل الاتجاهات. وفي أزمنة أخرى كانت مغناطيساً يجتذب أجانب كثيرين، أحياناً كتلاميذ وحجيج، وآونى كأسرى وعبيد، وطوراً كغزاة وسادة. لقد كانت مفترق طرق ومحل تسوق تُجلب إليها المعارف والتجارات من أراضي قديمة ونائية، ثم ترسل أحياناً وقد أُتقن تطويرها، لتواصل رحلتها».

المؤلف : برنارد لويس – عدد الصفحات : 448ص – تاريخ النشر : 2001

التوثيق الأجنبي: Bernard Lewis. The Middle East. Phoenix Press،2001.

اللغة: الإنجليزية

علاقات بلدان الإسلام مع العالم اللاتيني
أواسط القرن العاشر وحتى أواسط الثالث عشر



اختارت محررة هذا الكتاب 19 مقالة، من مؤرخين وكتّاب ذوي باع في علاقات الشرق بالغرب، لكي تبرهن أنّ من الإجحاف اختصار تلك العلاقات في محور الحروب الصليبية، على أهميته وبالغ تأثيره في حياة شعوب أوروبا والمشرق العربي المسلم. ومقاربتها في اختيار تلك الموادّ المتنوعة نهضت على خبرة طويلة في أبحاث من هذا الطراز، فهي أستاذة في جامعة السوربون، وقد أصدرت مؤلفات عديدة حول واقع الاحتكاك بين المسلمين والمجموعات اللاتينية والمسيحية في دار الإسلام.

توزّع فرنسواز ميشو الموضوعات التي اختارتها على خمسة أقسام، تبدو بمثابة ركائز لمنهجيتها في التحليل المركّب للظواهر المتعددة، ذات الوظائف المختلفة، ضمن مشهد تاريخي وبشري وثقافي في آن معاً. في القسم الأول يكتب المؤرخ الفرنسي المخضرم كلود كان عن تاريخ الحملات الصليبية في بقعة محددة هي أنطاكية، ظلت على الدوام ميدان اختصاصه الأثير. وهو يرفض التعميمات المتسرعة بصدد المسيحيين والسلاجقة، خاصة الأطروحة الغربية القائلة بأنّ غزو الأتراك للقدس كان باعث الحملة الصليبية الأولى. والمادة التي اختارتها ميشو في هذا الكتاب تمثّل الانعطافة الأخطر في منهجية كلود كان، والتي سوف تثمر سلسلة أعمال أعادت قراءة تاريخ الحروب الصليبية من منظار نقدي معمق.

إيمانويل سيفان، الذي عمل تحت إشراف كلود كان، يحاول تأويل ما يسمّيه «الحملة المضادة» للحملة الصليبية الأولى، التي خاضها أبناء المنطقة عموماً، وأهل سورية بصفة خاصة. ويتوقف عند مخطوطين محفوظين في المكتبة الظاهرية بدمشق، يتضمنان فصولاً من «كتاب الجهاد» للعالِم الدمشقي والفقيه الشافعي علي بن طاهر السلامي، ويترجم بعض أجزائها إلى الفرنسية، خاصة تلك التي تُعنى بشحذ همم المسلمين وتنمية روح المقاومة ضدّ الغزو الفرنجي. وإذا كان المحتوى لا يحمل جديداً حول تاريخ الحملة الأولى ذاتها، فإنّ أهميته فائقة في وصف أحوال سورية خلال مسير الحملة.

مساهمة آن ـ ماري إدّة تدور حول الحملة السابعة كما وصفها المؤرخون العرب، وتقدّم مثالاً ممتازاً على ما يتوجّب أن يعتمده المؤرخ الغربي من طرائق منهجية عند قراءة المصادر العربية. لا بدّ، بادىء ذي بدء، من معرفة وثيقة بالتاريخ الأيوبي، واستقراء كل النصوص المتوفرة (مع الإشارة إلى أنّ عدداً كبيراً منها لم يُترجم بعد، أو حتى لم يُحقّق)، بغية تجميع أكبر مقدار ممكن من المعلومات الرئيسية والتكميلية، تجري بعدئذ مقارنتها بالمصادر والنصوص اللاتينية.

وفي ميدان بحث مماثل يكتب أندريه بازان وبيير غيشار عن تحصينات بلنسية في القرن الثالث عشر، اعتماداً على المكتشفات الأركيولوجية، وتطوير أطروحة غيشار بالذات، حول وجود أساس «شرقي» للتحصينات. مادة غابرييل مارتينيث ـ غروس، وتحمل عنواناً يختصر موضوعها: «المدينة، الدين، والإمبراطورية: أثر روما عند مؤلفي الأندلس»، تنظر في ردود الأفعال الثقافية تجاه التقدم العسكري المسيحي، فتتكامل مع مادة ماريبيل فييرو التي ترصد مظاهر التخوف لدى الكتّاب العرب الأندلسيين إزاء التطورات ذاتها، خلال عهود المرابطين والموحدين. أما مادة بيير ديوران فتبحث في الأثر البالغ الذي لعبه تسلل كميات الذهب المسلم إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وكيف وطّد هذا التطوّر سلطان ملوك البرتغال وقشتالة وليون، وكونت برشلونة.

الفصل الثالث، الذي يتناول النورماند في أفريقيا، يتضمن مادة واحدة كتبها هنري بريزك، وتبحث في سلسلة محاور: فتح صقلية على يد أغالبة القيروان، وهيمنة الفاطميين عليها بعد انتصاراتهم الأفريقية، وهجرات الأفارقة نحوها خاصة إثر الغزو الهلالي وتدمير القيروان، ثمّ العلاقات التجارية الثلاثية بين صقلية وأفريقيا ومصر. هذه المحاور تمكّن الباحث من تناول الموضوع الرئيسي، أي التوسع البحري التجاري والعسكري للنورماند، بعد إعادة غزو صقلية، وتشكيل مملكة ضمّت طرابلس وقابس والمهدية وصفاقس وسوسة، فضلاً عن جزيرة جربة.

الجزء الرابع يبدأ بمادة شيلومو غواتيان عن التجارة المتوسطية قبل الحملات الصليبية، وفيها يتكيء الباحث على مجموعة وثائق ومخطوطات نادرة، للإجابة عن السؤال التالي: هل كانت الحروب الصليبية سبباً جوهرياً في إعاقة تجارة متوسطية كانت ناشطة تماماً في العصور الوسطى، وحتى القرن الحادي عشر؟ هذا ما يتابعه دافيد أبولافية أيضاً، ولكن في مستويات تتجاوز التجارة إلى دورها في نقل التأثير الثقافي الإسلامي إلى الغرب خلال العصور الوسطى ذاتها. ميشيل بالار يفصّل البحث في قطاع محدد، هو العلاقات التجارية بين إيطاليا ومصر في الحقبة الفاطمية؛ ويستكمل دافيد جاكوب السياقات ذاتها بمادة عن الإستيطان الإيطالي في مصر، وكيف توزّعت جوانبه بين التجارة في البدء، ثمّ النزوعات الاستعمارية بعدئذ.

الفصل الأخير من الكتاب يتناول البصمات الثقافية لعلاقة البلدان المسلمة مع الغرب، فتكتب دانييل جاكار عن المراحل الرئيسية في تناقل الكتب الطبية العربية بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر، وكيف كانت تخوم الاحتكاك مع المسلمين (إسبانيا، جنوب إيطاليا، وصقلية) هي المراكز الكبرى لتأمين ذلك التناقل. مقالة ماري ـ تيريز دالفيرني تنطوي على إضاءة مميزة حول طرازين في الترجمة: من العربية إلى اللغات المحلية، ومن اللغات المحلية إلى اللاتينية.

وبهذا فإنّ العرب حملوا معهم الكثير لإغناء ثقافات لاتينية، كانت ضامرة أو جامدة أو متخلفة، من جانب أوّل؛ وكان التعدد الإثني واللساني الذي انبسط عليه سلطان العرب عاملاً مساعداً في حسن التفاعل، من جهة ثانية.

المؤلف : رنسواز ميشو – عدد الصفحات : 430ص – تاريخ النشر :2000
التوثيق الأجنبي: Françoise Micheau. Les relations despays d'Islam avec le monde latin. Du milieu du Xe siècle au milieu du XIII siècle. Editions Jacques Marseille، Paris 2000
اللغة: الفرنسية

تاريخ الإسلام: العقائد والأسس

منذ السطور الأولى تعلن المؤلفة أنّ تاريخ العقائد الإسلامية، وليس تاريخ الإسلام بوصفه حضارة، هو غايتها في هذا الكتاب، وبالتالي لن تتناول التاريخ السياسي والاجتماعي العامّ للإسلام، بقدر تركيزها على التطورات العقائدية في الديانة، دون التخلى عن وضع هذه التطورات في سياقاتها الاجتماعية والسياسية. كذلك لا تختار سابرينا ميرفان النظر إلى الإسلام كظاهرة إجمالية، متجانسة ومتصفة بالثبات، بل ترى وجود أكثر من إسلام واحد، أو حالة من التعددية داخل الإسلام بمعناه المتفق عليه. وإذا كان يشّكل وحدة كلية، ويجمع المؤمنين في صيغة «الأمّة»، فإنّ الإسلام فِرَق أيضاً، وشِيَع ومذاهب وتيارات وطوائف، وهذه ذاتها تنقسم بدورها إلى مجموعات فرعية داخل الصفّ الواحد.

وليس هذا الخيار غريباً عن نتاج المؤلفة، الفكري والتاريخي، حول التشيع بصفة عامة، وشيعة لبنان وجبل عامل بصفة خاصة. إنها تدرّسه في المعهد الوطني الفرنسي للأبحاث، وسبق لها أن أصدرت كتاباً هاماً بعنوان «نزعة الإصلاح الشيعية»، كما استوحت كتاب «أعيان الشيعة» لتنجز عملاً لافتاً عن العلامة الشيعي اللبناني محسن الأمين. واهتمامها بروحية الإصلاح في الإسلام يدفعها، في هذا الكتاب الذي نعرض له، إلى دحض الفكرة الشائعة لدى بعض الباحثين الغربيين، والقائلة إنّ الفكر الإسلامي اضمحلّ منذ بدء القرن الثالث عشر، فنراها تتعامل مع الأسس النظرية للعقائد الإسلامية بمنهجية ترجيح حيويتها وطاقة تحوّلها، وليس تسبيط مفاهيمها على نحو إختزالي، واعتبارها جامدة ساكنة.

ولهذا فإنّ مرحلة التأسيس وتشكّل ركائز الإسلام العقائدية تحتل حيزاً كبيراً من هذا الكتاب، إذْ لا يمكن في واقع الأمر تحليل تاريخ تلك العقائد دون التوقف بإسهاب عند محدّداتها الكبرى التي تغذّي تيارات الفكر الإسلامية حتى يومنا. أوّل فصول الكتاب، وهي عشرة، يبدأ من الجاهلية، فيرسم صورة دينية ـ اجتماعية لجزيرة العرب آنذاك، ويعرض لواقع الديانات الإبراهيمية، والأحناف، قبل ظهور الدعوة وبدء التنزيل وتكوّن الجماعة الجديدة، وانتقالها من صيغة اتحاد القبائل إلى مستوى أرقى يقترب من شكل الدولة.

الفصل الثاني يقتصر على دراسة القرآن، فيصف النصّ في ذاته على نحو تعريفي عريض ودقيق في آن معاً، ثمّ يصنّف الآيات والسور حسب تواريخ نزولها، كما يشير إلى بعض السياقات الخاصة التي اقترنت بتنزيلها. والأقسام اللاحقة من الفصل تتابع جهود جمع القرآن، وتبويبه، وأنشطة تفسيره،



ومدارس تلاوته. ويُستكمل هذا بفصل آخر عن شخصية الرسول، بوصفه خاتم الأنبياء والقدوة الكبرى في السلوك، اعتماداً على الحديث النبوي وأقوال الصحابة، إلى جانب السيرة التي اتخذت صفة مرجعية عالية حين كرّست «السنّة النبوية» كمصدر رئيسي ثانٍ في القياس الفقهي، بعد النصّ القرآني.

الفصل الرابع يتناول شرعة الإسلام ومنهجية ترسيخها، وتأمين حدّ أعلى من الإجماع حولها، وتطبيق أحكامها، وأصول الفقه، وكيف تطوّرت تعدّدية المقاربات الفقهية إلى مذاهب متكاملة مستقلة، على يد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة: أبو حنيفة، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل. وتتعمد ميرفان التركيز على أنّ هذه المدارس كانت مرنة نسبياً، أو حتى كثيراً، في تيسير أمور الدين والدنيا، خاصة حين بلغ الفقه مرحلة النضج والتأصيل، فوضع الإمام الشافعي كتاباً أسماه «الرسالة في أصول الفقه».

في الفصل الخامس تعرض ميرفان السجالات الفكرية التي كانت قد احتدمت منذ أواخر العصر الأموي، واتسع نطاقها وتطوّرت أفكارها ومدارسها في العصر العباسي، حول مسائل مثل خلق القرآن والقدر والعقل والنقل، ليس دون تأثر بالفلسفات اليونانية والهندية والفارسية. ثمة تيار المعتزلة بالطبع، الذي تسهب المؤلفة في تعداد إشكاليات صعوده بالمعاني الإيجابية أو تلك السلبية؛ ثمّ المذهب الأشعري، الذي قاده الحسن الأشعري البصري بعد انشقاقه عن المعتزلة، وكانت له حظوة لدى كبار رجال الدولة مثل المهدي بن تومرت ونور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي، كما لعب دوراً مميزاً في الارتقاء بعلم الكلام.

بعد مدارس الفقه والفكر، تنتقل المؤلفة إلى استعراض الفرق الإسلامية الأساسية، مبتدئة من صعوبات تأمين خلافة سلسة بعد وفاة الرسول، ومنتقلة إلى الخوارج والإباضية والزيدية، ضمن الإطار العريض للتشيّع. لكنها لا تغفل ذكر الإسماعيلية، أو الشيعة السبعية، دون أن تسقط في فخّ التنميطات الإستشراقية المعتادة حول العلاقة بين السبعية والقرامطة وما يُسمّى بـ «الحشاشين». وأما الشيعة الاثنا عشرية فإنها موضوع فصل خاصّ، يستقرئ ملامح الدعوة في أسسها التاريخية ـ السياسية والعقائدية ـ الفقهية، مع بعض الإسهاب في شرح مفهوم «المرجعية» ومضمونها القيادي الواسع الذي يمنح الإمام حقّ الفتوى، وإدارة السياسة، وخوض الحرب، وعقد السلم، والبتّ في الكثير من الحقوق الشرعية، الأمر الذي نلمس تجلياته الراهنة في مفهوم «ولاية الفقيه».

في الفصل الثامن تتوقف المؤلفة عند نظريات التصوف في الإسلام، منذ النسّاك الأوائل إلى كبار المتصوّفة الروّاد، وأبرز الطرق، ومنطق انتشارها الجغرافي، وانحيازاتها الفقهية والسياسية، وطبائع صلاتها بالحكام وأهل السلطان. وهذه مناقشة من طراز خاصّ في الواقع، بالنظر إلى أنّ المتصوفة لم يزعموا فقهاً أو تشريعاً، ولكنّ ميرفان تديرها على نحو ذكيّ يمهّد للفصلين اللاحقين، اللذين يختتمان الكتاب، حول نزوعات الإصلاح وردود الفعل على التطوّر والتحديث، والبذور المبكرة لولادة التديّن الشعبي، أو الشعبوي، والإسلام السياسي كما يُدرك اليوم، أي ربط ماضي العقائد بحاضرها على نحو ما.

وهذا، في الواقع، واحد من أكبر طموحات الكتاب.

المؤلف : سابرينا ميرفان – عدد الصفحات : 311 ص – تاريخ النشر :2000
التوثيق الأجنبي: Sabrina Mervin. Histoires de l' islam: Doctrines et fondements
Flammarion، Paris 2000
اللغة: الفرنسية

موجز تاريخ الإسلام

تشمل قائمة كتب مونتغمري وات عدداً كبيراً من المؤلفات عن تاريخ الفكر الإسلامي مثل: «إيمان الغزالي وممارسته»، «الأصولية الإسلامية والحداثة»، «تأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى»، «الفكر السياسي الإسلامي»، «الفلسفة وعلم الكلام في الإسلام»، «محمد النبي والسياسي»، «الحقيقة الدينية في عصرنا»، «ما الإسلام؟».

لكن أكثرها تكثيفاً وإيجازاً هو كتابه «موجز تاريخ الإسلام»، الذي صدر في سلسلة «وانورلد» عن موجز تاريخ الديانات، 1996.

يقع الكتاب في ستة فصول. يعنى الأول منها «البدايات» بعرض الوضعية التاريخية لشبه الجزيرة العربية ومكة قبل الإسلام، وحياة النبي محمد الأولى ودعوته، ورد الفعل على الدعوة المحمدية في مكة، وسنين محمد في المدينة.

والجدير بالذكر أن كل فقرة من فقرات هذا الفصل سبق أن درسها وات بكتاب مستقل.

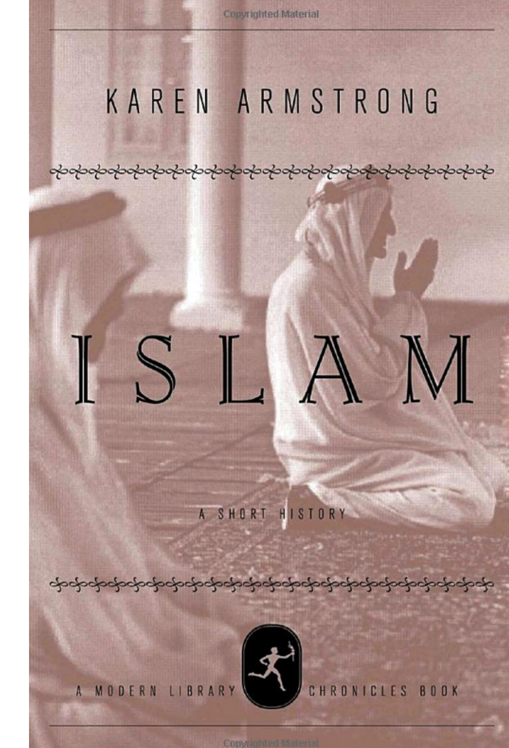
ويعرض الفصل الثاني بعنوان: «التاريخ السياسي للعالم الإسلامي» وقد تناول فيه المؤلف: تكوين الخلافة، واتساع رقعة الدولة الإسلامية، والسيطرة على الدولة الإسلامية، والعالم الإسلامي بعد العباسيين. وتصح الملاحظة السابقة أيضاً على فقرات هذا الفصل. فقد سبق لوات أن تناول هذه الموضوعات ولا سيما في كتابه الكبير «جلال الإسلام».

أما الفصل الثالث، «تعاليم القرآن»، فيتناول النص القرآني، والعقيدة الإلهية، والنبوة، وموقف الإسلام من الأديان الأخرى، وأركان الدين الخمسة.

أما الفصل الرابع، «الشريعة الإسلامية»، فيركز على قضايا الشريعة بمعزل عن تداخلها بالعقيدة. وبالطبع تعني الشريعة عنده كيفية تشكيل الأحكام والقوانين الإسلامية وتطبيقها. وهو يعرض لتطور الشريعة الإسلامية، وبعض القضايا الجزئية في الشريعة.

ويغطي الفصل الخامس، وهو أطول فصول الكتاب، الإلهيات وعلم الكلام في الإسلام. فيعرض المؤلف للفرق الأولى، وتطور علم الكلام السني، والفلاسفة العرب، والتأثير العقلي للإسلام في أوروبا الغربية، وعلم الكلام عند السنة بعد الغزالي، وعلم الكلام الشيعي، والتصوف.

ويمضي الفصل السادس والأخير لمناقشة «تحدي



العالم الحديث»، حيث يعرض المؤلف تقدم أوروبا والغرب، وما تمثله العولمة، في صورتها الأولى في أواخر التسعينات، للإسلام، والمشكرت التي تواجه الإسلام في الوقت الحاضر.

وينتهي الكتاب بملحق عن عقيدة الأشعري، ينقله المؤلف من كتاب سابق له عنوانه: «العقيدة الإسلامية»، وهو أصلاً منقول عن أعمال الأشعري بالعربية.

في الفصل الأخير يرى وات أن الفلسفة النقدية والعلم الحديث يشكلان تحدياً لجميع الأديان المعاصرة، وليس للإسلام وحده، وأن الحل لا يكمن في الانكفاء على الذات وخلق عوالم وهمية، بل في مواجهة المشكلات الفعلية والتعامل معها بعقلية منفتحة.

ولذلك يقول: «إن المظاهر العلمية والفلسفية للنظرة الغربية تطرح المشكلات على جميع الأديان. وهذا ميدان ما زال على الباحثين المسلمين أن يعملوا الكثير لإنجازه، وإن يكن بعضهم قد قدم أصلاً بعض المساهمات المفيدة فيه.

ولأكثر من قرن، حاول الباحثون المسيحيون أن يتوصلوا إلى فهم لوجود الله وفاعليته لا يتناقض مع النتائج الأكيدة للعلم، حتى وإن كان يتناقض مع بعض الأفكار الأخرى التي يعتقد أنها علمية؛ وقد احرز في هذه القضية بعض التقدم المهم. وعلى المسلمين أن يتعلموا شيئاً من المفكرين المسيحيين...وبمعزل عن التطابق مع النظرة العقلية الغربية، يحتاج المسلمون أيضاً أن يولوا مزيداً من التفكير حول مكانة الإسلام في العالم.

فعلى المستوى السياسي، بالتأكيد صار بمستطاع كثير من البلدان الإسلامية أن يؤدوا دوراً في الأمم المتحدة. وعلى مستوى الحياة اليومية، صاروا ينشئون الصناعات وفق النموذج الغربي ويشتركون في مسابقات كرة القدم العالمية.

على أنهم لم يقوموا حتى الآن بكثير من التفكير حول علاقة الإسلام بالأديان الأخرى، برغم حقيقة أن معتنقي الأديان المختلفة في العصر الحاضر صاروا يختلطون ببعضهم بمقدار كبير لم يحصل في أي من العصور السابقة.

يكمن السؤال الأساسي هنا ما إذا كان الإسلام يختلف عن جميع الأنظمة الدينية والفلسفية الأخرى، بحيث ما زالت فكرة عالم الإسلام المميز ذات معنى، أو هو ببساطة دين واحد بين أديان كثيرة، وإن يكن أسمى من سواه ببعض الطرق.

ويبدو أن المسلمين من ذوي العقول المتفتحة يقبلون عملياً أن هناك أدياناً أخرى على مستوى واحد إجمالاً مع الإسلام، ولكن يبدو أن كثيراً من الأصوليين ما زالوا يعتقدون أن الإسلام له موقعه المتفرد كلياً في الميدان الديني».

المؤلف : وليم مونتغمري وات – عدد الصفحات : 165ص – تاريخ النشر : 1996
التوثيق الأجنبي : William Montgomery Watt. A Short History of Islam
Oneworld Publications، 1996
اللغة: الإنجليزية

تاريخ الحملات الصليبية

المؤلف، وهو أحد كبار المؤرخين والأكاديميين الفرنسيين المختصين بالشرق اللاتيني، وصاحب أعمال أساسية بينها كتاب بعنوان «الشرق والغرب في العصور الوسطى: صلات وعلاقات»، وآخر بعنوان «روح الحروب الصليبية»، وثالث يتناول البابوية وبعثات التبشير الشرقية في القرون الوسطى، يرى أنّ الاهتمام الواسع الذي حظيت به الحروب الصليبية نجم عن عنصرين متكاملين: الظاهرة كانت منعطفاً تاريخياً بالغ الأهمية في العلاقات الدولية، وهي انطوت على تجنيد أعداد هائلة من البشر في حروب أساسها المعتقد الديني. ولهذا أثارت تلك الحملات عشرات الأسئلة ذات الطابع الإشكالي، فصدرت حولها مئات الأعمال، لا سيما وأنها لم تكن حركة خارجية باتجاه الشرق فقط، بل تضمنت نشوء الكثير من النزعات والتيارات الدينية المسيحية على امتداد أوروبا، وبعضها اعتبرته الكنيسة هرطقة تستوجب القمع.

ولهذا يعلن ريشار منذ البدء أنه يحصر دراسته في تلك الحملات التي توجهت إلى الشرق بهدف معلن مزدوج، هو حماية المسيحيين من الغزو التركي، وضمان سيطرة الديانة المسيحية على فلسطين، أو «الأراضي المقدسة» حسب التسمية الغربية. وإذا كان مصطلح الحروب الصليبية يشمل الحملات التي سارت نحو الشرق خلال الفترة بين 1095 و1291، فإنّ مقدّمات تلك الحروب كانت قد بدأت منذ عقود طويلة سبقت نداء البابا إربان الثاني، من مجمع كليرمون، في خريف 1095؛ كما استمرّ التحضير للمزيد من الحملات، حتى بعد اندحار آخر الحملات الصليبية في فلسطين.

ومنذ البدء يحرص ريشار على اتخاذ موقف نقدي واضح من آراء بعض المستشرقين الذين اعتبروا أنّ الحروب الصليبية كانت عاملاً حاسماً في إعادة تكوين شعوب المشرق، من جهة؛ وتوطيد الوجود المسيحي والارتقاء به، من جهة ثانية. وهو يرى أنّ مرور الصليبيين في حياة المسلمين، والشرق بصفة عامة، كان هامشياً لم يحرّك في نفوس المسلمين إلا حسّ المقاومة ضدّ الغزو الخارجي، وتأكيد الهوية الإسلامية في وجه محاولات التنصير التي سعت إليها البعثات التبشيرية القادمة مع الغزاة.

أما الجماعات المسيحية القاطنة أصلاً في الشرق، من بيزنطيين وسريان وأرمن، فقد كان وجودهم في المنطقة عريقاً

HISTOIRE DES CROISADES
Jean Richard
Fayard

وسابقاً على مجيء الصليبيين، وكذلك كانت تراثاتهم وتقاليدهم، فلم يتأثروا إلا قليلاً بما حمل القساوسة أو الأمراء الأوروبيون من دعوات. أكثر من هذا، يشدد ريشار على أنّ أحد أبرز الجوانب في تاريخ الحروب الصليبية كان المواجهة بين حضارتين مختلفتين، الأولى غربية ـ مسيحية وافدة، والثانية شرقية ـ مسلمة متأصلة، لكنها مهد المسيحية؛ وثمة وئام بين الديانتين، لم تعكر صفوه أية مواجهات تُذكر.

وينقسم الكتاب إلى 13 فصلاً، يتناول أولها ولادة فكرة الحروب الصليبية، وتطور مفهوم «الحرب المقدسة»، تحت الرعاية البابوية، وفي ظلّ حرص البابا إربان الثاني على إنشاء قاعدة نفوذ لاتينية ورومانية في الشرق، لصالح الكنيسة، وبذريعة نجدة بيزنطة ومسيحيي الشرق عموماً. ويستعرض المؤلف خصائص المجتمع الغربي عشية الحملة الأولى، وشيوع نظام الممالك والإمارات، ضمن هيمنة واضحة لطبقات النبلاء والأشراف المتأثرين على هذا النحو أو ذاك بنمط الحياة الفرانكي، أو الفرنجي في التسمية العربية. أما أهمّ خصائص ذلك المجتمع فقد كانت الاختمار الدائم للدعوات والتيارات الدينية داخل الصفّ المسيحي الواحد، واضطرار الكنيسة إلى التحالف أو الاختلاف مع هذا أو ذاك من الأباطرة أو الملوك أو الأمراء الذين يعتنقون مذهباً دون آخر.

وفي فصول الكتاب اللاحقة يسرد ريشار تفاصيل الحملة الأولى، مشيراً إلى أنّ مسير الصليبيين إلى القسطنطينية استدعى من أليكسي، إمبراطورها البيزنطي، الحذر الشديد خشية أن يقع بعض أمراء الحرب الأوروبيين في إغواء احتلال المدينة وإسقاط سلطته، رغم أنهم قدموا أصلاً بحجّة حمايته. والطريق إلى أنطاكية، والحصار الطويل في سورية، واحتلال القدس، والتوغل حتى حدود مصر، كانت بمثابة محطات نجاح باهر لتلك الحملة الأولى، ساعدت في إنجازها شقاقات بعض الأمراء العرب، وتشتت كلمتهم، وحرص كلّ منهم على النجاة بنفسه وبسلطانه.

ويرى ريشار أنّ مراكز الحكم الأربعة التي أسسها الصليبيون، مملكة بيت المقدس وإمارات طرابلس وانطاكية والرها، كانت مجموعات سكانية محلية خاضعة لاحتلال سلطة اقطاعية استعمارية غريبة، سامت المسلمين ـ بل أهل الشرق عموماً، من كلّ المعتقدات ـ صنوف الاضطهاد والقهر، بما في ذلك تطبيق نظام السخرة والقنانة. وفي موازاة هذا نشأت تجمعات محلية لاتينية، تابعة للكنيسة مباشرة، يتوقف المؤلف عند إشكاليات تأسيسها من حيث منظوراتها الاجتماعية والثقافية والدينية، وكيف كانت تمهّد لمواجهات بين المسيحية والإسلام، لم تكن مسبوقة في تاريخ المنطقة.

وبهدي من هذه المنهجية ذاتها، يتابع ريشار سرد وقائع الحملة الثانية، التي ستشهد اندلاع جميع مخاطر الشرق في وجه الغزاة، وتعمّق انقسام المنطقة بين بيزنطة متهالكة ومقاومة صاعدة يقودها صلاح الدين الأيوبي، وهي الحال التي سوف تبلغ ذروتها في معركة حطين، وانهيار مملكة الفرنجة. الحملتان الثالثة والرابعة سوف تنتهيان إلى ما انتهت إليه الحملة الثالثة، مع فارق جوهري هو تحوّل الدعوة الصليبية إلى مؤسسة مستقلة بذاتها، تتولى التجنيد والتجهيز والتسيير.

وبعد اعتماد المنهج السردي ـ التحليلي ذاته في استعراض الحملات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة، وصولاً إلى حملة البابا غريغوار العاشر وهزيمة الصليبيين وخروجهم نهائياً من المنطقة، يتبنى ريشار الخلاصة التي سبق أن بلغها المؤرخ الإنجليزي السير ستيفن رنسيمان في كتابه الضخم عن الحروب الصليبية: «لم تكن الحرب المقدسة سوى فصل طويل من التعصّب باسم الله، وهذه كانت خطيئة بحقّ الروح القدس»!

المؤلف : جان ريشار – عدد الصفحات : 544ص – تاريخ النشر : 1996
التوثيق الأجنبي: Jean Richard. Histoires des croisades. Fayard، Paris 1996
اللغة: الفرنسية

الإسلام: قاموس تاريخي

دومنيك سورديل هو أستاذ شرف تاريخ وحضارة الإسلام في جامعة السوربون، ورئيس تحرير «مجلة الدراسات الإسلامية»، وصاحب أعمال أساسية متنوعة في هذا الشأن، مثل «الإسلام»، و«حضارة الإسلام الكلاسيكي»، و«الإسلام في القرون الوسطى: الدين والحضارة». جانين سورديل – تومين، شريكته في التأليف، هي أستاذة كرسي تاريخ الفنّ والأركيولوجيا الإسلامية في السوربون أيضاً، ومديرة دراسات الكتابة العربية القديمة في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، ومؤلفة «فنّ الإسلام» و«مفردات الإسلام». كلاهما اجتمعا على اتخاذ قرار شجاع بتأليف هذا القاموس الغنيّ بالمادة، المسلّح بمنهجية إضاءة باطن المصطلح قبل ظاهره، المتكئ قبل أيّ اعتبار آخر على نزاهة التوصيف وموضوعية التسجيل وأسبقية الحقيقة.

وقبل هذه وتلك من خصائص الكتاب، ثمة فضيلة إدراج الغالبية الساحقة من التعريفات التي يحتاج إليها القراء على اختلاف شرائحهم ورغباتهم ومستويات تحصيلهم العلمي، فهو يغطي المفاهيم الأساسية وما يتفرّع عنها من مقولات مكملة أو نقيضة، والشخصيات التاريخية الأبرز، والمدارس الفقهية، والمدارس الشرعية، ورموز وموضوعات القرآن، والشعائر والمؤسسات الدينية، وكبريات الحوادث والأماكن الجغرافية، وغيرها. والمساحة التاريخية للقاموس تبدأ من أطوار الجاهلية، وتتوقف عند انطواء صفحة الإمبراطورية العثمانية، إضافة إلى الإسلام في الأندلس وأوروبا وآسيا وأفريقيا.

ويعتبر المؤلفان أنّ التاريخ الذي مرّ به الإسلام – في تعقيدات أحداثه وتنوّع شعوبه وتبدّل أقداره وانقلاب أحواله... – هو المصدر الوحيد القادر على توفير إجابات صائبة لأسئلة الماضي وأسئلة الحاضر، سواء بسواء، فضلاً عن انطوائه على أفضل التفسيرات لما يشهده العالم اليوم من صراعات ترتبط بالإسلام على نحو أو آخر، لا سيما في علاقات الشرق والغرب. والمشكلة، مع ذلك، أنّ توتر تلك العلاقات تحديداً، واستنادها على أعذار دينية واهية أو ملفقة – كما في مثال الحروب الصليبية – هي التي تجعل الغرب يواصل اعتناق نظرة خاطئة إلى الإسلام، قاصرة أو



تبسيطية أو عدائية، أو مزيج من هذه كلها.

بذلك اختمرت في ذهن المؤلفين فكرة «قاموس تاريخي» يتيح للقارىء أن ينفتح على عناصر المعلومات، في صيغة تجمع بين الإيجاز والدقة والإحاطة، مع محاولة عزل المصطلح قليلاً عن سياقاته التاريخية التي جعلته يفقد بعض دلالاته الأصلية، أو القيام بالعكس أحياناً: أي شحن المصطلح بالوقائع الضرورية التي اقترنت به وأكسبته مغزى تاريخياً لم يكن جزءاً من سيرورة تكوّنه الأولى. وأفضل ما لاح نافعاً في نظرهما كان التجزئة التحليلية للمادة الواحدة، وذلك لتأكيد الأصالة الجوهرية التي تمتّع بها الإسلام، أي مصادر الغنى التي جعلته يتفرّد في أوقات المجابهة العسكرية مع خصومه، أو حين يحتك بجيرانه على مستويات ثقافية وعلمية وعقائدية.

والخيار التحليلي إياه جعل المؤلفين يميلان، أيضاً، إلى استكشاف السطوح المتعددة والتعددية للحضارة الإسلامية، التي كانت تنجلي أو تنغلق لأسباب سياسية تارة أو دينية طوراً، ولكنها في كلّ حال لم تنفكّ عن المساهمة في إغناء حوادث الإسلام وتطورات شعوبه وممالكه وإماراته.

وهذه هي مادّة القواميس التاريخية في نهاية المطاف. ولكنهما اعتمدا الصرامة العالية في تفضيل المادة التي تضيء الحقبة التاريخية أكثر من سواها، أو تخدم التسلسل المنطقي لاكتمال الصورة التفصيلية، حتى إذا كانت المادة ذاتها لا تبدو لافتة أو مميزة للوهلة الأولى. والاحتياط الثاني كان عدم الإنسياق وراء أيّ عنصر خارجي دخيل على المادّة، جذاب من حيث الشكل والدراما التاريخية، ولكنّ حشره يمكن أن يشوّه انسجام المحتوى.

وعلى سبيل المثال، قرّر المؤلفان عدم تقديم تعريفات مستقلة في ذاتها، تخصّ الشعوب أو الأحداث أو البلدان أو الأديان أو الشخصيات التي كانت لها ملابسات أثّرت على التاريخ الإسلامي، ولكنها وقعت خارج نطاق العالم المسلم: ليس ثمة بيزنطة دون صلات مباشرة بالتاريخ الإسلامي، ولا يهود ولا نصارى ولا حتى شخصيات مثل يوحنا الدمشقي. كذلك قررا استبعاد الأعمال الأدبية التي كُتبت بلغات محلية، لإثنيات تعيش في دار الإسلام، ولكنها لا ترتبط مباشرة مع الإسلام في أية وجهة ثقافية أو تاريخية أو سوسيولوجية، مع الحفاظ التامّ على النتاج الماثل الذي قدّمه مسلمون يتحدرون من إثنيات مختلفة غير عربية.

وفي جانب آخر مهم من منهجية خيارات هذا القاموس، تنبّه المؤلفان إلى أنّ اللغة العربية التي حملت القرآن والحديث النبوي والسيرة والتفسير وأمهات الكتب، ليست بالضرورة هي اللغة العريضة الشعبية التي نطق بها العربي في أرجاء الإسلام، وبالتالي لا بدّ من الانتباه إلى الفروقات، طفيفة كانت أم جوهرية، بين لغة صارت وعاء النصّ الديني والاجتهاد فيه، ولغة تطوّرت وتحوّلت لتستوعب كتب الهندسة والجبر والفلك والطبّ، فضلاً عن فكر المعتزلة ونصوص الصوفية وقصائد فحول الشعراء.

وفي نطاق طموحه العلمي، والمنهجي أيضاً، يسعى القاموس إلى تكوين معرفة معمقة ونقدية بتيارات الفكر، والفلسفة، والتصوف، والإدارة، والجيش، والاجتماع، والثقافة، والأديـان، والأساطير، والتاريخ الطبيعي، والأنثروبولوجيا. كما يستقرّ على إدراج لوائح ببيليوغرافية توفّر المرجعيات ذات المصداقية والأصالة والتسامح من جهة أولى، وكذلك تحرّض القارىء على توسيع آفاق التفكير في حضارة ودين لم يكن تفكير الغرب فيهما سليماً معافى، على مستوى يليق بالشرق والغرب معاً.

المؤلف : دومنيك سورديل وجانين سورديل ـ تومين – عدد الصفحات:1010ص – تاريخ النشر : 1996
التوثيق الأجنبي: Dominique Sourdel et Janinne Sourdel-Thomine
Dictionnaire Historique de l' Islam. PUF. Paris 1996
اللغة: الفرنسية



تاريخ ومجتمع مسلمي الغرب في العصور الوسطى

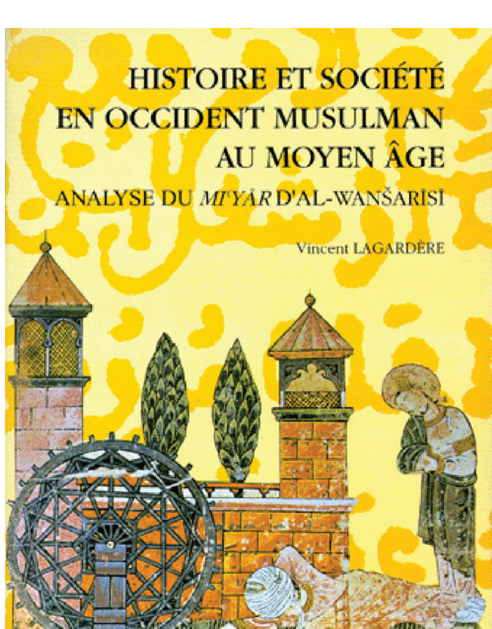
تحليل «المعيار» للونشريسي

هذا العمل يدرس، أو بالأحرى يحلل، كتاب «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب»، للإمام أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، الذي انتهى من وضعه سنة 911 وهو في فاس، حيث لجأ إليها هارباً من تلمسان بعد أن وقعت له واقعة مع السلطان أبي تاشفين الزياني. وفنسان لاغارديه، محرر الكتاب، أستاذ في جامعة بوردو، وأخصائي في تاريخ الأندلس والمغرب، وله في هذا الميدان أعمال كثيرة تغطي عهد المرابطين بصفة خاصة، بينها كتابه المهم «الجهاد الأندلسي». ولقد عاونه الباحثون محمد ميواك، وأحمد بن يحيى الونشريسي ومانويلا مارين في إتمام العمل؛ وقدّم له بيير غيشار، أحد كبار المختصين بتاريخ المنطقة.

والمؤلف يوزّع فتاوى الونشريسي في سبعة أقسام: الحياة الدينية، والحياة الزوجية، والحياة الاقتصادية على مستويات البيع والتبادل والتحويل، والأملاك والوقف، والحياة الاقتصادية على مستوى البيع والشراء والتأجير والعقود والمسكن والبناء وغيرها، ثمّ الحياة الشرعية والحقوقية، والإجراءات، وقضايا أخرى متنوعة. وتجدر الإشارة إلى أنّ الكتاب الأصلي يقوم على 12 فصلاً، إضافة إلى فصل خاصّ بالفهارس، تتناول موضوعات الطهارة والحجّ والصيد والتعزيزات والنكاح والخلع والاستبراء والمفاوضات والبيوع والصلح والأحباس والمياه والبنيان ونوازل الضرر والإستحقاق والأقضية والمديان والجامع.

ومن أصل هذه المجلدات اختار لاغاردير 2144 فتوى، منطلقاً من طبيعة الإضاءات، التاريخية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية أو الفقهية المحضة، التي توفّرها من أجل دراسة أفضل لطبائع حياة المسلمين اليومية في تلك الأرجاء، على امتداد نصف قرن تقريباً. والمؤلف يحافظ على تركيب الفتوى الأصلي، من حيث مستهلّ السؤال والجواب (أي: «سُئل... وأجاب»)، كما يحرص على تثبيت اسم المفتي، وتاريخ الإفتاء، ومكانه، مع تعريفات ببعض أهل الفتوى بين حين وآخر. وهو يؤكد أنّ إصدار الفتاوى لم يكن حكراً على رجال الفقه وحدهم، إذْ كان في وسع المسلم القويم أن يميّز بسهولة بين ما هو «حلال» وما هو «حرام»، بل كان هذا الأمر واجباً عليه.

ويسارع لاغاردير إلى الإقرار بأنّ الحرص على تقديم المعلومات الثمينة التي تزخر بها الفتاوى، ووضعها بين أيدي المؤرخ والباحث والقارىء العريض في أيسر صيغة ممكنة، لا ينتفي الحاجة الماسة إلى مراجعة تصانيف أخرى مهمة، مثل



«كتاب المسائل» للقاضي أبي الوليد بن رشد، وكتاب «ديوان الأحكام الكبرى» للفقيه القاضي عيسى بن سهل. والهدف الأكثر أهمية عنده هو إظهار ما تنطوي عليه الفتاوى من غنى في المعلومات، وتنوع هائل في القضايا الاجتماعية والفقهية، الأمر الذي يشكل ثروة فريدة للمؤرخ والدارس والقارىء العريض على حدّ سواء. صحيح، من جانب آخر، أنّ تدقيق هذه الفتاوى نصّياً، أو تحقيقها في مستوى المخطوط، لم يكن مهمة لاغاردير في الأصل؛ إلا أنه، مع ذلك، لا يوفّر مناسبة مواتية دون خدمة المادّة على أكثر من صعيد، ولأغراض تخرج عن نطاق استثمار المعلومة الفقهية وحدها، وفي ذاتها.

والحال أنّ القيمة الكبرى لهذه الثروة لا تتضح إلا حين يقارن المرء بين كثافة المعلومات التي تضعها في متناول القارىء، وفقر – أو في الواقع: ضحالة – ما تحتويه المراجع الماثلة المكتوبة بلغات أوروبية، والتي قد يجد الباحث الغربي نفسه مضطراً إلى استخدامها، دون سواها، عن الأندلس والمغرب تحديداً. هذا إذا تغاضى المرء عن مشكلات التسلسل التاريخي الدقيق لوقائع وأحداث مترابطة، في مقابل ما توفّره فتاوى كتاب الإمام الونشريسي من تراتبية زمانية ومكانية يندر العثور عليها في المراجع غير العربية.

وثمة جانب مهم في ما توفّره الفتاوى من معلومات، وهو تغطية أحوال وهواجس ومشكلات وقضايا المناطق الريفية النائية، في المغرب وفي الأندلس (ولكن أيضاً، في مناطق أخرى من دار الإسلام، واتكاء على مجموعات أخرى من الفتاوى). ومن المعروف أنّ الشرائح الريفية لا تحظى بنصيب وافر، او حتى بمقدار كافٍ، من المعلومات التي حفظتها مجلدات التاريخ للمناطق المدينية أو مراكز العمران بصفة عامة. ودارس كتاب «المعيار المعرب» سوف يدرك دون عناء أنّ الريف هو مصدر الكثير من الأسئلة التي تُعرض على الفقهاء للإفتاء فيها، خاصة في مسائل البيع والشراء والزواج والوراثة، وما إليها.

وفي مقدمته يشير غيشار إلى حقيقة تخلّف الأبحاث الفرنسية عن مثيلاتها المغربية والإسبانية في هذا المضمار الحيوي بالذات، أي التنقيب في بطون كتب الفتاوى عن مشاهد سياسية واجتماعية يصعب العثور عليها، أو حتى على بعض تفاصيلها العريضة، في كتب التاريخ المعتادة المتوفرة. وإذا جاز القول إنّ التفوق المغربي – الإسباني أمر طبيعي، بالنظر إلى أنّ الأبحاث تخصّ تاريخ البلدين مباشرة، فإنّ واجب الباحثين الفرنسيين يصبح مضاعفاً هنا، من ناحية جوهرية: أنّ الطرف الغربي قد يفضّل استثمار المحتوى الفقهي النفعي والعملي للفتاوى، بمعنى خدمة المسلم في حاجات حياته وشؤون دينه، دون التركيز على قيمة الفتاوى التاريخية والاجتماعية؛ وأنّ الطرف الإسباني سوف يظلّ يعاني، في قليل أو كثير، من التعتيم الذي أصاب تلك المراجع، بعد إعادة الفتح المسيحي للأندلس، وعلى يد بعض رجال الكنيسة ومحاكم التفتيش.

أغلب الظنّ أنّ جهد لاغاردير هذا، ليس في اختيار الفتاوى وترجمتها إلى الفرنسية فحسب، بل في تبويبها وضبط حواشيها ورفدها بالمصادر العربية القديمة والحديثة، يسدّ الكثير من ذلك النقص في الدراسات الفرنسية، كما يسدي خدمة فريدة للدراسات الأوروبية عموماً.

المؤلف : فنسان لاغاردير، وآخرون – عدد الصفحات : 536ص – تاريخ النشر : 1995
التوثيق الأجنبي: Vincent Lagardère، et al. Histoire et société en occident musulman au moyen âge: analyse du MiYār D'Al-Wansarīsī. Casa de Velázquez، Madrid 1995
اللغة: الفرنسية

سمرقند: 1400 - 1500

أسفر حصول الجمهوريات السوفييتية السابقة على استقلالها السياسي عن نتائج عديدة، سياسية واقتصادية واجتماعية، وأخرى تاريخية وثقافية لا تقلّ أهمية، على رأسها مسائل مراجعة الماضي وإعادة كتابته. وفي أوزبكستان، مثلاً، حظيت شخصية تيمورلنك (1336 ـ 1405) بنصيب وافر من هذه السيرورة، ليس بوصفه مؤسس السلالة التيمورية فحسب، بل لأنه الأمير الذي اختار أن تكون عاصمة بلاده تلك المحطة الخالدة الواقعة على طريق الحرير: سمرقند.

ولم يمضِ وقت طويل حتى انقلبت المدينة إلى واجهة، أو معرض، لعظمة الإمبراطورية وبهاء كنوزها، وتعدّد فنونها، وتقدّم عمرانها، إلى جانب كونها قلب السياسة والغزوات والتوسع. ذلك لأن تيمورلنك حرص على أن يجعل منها درّة العصر، فأرسل إليها مئات الفنانين والحرفيين والمعماريين والكتّاب، بحيث أنّ النهضة التيمورية بأسرها لا تُفسّر بمعزل عن بهاء هذه المدينة، وحدها وبذاتها تقريباً.

وفي الفصل التمهيدي يتناول محرّر الكتاب رؤية الغرب للمدينة، وكيف أنّ ذكريات الغزو المغولي، وطبيعة علاقات الغرب مع الصين والروس والفرس، تحكمت في تلك الرؤية، أو بالأحرى شوّهت مضمونها الحقيقي. ومن الثابت أنّ تراث المدينة ينتمي، في يقينه، إلى التراث الحضاري الإنساني الذي اختلطت فيه التأثيرات المغولية والعربية والتركية والفارسية والهندية والصينية، فضلاً عن التفاعلات الحيوية التي كانت تنجم عن مسير القوافل على طريق الحرير التاريخي الشهير.

لوسيان كيرين يرسم صـورة مفصلة لشخصية تيمورلنك، ويتوقف بصفة خاصة عند علاقاته الدبلوماسية مع أوروبا في مطلع القرن الخامس عشر، وتحديداً عند نجاحه في سحق الجيوش التركية على أبواب أنقرة سنة 1402. البهجة الأوروبية تجاه هذا الانتصار لم تكن خافية، إذ انّ إضعاف السلطان التركي كان يصبّ في صالح أوروبا الشرقية إجمالاً.

ولكن، من جانب آخر، كيف يتناسى حكّام الغرب أنّ تيمورلنك مسلم، ويمكن أن ينقلب على المسيحيين عند حدوث أي تغيير في المعطيات الجيو ـ سياسية للمنطقة، وربما على مستوى مشهد العلاقات بين الغرب والشرق عموماً؟

وفي فصل آخر يرسم الروائي اللبناني أمين معلوف



المزيد من ملامح شخصية تيمورلنك، الفاتح الذي تكتنف المفارقات حياته وأعماله، ورجل نقاط الضعف التي أتاحت لنا أن نتعرف على خفاياه ودواخله. وهو يبدأ من حقيقة أنّ تيمورلنك اختار أن تكون عاصمته مدينة، وليس قلعة أو حصناً في أعماق السهوب والمراعي، الأمر الذي يدلّ على مزاجه المديني والعمراني المبكّر. والمفارقة أنه، وقد غزا إيران والأناضول وسورية وشمال الهند والقوقاز، لم ينجح أبداً في بناء إمبراطورية جديرة باسمها. ويأتي معلوف على ذكر اللقاء الذي جمع تيمورلنك بابن خلدون، وكيف أنّ الأخير قارنه بفاتحين كبار من أمثال خسرو والإسكندر وقيصر، فقاطعه تيمورلنك محتجاً: أولئك كانوا من كبار الملوك، أما أنا فلست إلا ممثل هذا الملك، وأشار إلى بعض قادة جيشه!

كريستيان إيرك، في فصل بعنوان «في مرآة مخاوف أهل الغرب»، يتوقف عند الأسباب التي جعلت أوروبا تخاف تيمورلنك، وفي طليعتها ذلك المزيج من العظمة والرهاب والخشية من عودة تلك الغزوات التركية ـ المغولية. وشخصية «الغازي الأعرج»، كما يُوصف تيمورلنك في بعض المصادر الغربية، تظلّ حتى عصرنا هذا عرضة للتضخيم والتأثيم والمبالغة، وأقرب إلى صناعة الكابوس والخرافة منها إلى التمثيل التاريخي الموضوعي. وفي القرنين السادس عشر وأوائل السابع عشر توفرت نصوص عن تيمورلنك، باللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية، بعضها اعتمد على كتاب «ظفرنامة» وسواه من المصادر الشرقية التي تقدّم صورة مختلفة عن تيمورلنك. ولم يقتصر الأمر على الشعراء والأدباء والمؤرخين، بل كان طبيعياً أن تحتلّ شخصيته مكانة بارزة في كتابات المفكرين السياسيين، من امثال مكيافيلي في كتابه الشهير «الأمير»، الذي صدر سنة 1513.

فرانتز غرنيه يتناول هشاشة مدينة سمرقند، بالقياس إلى موقعها الجيو ـ سياسي المميز على طريق الحرير، بوصفها بوّابة السهوب المفضية إلى آسيا الوسطى الواسعة المترامية الأطراف.

لهذا صارت المدينة فريسة لكلّ موجات التوسع، ممّا جعل سكانها ينكمشون تباعاً، ويتحصنون في ضاحيتها الجنوبية القديمة، حيث يتوفر الماء كذلك. ولعلّ حاكمها المسلم نصر بن سيار كان أوّل مَن أقام السلم في المدينة، عبر سياسة وفاق ذكية بين عامة الشعب والأشراف، الأمر الذي تولاه من بعده أبو مسلم، ولكن في إطار التهيئة السرية لنصرة دعوة بني العباس.

وفي الكتاب فصول أخرى تكمل تفاصيل حياة المدينة، من حيث أهمية الأسواق، وطابع العمران، وتقاليد التجارة، ومناخات التصوّف، والأجواء الإنسانية والأسطورية التي تتردّد في الكثير من أقاصيص ألف ليلة وليلة، فتكون الخلاصة اللائقة بمدينة كهذه هي أنّ روحها كانت خليطاً سعيداً من سلسلة حضارات وثقافات، ساعد الإسلام على حسن امتزاجها، وعلى اكتمال تفاعلها.

المؤلف : مؤلف جماعي بإشراف فنسان فورنيو – عدد الصفحات : 227ص – تاريخ النشر : 1995
التوثيق الأجنبي: Dirigé par Vincent Fourniau. Samarcande: 1400–1500
Editions Autrement, Paris 1995
اللغة: الفرنسية



تاريخ المجتمعات المسلمة في القرون الوسطى

الكتاب دراسة تاريخية حول تاريخ الإسلام ومجتمعاته والأنماط السياسية والاقتصادية التي عرفتها خلال القرون الوسطى، لمؤلِّفه إدواردو منثانو مورينو، خرِّيج جامعة لا كومبلوتينسي بمدريد وأستاذ وباحث بمعهد التاريخ التابع للمجلس الأعلى للبحث العلمي بمدريد. أصدر العديد من الأعمال، أهمها «حدود الأندلس في عصر الأمويين» والكتاب الذي بين أيدينا، «تاريخ المجتمعات المسلمة في القرون الوسطى».

ينطلق الكاتب من محيط ما قبل الإسلام، ويصف الوضع الذي كانت عليه شبه الجزيرة العربية، حيث كانت موقعاً استراتيجياً ونقطة تجارية مهمة تلتقي عندها القوافل القادمة أو السائرة إلى الهند، وسياسياً جارة للإمبراطورية البيزنطية والساسانية، التي نشأت بينها وبين القبائل العربية عدة تحالفات. ثم قبل أن يتناول مرحلة بزوغ الإسلام، يقدِّم تعريفا عاما ومبسَّطا عنه، عن أهم التعاليم التي أتى بها والمصادر التي يعتمد عليها من قرآن وسنة، ثم يخصِّص فصلا للحديث عن حياة الرسول والمراحل الأولى للوحي والدعوة والهجرة النبوية التي ساهمت في إرساء دعائم الإسلام. فترة الخلافة الراشدية كانت مطبوعة بالخلافات وعرفت أولى الانشقاقات في صفوف المسلمين، لتتفرَّع عنها طوائف عدة، أهمها السنية والشيعية، ولكنها مرحلة مطبوعة أيضاً بالفتوحات وتوسع الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية.

الخلافة الأموية واصلت هذا الانتشار بشكل لا سابقة له، وفي خلال فترة وجيزة ضمَّت كابول وسمرقند وبخارى، وترامت أطرافها حتى طالت شمال أفريقيا وشبه الجزيرة الإيبيرية وما وراء النهر ومنطقة السند، وتغلغلت في أوروبا لتتوقف عند حدود بواتيه الفرنسية، سنة 732. على عهد الأمويين أيضا، شهدت الخلافة الإسلامية سكَ نقد عربي لأول مرة، عوَّض العملة البيزنطية والفارسية التي ظلت متداولة إلى تلك اللحظة.

استطاع العباسيون الوصول إلى سدة الحكم بعد تصفيتهم لسلالة الأمويين، باستثناء الأمير عبد الرحمن –المعروف بالداخل– الذي تمكَّن من الفرار إلى الأندلس وإنشاء خلافة أموية ثانية، ستنفصل لاحقاً عن المشرق.

تميزت الخلافة العباسية بتغييرات إدارية وسياسية جذرية، أُولاها نقل العاصمة إلى بغداد، ثم إعادة تنظيم الإدارة حسب النموذج البيزنطي والفارسي. إلا أنها سجلت



بداية تفكك الإمبراطورية الإسلامية، مع ظهور الأدارسة في المغرب الأقصى والطاهريين في خراسان والأمويين –مرة أخرى– في الأندلس، وسيتفاقم هذا الوضع تدريجياً إلى أن تفقد الخلافة العباسية قوتها السياسية نهائياً وتسقط بغداد في يد المغول سنة 1258.

من جهة أخرى، حركة المرابطين التي وُلدِت من رحم القبائل البربرية القادمة من الصحراء –والتي كانت قد أسلمت مع قدوم الفاتحين إلى المغرب– بدأت بالتوسع نحو الجنوب وتمكَّنت من السيطرة على كل جنوب أفريقيا، ليعبر بعد ذلك المرابطون، بدعوة من ملوك الطوائف بالأندلس وتحت قيادة يوسف بن تاشفين، إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث سيهزمون الجيش المسيحي في معركة الزلاقة، سنة 1086.

إلا أن تفكك الدولة المرابطية لن يتأخر طويلاً، وقد مهَّد سقوط سرقسطة في يد الملك المسيحي «ألفونسو المحارب» لهذا التفكك، ثم جاء ظهور الموحدين وهي حركة ذات طابع ديني –من أصل قبلي بربري أيضاً– ليقضي تماما على المرابطين، متمكِّنة من توحيد القبائل تحت لوائها في مراكش سنة 1147، وحسمت معركة الأرك التي خاضها الموحدون ضد ملك قشتالة سنة 1185 الأمر نهائيا لصالح الموحدين بشبه الجزيرة الإيبيرية، ليستمر وجودهم إلى بداية الفترة التي تُعرف في تاريخ إسبانيا بـ«الاسترداد»، والتي مثلت نهاية التواجد الإسلامي بالأندلس وصيرورة إمرته إلى الملوك المسيحيين.

رافق فترة ازدهار الإمبراطورية الإسلامية منذ منتصف القرن العاشر، ازدهار كبير في التجارة المتوسطية، وتحولت مصر في عهد الخلافة الفاطمية إلى أحد أهم المراكز التجارية للمتوسط، لعبت قوافل العبيد والذهب –القادمة من السودان– دوراً رئيسياً في إنعاشه، حتى إن العملة الفاطمية سُكَّت من ذهب. واكتسبت العلاقات التجارية عبر البحر الأحمر أهمية بالغة عزَّزها التحالف ما بين الفاطميين والدولة الصُّليحية في اليمن. ونشأت تبادلات تجارية واسعة النِّطاق ربطت مناطق مهمة كالعراق وفارس، وصلت مناطق نائية كروسيا وبحر البلطيق، كما تثبت ذلك الوثائق المتوفرة وكما يؤكد ذلك العثور على العديد من القطع النقدية الإسلامية التي تعود إلى العصرالعباسي بروسيا.

لكن تجدر الإشارة إلى أن هذه الحركة التجارية الواسعة كانت تقوم على أسس بدائية يكفلها في غالب الأحيان التجار أنفسهم، بصفة غير رسمية، وربما على نطاق أوسع، شخصيات سياسية وإدارية بارزة كانت تسيطر على هذا المجال، كما تثبت ذلك وثائق وجدت في كنيسة يهودية بمصر تنتمي إلى الفترة الفاطمية، تتضمن أسماء حكام أقاليم وقُواد للجيش، كانوا في الوقت نفسه تجاراً و –عملياً– قائمين على هذه العلاقات التجارية، حققوا من وراء تجارة الكتان ثراء واسعا، التي كانت أحد أسباب الازدهار الذي يوثق في مصر في هذه الفترة.

إدواردو منثانو، يختصر في «تاريخ المجتمعات المسلمة في القرون الوسطى» مراحل التاريخ الإسلامي، مبرزا الدور الأساسي الذي لعبه الإسلام على إثر توسعه، منذ نشأته إلى نهاية الإمبراطورية الإسلامية.

المؤلف: إدواردو منثانو مورينو – عدد الصفحات: 199 ص – تاريخ النشر: 1992
التوثيق الأجنبي: EDUARDO MANZANO MORENO. HISTORIA DE LAS SOCIEDADES MUSULMANES EN LA EDAD MEDIA. SÍNTESIS، MADRID، 1992
اللغة: الإسبانية

السلطة في الإسلام: منذ بعثة النبي إلى نشأة الدولة الأموية

يسعى المؤلف إلى تطبيق نظرية ماكس فيبر عن السلطة –الواردة في كتابه الشهير: «مهنة السياسة»– على المراحل الأولى من التاريخ الإسلامي. وبمعنى آخر يهدف المؤلف إلى دراسة قضية السلطة في الإسلام بما في ذلك طبيعتها وتكوينها وتحولاتها وتعاقبها والتغيرات الأساسية التي طرأت عليها منذ نشأة الدعوة المحمدية مروراً بالنجاح الذي حققه وأخيراً دراسة نماذج السلطة التي تكونت لدى السنة والشيعة والخوارج، من أجل رصد طبيعة السلطة الدينية وتقلباتها واستمراريتها.

ولقد تطرق المؤلف إلى الخلفية الاجتماعية للرسول وإلى سمات المجتمع الذي نشأ فيه قبل الإسلام وإلى الرسالة التي حملها الرسول إلى قومه، كما عرج على نشوء الطوائف الإسلامية الثلاث: السنة والشيعة والخوارج.

ولكنه سعى إلى إلقاء المزيد من الضوء على الصراع الذي نشأ بين الرسول – بسبب شخصيته الكاريزمي]– مع النظام العربي القبلي القديم.

ويرى المؤلف أن هذا الصراع الذي أدى إلى نشوء ثقافة إسلامية سياسية جديدة يصب من الناحية النظرية في علم اجتماع السلطة، كما يرى أن التفاعل بين شخصية الرسول الكاريزمية والنظام القبلي المتواجد في الجزيرة من قبل الإسلام قد أدى إلى إنبثاق وتأسيس ثقافة إسلامية دينية جديدة.

ويمكن القول إن شخصية الرسول الكاريزمية استطاعت أن تساهم في تكوين نماذج ثقافية جديدة تفوقت على النظام العربي القديم الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ومع ذلك ففي طور إنشاء مؤسسات دينية ثقافية جديدة تم التفاعل بين شخصية الرسول الكاريزمية والنظام العربي الذي أعاد تكوين نفسه وظهر على الساحة مرة أخرى مما أدى إلى نشأة ثلاث مذاهب هي السنة والشيعة والخوارج.

ويرى المؤلف أن هذه المذاهب والطوائف لا تمثل نقطة ضعف في البناء الاجتماعي/الديني/الثقافي الإسلامي لأنها كانت تجسيداً للتفاعلات التي حدثت بين المجتمع العربي القديم والرسول، وما سعى إلى تحقيقه من خلال شخصيته الكاريزمية.

تطرق المؤلف إلى الخلفية الاجتماعية للرسول وإلى سمات المجتمع الذي نشأ فيه قبل الإسلام وإلى الرسالة التي حملها الرسول إلى قومه

ويرى المؤلف أن المذاهب الإسلامية السالفة الذكر ليست دليلاً على الشقاق والخلافات فقط وإنما هي نتاج للتفاعل بين المجتمع القديم وشخصية الرسول، ويرى المؤلف أن هذا التفاعل يتم في إطار ديالكتيكي هيجلي: (أطروحة) ضد (النقيضة) تؤدي إلى (الجميعة) أي نتيجة الجمع بين «الطريحة» و«النقيضة»: (Thesis– Antithesis– sy–thesis).

وأشار المؤلف إلى أن المذاهب أو الطوائف أو التقسيمات الثلاثة (سنة – شيعة– خوارج) تمثل نماذج ثقافية مستقلة عن بعضها وتكمن أهمية هذه التقسيمات ليس في كيفية تطورها التاريخي وإنما في كيفية تفسير ورؤية ما تطرحه من قضايا على الصعيد الديني والسياسي.. إلخ

ومن الناحية النظرية فإن الكتاب يستطلع الأشكال الثقافية التي نشأت في الجزيرة العربية بعد نشر رسالة النبي الذي نجح في قيادة ثورة أدت إلى نشأة نماذج في السلطة لم تكن معروفة في عصره.

يتألف الكتاب من ثمانية فصول ومقدمة، على النحو التالي:–

1. مقدمة.
2. الصراع بين النظام القبلي القديم وشخصية الرسول الكاريزماتية.
3. السلطة في المجتمعات العربية التقليدية.
4. شخصية محمد الكاريزماتية والسعي إلى السلطة.
5. نشأة النظام الجديد المؤسس على السلطة الكاريزماتية.
6. أسس السلطة عند السنة.
7. أسس السلطة عند الشيعة.
8. أسس السلطة عند الخوارج.
9. الثورة الكاريزماتية كأساس لإعادة بناء النظام الأخلاقي.
10. الخلاصة.
11. خاتمة.

المؤلف: حامد دباشي – عدد الصفحات: 169ص –تاريخ النشر: 1989

التوثيق الأجنبي: Hamid Dabashi. Authority in Islam: From the Rise of Muhammad to the Establishment of the Umayyads. New Jersey : Transaction Publishers. 1989

اللغة: الإنجليزية

دمشق تطور إحدى المدن الشرقية وبنيتها

تعد مدينة دمشق، شأنها شأن كثير من المدن العربية والإسلامية المهمة من أمثال: مكة والمدينة والقدس، وبغداد، وحلب والقاهرة من المدن التي يمكن تسميتها بالمدن المخدومة في التاريخ، بمعنى أن لهذه المدن كتباً تاريخية خاصة بها، ترسم هذا التاريخ على امتداد العصور المختلفة.

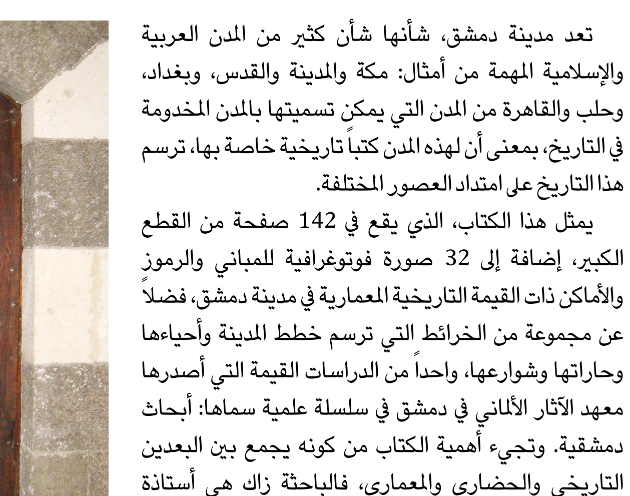
يمثل هذا الكتاب، الذي يقع في 142 صفحة من القطع الكبير، إضافة إلى 32 صورة فوتوغرافية للمباني والرموز والأماكن ذات القيمة التاريخية المعمارية في مدينة دمشق، فضلاً عن مجموعة من الخرائط التي ترسم خطط المدينة وأحياءها وحاراتها وشوارعها، واحداً من الدراسات القيمة التي أصدرها معهد الآثار الألماني في دمشق في سلسلة علمية سماها: أبحاث دمشقية. وتجيء أهمية الكتاب من كونه يجمع بين البعدين التاريخي والحضاري والمعماري، فالباحثة زاك هي أستاذة جامعية في قسم الهندسة المعمارية في جامعة برلين التكنولوجية، وهي مختصة بتاريخ العمارة الإسلامية فلها دراسة عن بيروت صدرت عام 2005 تناولت فيها زقاق البلاط، إضافة إلى التاريخ والفضاء الجغرافي وأبعاد الصراع الاجتماعي في العاصمة اللبنانية، وكانت قد أصدرت عام 1996م دراسة عن المسجد الكبير في رصافة هشام بن عبد الملك، إضافة إلى العديد من المقالات والمراجعات للإصدارات الخاصة بالتطور المعماري في المدن العربية والإسلامية.

اختارت دوروتي زاك أن تتوقف عند هذه المدينة التي يراها الباحثون بأنها من أقدم عواصم العالم القديم، ومن أقدم المدن المأهولة بالسكان، وقد اختارت دوروتي زاك أن تتناول مدينة دمشق لترسم أبرز التحولات التاريخية التي مرّت بها ولترسم في الوقت نفسه معالم التطور المعماري لهذه المدينة ومقدار تغيّر أنماطها في إطار تلك التحولات.

قسمت زاك كتابها إلى خمسة أقسام تحتوي الأقسام الأربعة الأولى، على الكثير من الجزئيات التي ترسم تاريخ المدينة وتطورها المعماري وأقسام هذا الكتاب هي: مدخل: المشكلة والغاية

الوضع الجغرافي لدمشق: وتتوقف فيه زاك عند: الواحة وبردى، وعند حالة دمشق تجاه قوافل التجارة القادمة من بعيد.

دمشق: التطور التاريخي والمديني: وهذا الفصل يتكون من



ثلاثة أقسام كبرى تناقش تاريخ دمشق منذ بداياته إلى الفتح العربي الإسلامي.

تتوقف زاك عند الآراميين، والرحيل إلى الغوطة، وعن تطور المدينة من 732 إلى 85 قبل الميلاد، وعن وضعها في زمن الحملات العسكرية للإمبراطورية الرومانية، واحتلال الرومان لها عام 66 قبل الميلاد حتى 391 قبل الميلاد. فقد احتل الامبراطور الروماني بومبي الأكبر دمشق عام 64 قبل الميلاد، وأصبحت دمشق من أهم المدن المسيحية، ومنها انطلق القديس بولس، كما ارتبطت دمشق بتاريخ الحضارة الهللينية، وامتزجت عناصر يونانية وأخرى شرقية أثرت في ثقافة البلدة في معمارها.

بعدها تتحدث زاك عن دمشق في العصور الوسطى الإسلامية، من حيث معمارها ومصادر الحديث عنها. وتبدأ حديثها بلون من التقييم لتلك المصادر من الزاوية المعمارية، لتعود فترسم تطور ذلك المعمار مقترناً بالتطور التاريخي.

تتوقف زاك عند دمشق في عصر بني أمية، التي شهدت تطوراً كبيراً فقد بنيت فيها قصور الأمويين، مثلما بنى فيها الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك المسجد الأموي. لتتحدث بعد ذلك عن دمشق في زمن العباسيين والفاطميين والسلاجقة وبني أيوب. تتنقل زاك بعدها إلى العصر العثماني وتتبع صورة دمشق في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين وصولاً إلى حكم آل العظم واحتلال إبراهيم باشا لها في القرن التاسع عشر، وانتهاءً إلى ما شهدته ولاية دمشق من تغيرات في القرن العشرين.

أما في القسم الثالث وهو بعنوان: العناصر الشرقية المكونة للمدينة: دمشق أنموذجاً فتتوقف زاك في هذا الفصل عند الأحياء داخل الحيطان الرومانية وخارجها، وتدرس سور المدينة معماراً وتنظيماً، ونظام الري وتطوره التاريخي، وتوزيع المياه. كما تتوقف عند مركز المدينة، وتطوره ودلالاته، فتتحدث عن تطور بناء المساجد والقلاع ودلالات ذلك على المستوى الديني والحربي، وتتحدث عن السوق ومحلاته وشارعه وما فيه من صناعات حرفية ودباغة الجلود وصبغ الأقمشة وحارة الفراعين.

في الجزء الرابع من هذا الفصل تتوقف زاك عند أحياء المدينة فتتحدث عن أشهر هذه الأحياء داخل السور وخارجه، وعن أسواقها وحماماتها ومقاهيها وآبارها العامة، وخاناتها، وتكاياها وتتوقف عند الحارات ذات الأنماط المعمارية المتعددة.

وتتوقف عند بيوت دمشق، وتقارن بين بيوت المسلمين واليهود والمسيحيين، وتتوقف عند حارات دمشق وتقوم بتصنيفها حسب موضعها في المدينة لتتوقف عند باب توما وهو أحد أبواب دمشق الشهيرة، الذي نسب إلى القديس توما أحد رسل المسيح الاثني عشر، وهو يحتل الجهة الشمالية الشرقية من سور المدينة، وقد أعيد بناؤه زمن الملك الناصر داود سنة 1228م لتتوقف أخيراً عند الصالحية والميدان.

لكن أكثر ما في هذا الكتاب أهمية هو تلك الفهارس التاريخية الدقيقة التي ألحقتها زاك بكتابها. ففيه دليل تاريخي يشير إلى العصور التاريخية المختلفة التي مرت بها دمشق وأبرز ما أنجز فيها من أبنية ومعالم حضارية، وهذا الدليل يقع بين ص89 وص 121 وفيه فهارس أخرى للأبنية وأسمائها والعصور التي بنيت فيها.

إن أهمية الكتاب تكمن في قدرته على بناء آفاق التخطيط العمراني للمدينة العربية الإسلامية وما تتميز به من خصوصية، وهذا ما تشير إليه بعض الدراسات باسم فقه البنيان، وهذا الفقه هو مجموعة القواعد الفقهية الخاصة بالعمران والمجتمع، التي يشترك في بناء أسسها المهندسون والدول والمجتمعات والفقهاء، التي ترجع جذورها إلى ابن عبد الحكم (– 214هـ) في كتابه البنيان.

أما مصادر هذه الدراسة فتجمع بين المعرفة التاريخية والمسح الميداني، والتحليل الهندسي الذي يتكئ على قواعد فن العمارة وهندستها.

المؤلف: دوروتي زاك – عدد الصفحات: 142 ص – تاريخ النشر: 1989

التوثيق الأجنبي: Dorothee Sack. Damaskus. Entwicklung und Struktur einer orientalisch – islamischen Stadt. Verlag philipp von zabern. Main. am Rhein: 1989

اللغة: الألمانية

تحولات جذرية في فلسطين 1856 - 1882

دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

يتوقف المستشرق الالماني الكساندر شولش (_ 1986م) الذي كان أستاذاً للتاريخ في جامعة إيرلانغن، والباحث المتخصص في تاريخ فلسطين في كتابه هذا الذي يقع في 413 صفحة من القطع الكبير، عند جوانب مهمة في تاريخ فلسطين السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الحقبة العثمانية، بين 1856 – 1882، وهي حقبة تمتد لمدة ستة وعشرين عاماً، وتشمل خمس سنوات من حكم السلطان عبد المجيد الاول وخمس عشرة سنة من حكم السلطان عبد العزيز الأول وست سنوات من حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

لقد وقعت في ربع القرن هذا أحداث مهمة أثرت على نحو واضح في تاريخ فلسطين وفي مستقبلها. فقد انتهت حرب القرم (1853 - 1856) بمقتضى معاهدة الصلح في باريس 1856، وصدر مرسوم الاصلاح المعروف بخطّي هامايون الذي دشن الفترة الثانية من التنظيمات (1856 – 1876) وأعلن عن إفلاس الدولة العثمانية وجرى تشكيل إدارة دولية للدَّين 1881 ووصلت المسألة الشرقية إلى ذروة حربية في الحرب الروسية التركية عام 1877–1878 واحتلت إنجلترا كلا من قبرص 1878 ومصر 1882 واحتلت فرنسا تونس عام 1881م. ونجحت المساعي الداخلية الدستورية (1876 – 1878) لكنها سرعان ما هزمت.

لذلك يرى شولش أن هذه السنوات تحمل ملامح حقبة محددة في تاريخ فلسطين، بدأت فيها مرحلة التغلغل الاقتصادي في الدولة العثمانية، تجلت في استثمار رؤوس الاموال وفي الوصايا السياسية للدول الاوروبية.

لكن عام 1882م يشكل فيما يرى شولش مرحلة تاريخية فاصلة، فهو بداية الاستيطان اليهودي في فلسطين وبداية الاحتلال الانجليزي لمصر، وهاتان الحركتان تشكلان خطين للتطور، تحرك كل منهما تجاه الآخر والتقيا من خلال الحرب العالمية الأولى وأدى هذا الالتقاء إلى حكم بريطانيا لفلسطين وبناء وطن قومي لليهود فيها.

يقسم شولش كتابه هذا إلى ثلاثة أجزاء: 1. البلاد والسكان 2. التغلغل الإداري والتطور الاقتصادي. والاهتمام الأوروبي بفلسطين. 3. التطور الاجتماعي والسياسي

يناقش شولش في الفصل الأول حدود فلسطين في العصر العثماني، ويبين التطور السكاني فيها والتقسيمات الإدارية الخاصة بها. ويقدم احصاءات دقيقة للتركيبة السكانية فيها، التي يغلب عليها الطابع العربي تماماً.



أما في الفصل الثاني فيبدأ شولش حديثه بتحليل الاهتمام الاوروبي بفلسطين ودوافع هذا الاهتمام، ويشير إلى الوجود الانجليزي والوجود البروسي (الألماني) ثم إلى الاهتمام الفرنسي والروسي. ويبين الأدوار التي لعبتها تلك الدول وبخاصة بريطانيا في مسألة إعادة اليهود إلى الأرض المقدسة، منذ تلك الحقبة. بعد ذلك يناقش شولش تاثير هذا الاهتمام الأوروبي على الانتاج الزراعي والملكية الزراعية، وتطور المدن والتجارة والحرف. أما مصادره فهي التقارير التجارية والاقتصادية للقناصل الانجليز والألمان والنمساويين والفرنسيين في القدس ويافا وحيفا وعكا. بعدها يتوقف شولش عند تطور المدن والاقتصاد المدني وبخاصة تلك المدن التي تغيرت إثر الهجمة الاوروبية وهي: القدس وبيت لحم والناصرة ويافا وحيفا وعكا وصفد وطبريا، إضافة إلى نابلس والخليل وغزة.

صحيح أن آثار هذه الهجمة متفاوتة على هذه المدن، لكنها استطاعت أن تحدث تغييراً واضحاً فيها. ويخلص شولش إلى أن التحول قد وقع في قطاعي الزراعة والتجارة.

في الفصل الثالث يتوقف شولش عند التطور الاجتماعي والسياسي. ويرفض عند حديثه عن السمة الغالبة على المجتمع الفلسطيني أن يوصف المجتمع هذا بأنه مجتمع إقطاعي بالمطلق، ويرى أن قراءة الواقع الاجتماعي توجب الحذر، وهو يرى أن الانتاج الزراعي والاقتصاد الريفي هما الأساس الاقتصادي للمجتمع الاقطاعي وفي هذا المجتمع تكون وسائل الانتاج بيد الفلاحين الذين ينظمون استغلال الأرض أما الاقطاعي فيحصل على فائض المحصول في شكل ريع عمل وريع طبيعي وريع نقدي والعوض الذي يقدمه الاقطاعي يتمثل في حماية الفلاحين، يتوقف شولش بعدها عند الزعماء المحليين في الخليل ونابلس والقدس وعن القيسية واليمانية، ليتحدث بعدها عن تجريد الزعماء المحليين من السلطة.

وهنا يفرد شولش حيزاً مهماً لدور عقيلة الحاسي وهو بدوي قدم أبوه من مصر عام 1814م، أما هو فقد عمل مع إبراهيم باشا، وانحاز إلى جانب لاتين الناصرة. لكن سلطته في الجليل بدأت عام 1747م ليتوقف بعدها عند يوسف الخالدي بوصفه مصلحاً فلسطينياً، ولد عام 1842 وتوفي عام 1906، وكان قد سعى إلى انشاء نظام تعليمي على النمط الغربي، وتفعيل الإدارة، وتحقيق التسامح الديني وضمان الحقوق والحريات وتحسين البنية التحتية، لكن زيادة الفاعلية تمثلت في زيادة الضرائب وعدد المجندين.

ومن خلال المقارنة بين عقيلة الحاسي والزعماء المحليين الآخرين في جبل القدس وجبل نابلس وغيرهما من جهة ويوسف الخالدي الذي كان رئيساً لبلدية القدس وعضواً في مجلس المبعوثان عن اللواء سنة 1877 / 1878، من جهة اخرى ينهي شولش كتابه ليبين على نحو غير مباشر مدى التحولات الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين، التي أخذت شكل كيان سياسي إداري، وقد أسهم الاوروبيون في ذلك لأنهم عاملوها، عن عمد، كوحدة تاريخية جغرافية.

لقد بذل شولش جهداً كبيراً في قراءة تاريخ فلسطين في هذه الحقبة وتبين مصادره اعتماده على الوثائق والوسائل المتبادلة، وأدب الرحلات والدراسات الاجتماعية والاقتصادية فضلاً عن مجلات كثيرة تصدرها جمعيات أوروبية تبشيرية وأثرية. والكتاب فيه بعض الخرائط الدالة على فلسطين في تلك الحقبة، إضافة إلى فهارس أخرى تتسم بالدقة والأهمية.

المؤلف : الكساندر شولش - عدد الصفحات: 413ص - تاريخ النشر 1986
التوثيق الأجنبي: Alexander Schoelch. Palistina im umbruch. 1856 – 1882 untersuchungen zur wirtschaftlichen und sozio – politischen Entwicklung. Franz Steiner verlag Wiesbaden: 1986
اللغة: الألمانية

الخلافة الأموية أول خلافة إسلامية

شهد عام 661 حدثاً مهماً يتمثل في استيلاء معاوية بن أبي سفيان- حاكم سورية منذ عام -639 على مدينة الكوفة بعد أن هزم الحامية العسكرية التي كانت تقيم فيها.

ويعتبر هذا الحدث نهاية مرحلة مريرة من الحرب الأهلية بين جماعات من المسلمين أنفسهم . ولقد ظل الأمويون على العرش لمدة تسعين عاماً حتى اسقطهم العباسيون عام 750–749.

والخلافة الأموية هي أول إمبراطورية إسلامية تسيطر على الشرق الأوسط بعد الغزو العربي للمنطقة الذي بدأ في عام 630 واستمر لسنوات عديدة بعد ذلك. ومن أجل إلقاء الضوء على الخلافة الأموية يجب أن نناقش قصة الأسلمة، والتعريب، أما بالنسبة لمفهوم «الأسلمة» فهو يعني المناطق التي فتحها المسلمون والتي تدين بالإسلام. وفي العهد الأموي وبسبب اعتقاد بعض الجماعات أن الأمويين لم يطبقوا المبادئ الإسلامية الصحيحة نشأت خلافات مع الحكومة الأموية التي أتهمت بالزندقة ولذلك ظهر في الأفق ثلاثة مذاهب كرد فعل على الإسلام الأموي الذي انتشر بعد نهاية الحرب الأهلية الإسلامية الأولى (661–656) واستيلاء معاوية على السلطة: أولاً المذهب السني ، ثانيا المذهب الشيعي ، ثالثا الخوارج.

ولأن الأمويين كانوا يعتبرون أن الدين الإسلامي هو دين خاص بأهل الجزيرة وقبائلها وأنه دين الخاصة لذلك لم يفرضوا الإسلام على الشعوب التي تم غزوها وكانوا يكتفون بجمع الجزية منهم. وكان على من يرغب أن يعتنق الإسلام من الشعوب غير العربية أن يسعى للانتماء لإحدى القبائل العربية أو أن يكون من الموالي ، ويحمل اسم القبيلة التي تحتضنه وتمنحه شرف الانتماء الشكلي لها.

ولم يكن الحكام الأمويون يسمحون لغير العرب بالانضمام إلى الموالي بعد اعتناقهم الإسلام. فلقد منع الحجاج بن يوسف حاكم العراق مجموعة من المزارعين العراقيين من الذهاب إلى بلدان عربية مجاورة والانضمام إلى الموالي هناك .

يتكون الكتاب من ثمانية فصول كالتالي:

الفصل الأول: و هو عبارة عن مقدمة بعنوان : أهمية العهد الأموي ومكانته في التاريخ الإسلامي.

الفصل الثاني بعنوان : العائلة الأموية والسيطرة على الخلافة. ويتناول هذا الفصل استيلاء معاوية على الخلافة ويقدم خلفية شاملة عن الأمويين.



الفصل الثالث بعنوان : آل سفيان. ويتناول هذا الفصل بالدراسة والتحليل الحكومة الأموية وأهم الشخصيات التي تحكمت فيها من آل سفيان.

الفصل الرابع بعنوان : الحرب الأهلية الثانية.

الفصل الخامس بعنوان : عبد الملك والحجاج.

الفصل السادس بعنوان : النزعة الطائفية: تطورها ومشاكلها.

الفصل السابع بعنوان : الحرب الأهلية الثالثة وخلافة مروان الثاني.

الفصل الثامن بعنوان : الإطاحة بالخلافة الأموية.

ملحق أول: يتناول المصادر التاريخية التي استقى منها المؤلف دراسته.

ملحق ثان: الاتجاهات المعاصرة نحو الخلافة الأموية.

المؤلف: جي. آر. هاوتنج - عدد الصفحات: 141 ص - تاريخ النشر: 1986
التوثيق الأجنبي: G. R Hawting. The First Dynasty of Islam: The Umayyad Caliphate AD 661–750. Australia: Croom Helm LTD، 1986. London: Biling and Sons LTD
اللغة: الإنجليزية

الأمة العربية والتاريخ الإسلامي: الأمويون في قناعات الكتاب العرب في القرن العشرين

مؤلف هذا الكتاب هو الباحث والمستشرق الألماني ڤيرنر إنده الذي حصل على الدكتوراه عام 1965م من جامعة هامبورغ، وواصل بحوثه في عالم الدراسات الإسلامية، وظلت الفرق الإسلامية المتعددة، على امتداد أقطار العالم الإسلامي محور دراساته. وظل إنده أستاذاً للتاريخ الإسلامي في جامعة فرايبورغ حتى عام 2002م.

يصدر هذا الكتاب عن رؤية تؤمن أنّ كلّ المؤلفات التاريخية ماهي إلا مرآة تنعكس عليها السياقات الاجتماعية والثقافية للعصر الذي كتبت فيه. وهذا الكتاب يقوم على رؤية تربط بين الماضي والحاضر، وترى الماضي في الحاضر، وتسعى إلى تبيان الجدل التاريخي حول حقبة تاريخية بعينها هي العصر الأموي الذي ظلّ من أكثر العصور الإسلامية إثارة للجدل.

ينقسم هذا السفر الذي يقع في قرابة 300صفحة من القطع الكبير إلى مقدمة وسبعة فصول تعالج في مجموعها قراءات المؤرخين والمفكرين والباحثين العرب المعاصرين للدولة الأموية وتاريخها.

إن اختيار إنده يعود إلى مجموعة أسباب؛ فقد كانت تلك الدولة عربية أو عربية أعرابية على حدّ تعبير أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، واستطاعت أن تحقق العديد من الانتصارات العسكرية، وأن تنهض بحركة الفتوح وأن تؤسس بالتالي دولة مترامية الأطراف. وبالمقابل فإنّ تاريخ هذه الدولة تعرض، كما يرى كثير من المؤرخين للتشويه والتغيير لأسباب شتى.

وهذان العاملان على اختلاف مابينهما، يتصلان بحركة العصر الحديث؛ فحلم الدولة الكبرى الواحدة القوية القادرة على مواجهة التحديات، يشكل نقطة التقاء بين تيارات الفكر العربي الحديث على اختلافها وتعرض تاريخ الدولة الأموية للتشويه، فتح باب الحديث عن تدوين التاريخ الإسلامي، وشروط الكتابة التاريخية ومشكلاتها.

يجيء الفصل الأول في كتاب إنده تحت عنوان: الأمويون والإسلام والأمة العربية، وفي هذا الفصل ينافش المؤلف مسألتين هما:

أ. صورة الأمويين في المصادر الإسلامية السنّية.

ب. عوامل تحول تلك الصورة: القومية والعلمانية.

تجري في هذا الفصل مناقشة التاريخ الأموي والظروف التي تمت فيها تدوين أخباره؛ فقد شهد هذا العصر العديد من الحركات التي ناصبت بني أمية العداء كالشيعة والخوارج والزبيريين والحركات الشعوبية الامر الذي رسم صورة مظلمة



للحكم الأموي، لكن المؤلف يرى أن ظهور الحركات القومية العروبية المنزع، جعل الباحثين يعيدون اكتشاف هذا المنحى في الخلافة الأموية، كما أن النزعة العلمانية التي تبدت على نحو يأخذ طابعاً ليبرالياً في كتابات بعض الباحثين العرب، أخذ يعيد الاعتبار للحكم الأموي وإنجازاته.

يعنون إنده الفصل الثاني: الامويون بوصفهم موضوعة للسجال في القرن العشرين، وفيه يتوقف عند أبرز السجالات التي اتخذت من الحقبة الأموية منطلقاً لحواراتها.

والسجالات المشار إليها تؤشر على تحولات الفكر العربي الحديث، وبالتالي صورة الدولة الاموية، وكيفية التأريخ لها.

يتوقف إنده في هذا الفصل عند السجالات التالية:

1. السجال بين المؤرخ رفيق العظم والروائي التاريخي والمؤرخ جورجي زيدان (1905).
2. الحوار الحاد بين شبلي النعماني والشيخ محمد رشيد رضا(1912)
3. الخلاف حول وظيفة الكتابة التاريخية المعاصرة بين رفيق العظم وطه حسين (1923).
4. الشيخ طاهر الجزائري وأتباعه.
5. محمد كرد علي في مواجهة المدرسة الحنبلية الجديدة.
6. المؤرخ محمد الخضري بوصفه أحد تلاميذ محمد عبده.
7. كتابات الأب لامانس .
8. كتابات المؤرخ بندلي الجوزي الماركسية النزعة.
9. الدفاع السلفي عن الدولة الأموية في كتابات محب الدين الخطيب.
10. فلسطين تحت الحكم الأموي. موضوعة العصر.

يتوقف إنده عند هذه السجالات مبيناً دوافعها وتجلياتها، وموضحاً ماتركته من آثار على الكتابة التاريخية المعاصرة في العالم العربي الحديث وعلى صورة بني أمية بشكل عام.

ومن الواضح أن قارئ هذه السجالات يكتشف أن التاريخ الأموي كان نقطة انطلاق لمناقشة قضايا الحرية والاستقلال والنظام الدستوري والعدالة الإجتماعية والنهضة الثقافية والوحدة القومية. ومن الطبيعي كذلك أن المؤرخين العرب المعاصرين أعادوا النظر في دور شخصيات بارزة في ذلك العصر كعبد الله بن سبأ والحجاج بن يوسف وغيرهم.

يمضي إنده قدماً ليناقش في الفصلين الثالث والرابع مواقف الكتّاب الشيعة من الدولة الأموية، فيتوقف عند ماكتبه أنيس زكريا النصولي(1902– 1957) عن هذا التاريخ، وما أثاره من سجالات حادة وردود كثيرة، ويتوقف أيضاً عند كتاب عبد الرازق الحسني(– 1964)، وعنوانه عروبة العراق. «نظرة في تاريخ العراق السياسي»، الذي أثار هو الآخرة مجموعة من الردود الغاضبة والرافضة لمنهجية الكتاب في التأريخ وللتعاطف غير المسوغ مع الدولة الأموية.

يتوقف إنده بعد ذلك عند أبرز شخصيات ذلك العصر وقضاياه؛ فيتحدث عن الفتنة ومقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ويناقش مصطلح الشعوبية واختلاف المعاصرين حوله.

إن تحليلات هذا الكتاب تتصل بمسألة الوعي التاريخي والكتابة التاريخية وأهميته تتجلى في القدرة على الربط بين التاريخ الماضي والحاضر، ومصادره تجمع بين القديم والحديث، وتقدم للقارئ معرفة دقيقة بهذه السجالات ومرجعياتها وكيفية تتبع الباحثين للتاريخ وإعادة تفسيره في ضوء اللحظة الراهنة.

المؤلف : ڤيرنر إنده – عدد الصفحات : 309ص – تاريخ النشر : 1977

التوثيق الأجنبي: Werner Ende. Arabicshe Nation und islamische. Geschichte: Die umayyaden im urteil arabischer Autoren des 20 Jahrhunderts. Beiruter Texten und Studien – Wiesbaden: 1977

اللغة: الألمانية

محمد والقرآن. تاريخ النبي العربي وبعثته

مؤلف هذا الكتاب هو المستشرق الألماني رودي بارت (1901– 1983) الذي عُرف في الأوساط الألمانية بترجمته للقرآن الكريم، التي صدرت طبعتها الأولى عام 1966م مشفوعة بالفهارس والتفسيرات، وهي الترجمة المعتمدة في البحوث الإستشراقية الالمانية.

بدأ بارت مسيرته العلمية بالكتابة عن سيف بن ذي يزن، ولعل مرد هذا الاختيار يعود إلى مشرفه المستشرق إنّوليتمان (1875– 1958) الذي ترجم ألف ليلة وليلة، إلى الألمانية على نحو متكامل، والذي سبق له أن درّس في جامعة القاهرة في سنوات تأسيسها الأولى وذكره طه حسين في الايام.

يجيء اختيار هذا الكتاب لعدة أسباب:

أما السبب الأول فيعود إلى كون مؤلفه قد عمل في حقل الدراسات الإسلامية حقبة طويلة، وهذا الكتاب يشكل حصيلة هذا الجهد، ويكشف عن منظوره في هذا المجال. وأما السبب الثاني فلكون الكتاب يتوقف عند مفردتين ما تزالان تشكلان محوراً أساسياً في الدراسات الإستشراقية إلى يوم الناس هذا وهما: القرآن الكريم وشخصية الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، وهذا المحور هو من أقل المجالات تطوراً في بحوث المستشرقين على صعيد المفاهيم، وإن تطورت آلياته ومصادره ومناهج تناوله. فما تزال الدراسات الإستشراقية في غالبيتها تنظر إلى الإسلام بوصفه أرضية تشكّلت في سياق تاريخي واجتماعي وثقافي، والدين الذي تمخضّ عنها هو دين مركّب ومستعار من اديان شتى. أما الرسول، صلى الله عليه وسلم، فتنظر إليه هذه الدراسات بوصفه واضع القرآن، اعتماداً على مصادر متضاربة، لهذا يحتوي القرآن، في ضوء هذه النظرة، على تناقضات عديدة. بل إن بعض الدراسات الإستشراقية التي كتبت في الغرب في الربع الأخير من القرن العشرين. ذهبت إلى أنّ القرآن قد اتخذ شكله الحالي عبر تطورات وتعديلات تمت في القرنين الأول والثاني للهجرة.

يقع كتاب « محمد والقرآن» في أحد عشر فصلاً إضافة إلى مدخل وملحق.

يكتسب مدخل هذا الكتاب الذي يقع في 30 صفحة أهمية خاصة لأن العناصر التي يعرضها بارت فيه وهي: البؤر السكانية اليهودية، التبشير المسيحي، آلهة العرب وطقوسهم وسحرهم وكهانتهم وتركيب قبائلهم الاجتماعي، تؤكد ما سبق الإشارة إليه. فهذه العناصر هي التي شكلت الإسلام وأسهمت في « صناعة» الرسول والرسالة. لذا لم يكن من المستغرب أن يتحدث بارت في العنوان الفرعي لكتابه عن النبي العربي، لأنه يريد أن يمنح الإسلام طابعاً محلياً أو قومياً في أحسن الأحوال. وهذا ما يتضح في حديثه عن الوحدانية في الإسلام التي تطّورت، فقد بدأ القرآن بالحديث عن «ربّ هذا البيت» قريش/3 ، ثم «رب هذه البلدة» النمل/31، و«رب العالمين» كما ورد في آيات كثيرة، ثم إن هذه الوحدانية الإسلامية هي نظرية، يشوبها الكثير من «الشرك» في الممارسة، كما في حديثه عن «الغرانيق»التي سيتخذها، فيما بعد، سلمان رشدي نقطة انطلاق في آياته الشيطانية.

Kohlhammer
Urban Taschenbücher

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي
خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى

Rudi Paret

Mohammed und der Koran

10. Auflage

تجيء فصول « محمد والقرآن» على النحو التالي:

1. المرحلة الأولى من حياة «الرسول»
2. تجربة النبوة
3. وعي محمد الرسولي
4. محتوى بواكير البعثة
5. الإيمان بالله الخالق القدير
6. بدايات التاريخ المقدس
7. شرك أهل المكة
8. الخلاف مع اليهود
9. الحرب على المكيين.
10. سنوات الاكتمال
11. شخصية الرسول

يجد المتأمل لفصول هذا الكتاب أن بارت يتأمل نبوة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من منظور ظاهراتي تماماً، وهو يقوم بتحليل عناصر تلك الظاهرة وتطورها من ثم وصولاً إلى نهاياتها. فعلى مستوى النبوة يرى بارت أن هذه الظاهرة بدأت بالخلوات والتأمل وحب العزلة، وانتقلت إلى الرؤى، ويجيء تحليله للسور القرآنية الأولى وبخاصة المكية منها، على أنها لون من السجع على مستوى البناء، والعرافة أو الكهانة على مستوى الرؤيا. ليخلص إلى القول «ويمكن للمرء أن يرى من زاوية أخرى أن محمداً في بدايات دعوته العلنية، لم يكن يعرف شيئاً عن النبوة. فمعرفته بأنبياء العهد القديم جاءت متأخرة، وضعيفة تماماً. لهذا لم يكونوا حاضرين في تجارب نبوته بوصفهم نماذج قادرين على إضاءة تجربته».

وتسير بقية الفصول لترسم أبعاد هذه الظاهرة، مازجة بين حياة الرسول، عليه السلام، وسور القرآن الكريم، ففي بدايات التاريخ المقدس يتحدث بارت عن الأديان السماوية المبكرة وعن ما يسميه قصص العهد القديم التي استولى عليها القرآن الكريم، ليتحدث بعدها عن علاقة الرسول بيهود المدينة، التي تأخذ طابعاً متشابهاً في الكتابات الإستشراقية يقوم على الدفاع عن مواقف يهود الجزيرة والإشارة إلى ما لحق بهم من ظلم وعسف.

ويخلص بارتّ وهو يرسم صورة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من زوايا: الحرب والنساء والحكم الثيوقراطي إلى القول:

« إن علينا نحن المؤرخين، قبل كل شيء، أن لا نقع في الخطأ فنقيس شخصية النبي العربي على نموذج المسيح الذي نثق به وبصحته، والذي قال: إن مملكته ليست على هذه الأرض. فقد عاش محمد في سياق اجتماعي لا يجد فيه الفرد نفسه إلا في إطار جماعي شامل».

ولعل هذا الموقف .. يوضح مأزق الدراسات الإستشراقية تماماً، التي تنطلق من موقف إيديولوجي ساعية إلى اثباته والبرهنة على صحته والإيديولوجيا، كما هو معروف، نقيض العلم، الذي يفترض في مثل هذه المسائل الشائكة أن يتسم بالحياد والموضوعية والابتعاد عن المزج بين الذات والموضوع.

المؤلف : رودي بارت – عدد الصفحات : 176ص – تاريخ النشر : 1976

التوثيق الأجنبي : Rudi Paret. Mohammed und der Koran. Geschichte und verkuendigung des arabischen Propheten. Verlag. W. kohlhammer 4. Auflage: 1976

اللغة: الألمانية

دراسات نقدية للمصادر بخصوص الموضوعات والأشكال والاتجاهات في الروايات التاريخية الخاصة بصدر الإسلام

صاحب هذه الدراسة هو الباحث والمستشرق الألماني ألبرشت نوت(1937- 1999) الذي حصل على درجة الدكتوراه من جامعة بون عام 1966، وظل يعمل أستاذاً للتاريخ الإسلامي في جامعة هامبورغ حتى وفاته.

لألبرشت نوت دراسات تاريخية كثيرة، وقد شكّل مفهوم الجهاد في الإسلام محور دراساته، لكن هذه الدراسة تعد من أوائل الدراسات التي بدأت الأجيال الجديدة من المستشرقين توجهها للأجيال السابقة بخصوص مسألة الكتابة التاريخية والتعامل مع المصادر. وألبرشت نوت هو ابن اللاهوتي البروتستانتي المعروف مارتن نوت(1902-1968) الذي ظلت دراساته تدور حول العهد القديم وأسفاره المتعددة.ومن الجدير بالذكر أن هذه الدراسة ترجمت إلى الإنجليزية عام 1994م، نظراً لأهميتها في مسألة الكتابة التاريخية وشرائطها.

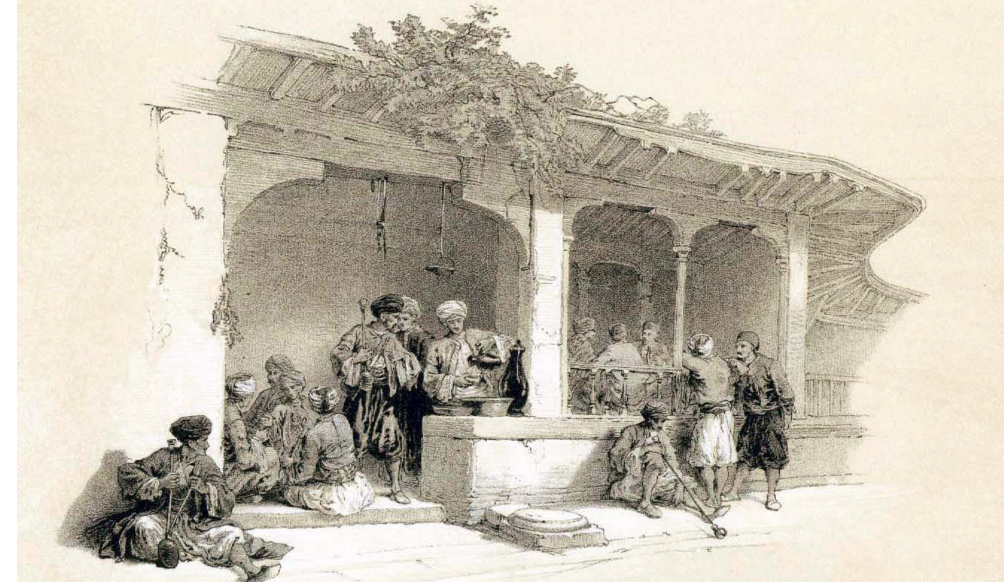
تتوقف هذه الدراسة عند المصادر التاريخية التي روت أخبار صدر الإسلام سواء أكانت هذه الكتب تاريخية أم فقهية، فهو يشير، مثلاً، إلى البلاذري، صاحب أنساب الأشراف، وأبي عبيد القاسمي بن سلام صاحب كتاب الأموال، ويحيى بن آدم صاحب كتاب الخراج وياقوت الحموي في مؤلفاته وغيرهم من الإخباريين والرواة. ويتوقف عند أخبار صدر الإسلام في هذه الكتب ويسعى إلى تحليل تلك الأخبار شكلاً وموضوعاً ونماذج. ويجيء توقف نوت عند هذه الحقبة الواقعة بين وفاة النبي، عليه السلام، ومقتل الخليفة الراشدي الرابع، علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لأن هذه الحقبة، كما يرى، كانت مملوءة بالأحداث المعقدة والمتشعبة، الامر الذي يستدعي تأملاً في مصادرها وتفكيك بنيتها وخصائصها.

يتحدث نوت عن جهود المستشرقين في هذا المجال، أي مجال التحليل التاريخي للمصادر، ويقسمها إلى مجموعتين:

مجموعة يمثلها فرانتس روزنتال و Abbot أبّوت (المختص بأوراق البردى) وفؤاد سيزكين، صاحب «تاريخ المخطوطات العربية» وفئة أخرى يمثلها ڤيلهاوزون وميندكوف وغيرهم. ويرى نوت أنّ هذه الدراسات على مابينها من اختلاف في تناولها للتاريخ الإسلامي المبكر، ظلت تتبع الروايات أكثر من اهتمامها بعملية تحليل بواعث هذه الروايات ومنطلقاتها.

تنتمي هذه الدراسة إذن إلى الدراسات التي تؤرخ لعلم التاريخ عند العرب، لكنها تحاول ذلك من خلال منهجية دقيقة تهتم بشكل الرواية التاريخية ومضمونها.

ينقسم كتاب نوت إلى قسمين كبيرين: يختص القسم الأول بالموضوعات حيث يتوقف نوت عند اثني عشر موضوعاً، يقوم بتحديدها ويتتبع ورودها في المصادر، وما طرأ عليها من



تحولات على مستوى المفهوم.

والموضوعات التي يختارها هي:

الردة، الفتوح، الفتنة، الإدارة، سيرة الخلفاء، الأنساب، العجم، الترتيب الكرونولوجي (التاريخ الهجري، كتب الحوليات، ترتيب الأحداث طبقا لسنوات حكم الخلفاء)، الشريعة، والإدارة، العلاقة بين المركز والولايات.

أما الجزء الثاني فيناقش مسألة الأشكال من خلال ثلاث جزئيات هي:

1. الاشكال الأدبية. 2. الفئات 3. النماذج.

في القسم الأول يتوقف نوت عند الأشكال الأدبية التي تعطي للمؤرخ مادة تاريخية، كالوثيقة والرسالة والخطبة والقائمة والأوائل. وهو يناقش في هذا الفصل مدى قدرة المؤرخ على الاعتماد على هذه الأشكال في الكتابة التاريخية.

ومن الواضح أن نوت، وغيره من الدارسين لهذه المصادر، يرون أن ثمة تحولاً نوعياً في مسألة الوعي بالتاريخ قد تبلورت بعد ظهور الإسلام، ونقلت الكتابة التاريخية من المستوى الأسطوري إلى مستوى واقعي.

في الجزء الخاص بالفئات يتوقف نوت عند خمس فئات، بعضها مرتبط بأسماء الأعلام، وبعضها مرتبط بأسماء المعارك، وبعضها مرتبط بالدعوة إلى الإسلام وبعضها مرتبط بالدعوة إلى تمجيد تلك الحقبة، وبعضها يصعب أن ينتمي إلى فئة محددة.

أما النماذج فتحتوي جزئيات يصعب ردّها إلى أشكال محددة أو فئات بعينها؛ لكنها تحوي عدداً من الرؤى مثل تمجيد الماضي أو العلاقة السببية بين الحوادث أو الرغبة في التنظيم للروايات المتضاربة.

إن هذا الكتاب من الدراسات النقدية التي تسعى لتفكيك آليات الكتابة التاريخية، من خلال الوقوف على الرواية الشفوية، لأنها مصدر مهم في كتابة التاريخ. لكن الكتاب لم يهتم بالتطور التاريخي للكتابة، ولم يسعَ إلى وضع هذه المسائل ضمن سياق تاريخي، يبين تحولات الكتابة التاريخية وبخاصة كتب المغازي والسيرة النبوية، وتحرر هذا النمط من التاليف من البعد الأسطوري الذي كان سائداً قبل الإسلام وبخاصة في جنوب الجزيرة العربية، لكن قراءة نوت وهو يفكك تلك الأشكال والموضوعات ظلّت تلتزم المنهج التحليلي والحياد المطلق. وهي قراءة تنبئ عن صلة عميقة بتلك المصادر وقدرة على قراءتها.

المؤلف: ألبرشت نوت – تاريخ النشر: 1973

التوثيق الأجنبي: Quellenkritische Studien zu Themen، Formen und Tendenzen Fruehislamischer Geschichts- ueberlieferung. Teil I. Themen und formen Bonn. Bonner Orientalische Studien. Band 25- 1973

اللغة: الألمانية

دراسة بعض الجوانب القانونية المهمة المتعلقة بالأرض، والمترتبة على حركة الفتوح الإسلامية

ڤيرنر شموكر هو مستشرق ألماني له العديد من الدراسات والبحوث المتعلقة بمشكلات وظواهر اجتماعية وثقافية ودينية في التاريخ الإسلامي مثل: الأزمة والتدين عند دروز لبنان 1979، ودراسات عن أيديولوجيا البعث، 1973.

يتوقف شموكر عند حركة الفتوح الإسلامية التي بدأت في العصر النبوي، وانطلقت في عصر الخلفاء الراشدين، وتوسعت في عصر بني أمية؛ لتشمل العراق وبلاد الشام وبلاد فارس وشمال إفريقيا والأندلس، لكن شموكر لا يتوقف عند مسألة الفتوحات من الزاوية التاريخية، بل يتوقف عندها من زاوية المصطلحات ذات الصبغة القانونية والشرعية التي رافقت تلك الفتوحات وتطورت بتطورها.

يتحدث شموكر في مقدمة كتابه أن الكتابة التاريخية العربية ظلّت تميز، وهي تؤرخ لحركة الفتوحات العربية الإسلامية، بين ما جاء صلحاً أو عنوة من هذه الفتوحات، لكن هذا التمييز ظل أكثر وضوحاً في كتب الخراج التي وضحت الفروقات على نحو منهجي.

يقسم شموكر كتابه الواقع في 220 صفحة إلى أربعة أجزاء، تسعى في مجموعها لبناء تصور دقيق حول هذه المسألة من خلال عرض متتبع لهذه المصطلحات الموزعة على كتب التاريخ والخراج والأدب والفقه والتراجم، وتحليل لطبيعتها ومدلولاتها اللغوية والمفهومية.

سمى شموكر الجزء الأول من دراسته: المفاهيم الجاهلية التي احتفظ الإسلام بها، ومفهوم الإسلام عنها، وفي هذا الجزء يتوقف شموكر عند عدد من المصطلحات التي استخدمها عرب الجاهلية لإنهاء أيامهم وحروبهم وغزواتهم فيما بينهم، مثل: الحلف والجوار والصلح والعقد والميثاق والموادعة والامان. ويبين شموكر بعد استعراضه لها، إن إقرار الإسلام لهذه المصطلحات ورضاه عنها واستخدامه لها على النحو الذي يتناسب مع رؤيته العقائدية، هو لون من الحكمة والذكاء لأن الإسلام بذلك لم يمارس لوناً من القطيعة المعرفية مع هذا الموروث، مثلما فعل فيما يتعلق بالعبادات والشعائر الأخرى.

يستعرض شموكر في الجزء الثاني من دراسته الذي يسميه: «العقود والملكية وشروط التسليم في العهد النبوي». مغازي الرسول، صلى الله عليه وسلم، ابتداءً من غزوة الأبواء التي وقعت بعد أحد عشر شهراً من الهجرة، ووادع فيها الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، بني ضمرة من كنانة (على ألا يكثروا عليه ولا يغيروا عليه أحدا)؛ ليتتبع بعدها عدداً من الغزوات، لكن المؤلف يطيل الحديث على غزوة خيبر، ويبين أنها جمعت في نظر بعض كتاب السيرة النبوية والمؤرخين بين الصلح والعنوة؛ ليتحدث عن فدك وما حصل فيها من صلح مع اليهود؛ لينتقل إلى صلح دومة الجندل.

يحلل شموكر المصطلحات الخاصة بهذه الغزوات، من زوايا لغوية ومصطلحية، ويوضح الفروقات بينها، ويتوقف عند أجزاء من عبارات تلك المواثيق؛ ليخلص إلى أنّ أسلمة تلك المصطلحات بقيت تجري على قدم وساق. لكن حديث شموكر عن المغازي وما تولد عنها من علاقات وما ترتب عليها من علاقات جديدة، وتوزيع للأراضي والغنائم، ظلّ يأخذ في تحليلاته طابعاً براغماتياً، ويضفي طابع الذرائعية على التاريخ الإسلامي.

يتوقف شموكر في القسم الثالث من كتابه عند «جذور نظرية الصلح – العنوة وتطوراتها» من خلال ثلاث جزئيات تحتوي على نقاط فرعية كثيرة؛ فبعد المدخل التاريخي المكثف الذي يستعرض شموكر فيه الأبعاد التاريخية للفتوحات بعد العصر النبوي، يتحدث عن نقاط الاتصال التاريخي، ويفتتح حديثه بخبر وجده عند خليفة بن الخياط يقول: إن زياد بن أبيه جاهد كي يميز بين الصلح والعنوة؛ فلم يوفق. بعدها يبدأ شموكر حديثه عن أنواع الاراضي التي عرفها المسلمون وكيفية توزيعها في ضوء مسألة الصلح – العنوة؛ فيتحدث عن أرض السواد في العراق، التي اختلف الصحابة في حكمها وفي كيفية التعامل معها، وقد رفض الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب تقسيم أرض السواد وتركها وقفاً تجري غلتها على المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. « مثلما يتحدث عن أرض الصوافي التي كانت للملوك والحكام والأمراء من غير المسلمين الذين تركوها والتحقوا بدار الحرب، وحكمها حكم أرض السواد؛ فهي ملكية عامة للمسلمين لا يجوز تقسيمها، كما يتحدث عن الاقطاع وهو ما تقطعه الدولة لأفراد من أراض؛ لتغطية نفقاتهم، ولايملك من تسلمها إلا حق استثمارها فلا يبيعها ولا يكريها ولا تورث عنه.

في الجزء الرابع من الكتاب يتحدث شموكر عن نظرية الصلح – العنوة بوصفها ابتكاراً إسلامياً، ومن الحق أن يقال إن المذاهب الإسلامية وقفت وقفات مطولة عند هذا الأمر فرقت فيه بين الأرض الموات، والأرض التي أسلم أهلها عليها، أو صالحوا عليها أو عطلوها؛ فأحياها غيرهم وبين أرض العنوة. ويجد الدارس لكتب الفقه تأملات دقيقة لهذه المسألة، ففي حين كان الإمام مالك صارماً في هذه المسألة، حيث يرى عدم جواز قسمتها بين الغانمين، كان أبو حنيفة يرى أنّ الإمام مخير بين الوقف والقسمة وإن كان تلميذه أبو يوسف يرى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان على صواب فيما فعله، وأن ذلك كان توفيقاً من الله عز وجل. وأما أصحاب المذهب الشافعي فإنهم يرون أن أرض العنوة لا توقف بل يجب قسمتها، أما أصحاب المذهب الحنبلي فبعضهم يميل إلى مذهب المالكية،وبعضهم يذهب مذهب الأحناف. أما الإمامية الجعفرية فترى أن الأرض المفتوحة عنوة هي وقف لجميع المسلمين.

ويخلص شموكر في خاتمة المطاف إلى تبني رأي المستشرق الألماني المعروف: يوسف شاخت، وهو من أشهر دارسي المذاهب الإسلامية في الغرب، إلى أن تأمل أبعاد هذه المسألة يكشف بوضوح أن جذور الشريعة والاستنباط نشأت في العراق، وليس في المدينة المنورة التي ظلت حاضنة للسنة النبوية.

إن مصادر شموكر، كما هو جلي، تجمع بين مصادر الحديث النبوي، والسيرة النبوية، والمغازي، ومصادر التاريخ الإسلامي والتراجم وكتب الخراج والمعاجم. إضافة إلى دراسات المستشرقين السابقة. وبصرف النظر عن المنظور الذي يتأمل فيه شموكر تطور هذه المسألة؛ فإن من الواضح أن الدراسة تتميز بقدر عالٍ من الدقة والتتبع الدقيق. ومساءلة المصادر التراثية، ومحاكمتها، ولعل تتبعه لهذه الأمور يؤكد وعيه التاريخي، في التحولات الكبرى التي طرأت على وعي المؤرخين العرب القدماء، وتحول هذا الوعي وانتقاله إلى فكرة الأمة التي وضع الإسلام أبعادها وملامحها، لكن ما تفتقده هذه الدراسة القيمة -في نظري- هو عجزها عن تشكيل تصور للإسلام من الزاوية الفردية الاجتماعية والاقتصادية، ورغبته في بناء دولة ومجتمع، يعتمد على رؤى فكرية وتشريعية تنظم جوانب الحياة المختلفة.

المؤلف: ڤيرنر شموكر – عدد الصفحات: 220 ص – تاريخ النشر: 1972

التوثيق الأجنبي: Werner schmucker. Untersuchungen Zu einigen wichtigen boden rechtlichen konsequenzen der islamischen Eroberungsbewegung

اللغة: الألمانية

الإسلام في عصره الكلاسيكي: 622- 1258م

يستمد هذا الكتاب أهميته من عدة أمور، يحسن أن نتوقف في بادئ الأمر عند أمرين أساسيين منهما:

أهمية مؤلفه في تاريخ الإستشراق الألماني والأمريكي وحضوره الفاعل فيهما، فغوستاف غرونباوم (1909 – 1972) المولود في فيينا والمتوفى في لوس أنجلوس في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي ترك بلاده خوفاً من الاضطهاد النازي. نظراً لأصوله اليهودية، يشكل واحداً من المستشرقين الذين أسهموا في الكتابة عن الإسلام ديناً وحضارة بالألمانية ثم بالإنجليزية وأسهموا في تشكيل صورة هذا الدين في المخيال الغربي عموماً.

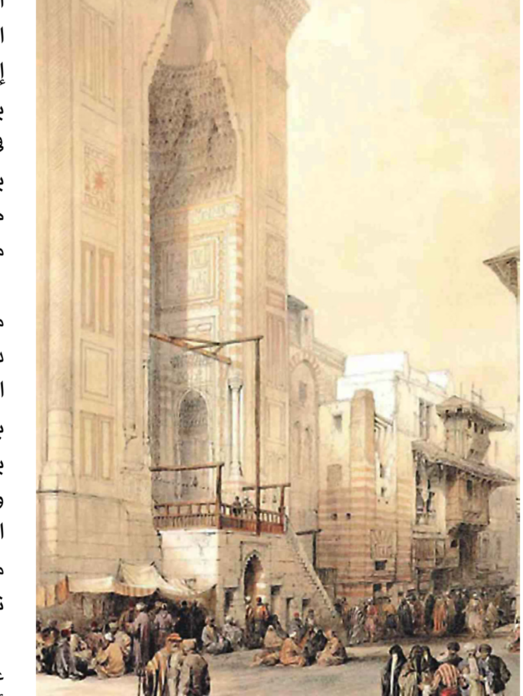
نشر هذا الكتاب في بادئ الأمر ضمن سلسلة ثقافية موجهة للقارئ العام على نحو يشبه الكتاب الذي حرره غرونباوم ونشر عن الإسلام في سلسلة مقروءة في ألمانيا تسمى سلسلة فيشر للتاريخ العالمي، وقد حرر غرونباوم فيها كتاباً سماه «الممالك الإسلامية بعد سقوط القسطنطينية» ولغوستاف غرونباوم دراسات عديدة تتناول الأدب العربي والثقافة العربية بشكل عام.

يقع كتاب «الإسلام في عصره الكلاسيكي» في حوالي 230 صفحة من القطع الصغير، والكتاب، كما سبق أن أشير كتاب تثقيفي للقارئ الألماني العام؛ لذا يزوده المؤلف بعدد من الخرائط تتوزع على بدايته ووسطه ونهايته، وهي خرائط تاريخية الأبعاد، تبين ما طرأ على جغرافية العالم الإسلامي من تحولات، مثلما يزود كتابه بثبت تاريخي يبين أهم الأحداث والوقائع في التاريخ الإسلامي وما قبل الإسلام ابتداءً من دولة الأنباط عام 106م وانتهاء بسقوط بغداد على أيدي المغول عام 1258 وتدمير هولاكو لها.

كتبت فصول هذا الكتاب بلغة سهلة، دقيقة يسهل على غير المختصين بالدراسات العربية والإسلامية إدراكها وفهم مراميها، وقد حرص غرونباوم أن يجمع في كتابه بين العرض التاريخي الواسع المليء بالمعلومات والرؤى النقدية التي تتجاوز، في كثير من الأحيان، الحياد الذي يحرص المستشرق الأكاديمي، عادة، على التحلي به وهو يعرض في العادة لمثل هذه المسائل.

يتكون هذا الكتاب من الفصول التي تحمل العناوين التالية:

1. حقبة ما قبل الإسلام.
2. محمد (صلى الله عليه وسلم).



3. القوة الخارجية والتمزق الداخلي.
4. الأمويون.
5. العباسيون، الموروث اليوناني والصعود الفارسي.
6. المجتمع الإسلامي والحركات الاجتماعية – الدينية.
7. مصر في ظلال الفاطميين والطولونيين.
8. آفاق الإسلام: الفقه، الفلسفة، الأدب.
9. تدهور الخلافة: الفاطميون، البويهيون، الغزنويون، السلاجقة.
10. الدول اللاتينية.
11. تمزق العالم الإسلامي: المرابطون في الغرب.
12. الاصلاح الديني والقومية البربرية: الموحدون.
13. الزهد والتصوف قبل انتهاء الخلافة.

يصعب في هذا العرض الموجز أن نتوقف عند المسائل التي تحدث غرونباوم عنها في هذا الكتاب التثقيفي نظراً لكثرتها، وإذا كان الحديث عن سعة اطلاعه وقدرته على العرض المكثف للتحولات التاريخية الكبرى في العالم الإسلامي ليس موضع مناقشة؛ فإن من الضروري أن ننبه إلى أن غرونباوم لا يرسم صورة أسطورية للإسلام ولا يقدمه، كما سيفعل عدد من الصحفيين والمراسلين الإعلاميين في ألمانيا مثلاً، بوصفه ديناً للسيف والقتل والنار؛ لكنه يظل يقدمه من منطق المدرسة التاريخانية الإستشراقية التي ظلت أوروبية تماماً في ثقافتها ووعيها وفي فهمها للتاريخ معنى ودوراً ووظيفة.

يستخدم غرونباوم، شأنه شأن الكثيرين من المستشرقين من أبناء جيله مصطلح الإسلام، لا ليشير إلى الإسلام بوصفه ديناً ذا عقيدة وشريعة فحسب، بل بوصفه يعني تاريخ المسلمين على امتداد زمني كبير وبهذا فإن غرونباوم يماهي بوعي وقصدية بين الإسلام وتاريخه، وهو من شأنه أن يجعل القارئ العام مقتنعاً بهذا ومؤمناً بهذا التماهي، ويكاد يوقعه فيما سبق لادوارد سعيد، أن سماه نظرية الطبائع الثابتة الذي قاد إلى الاعتقاد بان مسألة التخلف مركوزة في الجوهر الثابت للحضارة الإسلامية، وأن إمكانية تطورها تكاد تدخل في باب المستحيلات.

ولو توقفنا عند حركة الفتوحات الإسلامية مثلا لرأينا أن غرونباوم يحرص على إظهار العرب الفاتحين، وهو يرسم أبعادها التاريخية، بمظهر القبائل البدائية الغازية التي دمرت حضارات بيزنطية وساسانية في المشرق، فالصورة التي يرسمها غرونباوم لشخصية الرسول محمد، عليه السلام، تجيء جزءاً من المعرفة التي أنتجها الغرب عن الشرق الإسلامي، وكرستها الدراسات الإستشراقية على نحو لا يتوقف. صحيح أن جيل غرونباوم، يختلف، مثلاً، عن جيل مايكل كوك وباتريشيا كرونه اللذين قدما في «الهاجرية» روايات مسرفة في الخيال عن نشوء الإسلام، بدا الرسول، عليه السلام، في ضوئها شخصية أسطورية ألفها الهاجريون (أبناء هاجر) ويغدو القرآن تعبيراً عن المخيال الجمعي للمسلمين؛ ليصل بهما البحث في نهاية المطاف إلى الشك في الوجود التاريخي لشخصية الرسول عليه السلام؛ لا يصل غرونباوم إلى هذا المستوى، ولا يصل إلى ما كتبه الدارسون القادمون من آفاق الانثروبولوجيا عن الإسلام؛ لأن غرونباوم يظل تلميذاً للمدرسة الإستشراقية الالمانية، وما انطوت عليه من منهجية، لكنه لا يمانع في القول وهو يتحدث عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم، إنه لم يكن يتحدث من أجل الله سبحانه وتعالى، وحده، بل كان يتكلم مع العرب ومن أجلهم؛ لأنه جاء بوصفه نبياً عربياً، مع أن غرونباوم يعي أن الكثيرين من المفكرين والأدباء والباحثين في الغرب، يتحدثون عن الرسول عليه السلام، بوصفه شخصية عالمية إنسانية بمقدار كونه شخصية عربية إسلامية.

المؤلف: غوستاف إدموند غرونباوم – عدد الصفحات : 230 ص – تاريخ النشر: 1966
التوثيق الأجنبي: G.E. von Grunebaum. Der Islam in seiner klassischen Epoche 622– 1258. artemis verlag. Zuerich und Stuttgart: 1966
اللغة: الألمانية

تاريخ الحروب الصليبية

يتوقف المؤرخ الألماني هانز إبير هارد ماير في هذا الكتاب، الذي يقع في 300 صفحة من القطع المتوسط، عند أكثر المراحل خطورة وإشكالية في تاريخ العلاقة بين الغرب المسيحي والشرق العربي الإسلامي، وهي المرحلة التي عرفت عند مؤرخي الإسلام باسم حروب الفرنجة، وعند المؤرخين الأوروبيين باسم الحروب الصليبية، وقد استخدم المؤرخ الفرنسي لويس ممبور: مصطلح croisade عام 1675م هذا المصطلح الذي يعني حامل الصليب أو المتّشح به واستخدمه الكاتب والناقد الألماني غوتهولد أفراييم لسنج (1729 – 1781) الذي كان منشغلاً بالعلاقة بين الأديان الثلاثة وكتب مسرحية شهيرة تعكس أبعاد هذه العلاقة عرفت باسم «ناتان الحكيم» نشرت عام 1779م.

تعد كتابه المؤرخ الالماني إبيرهارد ماير عن تاريخ الحروب الصليبية، إضافة نوعية للكتابة التاريخية في هذا الحقل العقد، وعلى الرغم من صدور كتابه عام 1965م، إلا أن طبعات هذا الكتاب ماتزال تتوالى حتى عام 2005م.

يتكون هذا الكتاب من الأقسام التالية:

- حوض البحر الأبيض المتوسط حوالي 1095م.
- نشوء الحملات الصليبية.
- الحملة الصليبية الأولى (1096 –1099م).
- الإمارات والممالك الصليبية (1099 – 1146م).
- الحملة الصيبية الثانية (1145 – 1149م).
- الإمارات والممالك الصليبية (1149 –1187م).
- الحملة الصليبية الثالثة (1187 –1192م).
- التطورات الداخلية للإمارات والممالك الصليبية في القرنين الثاني عشروالثالث عشر.
- الحملة الصليبية الرابعة (1198 – 1204م) واليونان الإفرنجية (1204 –1311م).
- الحملة الصليبية الخاصة بالأطفال من 1212 والحملة الصليبية ضد دمياط.
- الحملة الصليبية التي قادها القيصر فريدريش الثاني 1228 –1229م.
- مملكة قبرص حتى عام 1489م والممالك والإمارات الصليبية من 1192 –1244م.
- الحملة الصليبية الأولى للودفيج المقدس(1248 – 1254م) واقتحام المغول في الشرق الأدنى.
- الإمارات والممالك الصليبية من 1254م – 1291م.
- النتائج والآفاق

أما الفصول اللاحقة فتحوي: المصادر والمراجع والهوامش والجداول والخرائط وفهارس الأعلام.

يوضح إيبرهارد باختصار، في الفصل الأول من هذا الكتاب السياقات التاريخية للعلاقات التي نشأت في هذه المنطقة الاستراتيجية بين الإسلام والمسيحية، مشيراً إلى الذرائع الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي حركت هذه الحملات، فعلى المستوى الديني يشير إيبرهارد إلى الصعوبات التي بدأ الحجاج المسيحيون يجابهونها بعد منتصف القرن الحادي عشر للميلاد، وإلى محاولات الخليفة الفاطمي الحاكم (996م _ 1021م) لهدم كنيسة القيامة. إضافة إلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في تلك الآونة التي جعلت النبلاء يفتشون عن اقطاعات جديدة، وجعلت عامة الناس يفتشون عن موارد رزق جديدة، فضلاً عن تشجيع البابوية لهذه التحركات التي تقوي نفوذها، وقد تؤدي إلى إعادة توحيد الكنيسة المسيحية تحت سيطرتها.

يتتبع إيبرهارد بدقة تاريخ هذه الحملات ونتائجها، فيشير إلى الحملة الأولى واحتلالها لبيت المقدس عام 1099م وقيام مملكة القدس اللاتينية، إضافة إلى الرُها، وأنطاكية وطرابلس الشام.

أما الحملة الثانية فقد جاءت بعد سقوط مملكة الرها وقد دعا إليها البابا ايجونيوس الثالث، وشارك فيها ملوك أوروبا وهما لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثاني ملك ألمانيا. وقد كانت هذه الحملة فاشلة تماماً، لم تنجح في تحقيق نتائجها. بعدما تصدت لها جيوش السلاجقة. وقد جاءت الحملة الثالثة رد فعل على تلك الهزيمة التي منيت بها الحملة الثالثة. واشترك فيها كبار الإقطاعيين والنبلاء والفرسان، وقاد الحملة الملك فيليب اوغست الثاني، ملك فرنسا، والملك ريتشارد ملك إنجلترا الذي عرف لاحقاً باسم قلب الأسد، وملك الجرمان فريديش الأول بربروسا الذي غرق في نهر اللامس. نجحت هذه الحملة في حصار عكا واقتحامها، وتولد عنها ما عرف بصلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد.

وقد هدفت الحملة الرابعة إلى احتلال القدس، لكنها هاجمت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وعاصمة المسيحية الأرثوذوكسية وهي القسطنطينية واحتلتها.

يتوقف إيبر هارد بعد ذلك عند الحملة الصليبية الخاصة بالأطفال التي جيشت عام 1212م آلاف الأطفال من ألمانيا وفرنسا، آملة أن تتمكن من احتلال الأراضي المقدسة والقدس على رأسها، نظراً لما تنطوي عليه قلوب هؤلاء الأطفال من براءة وصفاء. وكان من المفروض أن ينزل هؤلاء الأطفال على الشواطئ الإيطالية، لتقلهم إلى الأراضي المقدسة، لكن القراصنة هاجموا هذه السفن في الشواطئ الإفريقية وقتل معظم الأطفال وبيع الباقي في سوق النخاسة.

بعدها يتوقف الكتاب عند حملة القيصر الألماني فريدريش الثاني التي أدت إلى صلح مع الملك الكامل، تنازل بموجبه عن القدس، ليتحدث عن لودفيج المقدس أو لويس التاسع كما تسميه المصادر الفرنسية الذي قاد الحملة الصليبية على مصر، التي انتهت بهزيمته وجيشه في المنصورة.

يتوقف المؤلف في خاتمة الكتاب عند نتائج الحملات، ويبين تأثير الثقافة الإسلامية في سكان المدن والإمارات الصليبية على المستويات العلمية والاجتماعية. وقد ظهر ذلك بوضوح في الأزياء والأطعمة فضلاً عن العلوم الأخرى. لكن الواضح أن هذه الحروب خلقت في الذاكرة القومية لكل من المسلمين والغربيين أبطالاً قوميين، كصلاح الدين والظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون، مثلما خلقت شخصيات لها هذا الطابع في الجانب المقابل، مثل لويس التاسع الذي اضفي عليه هالة من القداسة، وريتشارد قلب الاسد وفريدريش في ألمانيا.

إن معرفة هذا المؤرخ بالأبعاد المختلفة لهذه الحروب والحملات واضح تماماً، وهو يجيء مدعماً بتحليل تاريخي دقيق لتطورات تلك الحملات ونتائجها.

المؤلف: هانز إبيرهارد ماير – عدد الصفحات: 300 ص – تاريخ النشر: 1965
التوثيق الأجنبي: Hans Eberhard Mayer. Geschichte der kreuzzuege. W.Kohlhammer verlag. Stuttgart: 1965
اللغة: الألمانية



علوم وفنون وفلسفة

فقالت ام الاسد حدثني الصادق الامين ان دمنة لم يركب

بيت الحكمة، كيف حوَّل العرب الحضارة الغربية

«بيت الحكمة» هو المعهد الذي أقامه الخليفة العباسي المأمون في بغداد لنقل العلوم القديمة من مصادرها اليونانية والهندية والفارسية والسريانية وتولى ترجمتها إلى اللغة العربية. ولكنه هنا يتحول إلى استعارة كبرى لتسمية الثقافة العربية التي كانت خزاناً كبيراً لرفد الثقافة الغربية بمصادر المعرفة القديمة في جميع العلوم والمعارف من الفلسفة والرياضيات والطب والكيمياء والهندسة والحيل (أو الميكانيكا).

حين اندلعت موجة الحروب الصليبية الأولى، كانت قد أشاعت عن العرب أنهم جماعة «من الهمج البرابرة البدائيين الجهلة، الذين لا يستطيعون حتى أن يعرفوا الوقت بدقة». ليس لديهم قانون سوى أوامر ملوكهم المستبدين، ويستهدف الطب لديهم القتل لا العلاج. يوضح لاينز أنه إلى جوار هذه الصورة البشعة، كان هناك تفاعل إيجابي قدم صورة أخرى للعرب، بوصفهم علماء وفلكيين وأطباء وفلاسفة من طراز فريد. فبدءاً من منتصف القرن الثامن الميلادي (أي الثاني الهجري) بدأ الخلفاء العباسيون يشجعون على إيجاد نهضة علمية، أسهم فيها المنصور العباسي وهارون الرشيد، وبلغت أوجها مع تأسيس المأمون لبيت الحكمة في بغداد.

وفي هذا المعهد العلمي انكبت أجيال من التراجمة والمثقفين على الاعتناء بعلوم العصر في محاولة لاستملاكها والتفاعل معها، وليس فقط لنقلها. وخلال عقود قليلة، صارت توجد مكتبة عربية كاملة، تشتمل على أهم علوم عصرها والعصور السابقة، وتحاور مختلف النظريات اليونانية والفارسية والهندية في شتى مجالات المعرفة.

غير أن انتقال هذه المعرفة إلى الغرب كان محوطاً دائماً بظروف التنازع حول الهيمنة والسلطة. ومن بين أوائل الغربيين التواقين إلى معرفة ما يمكن تعلمه من العرب كان روجر الثاني، حاكم صقلية (1095 – 1154)، وهو ابن مرتزق غزا صقلية وأخذها من العرب بين عامي 1068 و1091. كانت صقلية حتى ذلك الوقت جزءاً من العالم العربي الإسلامي منذ أن فتحتها جيوش معاوية، لكنها صارت الآن تابعة للغرب. وبالمناسبة ما زالت صقلية تحتفظ بكثير من سماتها العربية وفي مقدمة ذلك الأرقام بأسمائها العربية. كان روجر على معرفة بإنجازات العرب العلمية، فاستقدم عدداً من التراجمة من أنطاكية وغيرها من المدن، ومن هؤلاء أديلار الباثي. وفي عهد حفيده فردريك الثاني تكررت الظاهرة نفسها. فقد كان فردريك الثاني من المعجبين بقوة بالعلم العربي، ولا سيما بالأرسطيين العرب، مثل ابن سينا وابن رشد، وجند المترجمين لنقل أعمالهم. بل هو راسل ابن سبعين الفيلسوف الصوفي المعروف، فكتب له إحدى رسائله المنشورة. والمفارقة أن فردريك الثاني المفتون بالتراث العربي هو الذي قضى على الوجود العربي في صقلية تماماً. وإلى بلاط فردريك الثاني هاجر ثيودور الأنطاكي، لكنه لم يحتمل البقاء هناك، فعاد إلى تونس، لينتحر فوق شواطئها بعد تجربة خائبة. كانت الترجمات الأولى علمية وطبيعية في الأساس، لكنها في عهد فردريك بدأت تنحو إلى التركيز على الجوانب الفلسفية والميتافيزيقية ولا سيما العلاقة بين الدين والفلسفة. وقد توفرت المصادر المعرفية العربية بين أيدي العلماء المدرسيين في اللاتينية. وفي السوربون، نشب نزاع بين الرشديين الغربيين ومن يعتقدون أن ميتافيزيقا أرسطو تشكل خطراً على العقيدة المسيحية. وكان سيغر البرابانتي (1235 – 1281) ممثل الرشديين. وعمل توماس الأكويني (1225 – 1274) على التوفيق بين الفلسفة الرشدية / الأرسطية وبين اللاهوت المسيحي، لكن أغلب الدراسات الحديثة تشير إلى أن الأكويني اعتمد أفكار ابن رشد اعتماداً كاملاً، ليس في طبعتها اللاتينية، بل في طبعتها العربية. أي أنه عارض الرشدية اللاتينية بسلاح ابن رشد العربي. كتاب «بيت الحكمة» لجوناثان لاينز يناقش هذه التفاصيل وتفاصيل أخرى كثيرة.

المؤلف : جوناثان لاينز – عدد الصفحات : 272ص – تاريخ النشر : 2009
التوثيق الأجنبي : Jonathan Lyons. The House of Wisdom: How the Arabs Transformed Western Civilization. Bloomsbury Publishing PLC 2009
اللغة: الإنجليزية

آثار الإسلام

مجموعة مقالات مستقلة لعدة مؤلفين وأساتذة جامعيين، بتنسيق من الأستاذة فاطمة رولدان كاسترو، من جامعة إشبيلية، وميرثيديس ديلغادو، باحثة من الجامعة نفسها، حول «آثار الإسلام» وإسهاماته في الأدب والفلسفة والطب والعلوم.

نقل المعارف من العالم الإسلامي إلى المسيحي القروسطوي -والذي امتد حتى عصر النهضة- حقيقة لا تنكر، أثبتت صحَّتها يوما بعد يوم، ولم يعد يشكِّك بها سوى بعض قصار النظر. هذا الكتاب يخصُّ بالدراسة الآثار التي تركها الإسلام في مختلف المجالات، ويحاول التعمق في ظاهرة هذا النقل الثقافي الذي تمَّ عبر عدة قنوات والتعمق في جوانب ربما سبق وأن درست من قبل، لكن من منظور جديد أو بطرح متجدِّد.

وهو بذلك يضمُّ سبع مقالات حول هذه المسألة، أُولاها للأستاذ لويس برنابي، الذي تابع آثار الإسلام في الأدب الإسباني، من خلال مراجعة دقيقة وجَرْدٍ لهذا الحضور العربي الأندلسي في أجناس أدبية مهمة، كأدب الشطار الذي استشفَّ عدة مقومات وقوالب من المقامة العربية. ويؤكد الكاتب أن « شبه الجزيرة كان مكانا ذا تركيبة اجتماعية وسياسية وثقافية جد مميزة، مقارنة مع جيرانه الذين يقطنون ما وراء جبال البيرينيه» وإن كانت بعض النتائج البديهية لهذه الحالة لا تقنع بعضهم بسهولة ولا يسلِّم بها الكثير من النقاد، فيما يتعلق بطبيعة الأدب القروسطوي في شبه الجزيرة الإيبيرية وامتصاص الأدب الإسباني لعدة خصائص عربية، تسربت إليه بشكل أو بآخر.

مع أن هذا الأمر لا يجب أن يقع منهم موقع الغرابة، حيث أن الإسلام، من جهة، كان لعدة قرون حقلاً للمعرفة والتألق، ومن جهة أخرى، كانت أمام المسلمين والمسيحيين قرون من التعايش وطرق شتى للمشاركة والتأثير المتبادل. المقال الثاني يؤكد أيضاً على حضور العنصر العربي بقوة في الأدب الإسباني ويعطي كمثال، كتابا بأهمية وعالمية «دون كيشوت»، الذي أخذ من الرموز الثقافية الموريسكية أو الإسلامية الأندلسية الشيء الكثير.

الدكتورة ماريبيل فييرو، في مقال بعنوان «آثار الإسلام تحت النقاش»، تعرض بتفصيل كبير للَّغط الذي أثارته وما زالت هذه المسألة بين النقاد، وتقوم بتأملات مهمة حول هذه القضية، إذ تعتبر فييرو أن «الإسلام في أوروبا استطاع التحول من إسلام مزروع إلى إسلام متأصِّل»، وتشير إلى أن ثقافة كالأندلسية - إذا ما أردنا أن نكون منصفين في نظرتنا إليها- يجب أن نحللها أوَّلا داخل إطارها الطبيعي الذي تنتمي إليه، ألا وهو الحضارة العربية الإسلامية، ثم ثانياً، من منطلق تأثيرها على الغرب المسيحي. وفي هذا الصدد، تكتسب دراسة آثار الإسلام أهمية متجدِّدة، ولعل من أهم الأفكار التي تطرحها الكاتبة في هذا المقال هو تأملاتها حول تأثير الموحِّدين في المشروع السياسي والثقافي للملك الإسباني ألفونسو العاشر الملقَّب بالحكيم.

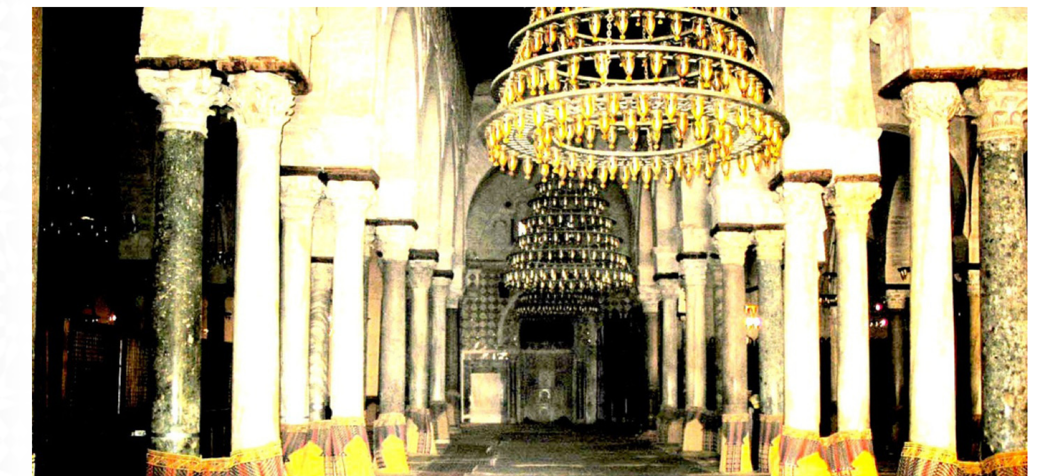
المقال الرابع، للأستاذ أندريس مرتينث لوركا، يعرض لمسألة تأثير الإرث الفلسفي العربي في الفلسفة المسيحية خلال القرون الوسطى وعصر النهضة، ويبرز الدور الهام الذي لعبته الترجمة كأداة نقل للعلوم في هذا الصدد، ويستفيض في الحديث بشكل خاص عن تلقِّي ونقل ابن رشد في أوروبا، مشيراً إلى أن: «رجل العلم المسلم الذي أحدث ثورة في أوروبا وقلب موازين الفكر الفلسفي المسيحي القروسطوي كان هو القرطبي ابن رشد، الذي حظي بمكانة خاصة كقاضٍ في الإسلام القروسطوي عن جدارة واستحقاق، وذاع صيته، في ذات الوقت، كفيلسوف مرتبطا بتفسيره لأرسطو في الغرب المسيحي، باسم «أبيرُّوويس» الذي عُرِف به في العالم اللاتيني».

غناء الفلامينكو، الذي يعتبر من أهم المظاهر المثلة للثقافة الإسبانية، هو الموضوع الذي انتقاه الأستاذ ميغيل روبيرو ليحلل في مقاله حضور البصمة العربية في هذا الفن والتعبير الثقافي. كمختص في المادة، الأستاذ روبيرو يشير في مقاله إلى العديد من المصطلحات والنماذج المعجمية التي تؤكد وجود آثار إسلامية في الفلكلور الإسباني ويضيف نظرات جديدة للبحوث التي كان قد قام بها حتى اللحظة، في هذا الحقل.

كونثيبثيون باثكيث دي بنِيتو تتحدث عن آثار الإسلام في الطب الأوروبي وتتابع المسارات أو القنوات التي نقلت عبرها المعارف العلمية، وهي علوم ومعارف جلُّها من أصل شرقي، سواء إغريقي أو فارسي أو هندي، وتُبرِز في هذا الفصل من الكتاب الدور الرئيسي للأطباء الذين زاولوا وطوَّروا الطب العربي الإسلامي، منطلقين بشكل أساسي من إسهامات الطب الإغريقي، خاصة منها إسهامات أرسطو وإيبوقراط وجالينوس في هذا المضمار، فحوَّلوا اللغة العربية إلى أداة موحَّدة لصبّ ونشرِ العلوم، معوضين بذلك اليونانية التي كانت آنذاك لغة العلم.

المقال السابع والأخير للأستاذ فرنثيسكو بيدال، يتطرق لـ«ثقافة الماء» أو طريقة استعمال وإدارة المياه التي برع فيها الأندلسيون و انتقلت من ثَمَّ إلى العالم المسيحي لتترك فيه، كما في الحقول الأخرى، بصمة واضحة المعالم، ما زالت بعض آثارها موجودة إلى الآن، خصوصاً في اللغة. لكن هذا التأثير كان أيضاً على المستوى التقني والإداري وفي كل ما يتعلق بتنظيم أو تقنين استعمال هذه الموارد.

وبهذا تكون المقالات متكافلة في ما بينها بهدف التعريف ببصمة الإسلام في كل من الأدب والفلسفة والفن والعلوم وآثار أندلس ظلت حضارته شاهدة على شموخه.



المؤلف: فاطمة رولدان كاسترو وميرثيديس ديلغادو – عدد الصفحات: 190ص – تاريخ النشر: 2008
التوثيق الأجنبي: Fátima de Roldán Castro / Mª Mercedes Delgado Eds. LAS HUELLAS DEL ISLAM. Universidad de Huelva, Huelva, 2008
اللغة: الإسبانية

العلم والإسلام: تأريخ

المؤلف: إحسان مسعود – عدد الصفحات: 256 – تاريخ النشر: 2008.

التوثيق الأجنبي: Ehsan Masood, Icon Books Ltd, 2008

اللغة: الإنجليزية

"إذا كان هناك الكثير من سوء الفهم في الغرب حول طبيعة الإسلام، فهناك أيضاً الكثير من الجهل حول الدين الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي. إنه الإخفاق النابع على ما أظن من القيود التاريخية التي ورثناها"، يتخذ مؤلف هذا الكتاب من كلمة الأمير تشارلز هذه، والتي تعود إلى العام 1993 تصديراً لمقدمته لكتابه هذا والتي تحمل عنوان "خرافة عصور الظلام"، مشيراً بذلك إلى العصور الوسطى، معتبراً أن الخرافة التي يتباها الغرب تقول إن مسيرة الحضارة توقفت لألف عام منذ سقوط روما، وأنها عاودت استئناف مسيراتها مع عصر النهضة في أوروبا، ومشكلة المؤلف مع هذه الخرافة هي "ببساطة أنها مجرد خرافة، إلا أنها فعالة جداً إلى درجة أنها شوهت فهمنا لكيفية صعود الحضارات وكيف تطور العلم والتعليم". ويقول المؤلف: "إن ضروب التقدم في فهمنا للعالم الطبيعي تحدث عندما يستوعب العلماء أحدث المعارف في حقول مثل الفيزياء أو علم الأحياء، ثم يقومون بتعديل هذه المعارف أو تطويرها. هؤلاء العلماء يعملون بالأحرى مثل حملة الشعلة الذين يمررون شعلة العلم من عالم إلى الآخر. والعلوم الحديثة التي تعتبر سمة الحضارة الغربية الحديثة، حققت مكانتها عبر تمرير الكثير من الشعلات المتعاقبة التي سلمت إلى العلماء في أوروبا من أولئك العلماء في الحضارات غير الغربية، وقد تضمن هؤلاء من عاشوا في كنف الحضارة الإسلامية على فترة تمتد إلى ثمانمئة عام من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر ميلادي". ويتخذ مسعود من علماء مثل ابن النفيس وعباس ابن فرناس وجابر ابن حيان أمثلة على بدايات الإنجازات العلمية خارج الغرب في مجالات الفيزياء والكيمياء والطب، و"أكثر من ذلك فقد بدأ بعض الباحثين بكشف أن كبار العلماء الغربيين استمدوا عملهم مباشرة من علماء مسلمين ومنهم كوبرنيكوس الذي اعتمد على نظريات علماء الفلك المسلمين كأساس لزعمه في العام 1514 أن الأرض تدور حول الشمس".

يضيف مسعود: "إذا كانت هذه مجرد لحظات عابرة في التاريخ فإنها مذهلة بما فيه الكفاية. بيد أنها – كما بات يدرك الكثير من الباحثين والمؤرخين – كانت أكثر من ذلك بكثير. وأسماء مثل الخوارزمي وابن الهيثم هي أسماء جوهرية في تاريخ العلم والتكنولوجيا، بقدر ما هي أسماء نيوتن وأرخميدس وجايمس وات وهنري فورد.. بيد أن اللفظ العربي لهذه الأسماء ساهم في جعلها تضيع في خرافة العصور الوسطى".

يمضي الكتاب بعد ذلك في رحلة ترسم للقارئ الغربي صورة هذه الحضارة الإسلامية الفعلية ومنجزاتها. وهو يقسم كتابه إلى ثلاثة أبواب: "السعي الإسلامي"، ويتضمن الفصول: "مجيء النبي"، "بناء الإسلام"، "عظمة بغداد"، "خليفة العلوم"، "إزهار الأندلس"، و"ما بعد العباسيين". أما الباب الثاني فهو بعنوان "فروع التعليم"، وتحمل فصوله عناوين مثل: "الهبة الإلهية الأمثل"، "علم الفلك: طبقات السماء"، "الرقم: "الكون الإسلامي الحيّ"... أما الأخير بعنوان "أفكار ثانية"، فيتضمن ثلاثة فصول هي: "حدود لا تنتهي"، "فصل يقفل، يفتح فصل آخر"، وأخيراً "العلم والإسلام: دروس من التاريخ". كما يتضمن الكتاب أخيراً مسرداً زمنياً لأهم الأحداث التاريخية.



التاريخ الضائع: الإرث الحيّ للمفكرين والعلماء والفنانين المسلمين

المؤلف: مايكل مورغان – عدد الصفحات: 320 – تاريخ النشر: 2007.

التوثيق الأجنبي: Michael H. Morgan, Lost History: The Enduring Legacy of Muslim Scientists Thinkers, and Artists, National Geographic Society, 2007

اللغة: الإنجليزية

كيف يمكن فهم الدور العربي والإسلامي في الحضارة الإنسانية؟ منذ كتاب إدوارد سعيد "الإستشراق" الذي أظهر في جانب منه القراءة الغربية أحادية البعد إلى التاريخ والتي تستثني الحضارة الإسلامية من لعب أي دور في أسس النهضة الأوروبية والغربية، منذ ذلك الوقت بدأنا نقرأ دراسات تراجع بجدية هذا الدور، لا بوصفه مجرد حادثة تاريخية عرضية، بل بوصفه عنصراً تكوينياً في مسيرة الإنسانية. ينتمي مايكل مورغان إلى تلك الفئة من الدارسين الذين يأخذون في اعتبارهم – وهم يراجعون ويتحرون التاريخ العربي والإسلامي – تلك الأفكار النمطية التي حكمت النظرة إلى تاريخ المسلمين، لاجئاً بالتالي إلى الكشف عن التفاصيل التاريخية التي أهملتها عمداً التأريخات الأوروبية المعاصرة.

يقول المؤلف: "معظمنا لا يعي تفاصيل التاريخ الإسلامي بسبب المصاعب اللغوية، ومرور قرون عدة، وضبابية بعض الأسماء والأمكنة والأحداث غير المألوفة، وتأريخ مركزي أوروبي ذو نزعة انتصارية لعصر النهضة وما بعده...".

عليه فقد اختار مورغان بحسب كلام دافيد ساشا في مراجعته للكتاب "أمراً بسيطاً جداً إلى درجة أن المرء يسأل نفسه لماذا لم يقم به الآخرون، وهو تقديم السجل التاريخي للمنجز العلمي العربي الإسلامي والطريقة الجوهرية التي أوصلتنا اليوم إلى ما نحن عليه... في كل صفحة من صفحات الكتاب نتعلم من الماضي التاريخي أسماء جديدة، ووقائع جديدة، وطريقة جديدة للنظر إلى ثقافتنا المعاصرة. ومقابل كل حقيقة حول العلم كنا نحسب أننا فهمناها، ثمة نظير محدد في الحضارة الإسلامية، منذ بداية سعي البشر إلى الطيران، إلى طريقة فهمنا للأمراض، إلى معرفتنا بالكون، فإن الجسور التي تربطنا بالعلم الإغريقي الروماني القديم قد بنيت في العالم العربي الإسلامي... إن العبقرية العظيمة للحضارة العربية يجب تعلمها لكي نفهم الطريقة التي تشكلت بها حضارتنا... هذا الكتاب هو أول كتاب في زمننا ينظر نظرة بانورامية إلى العالم الإسلامي ويعيد إحياء أسمائها الأساسية وأفكارها ومدارسها بطريقة من شأنها تنوير القارئ العادي وفتح عقله على طريقة جديدة في رؤية التاريخ على أساس يرفض تصنيفات الكراهية والقطبية السائدة...". يستعيد مورغان كما جاء في كلمة الناشر "العصر الذهبي الإسلامي منذ ولادة النبي محمد وما تبعه من أحداث وتطورات أدت إلى بناء الحضارة الإسلامية وبنائها، مفصلاً الأدوار التي لعبتها شخصيات كثير من العلماء ثوروا علوم الرياضيات والفلك والطب، وعبدوا الطريق لنيوتن وكوبرنيكوس وغيرهما، مذكراً إيانا كيف أن شخصيات كبرى من النبي محمد إلى سليمان القانوني، احتفت بالتسامح الديني وشجعت على البحث العلمي ومولت الأعمال الفنية والمعمارية والعلمية والأدبية...".



الخط العربي: الأنماط والتشكيلات والاقتباسات الكاليغرافية

المؤلف: جابرييل مندل خان – عدد الصفحات: 180 – تاريخ النشر: 2006

التوثيق الأجنبي: Babriel Mandel khan, Arabic Script: Styles, Variants and Calligraphic Adaptations, Abbeville Press, 2006

اللغة: الإ نجليزية

يعد جابرييل خان أحد مؤرخي التاريخ الإسلامي إلا أن مساهمته الأساسية هي في مجال الخط العربي الذي يعمل في مجال التأريخ له وتقديمه كما يمارسه كفن ويعدّ من أبرز أعلامه في العالم. يبدأ خان كتابه برسم تطور الأبجدية العربية والخطوط المختلفة التي كانت تكتب بها. فيخصص النصف الأول من الكتاب إلى الأحرف المتعددة التي تختلف أشكال كتابتها وفقاً لموضعها ضمن الكلمة. ويشير المؤلف إلى وجود زهاء 33 طريقة أو خط لكتابة كل حرف من الحروف.

يسعى الكتاب من خلال فن الخطّ إلى تقديم صورة مشرقة تساعد على فهم الحضارة الإسلامية، وكما جاء في تقديمه فإنه يسعى إلى "اصطحابنا في رحلة إلى لغة ارتبطت عبر القرون بالمجالين الديني والدنيوي للإسلام، ولا يكتفي المؤلف بعرض أساليب كتابة الأحرف العربية المتعددة، بل هو يقوم بشرح دلالاتها الثقافية والدينية والفلسفية.

يتضمن الكتاب أكثر من مئة لوحة من تاريخ الخط العربي، تساعد على إيضاح خصوصية هذا الفن، الذي يمكن أن يستمتع بتشكيلاته حتى غير الملمين باللغة العربية. وهو ينقسم إلى مقدمة، يليها شرح لكيفية استعمال القلم أو ريشة الكتابة، يليه بعد ذلك فصل بعنوان "حروف الأبجدية" ثم "الحروف الإضافية"، وينتهي بفصل "الأنماط، التشكيلات، والاقتباسات الكاليغرافية".

أما المؤلف خان فهو عضو في الأكاديمية الإسلامية في كايمبردج، وهو متخصص بالحضارة والفن الإسلاميين، ووضع العديد من الكتب حول التاريخ والثقافة الإسلاميين.

كيف خلق الإسلام العالم الحديث

يريد مارك غراهام، في هذا الكتاب: «كيف خلق الإسلام العالم الحديث»، أن يبين أن الحضارة الإسلامية هي التي شكلت الأساس الذي نهضت عليه الحضارة في الغرب الحديث. «فقد كان الإسلام العملاق الذي برزت النهضة الأوروبية على كتفيه». وهو يوضح عبر العديد من الأمثلة أن الإسلام لم يكن، كما هو شائع عنه الآن، معروفاً بضيق الأفق وعدم التسامح، بل على العكس من ذلك، «حين كان الإسلام الأهم والأكثر تأثيراً، كان يمتاز بالتعددية الثقافية والمجتمع العلماني إلى حد كبير وبقدر بالغ من حرية التعبير والفكر». وخلافاً لأوروبا التي كانت تغط في سباتها الظلامي، فقد عاش الإسلام في عصور ازدهاره مجتمعاً يتميز بالاقتناع بكروية الأرض ومركزية الشمس، ومنه تعلم العالم وجود المكتبات والجامعات وكثيراً من مظاهر التمدن والرقي. ولم يكن المسلمون مجرد نقلة لعلم اليونانيين، بل هم هضموا هذا العلم وأضافوا إليه الكثير من شخصيتهم.

يبحث المؤلف آثار المسلمين في الغرب، مثل مناقشاتهم للطب الأبقراطي، ويرى أن قصة الإسراء والمعراج قد اثرت في دانتي ألغيري، وأوحت له بكتابة «الكوميديا الإلهية». وفي رأيه فإن «القيثار» هو ابتكار إسلامي للتدليل على أن الفن في الإسلام قد أثر في الفن الغربي أيضاً.

وحين يصل إلى الحروب الصليبية، يعرض علينا 11 سبتمبر بالمقلوب، أي أسطورة مسيحية معادية للإسلام. فهو يقول: «بدأت مجموعة من الأصوليين الدينيين بالتبشير بحرب مقدسة ضد أعظم إمبراطورية في العالم. استاء هؤلاء البرابرة من ثقافة الإمبراطورية المتفوقة ودينها ذي النزع العلمي والأفق المفتوح.

والواقع أن المتعصبين كانوا يكرهون طريقتهم في الحياة برمتها. فأرادت قلة من رجال الدين المتطرفين أن تنظم جيشاً من الإرهابيين لمهاجمة الإمبراطورية فجأة، موقعة المذابح بالآلاف في حمامات دم مجنونة. ولم يكن أمام الإمبراطورية خيار سوى الدفاع عن حضارتها».

وفيما يتعلق بالسؤال عن السبب الذي دعا الغرب إلى استلهام العالم الإسلامي، بينما بقيت البلدان الإسلامية بعيدة عن نموذجها الأصلي، يرى المؤلف أن الثروة التي جناها الغرب من فتح العالم الجديد هي التي حثت الغرب على الاستمرار وعاقت العرب. لكن باحثين آخرين يحاججون المؤلف بأنه لو كان هذا هو السبب لكانت إسبانيا والبرتغال في مقدمة البلدان الغربية الناهضة.

والحال أن السبب مثلما اقترح أمين معلوف في عمله «الحروب الصليبية» يكمن في الحرية السياسية التي أتاحها انتقال رأس المال الغربي في عهد الرأسمالية المتنامية. وفي العالم الإسلامي، كانت سلطة السلاطين (وحتى الخلفاء) مطلقة، وكان هذا أمراً مقبولاً حين يكون الخليفة أو السلطان رجلاً متفتح الذهن، لكنه أمر مدمر للحضارة في عصور الطغاة الجانين. وقد مكنت الحرية السياسية النسبية الأوروبيين من الاستمرار بالبحث العلمي حتى أوصلوه إلى عصر الثورة الصناعية. ومن هنا يوصي المؤلف بأن الحرية السياسية هي التحدي الذي يواجه المسلمين اليوم.

يقع الكتاب في عشرة فصول وملحق على النحو التالي: بعد المقدمة، يناقش الفصل الأول: الإسلام يتحول إلى إمبراطورية، السيرة النبوية وفجر الإسلام.

والفصل الثاني بعنوان بيت الحكمة.

والثالث بعنوان: إبقراط يرتدي العمامة، والفصل الرابع: العمل العظيم.

والفصل الخامس: ما وراء الليالي العربية.

والفصل السادس: سلاح الإسلام السري.

والسابع: حرب القرون الوسطى حول الإرهاب.

والثامن: الحرب العالمية الأولى.

والتاسع: المغيرون على المكتبة الضائعة.

والعاشر: أبناء إبراهيم وأبناء أرسطو.

ثم يلي ذلك ملحق أول: ما يقوله القرآن، وملحق ثانٍ: الكلمات العربية في اللغة الإنجليزية.

لم يكن المسلمون مجرد نقلة لعلم اليونانيين، بل هم هضموا هذا العلم وأضافوا إليه الكثير من شخصيتهم.

مكنت الحرية السياسية النسبية الأوروبيين من الاستمرار بالبحث العلمي حتى أوصلوه إلى عصر الثورة الصناعية.

المؤلف: مارك غراهام. – عدد الصفحات: 208ص. – تاريخ النشر: 2006

التوثيق الأجنبي: Mark Graham. How Islam Created the Modern World .Amana Publications. 2006

اللغة: الإنجليزية

ابن الهيثم العالم الأول

الحسن بن الهيثم رياضي وعالم بصريات ومهندس وفيلسوف من أشهر الشخصيات في العصر العباسي. نشأ في البصرة، واكتسب بها شهرة سرت في عموم العالم الإسلامي شرقاً وغرباً. وفي ذروة الصراع الآيديولوجي بين الدولة العباسية السنية في العراق، والدولة الفاطمية الشيعية في مصر، فكر الحسن بن الهيثم في مشروع اقتصادي للتقريب بين الآيديولوجيتين.

فأعلن أنه يستطيع بناء خزان أو سد في منطقة أسوان على النيل لخزن مياهه في فترات الفيضان.

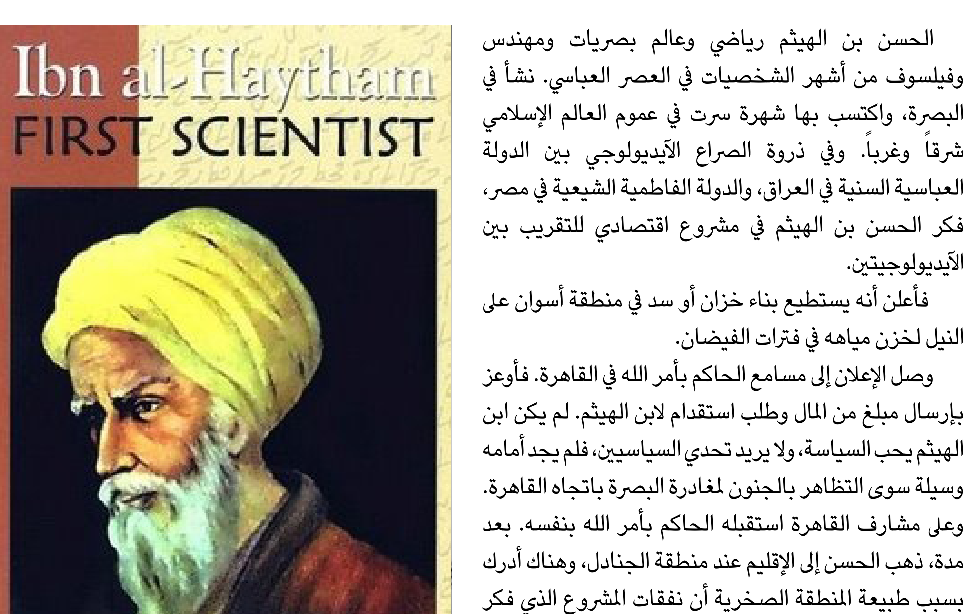
وصل الإعلان إلى مسامع الحاكم بأمر الله في القاهرة. فأوعز بإرسال مبلغ من المال وطلب استقدام لابن الهيثم. لم يكن ابن الهيثم يحب السياسة، ولا يريد تحدي السياسيين، فلم يجد أمامه وسيلة سوى التظاهر بالجنون لمغادرة البصرة باتجاه القاهرة. وعلى مشارف القاهرة استقبله الحاكم بأمر الله بنفسه. بعد مدة، ذهب الحسن إلى الإقليم عند منطقة الجنادل، وهناك أدرك بسبب طبيعة المنطقة الصخرية أن نفقات المشروع الذي فكر فيه باهظة، وأضعاف الأرباح التي يمكن أن تدرها على الدولة.

ومرة أخرى، لم يجد أمامه من وسيلة للاعتذار من الحاكم بأمر الله سوى التظاهر بالجنون. وبقي طوال حياة الحاكم يرائي بالجنون. والغريب أن جنونه المزعوم لم يمنعه من كتابة أعمال علمية وفلسفية مميزة أوصلت شهرته إلى أوروبا تحت اسم (الهازن) (Al-Hazen).

وهذا الكتاب هو قراءة في أعمال الحسن بن الهيثم هذا وإنجازاته العلمية. وقد قدمه مؤلفه برادلي ستيفنز للناشئة للتعريف بابن الهيثم وجهوده الريادية في خلق المنهج العلمي الحديث متباهياً بما أنجزه. فهو يقول: «لي الفخر في أن ألفت الانتباه على ابن الهيثم...وإني لأرجو أن يفتح الكتاب باب الحوار». وهو يعني أن يعرف رأي المسلمين والعرب في طريقة مقاربته لابن الهيثم.

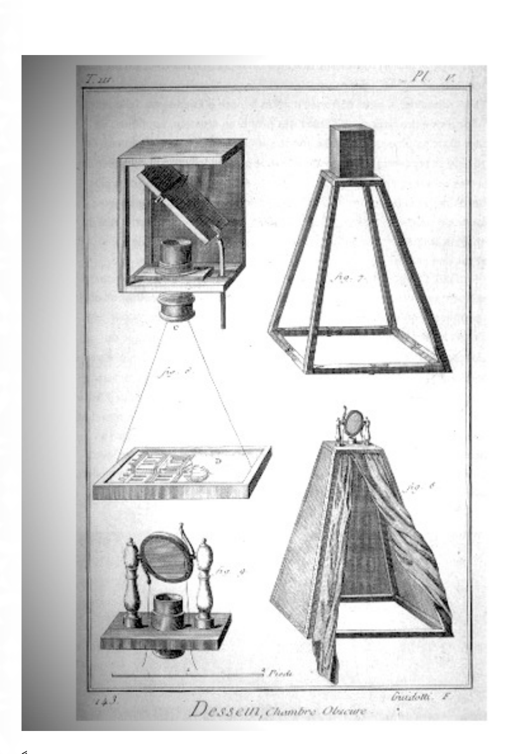
والواقع أن جهود ابن الهيثم تحتاج إلى إعادة نظر وتقييم. فضلاً عن أعماله في البصريات، ولا سيما كتابه «المناظر»، عرف بكونه أول عالم في التاريخ دعا إلى ممارسة المنهج الاستقرائي، وعزل الآراء والأفكار والمواقف الذاتية عن الحكم الموضوعي، وأن تُعرَض أية فرضية فيزياوية للاختبار التجريبي أو البرهان الرياضي. وقد اتبع في جميع أبحاثه خطوات المنهج العلمي الدقيق قبل الغربيين بقرون.

ترجم كتاب «المناظر» (أي البصريات) إلى اللغة اللاتينية في إسبانيا في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. وانتشرت نسخ الترجمة في عموم أرجاء أوروبا. ووصلت إحداها إلى المفكر الإنجليزي روجر بيكون، الذي يعتبر أحياناً مؤسس العلم الغربي الحديث، فأكب بيكون عليها واختصرها في كتاب أطلق عليه اسم «المناظر» أو (Perspectiva).



أجرى ابن الهيثم كثيراً من تجاربه البحثية حول خواص الضوء خلال السنوات العشر التي جُرِّد فيها من أملاكه وحبس كمجنون في القاهرة. يناقش الكتاب كيف جاء ابن الهيثم إلى مصر، ولماذا حكم عليه بأنه مجنون، وكيف دشنت اكتشافاته الثورة العلمية الحديثة. ويشكل أول سيرة عالمية لعالم مسلم. لكن الحسن بن الهيثم لم يكن عالم بصريات وحسب، تعلم منه الغرب المنهج العلمي الاستقرائي، بل كان أيضاً فيزياوياً وطبيباً وفلكياً وفيلسوفاً كتب شروحاً فلسفية على أرسطو وبعض الأعمال في شرح جالينوس.

ومن أغرب الأشياء أن يخبو أثر ابن الهيثم في الثقافتين العربية والغربية معاً. فلا حضور له في الثقافة العربية باستثناء قضايا رمزية بسيطة، مثل صورته على قطع النقد العراقية، وإصدار طابعين باسمه في باكستان وقطر، وفي الغرب أيضاً تعرض الحسن لإهمال مماثل. إذ يشير المؤلف إلى تصوير في أطلس من القرن السابع عشر، يصور شخصيتين؛ إحداهما غاليلو، وهو يحمل المنظار أو التلسكوب، لتمثيل الحواس، والثاني هو ابن الهيثم، حاملاً الحساب الرياضي، لتمثيل العقل.



ولكن كما يقول المؤلف: «بينما ظلت صورة غاليلو وهو يسقط الكرات من جميع الحجوم لاختبار نظرية أرسطو تشير إلى بداية العصر العلمي، ذوى ابن الهيثم وتلاشى كمجرد تاريخ». وبجرأة بالغة يكتب ستيفنز أنه يختار ابن الهيثم ليكون واحداً من أهم عشر شخصيات في تاريخ العلم الكوني، من طراز إينشتاين، ونيوتن، وكوبرنيكوس، ثم يستأنف قائلاً: «لقد اتبعوا جميعاً المنهج العلمي، لكن ابن الهيثم هو الذي أوجد ذلك المنهج، وما زال كتابه صحيحاً. ولذلك أود أن أضعه في القمة بين أهم اثنين، أو ربما أضعه الأول على الجميع».

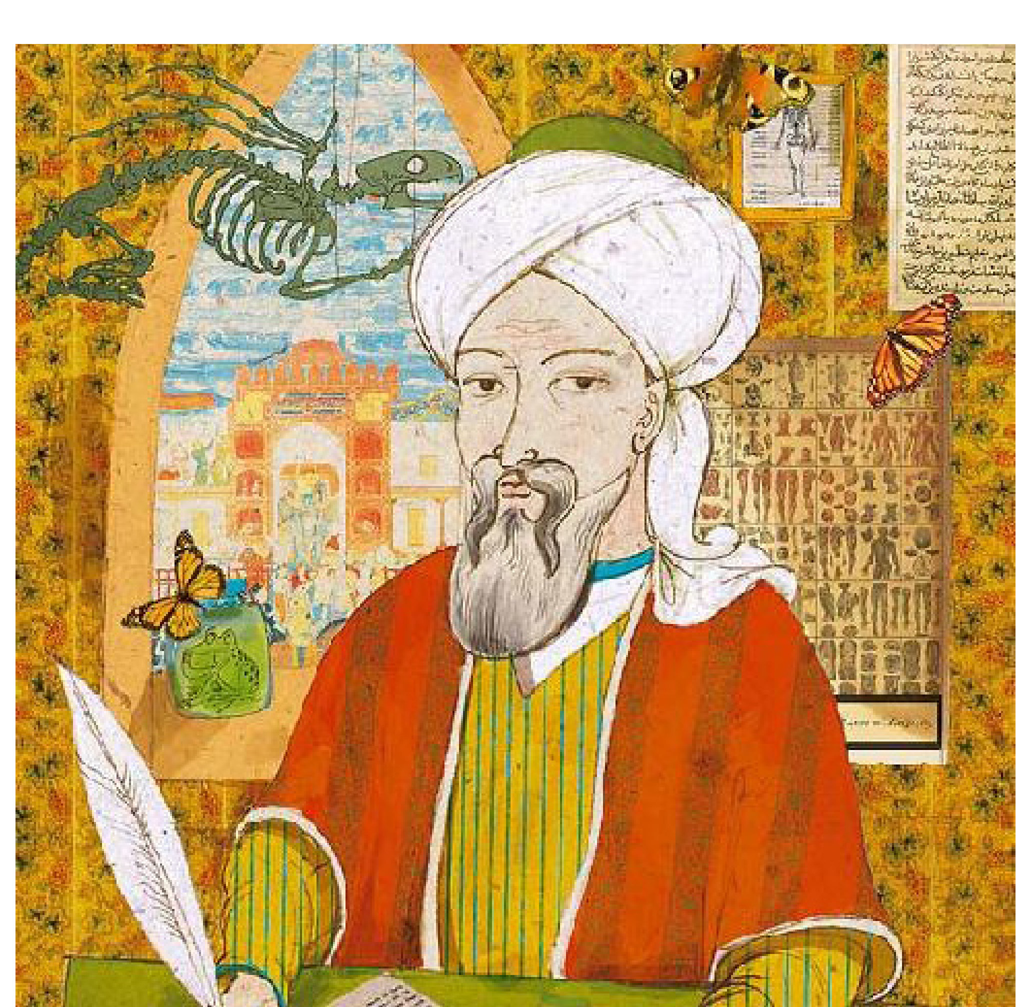
المؤلف: برادلي ستيفنز – عدد الصفحات: 128ص – تاريخ النشر: 2006

التوثيق الأجنبي: Bradley Steffens. Ibn Al-haytham: First Scientist Morgan Reyn olds Publishing (2006)

اللغة: الإنجليزية

ابن سينا

شغلت أفكار ابن سينا المستشرقين. ماذا كان المقصود من إشارات ابن سينا في بعض أعماله، ولا سيما «المباحثات»، إلى الحكمة التي انفرد بها؟ وهل كان يقصد الانشقاق على فكر أرسطو، والدعوة إلى فلسفة مشرقية عرفانية؟ ثم هل هذه الفلسفة هي التي صاغها في عمله المفقود «الإنصاف»، ووصلت بقاياها في كتابة الصغير «حكمة المشرقيين»؟ وهل هناك علاقة بين «حكمة المشرقيين» هذا وكتاب السهروردي المعروف «حكمة الإشراق»؟ أسئلة كثيرة توقف عندها المستشرقون، ولم يصلوا إلى حل نهائي، ربما لأن الحكمة المشرقية عند ابن سينا هي هاجس استشراقي لم يعرفه ابن سينا نفسه. وكذلك شغلت حياته، كما تمثلت في «سيرته الذاتية» التي نقلها تلميذه الجوزجاني، جمهور المهتمين بالأدب العربي. فكتب عنها الروائي الفرنسي جيلبرت سينويه روايته الجميلة «الطريق إلى أصفهان».



كان ابن سينا واحداً من أعظم فلاسفة الإسلام في العصور الوسطى. وقد عرف في حياته بوصفه طبيباً، انعكست معرفته الطبية في كتاب «القانون»، الذي ترجم إلى اللاتينية في العصور الوسطى، وهو عنوان ربما كان يتلاءم أكثر مع كتابه الفلسفي «الشفاء». والواقع أن ابن سينا يعامل الطب وكأنه فلسفة، والفلسفة وكأنها طب. وخلف ابن سينا مدرسة فلسفية، تجمع فيها عدد من كبار العقول العربية الإسلامية، ومن مختلف الحقول والديانات. فكانت مدرسته مجمعاً متعدد الثقافات بحق. ولا شك أن من يعرف ابن سينا ومكانته في تاريخ الفلسفة، يدرك أنه يقف في الصدارة مع أسماء مثل أرسطو وأفلاطون، من كبار العقول القديمة التي صنعت التفكير الإنساني في طور من أطواره. بقدم كتاب لين غودمان «ابن سينا»، الذي صدر عن مطبعة جامعة كورنيل، ثم أعادت نشره دار روتلج، للقارئ الإنجليزي تعريفاً بأهم أفكار ابن سينا الفلسفية التي بوأته هذه الشهرة الكبيرة.

يقع الكتاب في أربعة فصول. يتناول الفصل الأول، «الحياة، الأزمان، الكتابات»، وصف المرجعية التاريخية لحياة ابن سينا، ويتابع تاريخ مدينة «أفشنة»، التي ولد فيها. وشباب ابن سينا وتربيته، وما يسميه بالسنة العجيبة، والسنوات التي قضاها في أصفهان.

ويعرض الفصل الثاني، «الميتافيزيقا»، لآراء ابن سينا الفلسفية في الوجوب والإمكان، وتمييزه بين واجب الوجود بذاته وواجب الوجود بغيره، والتركيب الذي توصل إليه ابن سينا من الفلسفة القديمة قبله. ليناقش ما يسميه بالنقد والاستجابة. ويتعرض الفصل الثالث، «المثل وخلود النفس»، لإمكان المعرفة عند ابن سينا، وجوهر النفس، وأساس الخلود. فيما ينصرف الفصل الرابع، «المنطق والبعث والشعر»، إلى تناول القضايا الخبرية في منطق ابن سينا، وموقف ابن سينا من فن الإقناع، وفن الشعر عند ابن سينا.

مؤلف الكتاب هو لين غودمان، أستاذ الإنسانيات والفلسفة في جامعة فاندربت. تشمل مؤلفاته أعمالاً عن المذهب الإنساني عند العرب، ودفاعاً عن الحقيقة: المدخل التعددي في الفلسفة الإسلامية واليهودية، وإله إبراهيم. كما ترجم بعض الأعمال العربية الكلاسيكية مثل «حي بن يقظان» لابن طفيل وحكاية «الحيوانات والإنسان أمام ملك الجن».

المؤلف : لين غودمان – عدد الصفحات : 261ص – تاريخ النشر : 2005

التوثيق الأجنبي : Lenn E. Goodman. Avicenna. Cornell University Press;2005

اللغة: الإنجليزية

فن الحدائق الإسلامية
مقدمة في تصميم الحديقة الإسلامية ورمزيتها وتكوينها



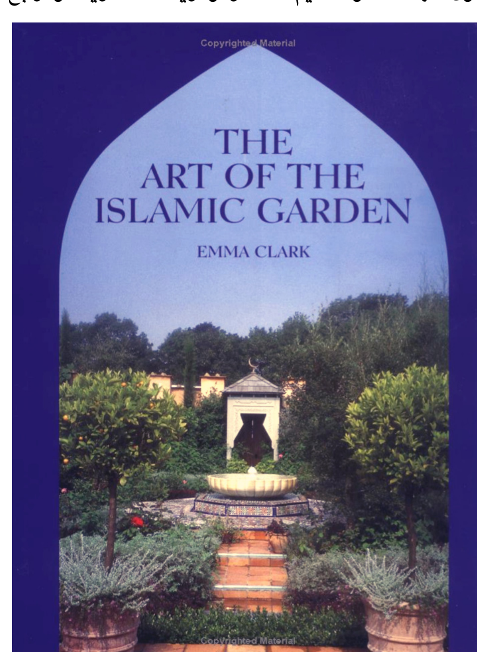
يبدو عنوان الكتاب صادماً..هل للحدائق أديان؟ هل توجد حديقة إسلامية وحديقة مسيحية وحديقة يهودية؟ ما من أحد يشك في أنه لا وجود لشيء من هذا النوع قطعاً.

ولكن في المقابل ألم تتميز الحدائق الإسلامية فنياً عن غيرها من الحدائق؟ ألم ينفرد قصر «الحمراء» بحديقته؟ أليس «تاج محل» حديقة خاصة؟ وفن تصميم الحدائق هو فن استخدام مكونات الحديقة وتنظيمها بطريقة خاصة. فالحدائق جميعاً تتكون من عناصر أساسية مكونة: الأشجار الكبيرة، والشجيرات الصغيرة، والأعشاب، والمياه (كينابيع أو نوافير) وظلال وأضواء وقرميد وجدران إلخ. وطريقة توزيع هذه الوحدات المكونة هي التي تجعل من الحديقة حديقة إنجليزية أو يابانية أو إسلامية.

وهذا الكتاب «فن الحدائق الإسلامية، مقدمة في تصميم الحديقة الإسلامية ورمزيتها وتكوينها» يهتم بالخصائص الفنية في تنظيم الحديقة الإسلامية.

يقع الكتاب في مائتين وثماني صفحات مع المصورات الكثيرة، ويتوزع على عدد من الفصول.

فبعد المقدمة، يأتي الفصل الأول بعنوان: التاريخ والرمزية والقرآن، ثم الفصل الثاني: التصميم والترتيب، ثم الثالث حول الهندسة وتصميم المناظر والزينة المعمارية، والرابع الماء. والخامس: الأشجار والشجيرات، والسادس النباتات والأزاهير، والسابع: دراسة تطبيقية في حديقة البساط لأمير ويلز: هايغروف، التي استوحاها من الحديقة الإسلامية.



وكما يقول التعريف بالكتاب: «يعتبر فن الحدائق الإسلامية واحداً من أرقى أشكال الفن البصري في الحضارة الإسلامية. فهو يعكس المبدأ الأساسي القائل إن هذا العالم هو انعكاس لعالم سماوي. والعناصر الأساسية في جميع الحدائق الإسلامية هي الماء والظل، ما داما، من الناحية التاريخية، يصممان ويزرعان كملجأ من الشمس.

وهما يتسمان أيضاً بالحديقة الرباعية (جهار باغ) المبنية حول عين ماء في المركز أو نبع تتدفق مياهه في أربعة اتجاهات نحو زوايا الأرض الأربع.

ومن الناحية الجمالية، يقدم هذا التصميم سمة مميزة في ذاتها: على أن التذوق الصحيح للحديقة الإسلامية لا يكتمل إلا بفهم الرمزية الروحية التي تتضح في كيفية التصميم وغرسه. يقدم هذا الكتاب دليلاً عقلياً للرمزية القائمة في صلب الحديقة الإسلامية ودليلاً عملياً لأجزائها المكونة.

ويوصي بأشجار وشجيرات وأزاهير مناسبة، ويفصح عن الكيفية التي تخلق حديقة إسلامية في المناخات الأوروبية الشمالية ذات البرد القارس».

مؤلفة الكتاب هي إيما كلارك، وهي كاتبة ومحاضرة ومصممة متخصصة في الفن الإسلامي والعمارة الإسلامية التقليدية. وهي تدرس الفنون البصرية والإسلامية والتقليدية في مؤسسة الأمير في لندن.

المؤلف: إيما كلارك – عدد الصفحات: 208ص – تاريخ النشر: 2004

التوثيق الأجنبي: Emma Clark. The Art of the Islamic Garden: An Introduction to the Design Symbolism and Making of an Islamic Garden. The Crowood Press Ltd 2004

اللغة: الإنجليزية

محطات من علم الرياضيات في الإسلام خلال القرون الوسطى

المؤلف: جيه أل بيرجرين - عدد الصفحات: 197 - تاريخ النشر: 2003

التوثيق الأجنبي: J L Berggren, Springer, 2003

اللغة: الإنجليزية

يرصد مؤلف هذا الكتاب الدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية في تطور علم الرياضيات، والظروف التي أحاطت بهذا الدور وأدت إليه، متتبعاً شخصيات ومنجزات أبرز العلماء ممن لعبوا دوراً في تطور الرياضيات على النحو الذي نعرفه اليوم.

بعد كلام المؤلف في المقدمة على نشوء الإسلام وتوسعه وغزواته وما اعتبره "نجاحاً فيزيائياً (مادياً) سوف يقابله مستقبلاً نجاح فكري" ينتقل إلى الكلام على بداية اهتمام الحضارة الإسلامية بالعلوم، ابتداء من الخلافة الأموية حيث بدأت تكتب الدراسات والأبحاث العلمية في السند (باكستان اليوم) وأفغانستان، استناداً إلى مصادر هندية، باللغة العربية. لينتقل هذا الاهتمام ويتوسع بعد ذلك مع الخلافة العباسية، وتحديداً مع خلافة المنصور عندما وصلت بعثة من الهند تضمنت عالماً فلكياً هندياً ساعد الفزاري (مخترع الأسطرلاب وأول عالم فلكي عربي) على ترجمة نص فلكي عن السنسكريتية. بعد ذلك أسس هارون الرشيد مكتبة بغداد التي ضمت نصوصاً باللغات السنسكريتية والفارسية والإغريقية جنباً إلى جنب ترجماتها إلى العربية، ليتبع ذلك إنشاء الخليفة المأمون "دار الحكمة" التي شكلت دافعاً قوياً للعلماء العرب، إذ تخصصت بترجمة أمهات الكتب من اللغتين الإغريقية والسنسكريتية وغيرهما إلى العربية. وبالتوازي مع ذلك قام الخلفاء الأوائل بإرسال بعثات إلى بلاد أجنبية للحصول على نسخ من الأعمال المهمة بهدف ترجمتها. ويذكر المؤلف في هذا السياق سعي المترجم إسحق بن حنين للحصول على نسخة من كتاب طبي إغريقي لمؤلف يدعى جيلان، طوال سنوات.

على امتداد 700 عام، ابتداء من العام 750 ميلادي قامت مجموعة من العلماء العرب بإكمال علم الحساب واكتشاف النظام العشري وابتداع الجبر وغيرها الكثير من الاكتشافات التي شكلت أساس علم الرياضيات الحديث. ويتوقف المؤلف عند تجربة أربعة علماء مسلمين هم: الخوارزمي والبيروني والخيام والكاشي. فيتطرق في فصول منفصلة إلى سيرة كل واحد من هؤلاء، ثم ينتقل إلى منجزاته العلمية، معتبراً أن هؤلاء الأربعة معاً يمثلون "اتساع الاهتمام العلمي، وعمق البحث، وذروة الإنجاز".

ينقسم الكتاب بعد المقدمة إلى خمسة فصول هي: "علم الحساب الإسلامي"، "علم الهندسة في العالم الإسلامي"، "الجبر في الإسلام"، "علم المثلثات في العالم الإسلامي"، وأخيراً "الأشكال الكروية في العالم الإسلامي".

أهمية إضافية لهذا الكتاب بالنسبة إلى المهتمين بعلم الرياضيات هو احتواؤه (في نهاية كل فصل من الفصول) على عدد من المسائل الرياضية التي اشتغل عليها هؤلاء العلماء وتمكنوا من حلها في زمانهم.

خمسون مفكراً شرقياً

صدر كتاب «خمسون مفكراً شرقياً» عن دار روتلج الشهيرة، ضمن سلسلة «مفاتيح الأدلة» عن تواريخ الشرق وفلسفاته وآرائه الثقافية والاقتصادية. وهو بتحرير ثلاثة محررين أو مؤلفين هم ديان كولنسن، التي سبق لها أن أصدرت كتاباً صدر أيضاً عن دار روتلج بعنوان: «خمسون فيلسوفاً أساسياً»، وكاثرين بلانت وروبرت ولكونسن، وهو أستاذ فلسفة أصدر من قبل «العقول والأدمغة».

والواقع أن كتاب «خمسون مفكراً شرقياً» يتناول فعلاً خمسين مفكراً بالعدد كلهم ينتمي إلى الشرق القريب والأقصى. وهو يبدأ في القسم الأول بعرض للزرادشتية وآراء زرادشت. ثم يتحول إلى القسم الثاني، الفلسفة الإسلامية، حيث يدرس أفكار النبي محمد، ويعرض لأفكار سبعة فلاسفة مسلمين هم على التوالي: الكندي، والفارابي، وابن سينا، والغزالي، وابن رشد، وابن عربي، ومحمد إقبال.

وفي القسم الثالث يدرس الفلسفة الهندية، ويعرض (14) فيلسوفاً ومفكراً هندياً، بدءاً من فاردامانا وبوذا، وانتهاءً براداكرشنان، ومروراً بشنكارا وغاندي وغيرهما. وفي القسم الرابع، الفلسفة التبتية، يعرض لثلاثة فلاسفة فقط. في حين يتناول القسم الخامس، الفلسفة الصينية، آراء خمس عشرة فيلسوفاً ومفكراً صينياً بدءاً من كونفشيوس وانتهاء بماو تسي تونغ.

ويكتفي الفصل السادس، الفلسفة الكورية، مفكرين اثنين. أما الفصل السابع، الفلسفة اليابانية، فيحصي سبعة فلاسفة يابانيين يبدأون بدوجين وينتهون مع سوزوكي ونيشيتاني.

يمثل هذا الكتاب عملاً يمكن وصفه بكونه ما بعد الإستشراق الأكاديمي. فجميع مؤلفيه أو محرريه هم دارسو فلسفة، وليسوا مستشرقين قطعاً. ولا يتوفر بين المصادر التي يعتمدونها عمل واحد يدل على معرفتهم بأصول اللغات الشرقية للفلاسفة الذين يكتبون عنهم.

وقد يعني هذا اعتمادهم على مصادر وسطى هي من نتاج العمل الإستشراقي، لكنه يعني أيضاً أن الإستشراق نفسه قد نجح في إيصال أفكاره، بحيث يصدر عمل غربي يعتمد على مصادر غربية تماماً للتعريف بفلاسفة الشرق.

فالمؤلفة الأولى للكتاب سبق لها أن قدمت عملاً موسوعياً للتعريف بخمسين فيلسوفاً بصرف النظر عن هوياتهم الثقافية من الإغريق القدماء حتى الفلسفة الحديثة. وها هي تعمل في هذا الكتاب على تقديم خمسين فيلسوفاً شرقياً.

بعبارة أخرى، يتصور القارئ أن الأمر يتعلق بتقديم هؤلاء الفلاسفة الشرقيين للقارئ الغربي وبقراءة غربية، ليستاستشراقية على الإطلاق.

لكن غياب الإستشراق جعل الكتاب عرضة لخطرين أساسيين؛ الأول هو الاعتماد على مصادر ثانوية، إذ لا توجد مصادر عربية أو صينية أو كورية أو يابانية، بل في قراءات لما كتب عن هؤلاء أو ترجمات إنجليزية في الغالب لأعمالهم باللغات الحديثة. والثاني هو الانتقائية في اختيار الأسماء.

وإذا اكتفينا بالقسم الثاني الخاص بالفلسفة الإسلامية، فمن حق القارئ أن يتساءل: لماذا تختفي أسماء فلاسفة مسلمين آخرين من طارز العامري ومسكويه وابن باجه والسهروردي والطوسي والحلاج والشيرازي؟ ولماذا يُكتفى بفيلسوف واحد من الشرق الإسلامي الحديث كله هو محمد إقبال؟ أفلم يوجد مفكرون آخرون يهتمون بالفلسفة الإسلامية في البلدان العربية والإسلامية الأخرى الحديثة بدءاً من الشيخ محمد عبده وانتهاء بعبد الرحمن بدوي؟

على أن هذا الأمر لم يغب عن بال مؤلفيه، فهم يشيرون في المقدمة إلى أن هذا الكتاب قد وضع ليعطي للقارئ المهتم معلومات أساسية عن خمسين مفكراً رئيساً ينتمون إلى تقاليد مختلفة متعددة تصنفها الثقافة الغربية معاً في العادة بوصفها تقاليد شرقية.

ويشير المؤلفون إلى أن «هذا الكتاب لا يدعي أنه تاريخ للمدارس الفكرية المقصودة؛ ذلك أن هذا الهدف يحتاج إلى عدة مكتبات، حتى حين تتوفر المواد الأصلية. بل يقتصر هدفنا على الإشارة إلى الخطوط الفكرية المؤثرة والمهمة لكل فيلسوف عن طريق الإحالة القريبة إلى الأعمال الأساسية، وإن كنا نرجو بالإضافة إلى ذلك أن إشارة إلى التغيرات العريضة والسمات المتواصلة داخل كل تراث ستتبلور عن التأمل بكل مجموعة من الفلاسفة تؤخذ معاً».

المؤلف : ديان كولنسون وآخرون - عدد الصفحات : 448ص - تاريخ النشر : 2000

التوثيق الأجنبي : Diané Collinson، Kathryn Plant and Robert Wilkinson .Fifty Eastern Thinkers. Routledge، 2000

اللغة: الإنجليزية

Fifty Eastern Thinkers

ROUTLEDGE KEY GUI

Diané Collinson، Kathryn Plant

يمثل هذا الكتاب عملاً يمكن وصفه بكونه ما بعد الإستشراق الأكاديمي. فجميع مؤلفيه أو محرريه هم دارسو فلسفة، وليسوا مستشرقين قطعاً.



فن الزخرفة في الإسلام

المؤلف: دومينيك كليفينو (مع صور فوتوغرافية لجيرالد دي جورج) - عدد الصفحات: 224 ص - تاريخ النشر: 2000
التوثيق الأجنبي: Dominique Clevenot, Decors d'Islam (Paris: Citadelles & Mazenod, 2000
اللغة: الفرنسية

بهدف وضع هذا الكتاب الضخم الهادف إلى تقديم سجل بصري لفن الزخرفة في العمارة الإسلامية، قامت المؤلفة وهي بروفسور في جامعة تولوز، برفقة المصور الفوتوغرافي، برحلة صورا ووثقا خلالها مئات الأبنية والمعالم الإسلامية من الهند إلى آسيا الوسطى إلى المغرب وإسبانيا، والتي تمتد بين القرنين السابع والتاسع عشر. لا يسعى الكتاب إلى تقديم دراسة تاريخية بالمعنى المألوف للكلمة، بل يسعى بالدرجة الأولى إلى دراسة عدد من الأعمال المخصوصة التي تمثل ذروة فن الزخرفة في الإسلام وتعبر في الوقت نفسه عن تعدده وتنوعه.

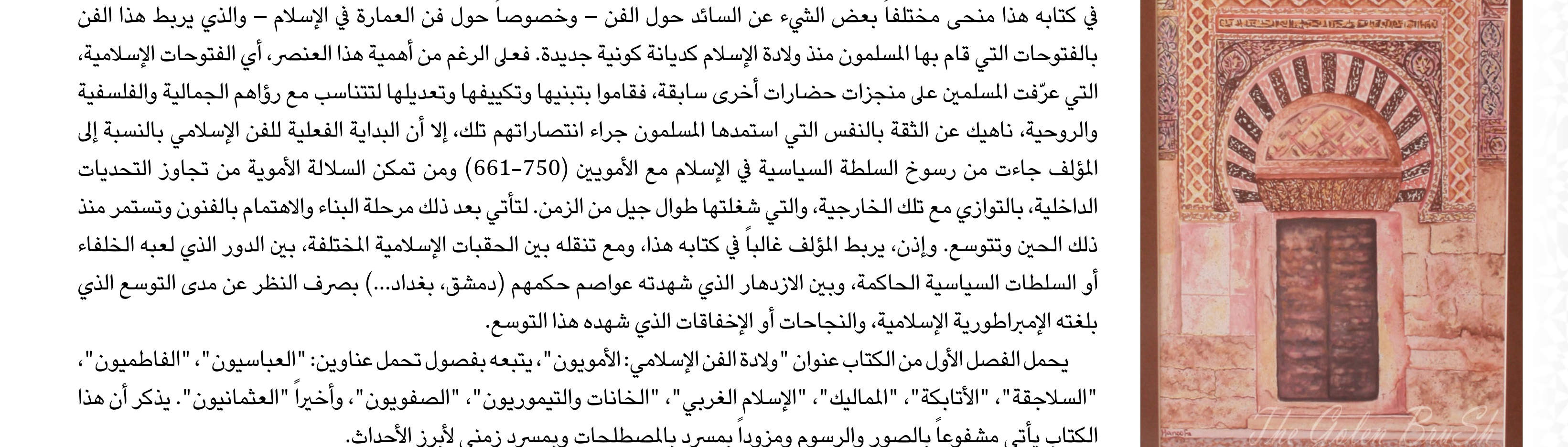
تقسم المؤلفة كتابها إلى أربعة أبواب، تبدأ بـ "الوحدة والتعدد" وتقدم من خلالها نظرة عامة على فن العمارة الإسلامية من خلال معالم معمارية مثل المسجد الأقصى، وقصر الحمراء ومسجد الشاه في أصفهان وتاج محل". ثم تنتقل بعد ذلك إلى باب بعنوان "التقنيات: المعرفة والحرفية" وتعالج فيه بالتفصيل فن الموزاييك والزخرفة بالجص وتقنيات البناء بالطوب واستعمال الخزف والخشب والبرونز. أما الباب الذي يحمل عنوان "موتيفات زخرفية" فيستكشف ثيمات مثل "الشكل، الأشكال المسطحة، الأشكال الهندسية، وفن الخط"، وفي الباب الأخير الذي يحمل عنوان "فن الأسطح"، يتوقف الكتاب عند المبادئ الجمالية التي تحكم فن الزخرفة في الإسلام والعلاقة بين المباني والأساليب الزخرفية المطبقة عليها.

كل واحد من هذه الأبواب يبدأ بمقدمة عامة تتبعها دراسة تفصيلية لعدد من الأعمال، إضافة إلى عدد من الأمثلة الإضافية المقدمة خصوصاً عبر الصورة الفوتوغرافية.

يذكر أن الكتاب ترجم إلى الإنجليزية على يد جان دافيس ونشرته دار "فاندوم برس".

الفن والعمارة في الإسلام

المؤلف: روبرت هلينبراند - عدد الصفحات: 288 ص - تاريخ النشر: 1998
التوثيق الأجنبي: Robert Hillenbrand, Islamic Art and Architecture, Thames & Hudson, 1998
اللغة: الإنجليزية



يستعرض روبرت هلينبراند، أستاذ الفن الإسلامي في جامعة أدنبره، حقبة تاريخية تمتد إلى زهاء ألف عام، ورقعة جغرافية تمتد من المحيط الأطلسي إلى تخوم الهند والصين، وهي المساحة التي انتشرت عليها عبر فترات مختلفة الحضارة الإسلامية. وينحو هلينبراند في كتابه هذا منحى مختلفاً بعض الشيء عن السائد حول الفن - وخصوصاً حول فن العمارة في الإسلام - والذي يربط هذا الفن بالفتوحات التي قام بها المسلمون منذ ولادة الإسلام كديانة كونية جديدة. فعلى الرغم من أهمية هذا العنصر، أي الفتوحات الإسلامية، التي عرّفت المسلمين على منجزات حضارات أخرى سابقة، فقاموا بتبنيها وتكييفها وتعديلها لتتناسب مع رؤاهم الجمالية والفلسفية والروحية، ناهيك عن الثقة بالنفس التي استمدها المسلمون جراء انتصاراتهم تلك، إلا أن البداية الفعلية للفن الإسلامي بالنسبة إلى المؤلف جاءت من رسوخ السلطة السياسية في الإسلام مع الأمويين (750-661) ومن تمكن السلالة الأموية من تجاوز التحديات الداخلية، بالتوازي مع تلك الخارجية، والتي شغلتها طوال جيل من الزمن. لتأتي بعد ذلك مرحلة البناء والاهتمام بالفنون وتستمر منذ ذلك الحين وتتوسع. وإذن، يربط المؤلف غالباً في كتابه هذا، ومع تنقله بين الحقبات الإسلامية المختلفة، بين الدور الذي لعبه الخلفاء أو السلطات السياسية الحاكمة، وبين الازدهار الذي شهدته عواصم حكمهم (دمشق، بغداد...) بصرف النظر عن مدى التوسع الذي بلغته الإمبراطورية الإسلامية، والنجاحات أو الإخفاقات الذي شهده هذا التوسع.

يحمل الفصل الأول من الكتاب عنوان "ولادة الفن الإسلامي: الأمويون"، يتبعه بفصول تحمل عناوين: "العباسيون"، "الفاطميون"، "السلاجقة"، "الأتابكة"، "المماليك"، "الإسلام الغربي"، "الخانات والتيموريون"، "الصفويون"، وأخيراً "العثمانيون". يذكر أن هذا الكتاب يأتي مشفوعاً بالصور والرسوم ومزوداً بمسرد بالمصطلحات وبمسرد زمني لأبرز الأحداث.



فن الأنماط الزخرفية الإسلامية: مقاربة تحليلية وكوزمولوجية

المؤلف: كيث كريتشلو- عدد الصفحات: 192 ص - تاريخ النشر: 1999
التوثيق الأجنبي: keith Critchlow, Islamic Patterns: An Analytical and Co-mological Approach, Inner Traditions, 1999
اللغة: الإنجليزية

تعدّ هذه الدراسة الرائدة لأحد المتخصصين العالميين في الفن الإسلامي، وهو مدير قسم الأبحاث ومدير قسم الفنون البصرية والتقليدية الإسلامية في معهد برينس أوف ويلز للعمارة في إنجلترا، والمحاضر العالمي في مجال الفنون الإسلامية، تعدّ واحدة من أبرز الدراسات وأكثرها جدية التي تناولت فن الأنماط الزخرفية الإسلامية التي لا يعتبرها مجرد زخارف شكلية تنميقية، بل إنها نسق متكامل يتجاوز التعبير الشكلي إلى النطاق الكوني الذي يعبّر في صميمه عن الفلسفة الروحية الإسلامية.

في مقدمته يشير المؤلف إلى أن عدم تحبيذ الإسلام لتجسيد الأشكال البشرية والحيوانية في الفن، بسبب تحريم عبادة الأصنام، دفع إلى نشوء "نظام بالغ التعقيد من الفن التجريدي". وطوال قرون كان ينظر إلى هذا الفن، بصورة خاطئة من قبل الغرب، بوصفه مجرد فنّ ديكوري أو تزييني، "إلا أنه من خلال هذا الفن حافظ الفن الإسلامي على هدفه الرئيس: التأكيد على الوحدة مثلما يعبر عنها في التنوع".

يناقش المؤلف عبر فصول الكتاب فكرة أن الأنماط الهندسية في الفن الإسلامي، على عكس الفن المسيحي في القرون الوسطى والذي يتم فيه إقصاء الأنماط الزخرفية والأشكال إلى الخلفية بهدف إبراز الصور الدينية المقدسة، هذه الأنماط الهندسية تعكس في ذاتها قوانين كوزمولوجية (كون فيزيائية) تؤثر في الخلق الفني برمته. والهدف الأساس لهذه الأنماط هو أن تبعد العقل عن عالم المظاهر الدنيوية وتقوده إلى الحقيقة الروحية الكامنة.

وعلى مرّ العصور وما أنتجه خلالها فن الأنماط الزخرفي من أشكال ورسوم، فإن الفن الإسلامي ارتبط بعلم الرياضيات الفيثاغوري، مبرهناً أن المبادئ التي تقف وراءه شديدة الاندماج في الهندسة الروحية أو المقدسة والفلسفة السرمدية. ويظهر كريتشلو الأسس الفلسفية والعملية الجوهرية في كل عمل فني إسلامي - سواء أكان الآجر أو السجاد أو الجدران - مبرهناً كيف أن استعمال الموزاييك الهندسي في هذه الأعمال يؤكد على الوحدة الجوهرية في كل الأشياء.

بعد تمهيد لسيد حسين نصر ومقدمة كريتشلو نفسه، ينقسم الكتاب إلى تسعة فصول تعالج "نقطة الانفصال"، "التعبير عن الشكل"، "المربعات السحرية"، "النمط الزخرفي والكوزمولوجيا"، "المخمس" و"العشار الفيثاغوري" و"رياضيات ملء المساحة ثنائية الأبعاد"، "الدائرة والإيقاعات الكونية"، وأخيراً "عينات من فن الأنماط الزخرفي الإسلامي".

ابن رشد: عقلاني في الإسلام

المؤلف: روجر أرنالديز – عدد الصفحات: 157 – تاريخ النشر: 1998

التوثيق الأجنبي: (Roger Arnaldez, Averroes: un Rationaliste en Islam, (Paris, Edition Balland, 1998

اللغة: الفرنسية

هذه ليست المرة الأولى التي يتطرق فيها المتخصص في تاريخ الإسلام روجر أرنالديز، بالدرس لشخصية ابن رشد. فقد سبق له كتابات العديد من المقالات والدراسات عنه، إلا أن هذا الكتاب الذي صدر بالتزامن مع الذكرى المئوية الثامنة لموت ابن رشد (1998) هو عمله الأكثر شمولية حول هذا الفيلسوف الإسلامي الذي كان له أعمق الأثر على الثقافة والفكر الغربيين. على غلاف الكتاب نجد اسم "القاضي أبو الوليد، ابن رشد"، وكأنما يريد الكتاب التأكيد على هوية ابن رشد كمفكر إسلامي عقلاني – من خلال اللفظ الصحيح لاسمه – وبين الاسم الشائع في العالم الغربي، أي أفيروس، بوصفه الواسطة بين الفكر الكلاسيكي الإغريقي – بوصفه شارح أرسطو – والفكر اللاتيني الغربي.

يتناول المؤلف ابن رشد في سياقه التاريخي، عارضاً لكتاباته في مجال القانون والطب والفلسفة والفقه في إطار زمنها التاريخي والثقافة التي ولدت فيها. كما يركز على مصادره الفكرية وأولئك الذين أثروا عليه، ربطاً ببيئته الثقافية من المعلمين والفلاسفة ورجال الحكم الذين عاصرهم، وأيضاً ربطاً بمنصبه أولاً كقاض لإشبيلية ثم كقاض أكبر في قرطبة. أما الجانب الذي يحتل الشطر الأكبر من الكتاب فهو تلك العلاقة المتداخلة بين شتى جوانب شخصية ابن رشد وكيف تفاعل مثلاً الجانب القضائي (والشرعي) مع الجانب الفلسفي لديه. ويرى الكاتب أنه من الخطأ الحكم على فلسفة ابن رشد انطلاقاً من موقعه كقاض شرعي، فاحتلاله هذا المنصب لا يتعارض مع تفكيره العقلاني، بل يتكامل معه، إذ أنه يعتبر أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في القرآن الكريم أمر مسلم به من قبل كل المسلمين، إلا أن تفسيرها وفهمها يأتي في سياق عقلاني يمت بالصلة أولاً لشؤون الدنيا قبل الخوض في عالم الغيب.

مقدمة الكتاب جاءت بعنوان "القاضي والطبيب والفيلسوف"، ليعالج في الفصلين اللاحقين جانبي القاضي والطبيب فيه، معتمداً في الغالب على كتابات ابن رشد نفسها المتعلقة بذلك، كما على اختلافه أو توافقه مع غيره ممن سبقوه أو عاصروه. أما الفصل الثالث فهو بعنوان "شارح أرسطو" ليتبعه بفصل بعنوان "الفيلسوف والثيولوجي"، أما الفصل الأخير أو الخلاصة كما يسميها المؤلف فجاءت بعنوان "مفكر مسلم شخصي".



الفن الإسلامي

المؤلف: باربرا برند – عدد الصفحات: 240ص – تاريخ النشر: 1992

التوثيق الأجنبي: Barbara Brend, Islamic Art, Harvard University Press, 1992

اللغة: الإنجليزية

نشر هذا الكتاب للمرة الأولى عبر مطبوعات "المتحف البريطاني" في العام 1992، ليطبع العام التالي عبر مطبعة جامعة هارفرد المرموقة، وحصل الكتاب على ثناء المتخصصين والنقاد كونه من أوائل الكتب التي تعالج موضوع الفن الإسلامي بصورة متوازنة وموضوعية وعلمية بعيداً من الأفكار النمطية المسبقة. مؤلفة الكتاب المتخصصة في حقل الفن الإسلامي تحرص على هذا التوازن، مبتعدة عن إطلاق الأحكام، معتبرة أن الفن الإسلامي "هو كل فنّ أنتج على مدى الأراضي الإسلامية سواء للحكام أو للجمهور"، و"سواء من قبل مسلمين مؤمنين أو مسلمين غير ممارسين بالضرورة للعبادات"، وهذا من دون أن يكون الطابع الجغرافي هو الوحيد المحدد أو المهيمن، ذلك أن هذا الفن أنتج في أراض متشربة بالثقافة الإسلامية، حسب قولها.

تقسم برند كتابها إلى ثمانية فصول، إضافة إلى مقدمة وخلاصة. وتأتي الفصول كالآتي: "إرث الإمبراطوريات: سوريا والعراق واليمن في ظل الخلفاء"، "أراضي الغرب: مصر وشمال أفريقيا وإسبانيا"، "التجديد الآتي من الشرق: دخول السلاجقة إلى إيران والأناضول"، حكم السادة والعبيد: الزنكيون والأيوبيون والمماليك"، "آخر الغزاة الشرقيين: الإمبراطورية المنغولية والتيمورية"، "التوهج، الترف، والانهيار: إيران في ظل الصفويين والقاجاريين"، "شرق الفوسفور وغربه: الإمبراطورية العثمانية"، "أباطرة في هندوستان: هند السلطانية والمغولية".

خلال هذه الفصول لا تكتفي المؤلفة باستحضار الفن الإسلامي بتعدد أنواعه كالزخرفة والخط العربي والعمارة وما إلى ذلك، بل تحدّد ملامح هذا الفن وخصوصياته وفقاً للمكان الذي ولد فيه، وكيف تطور وانتقل بعد ذلك، ليشكل بذلك رحلة ثقافية معرفية تفيد خاصة غير الملم بهذه الحضارة ومدى مساهمتها في مسيرة الإنسانية. يأتي الكتاب مدعماً بالصور واللوحات القيمة، إضافة إلى مسرد بالأسماء والمصطلحات وببليوغرافيا.

العلم في إسلام القرون الوسطى

طوال خمسة عشر فصلاً يتابع تيرنر العلوم الإسلامية المختلفة، بما فيها من علوم دقيقة، وعلوم زائفة، وفلسفات وآراء، وتغطي أبحاثه ميادين متنوعة من علم الفلك إلى الطب والجغرافيا والكيمياء والرياضيات، بل يتابع في كل ذلك جذور هذه العلوم الإسلامية في الحضارات السابقة على الإسلام، مثل الإغريقية والمصرية والرومانية والبابلية.

وبرغم أن صفحات كل فصل من الفصول لا تتعدى خمس صفحات إلى عشر، وتنطوي على عناوين فرعية، فإن المادة الشيقة والشروح التفصيلية ترد في نهاية كل فصل، حيث أرفق المؤلف صوراً بلونين ولوحات توضيحية لشرح مختلف الآلات العلمية في الثقافة الإسلامية.

يولي المؤلف أهمية خاصة لمدرسة الإسكندرية ومكتبتها، منذ القرن الأول ق م. وقد انتقلت مدرسة الإسكندرية بموروثها من العلوم في الفلك والطب والكيمياء إلى إنطاكيا.

وفي سوريا عمل المسيحيون المونوفيزيون والنساطرة السريان على نقل هذا التراث إلى السريانية.

وفي القرن الميلادي الثالث، أسس الملك الساساني شاهبور الأول مدرسة جنديسابور، التي ورثت معارف الإسكندرية السابقة باللغة السريانية. وبعد تأسيس بغداد، انتقل إليها العلم، بالصيغة التي قررتها مدرسة الإسكندرية، ولكنه هنا صار يتطبع باللغة العربية بدلاً من السريانية.

بإيجاز بليغ، لا يسرد المؤلف أسماء العلماء العرب جميعاً، بل يكفي في رأيه «هنا الاستشهاد بأسماء خالدة ليست لها نظائر مماثلة من معاصريها في الغرب: مثل جابر بن حيان، والكندي، والخوارزمي، والفرجاني، والرازي، وثابت بن قرة، والبتاني، وحنين بن إسحق... دفق لا انقطاع له من الأسماء الرائعة لا يصعب الاستمرار بها. إذا قال لك أحد إن العصور الوسطى كانت عقيمة علمياً، فاذكر له هذه الأسماء وحسب، وكلهم ازدهروا في مدة قصيرة من عام 750 إلى 1100م».

Astrolabe, Cairo, 1236, brass with silver and copper inlay

في كل هذه العلوم كان للمسلمين، وعلماء الحضارة الإسلامية بشكل عام، إبداعهم الخاص، وطريقتهم في النظر والتعامل مع الأشياء من منظور الثقافة الإسلامية، والتقاليد المتبعة في مجتمعاتهم. غير أن دور العلماء المسلمين لا يتوقف عند هذا الحد، بل هم نقلوا الكثير من العلوم القديمة، أو علوم الأوائل، كما كان يطلق عليها، إلى أوروبا.

وهكذا تشكل المراجع العلمية الإسلامية مورداً أساسياً من موارد المعرفة السابقة.

فهناك نصوص يونانية كثيرة ضاعت أصولها اليونانية، بينما بقيت في ترجماتها العربية فقط. وحتى مع عدم فقدانها، يمكن للمراجع العربية أن تساعد في حل كثير من إشكالات قراءتها.

فقد كانت المراجع العربية هي الأساس الذي تغذت عليه معرفة أوروبا في عصر النهضة.

المؤلف: هاوارد تيرنر – عدد الصفحات: 282ص – تاريخ النشر: 1997

التوثيق الأجنبي: Howard R. Turner. Science in Medieval Islam
An Illustrated Introduction. University of Texas Press. 1997

اللغة: الإنجليزية

وإذ تؤدي الآلات العلمية دوراً مهماً، فإن الكتاب يقدم عدداً من صور الآلات العلمية عند العرب، كآلات الاستكشاف الفلكي، من كرات ومكعبات، وأسطرلابات وبوصلات وغيرها. وفضلاً عن تغطية هذه الموضوعات كلاً على انفراد، يقدم المؤلف مسرداً اصطلاحياً بالمفردات العلمية العربية، وقائمة شاملة بأهم المصادر.

والفصلان الأولان من الكتاب هما استعراض للخلفية الثقافية العلمية للمعرفة الإسلامية، يقدم الأول منهما صورة شاملة عن الإمبراطورية التي بناها الإسلام، ويناقش الثاني القوى والروابط والعلاقات بين الإيمان والعلم والفكر.

أما الفصل الثالث فينصرف لجذور العلم الإسلامي.

ويتناول الفصل الرابع الكونيات، وصورة الفلك عند المسلمين، والخامس الرياضيات، التي ولدت لغة أصلية للعلم، والفصل السادس النجوم، والسابع التنجيم، وهل هو علم أم علم زائف، والثامن الجغرافيا، والتاسع الطب، والعاشر العلوم الطبيعية، والحادي عشر الكيمياء، والثاني عشر البصريات، والثالث عشر السنوات الأخيرة من عمر العلوم العربية، والرابع عشر انتقال هذه العلوم عند ظهور حركات الترجمة ومدارسها في أوروبا، والخامس عشر الغرب الجديد، الذي كونته العلوم الإسلامية.

والسادس عشر هو الخاتمة.

ولا يخفي المؤلف الطابع التعريفي للكتاب، فهو يشير في مقدمته إلى أنه «خلال القرون الثلاثة الأخيرة أصبح العالم الغربي على معرفة بكثير من الأنصاب والأعمال الفنية الفخمة والآثار الأدبية التي أبدعت في مختلف بلدان الإسلام وحقبه، مثل تاج محل ومسجد القاهرة ومسجد دمشق، وألف ليلة وليلة...لكن جزءاً واحداً من التراث الإسلامي ظل حتى السنوات الأخيرة غير معروف لدينا، لكنه مع ذلك مارس تأثيراً أساسياً في حياة ما بعد القرون الوسطى، ألا وهو الإنجاز التاريخي لعلماء الإسلام وفلاسفته، وأطبائه وفلكييه، ورياضييه وتقنييه، وعلماء الطبيعة فيه.

فقد تلاقى هنا مجتمع يضم نخبة من العلماء المسيحيين واليهود والمسلمين كونوا أول جماعة متعددة الثقافة ومتعددة القوميات من نوعها في تاريخ العالم.

وإنجازات هذه الأخوّة العلمية الاستثنائية هي موضوع هذا المسح التمهيدي المصور».

تاريخ العلوم عند العرب

بين القرن الثامن والخامس عشر، كانت الأبحاث العلمية الأكثر تقدماً وتطوراً تتمّ في اللغة العربية، بل يمكن القول إنّ العربية كانت لغة العلوم السائدة في نطاق جغرافي عريض، يمتد من إسبانيا حتى تخوم الصين. وهذا العمل الضخم، الذي يقع في ثلاثة أجزاء، أشرف عليه العالم المصري – الفرنسي رشدي راشد، صاحب العديد من المؤلفات المرموقة حول العلوم عند العرب. وقد ساهم في كتابة فصول الكتاب أكثر من 20 باحثاً واختصاصياً في مختلف الميادين العلمية، من أوروبا والولايات المتحدة والعالم العربي.

المجلد الأول، الذي سنستفيض بعض الشيء في استعراضه، مقابل الإيجاز في عرض المجلدين الثاني والثالث، يضمّ مساهمات في حقل واحد هو الفلك، ويبدؤه ريجيس مورلون (مساعد راشد في الإشراف على الكتاب) بتقديم بانوراما شاملة لمصادر علوم الفلك العربية، اليونانية والهندية والفارسية؛ وطرائق الرصد وإنشاء المراصد، ومشكلات الفلك التطبيقي، والمراحل الكبرى في تاريخ الفلك العربي. ويضيف مورلون فصلاً ثانياً حول الفلك العربي الشرقي بين القرن الثامن والحادي عشر، ويتوقف بالتحليل عند أعمال البطاني وأبي جعفر الخازن وعبد الرحمن الصوفي وابن يونس والبيروني.

جورج صليبا يدرس نظرية الأفلاك والعلوم الفلكية عند العرب، بعد القرن الحادي عشر، مقارناً بين نظرية بطليموس حول حركة الشمس والقمر وزحل والزهرة وسواها، وشكوك ابن الهيثم التي جاءت في كتاب «الاستدراك على بطليموس». كذلك يدرس منجزات المدرسة الأندلسية، والمدرسة الشرقية (النموذج الشمسي عند ابن الشاطر، ونماذج القمر عند العرضي، والطوسي، وقطب الدين الشيرازي، وابن الشاطر؛ ونموذج الأفلاك العليا عند إبي عبيد الجوزاني، وابن الشاطر، والطوسي...).

فرنسيس ماديسون يتناول المراصد المحمولة أو الجوالة، ومجموع الأدوات التي ابتكرها العرب لغرض الاستخدام العملي، وبينها بالطبع مختلف أنواع الأسطرلابات. كذلك يشرح تصاميم مجموعة أخرى من الأدوات، بينها «دائرة المعدل» و«العدادة» و«المسطح»، مستخلصاً أنّ هذه الأدوات الفلكية تمثّل تراثاً لامعاً في الدقة العالية التي امتازت بها تقنيات الابتكار في العالم الإسلامي آنذاك. دافيد كنغ يتابع دراسة علم الفلك العربي، ولكن من زاوية اجتماعية أو دينية، تخصّ حياة المسلم اليومية، في عباداته على وجه التحديد، مثل طرائق تحديد القبلة، ومواقيت الصلاة والإمساك والإفطار، وسواها.

وفي فصول لاحقة من هذا المجلد الأول يدرس إدوارد كنيدي الجغرافيا الرياضية ورسم الخرائط، متوقفاً بصفة خاصة عند خريطة المأمون، وأطلس الإسلام، ومساهمات البيروني، وخريطة الإدريسي. هنري غروسيه – غرانج يدرس علوم الملاحة العربية، مستعرضاً طائفة من المصطلحات العربية في هذا المضمار، وطائفة أخرى من أدوات الإبحار البسيطة والمعقدة على حدّ سواء، فضلاً عن تقنيات استخدام الفلك وقراءة الخرائط. ويكتب خوان فرنيت وخوليو سامسو عن تطور علوم الفلك في الأندلس تحديداً، ويخصان بالذكر ما يُعرف باسم «تقويم قرطبة» واحتساب جداول الخسوف. ومن الطبيعي أن يُختتم هذا المجلد بمادة عن تأثير علوم الفلك العربية في الغرب خلال القرون الوسطى، فيعدد هنري هوغونار – روش تفاصيل ذلك التأثير في ميادين نظرية وتطبيقية عديدة.

المجلد الثاني يختص بالرياضيات والفيزياء، ويشارك في كتابة فصوله أحمد سيدان، ورشدي راشد، وبوريس روزنفيلد، وأدولف يوشكفتش، وماري – تيريز دوبارنو، وأندريه آلار، وجان – كلود شارييه، ومريام روجنسكايا، وغل راسل، ودافيد لندبرغ. وهذه مقالات تتناول تأسيس علم الجبر كمبدأ ناظم كان وراء تطور غير مسبوق في الهندسة ونظرية الأرقام والتحليل المزجي، وانعكس على علوم البصريات والإحصاء والموسيقى. الشخص الأهمّ في هذه الفصول هو محمد بن موسى الخوارزمي، حيث لا تكاد إسهاماته تغيب عن موضوعات هذا الجزء، ولا يكفّ الباحثون عن اقتباس أعماله الأساسية، مثل «الجبر والمقابلة»، و«حساب الهندسة»، و«الجمع والتفريق». وثمة أعلام آخرون خالدون من أمثال ابن سهل، والكندي، وابن الهيثم، وحنين بن اسحق، والرازي، وابن سينا، وسواهم.

المجلد الثالث يبدأه دونالد هيل بمناقشة سلسلة التقنيات البارعة التي ابتكرها العرب المسلمون، وطبقوها واستخدموها في ميادين تشمل الريّ وجرّ المياه، وبناء السدود والجسور والمساكن، وما تنطوي عليه هذه الأنشطة من حاجة لتطوير الطبوغرافيا والمساحة. ميدان آخر مهم هو التطبيقات الميكانيكية المقترنة بالأعمال سالفة الذكر، خاصة استخدام المياه في توليد الطاقة. أندريه ميكيل، الأكاديمي المختصّ بأدب الإسلام وحضارته عموماً، يشارك بفصل ممتع عن الجغرافيا العربية، فيشير إلى الدور الحيوي الذي لعبته الآداب العربية في تطويرها، من خلال مؤلفات موسوعية شاملة الأغراض والبلدان، مثل «الأعلاق النفيسة» و«مروج الذهب» و«كتاب المسالك والممالك»، وأعمال أخرى للبلخي والإصطخري وابن حوقل والمقدسي، وسواهم.

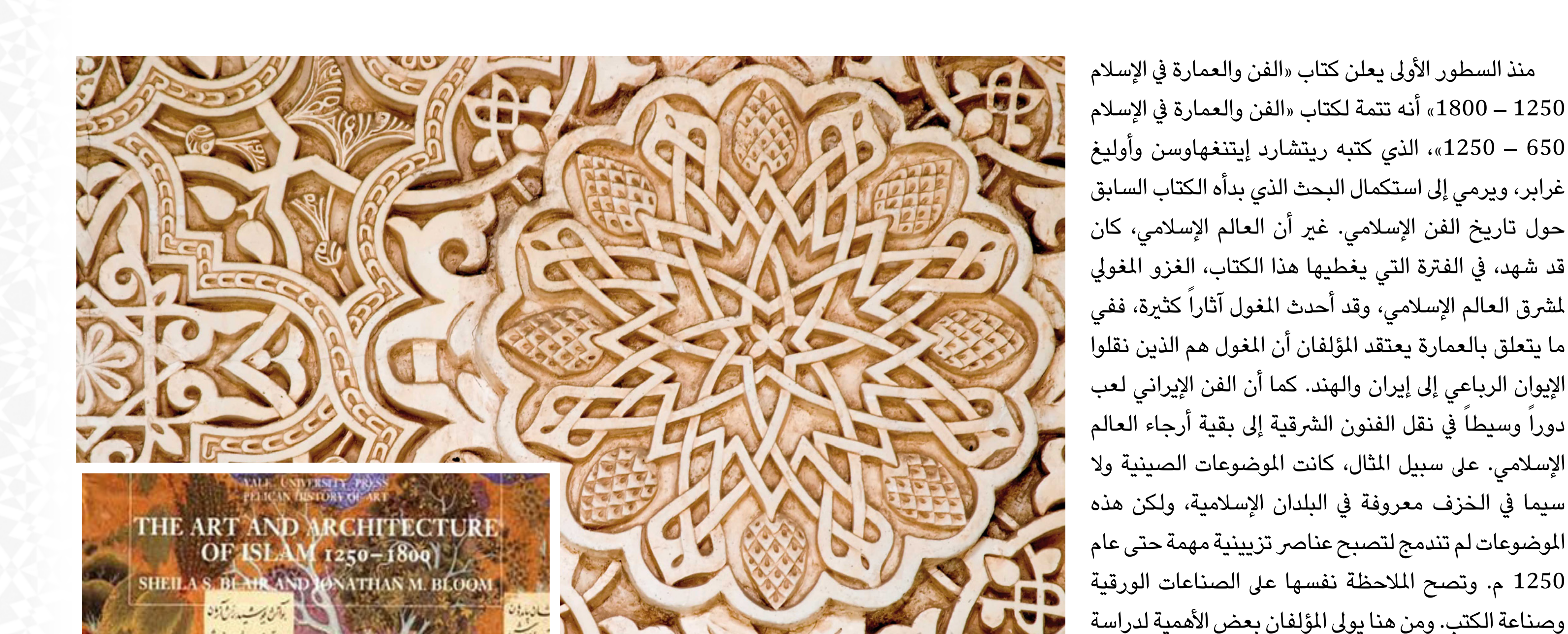
فصول هذا الجزء يساهم في كتابتها توفيق فهد، عن تصنيف النبات وعلوم الزراعة؛ ودانييل جوكار، عن تأثير الطبّ العربي في الغرب؛ وفرنسواز ميشو، عن المؤسسات العلمية العربية خلال القرون الوسطى، ومثال «بيت الحكمة» في بغداد. ويختم جان جوليفيو هذا المجلد بمادة عن تصنيف العلوم، فيستعرض تأثير أعمال مثل «مفاتيح العلوم» للخوارزمي الكاتب، و«مراتب العلوم» لابن حزم، و«الفهرست» للكندي، و«إحصاء العلوم» لأبي نصر الفارابي، و«صندوق الحكمة» لجابر بن حيان، وغيرها.

وفي ختام كل مجلد هناك مسرد مفاهيم، ومسرد مؤلفات، ومسرد أعلام وأماكن، إلى جانب مسرد مكثف يتضمن المراجع المختلفة، وفي رأسها أمهات المؤلفات العربية.

وبذلك فإنّ الكتاب مرجع لا غنى عنه للقارىء الغربي، ولعلّ المنهجيات الصارمة التي اعتمدها المساهمون فيه تجعله قدوة للباحثين العرب أيضاً.

المؤلف: مؤلف جماعي، إشراف رشدي راشد – عدد الصفحات: 386 ص – تاريخ النشر: 1997
التوثيق الأجنبي: Sous la direction de Roshdi Rashid. Histoires des sciences arabes. Seuil, Paris 1997
اللغة: الفرنسية

الفن والعمارة في الإسلام 1250-1800م



منذ السطور الأولى يعلن كتاب «الفن والعمارة في الإسلام 1250 – 1800» أنه تتمة لكتاب «الفن والعمارة في الإسلام 650 – 1250»، الذي كتبه ريتشارد إيتنغهاوسن وأوليغ غرابر، ويرمي إلى استكمال البحث الذي بدأه الكتاب السابق حول تاريخ الفن الإسلامي. غير أن العالم الإسلامي، كان قد شهد، في الفترة التي يغطيها هذا الكتاب، الغزو المغولي لشرق العالم الإسلامي، وقد أحدث المغول آثاراً كثيرة، ففي ما يتعلق بالعمارة يعتقد المؤلفان أن المغول هم الذين نقلوا الإيوان الرباعي إلى إيران والهند. كما أن الفن الإيراني لعب دوراً وسيطاً في نقل الفنون الشرقية إلى بقية أرجاء العالم الإسلامي. على سبيل المثال، كانت الموضوعات الصينية ولا سيما في الخزف معروفة في البلدان الإسلامية، ولكن هذه الموضوعات لم تندمج لتصبح عناصر تزيينية مهمة حتى عام 1250 م. وتصح الملاحظة نفسها على الصناعات الورقية وصناعة الكتب. ومن هنا يولي المؤلفان بعض الأهمية لدراسة فنون إيران، باعتبارها العنصر الناقل للتأثيرات الشرقية في فنون العالم الإسلامي.

ينطوي الكتاب على عدد من الفصول، ويغطي القسم الأول منه الفترة الممتدة من 1250 – 1500. وإذ تقتصر المقدمة على الفصل الأول التمهيدي، فإن الفصل الثاني يستعرض العمارة في إيران وآسيا الوسطى في ظل حكم الإيلخانيين وخلفائهم. ويعرض الفصل الثالث للفنون بعامة في هذه الفترة نفسها. بينما يتناول الفصل الرابع العمارة في إيران وآسيا الوسطى في ظل حكم التيموريين ومعاصريهم. والفصل الخامس الفنون بعامة في المنطقة والفترة نفسها. ويعنى الفصل السادس بالعمارة في مصر في ظل حكم المماليك (1260 – 1389). ويعرض الفصل السابع للعمارة في مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية في ظل حكم المماليك للفترة (1389 – 1517). ويتناول الفصل الثامن الفنون في مصر وسوريا في ظل المماليك في هذه الفترة نفسها التي يقسمها إلى ثلاث حقب متوالية: هي الحقبة الأولى والوسطى والأخيرة. وينصرف الفصل التاسع إلى مناقشة العمارة والفنون في بلاد المغرب الإسلامي في ظل حكم الحفصيين والمرينيين والنصريين على التوالي. ويناقش الفصل العاشر الفنون في الأناضول وتركيا في عهد البيالقة والعثمانيين الأوائل. ويعرض الفصل الحادي عشر للعمارة والفن في الهند في ظل السلطنات.

في القسم الثاني، الذي يستغرق الفترة من 1500 – 1800، يتناول الفصل الثاني عشر الفنون في إيران في عصور الصفويين والزنديين. والفصل الثالث عشر العمار في إيران في هذه الفترة. والفصل الرابع عشر العمارة والفنون في آسيا الوسطى في ظل حكم الأزبكيين. ويعرض الفصل الخامس عشر للعمارة في عهد العثمانيين حتى فتح القسطنطينية. والسادس عشر للفنون في هذه الفترة. والسابع عشر العمارة والفنون في مصر وشمال إفريقيا، بما في ذلك ليبيا وتونس والجزائر والمغرب. ويتناول الفصل الثامن عشر العمارة في الهند في عهد المغول ومعاصريهم في دكان، والتاسع عشر الفنون في هذه الحقبة في المنطقة نفسها. ويتناول الفصل العشرون، وهو الأخير، آثار الفنون الإسلامية المتأخرة في الغرب وفي العالم الإسلامي على السواء.

هكذا يستخدم هذا الكتاب، مثل سابقه، منهج العرض التاريخي، متابعاً التغيرات الفنية ولكن في سياق جغرافي يبدأ من إيران وآسيا الوسطى ثم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ثم الهند. ويركز النص بشكل منفصل على العمارة والفنون. فيتخصص كل فصل بمتابعة موضوعة فنية معينة، لا يكتفي بمناقشة قضاياها الأسلوبية والجمالية، بل أيضاً يمتد إلى مناقشة السياقات الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية لهذه الأعمال.

المؤلف: شيلا بلير وجوناثان بلوم – عدد الصفحات: 368ص –تاريخ النشر: 1995
التوثيق الأجنبي: Sheila S. Blair and Jonathan M. Bloom. The Art and Architecture of Islam, 1250–1800. The Yale University Press, 1995
اللغة: الإنجليزية

الفن والعمارة في الإسلام من 650 – 1250م

الصورة الشائعة عن تاريخ الفن في الإسلام أن الحضارة الإسلامية لم تعرف سوى الفن التجريدي، الذي يهتم بالتعبير عن اللامتناهي من خلال الأشكال المجردة كالأبعاد الهندسية، والرسم، والحروفيات. لكن هذا الكتاب يفاجئ قارئه بصورة أخرى مختلفة تماماً.

إذ يظهر أن بدايات الفن الإسلامي لم تكن الفن التجريدي على الإطلاق، بل كانت النقيض المباشر لذلك. فمنذ بواكير العصر الأموي، عرف الفن الإسلامي «النحت التجسيمي».

يبدأ القسم الأول من الكتاب بعصر الخلافة، فيتناول ظهور الإسلام والمناخ الفني الذي كان سائداً في فترة ظهوره. ثم يعرض لعصر الأمويين وفنونهم في الفترة الممتدة من 650 – 750 م. فيدرس فن قبة الصخرة، التي يرى فيها فناً إسلامياً يتحدى الفنين الإغريقي والبيزنطي.

وهو يلاحظ أن صك النقود الأولى في عصر عبد الملك بن مروان كانت خالية من الصور، لكنها سرعان ما عادت إلى اللجوء إلى الصور بطريقة لا تبتعد كثيراً عن الفن ما بعد الساساني. ثم يخصص فقرة لمسجد الوليد بن عبد الملك. ويكشف عن عدد من التماثيل واللوحات التي كانت تزين قصور الأمويين، ولا سيما التماثيل التي عُثر عليها في «خربة المفجر»، حيث تم العثور على تمثال لشخص واقف وعلى القاعدة عند قدميه صُوِّر أسدان في وضعية تأهب.

كما عثر على تماثيل لنسوة، وفي ديوان خربة المفجر عثر على سقف قبة على شكل وردة، تحيط بها ستة رؤوس يرجح أنها رؤوس بعض أفراد العائلة الأموية.

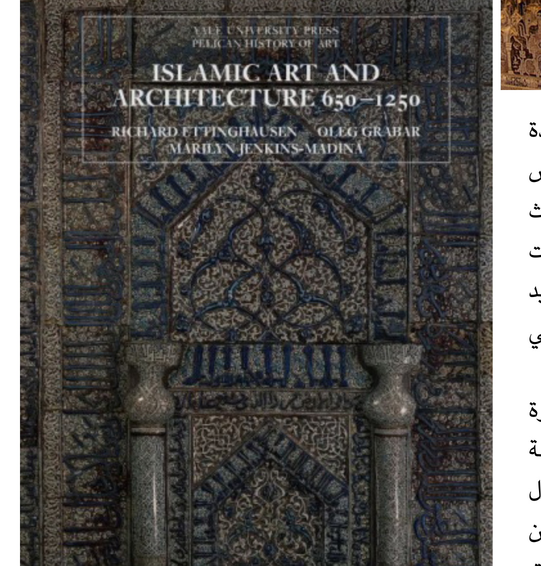
في العصر العباسي، صار الفن الإسلامي يطور العناصر الفنية في طريق التجريد.

ولأول مرة في تاريخ الإسلام، بدأت تنمو صناعة الكتاب، وحملت معها هذه الصناعة فن «زخرفة الكتب» تجليداً وتزييناً وتلويناً ورسوماً.

في القسم الثاني المعنون: «انحلال الخلافة»، يعتذر المؤلفان بأن هذا القسم أقل تماسكاً من القسم الذي سبقه والذي سيليه، «لأن من المستحيل المحافظة على ترتيب زمني صارم لمتابعة منطقة تمتد من الصين إلى المحيط الأطلسي وفي الوقت نفسه بيان الخصوصيات المحلية أو المتوارثة». ولهذا ينصرف المؤلفان إلى متابعة تاريخ الفن الإسلامي في المناطق المحيطية الأربع، في إسبانيا والمغرب ومصر الفاطمية وشمال شرق إيران.

في القسم الثالث من الكتاب الذي يغطي الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر الميلادي حتى الثالث عشر، يعرض المؤلفان للفنون الإسلامية في إيران ووسط آسيا، من حيث النصب والمساجد والأضرحة والأبراج والمنائر والقبب والنحت التزييني الدنيوي، ويلاحظان أن الفن الإسلامي أخذ بالتعقيد في هذه الفترة، فصارت تظهر عليه معالم جديدة، مثل المباني والقصور ذات الأواوين المتعددة.

ثم يتناولان البلدان الأخرى في الهند والعراق والجزيرة وسوريا ومصر والأناضول، مع التطرق لضروب الزخرفة والتزين من حيث التقنيات والموضوعات. وبالطبع يتناول فنون الأعمال النحاسية والمعدنية والنسيج والفخار وفنون صناعة الكتاب والأعمال الخشبية والزجاجية وتنميق المخطوطات.



المؤلف : ريتشارد إيتنغهاوسن وأوليغ غرابار – عدد الصفحات : 448ص – تاريخ النشر : 1987

التوثيق الأجنبي: Richard Ettinghausen and Oleg Grabar

The Art and Architecture of Islam 650 – 1250. The Pelican History of Art، 1987

اللغة: الإنجليزية

الشعر والفن العربي في إسبانيا وصقلية

يعد أدولف فريدريش فون شاك(1815– 1894) واحداً من روّاد الدراسات الأندلسية في ألمانيا في القرن التاسع عشر. ويجيء التوقف عند هذا الكتاب الرائد الذي صدر عام 1865م، لعدة أسباب:

1. كان لفون شاك حضور مهم في الحياة الثقافية في ألمانيا؛ فقد كان شاعراً وكاتباً روائياً وناقداً وسياسياً ودبلوماسياً، فضلا عن حضوره في الحياة العامة، حيث تولى رئاسة المحكمة العليا في دولة بروسيا.

2. أقام فون شاك في إسبانيا مدة سنتين، من أجل دراسة تاريخ الـ Mauern أو لـ Moor وهي الكلمة التي جرى اطلاقها على المسلمين في إسبانيا، حتى لو كانت أصولهم غير إسبانية، وقد فتنته الحضارة الإسلامية فأخذ يدرسها، ويتتبع تأثيراتها في الحضارة الأوروبية، وامتدت دراسته إلى صقلية ومالطة.

3. يشكل هذا الكتاب المكون من جزءين والواقع في 385 صفحة من القطع الصغير إضافة نوعية للدراسات الإسبانية في المكتبة الألمانية. ويبدو أن كتابات فون شاك لم تقتصر على إسبانيا المسلمة، بل تعدتها إلى الآداب الإسبانية المعاصرة فكتب دراسة عن «تاريخ المسرح والفنون في إسبانيا».

4. توالت طبعات هذا الكتاب باللغة الألمانية بالنظر لما ينطوي عليه الكتاب من أبعاد معرفية، وما يقدمه من متعة للقارئ الأوروبي عموماً، ومن الضروري أن يشار إلى أن الإسبان اهتموا بالكتاب وترجمه خوان باليرا (1827 – 1905م) إلى الأسبانية، ونقله الطاهر مكي إلى العربية.

يحوي جزءا هذا الكتاب سبع عشرة مفردة تتناول في مجموعها مسألتين: تطور الشعر العربي في الأندلس وصقلّية، والأغراض الرئيسية لهذا الشعر، فضلاً عن فنون الأندلسيين ومعمارهم، إضافة إلى فنون المعمار العربي في كل من صقلية ومالطة. ولا شك أن دراسة الشعر والعمارة معاً تشير إلى ثقافة المؤلف الواسعة؛ لكنها يكشف، في الوقت ذاته، وعي المؤلف النقدي الذي يرى أن الأبعاد الحضارية للأمة تتكامل في نهاية المطاف وتكشف عن روح العصر الذي نشأت فيه وإن اختلفت وسائل التعبير.

يجيء تناول فون شاك لهذه المسائل من خلال سبعة عشر فصلاً موزعة على جزئي الكتاب، يتلاقى فيها التتبع التاريخي والتحليل النصي والمعاينة الميدانية، مثلما يتلاقى الإعجاب الشديد بالمنجز الحضاري العربي الإسلامي، بالقدرة على تذوق النصوص الشعرية العربية ونقلها إلى الألمانية مستوفية شرائط الكتابة الشعرية بالألمانية.

ولعلّ من الضروري أن أشير في هذا المقام، إلى أن الظاهر مكي الذي قام بترجمة هذا الكتاب عن الإسبانية قد قسمه إلى ثلاثة أجزاء، وإن كان فون شاك قد قسم كتابه إلى جزءين، كما سبقت الإشارة، يحويان المفردات التالية:

(الجزء الأول): 1. مدخل 2. علّو الثقافة العربية الإسلامية في إسبانيا وازدهار الشعر فيها. 3. ملاحظات عامة عن هذا الشعر. 4. شعر الغزل 5. شعر الحرب 6. الخمريات وشعر الطبيعة 7. المديح والهجاء 8. الرثاء والشعر الديني 9. صقلّية في الشعر العربي في إسبانيا.

(الجزء الثاني): 1. الشعر العربي في صقلية.

2. الشعر الشعبي والشعر الملحمي.

3. العلاقات بين الشعر العربي وشعر أوروبا المسيحية.

4. فن الأندلسيين ومعمارهم حتى القرن الثالث عشر الميلادي.

5. المعمار العربي في صقلية/ المعمار العربي في مالطة .

6. غرناطة، احتضار الثقافة العربية، آخر آثار الفن العربي في أوروبا.

ومن الجدير بالذكر أن طاهر مكي في ترجمته للكتاب وتوزيعه له على ثلاثة أجزاء قام بإعادة ترتيبه ليكون الحديث عن الشعر في جزء والحديث عن الشعراء في جزء ثانٍ؛ وليجيء الحديث عن الفنون في جزء ثالث منفصل، ولعله كان يتابع المترجم الإسباني في هذا العمل.

ومن المعروف أن كتاب فون شاك لا يتقيد بالأبعاد المنهجية التي دأب المستشرقون على التقيد بها. فالكتاب سياحة ذاتية في التاريخ العربي في إسبانيا، لا تخضع لتنظيم مدرسي، بقدر ما تصدر في المقام الأول عن نزعة استكشافية، لكن فون شاك كان يعي تطور هذا التاريخ ابتداءً بعهد الولاة (92– 138هـ) الذي بدأ بطارق بن زياد وموسى بن نصير، ثم بعصر سيادة قرطبة الذي بدأ بعبد الرحمن الداخل(138–172هـ)، والخلافة الاموية التي تولى فيها عبد الرحمن الثالث مقاليد الحكم(300–350هـ)، حيث أعلن نفسه عام 326هـ خليفة ولقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله. وقد انتهت مرحلة الخلافة عام 422هـ؛ ليبدأ عصر ملوك الطوائف (402– 456هـ) ثم يجيء عصر دول المرابطين والموحدين ودولة بني الأحمر التي انتهت بسقوط غرناطة عام 897هـ / 1492م.

لقد توقف فون شاك في كتابه عند الشعر العربي، وقدّم آراء تدل على معرفة وإعجاب بهذا الشعر، مثلما تحدث عن أبرز شعراء الأندلس، وكان يقارن بين أشعارهم وأشعار التروبادور.

مثلما تميّز حديثه عن فن العمارة بالدقة والتحليل الفني العميق.

غير أن أبرز مايمكن للقارئ أن يتوقف عنده وهو يتأمل هذا الكتاب، هو ريادة مؤلفه في الكتابة عن الحضارة الإسلامية، والدفاع الموضوعي عنها، ودحض الآراء التي ترسم للعربي صورة مفرطة في سلبيتها وعدوانيتها، مثلما يبرز فون شاك دارساً دقيقاً يستقصي عمق تأثير الشعر والفنون في وجدانات الناس، ودارساً عارفاً بآداب شتى، قادراً على المقارنة بينها، موقناً بأن الشعر العربي في إسبانيا، كان له فضل التأثير في الشعر الغنائي الأوروبي.

وتراه لا يكتفي بالتحليل والوصف الدقيق للأماكن وما فيها من قصور ومساجد وحدائق بل يربط بين تلك الآثار المعمارية وما قيل فيها من أشعار.

المؤلف: أدولف فريدريش فون شاك – عدد الصفحات: 776ص تاريخ النشر: 1979

التوثيق الأجنبي: Adolf Friedrich Von Schack. Poesie und kunst der Araber in spanien und sicilien. 2 baende Georg olms verlag : 1979

اللغة: الألمانية



الأندلس ..جوهرة العالم

المحنة الإلهية:الإسلام وصنع أوروبا(570-1215)

يتناول الكتاب التعايش بين الإسلام والمسيحية في الأندلس ويرى المؤلف أن الإسلام قد انطلق من الشرق الأوسط محمولاً على رايات الجهاد التي رفعتها القبائل العربية التي لم تكن معروفة قبل ظهور الإسلام. ولقد استغل المسلمون انهيار الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية وانطلقوا بدينهم خارج حدود الجزيرة العربية لملأ الفراغ الذي أحدثه سقوط أكبر إمبراطوريتين آنذاك. واستطاع المسلمون أن يغزو إسبانيا وأن ينطلقوا نحو جبال البيريني في فرنسا ولكن هزيمتهم عام (732) على يد «تشارلز مارتل» جعلتهم يتراجعون جنوب جبال البيرينى حيث أقاموا حضارة عريقة تتميز بالتسامح الديني وتعدد العرقيات والرخاء الاقتصادي والثقافي والعلمي في حين كانت أوروبا تضطهد الأقليات غير المسيحية. ولذلك لعب المسلمون في الأندلس دوراً هاما في إرساء أساسات عصر النهضة الأوروبية.

ومع انهيار الخلافة الأموية وظهور قادة محليين يؤمنون بالتطرف الإسلامي بدأت الحضارة الإسلامية في الأندلس في التصدع والانهيار، مما مهد الطريق إلى الغزوات الصليبية على الشرق واستعادة الأندلس مرة أخرى. ويرى المؤلف أن ابن الرشد لو ظهر في وقت آخر غير القرن الثاني عشر الذي اتسم بالتطرف لكان له شأن آخر.

وفي مقدمة الكتاب يتناول المؤلف ظهور الإسلام وإنتشاره في القرنين السادس والسابع والفتح الإسلامي لمنطقة الهلال الخصيب ومصر وشمال إفريقيا وبلاد الرافدين والتوغل داخل حدود الإمبراطورية الرومانية ثم الفارسية مما فتح الباب على مصراعية لفتح الأندلس فيما بعد. ويذكر المؤلف في الجزء الثاني من الكتاب أن تشارلمان- ملك فرنسا- قد تبنى مفهوم الحرب المقدسة كرد فعل لمبدأ الجهاد الذي رفعه المسلمون أثناء المعارك معه. ويشير المؤلف أن بعض المؤرخين يعتقد أن هزيمة المسلمين عند جبال البيرينى كانت ضربة قاسمة لهم ولكن هذه الرواية غير صحيحة، فلقد أقام المسلمون بعدها حضارة عريقة في الأندلس. ويرى المؤلف أن المعركة عند جبال البيرينى قد منعت المسلمين من نشر الإسلام في أواسط أوروبا ولكنها لم تؤثر على تواجدهم في الأندلس. ولقد فشل شارلمان عام 778 في هزيمة المسلمين في الأندلس. وفي الأندلس أقام المسلمون حضارة عريقة في قرطبة حيث المسجد الكبير وحيث مقر الخليفة في مدينة الزهراء وحيث المكتبة العظيمة التى أنشأها المسلمون هناك.





ويرى المؤلف أن المسلمين في الأندلس كانوا متفوقين على الأوروبيين في النواحي العسكرية والعلمية والاقتصادية والثقافية. ويرى أن الإسلام ليس ديناً قائماً على العنف وعلى الأوروبيين الكف عن الخوف من عودة الإسلام إلى الأندلس واحتلال أوروبا مرة أخرى. ويرى المؤلف أن أوروبا كانت قارة متخلفة وأن سكانها كانوا عبارة عن مجموعات من البرابرة في الوقت الذي كانت حضارة الأندلس ساطعة في الآفاق.

ويشير المؤلف إلى الدور الذي لعبه كبار القادة المسلمين في الأندلس خاصة موسى بن النصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الداخل الذي خصص له المؤلف مساحة كبيرة من النص التاريخي. وأحداث الكتاب تبدأ من عام 711 عندما عبرت الجيوش العربية مضيق جبل طارق مروراً بوفاة عبد الرحمن الداخل ثم انهيار المالك الأندلسية. وينتقد المؤلف فتوى البابا عام 1215 بطرد جميع المسلمين من الأندلس، ويرى أن الدين الإسلامي أفضل من الحضارة الغربية ويرى أن الغزو الإسلامي للأندلس كان له آثاراً ايجابية على القارة الأوروبية وتمنى لو استطاع المسلمون احتلال أوروبا في القرن الخامس الميلادي، أي قبل 300 عام من وصولهم إلى إسبانيا.

ويعتقد المؤلف أن الغزو الإسلامي لو جاء إلى أوروبا مبكراً لاستطاعت القارة العجوز التخلص من الجهل الذي ساد العصور الوسطى. ولقد أثار هذا الكتاب حفيظة الأوروبيين الذين انتقدوا المؤلف الذي دافع عن الإسلام وأكد أن المؤرخين في الغرب يتعمدون الإساءة إلى الإسلام لأنهم لم يعرفوا الإسلام جيداً، كما أنه أصر أ على أن الإسلام أفضل بكثير من الثقافة الأوروبية وأنه يدعو إلى التسامح والتعايش بين جميع الأديان. كما أشار المؤلف إلى أن التعاون المشترك بين المسيحين وعبد الرحمن الداخل حيث تحالف الطرفان ضد العباسيين الذين سعوا إلى بسط نفوذهم على الأندلس في أعقاب انهيار الخلافة الأموية.

المؤلف: دافيد لويس – عدد الصفحات : 512 ص – سنة النشر: 2008
التوثيق الأجنبي: david lewis، God'sCrucible:Islam and the Making of Europe،570–1215، w.w. norton.2008
اللغة: الإنجليزية

تاريخ إسبانيا الإسلامية

تمثل إسبانيا الأرض الأوروبية الوحيدة التي حصل فيها التفاعل والتماس بين الإسلام وأوروبا. وفي هذا الكتاب يراجع مونتغمري وات تاريخ إسبانيا الإسلامية، مبتدئاً من انهيار الفيسغوثيين في القرن الثامن حتى سقوط غرناطة في القرن الخامس عشر، ويتابع أثر فتح إسبانيا ومقدار ما أسهمت به الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية.

يقع كتاب «تاريخ إسبانيا الإسلامية» في (220) صفحة، تتوزع على أحد عشر فصلاً.

يعنى الفصل الأول بالفتح الإسلامي، ويدرسه في البداية كطور من أطوار التوسع العربي، ثم يتفحص أسباب ضعف إسبانيا «الفيسغوثية»، ومساق الفتح من عام 711 إلى 716. وينظر الفصل الثاني في شؤون الولاية التابعة لخلافة دمشق، من حيث التنظيم ونهاية التقدم، والتوترات الداخلية في الولاية. ويعرض الفصل الثالث للإمارة الأموية المستقلة، فينظر في تأسيسها وأزمتها.

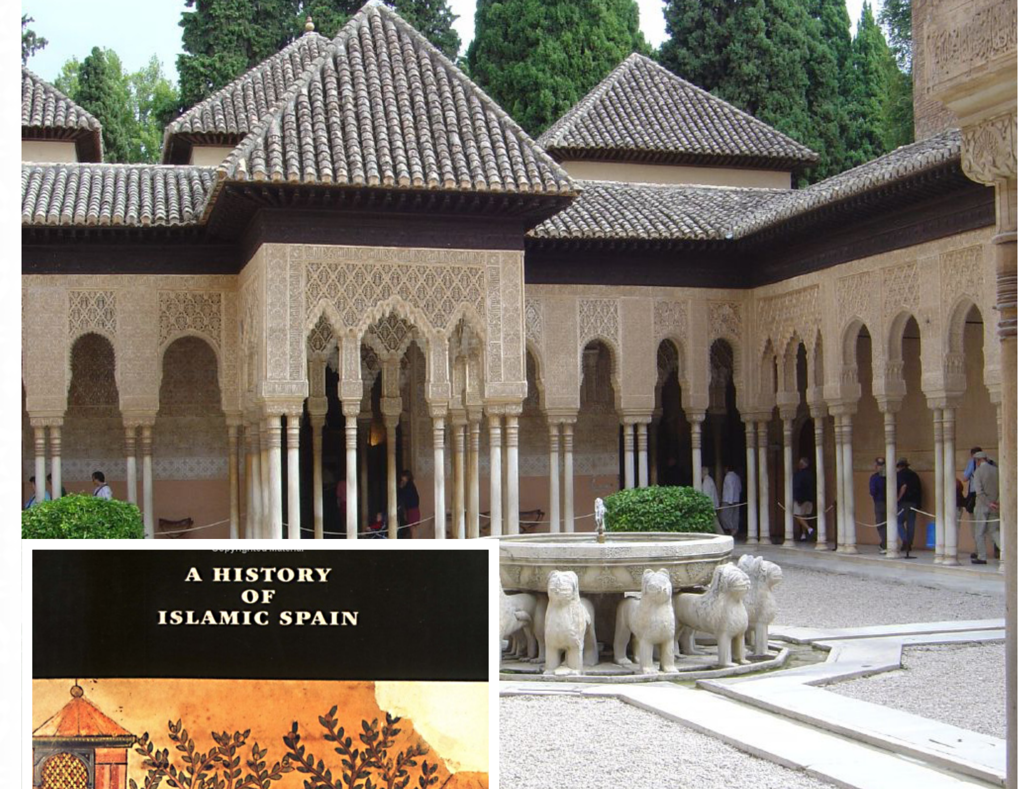
ويعيد الفصل الرابع النظر في إسبانيا الأموية في أوجها، وما هو الأساس الاقتصادي لها، والحركات الاجتماعية والدينية التي تململت في داخلها، وعلاقتها بالمؤسسة الحاكمة. ويتناول الفصل الخامس الإنجازات الثقافية في ظل الأمويين، بما فيها الحياة العقلية: من حيث علوم الدين، ومن حيث الشعر والأدب، والفن، ومصادر الثقافة المغربية (المورية). ويتطرق الفصل السادس إلى انهيار الحكم العربي، وما كانت تمثله الدكتاتورية العامرية، وأسباب انحلالها، وملوك الطوائف (1009 – 1091).

وكان البديل عن ملوك الطوائف يتمثل في ما يسميه المؤلفان بإمبراطورية البربر.

وهذا ما يتعرض له الفصل السابع، الذي يدرس أسس الدولة المرابطية، وكيف انتقل المرابطون إلى إسبانيا.

ويختص الفصل الثامن أيضاً بدراسة إمبراطورية البربر الثانية، المتمثلة في الموحدين، ولهذا يدرس ابن تومرت وحركة الموحدين، وإسبانيا في ظل الموحدين حتى 1223. ويعرض الفصل التاسع للعظمة الثقافية التي رافقت الانحلال السياسي، ليدرسها في الشعر والنثر والفلسفة وعلوم الدين والتاريخ والفلسفة والتصوف وكذلك في فن القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

ويتناول الفصل العاشر أواخر عهود إسبانيا الإسلامية، من نصريي غرناطة، والمسلمين تحت الحكم الغرناطي، والأدب في فترة التراجع، وينتهي الفصل بمناقشة وضعية الفن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.



أما الفصل الأخير والحادي عشر، «أهمية إسبانيا الإسلامية»، فيدرس ما يسميه بالاستعمار العربي والإسلامي، وتحفيز إسبانيا المسيحية وأوروبا، والعظمة الداخلية التي سادت إسبانيا الإسلامية.

ومونتغمري وات هو أستاذ متمرس للغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة أدنبرة. وبيير كاشيا هو أستاذ في جامعة أدنبرة أيضاً، وفي جامعة كولومبيا، وله الكثير من الدراسات في اللغة العربية والأدب العربي.

المؤلف : مونتغمري وات وبيير كاشيا – عدد الصفحات : 220ص – تاريخ النشر : 2007
التوثيق الأجنبي: W. Montgomery Watt and Pierre Cachia
A History of Islamic Spain. Aldine Transactio (2007).
اللغة: الإنجليزية

قرطبة الأمويين

أنطونيو مونيوث مولينا روائي وصحفي معروف، حاصل على الإجازة في تاريخ الفن من جامعة غرناطة وعضو في الأكاديمية الملكية الإسبانية، حائز على جائزة بلانيتا للأدب في 1991، يروي للقارئ تاريخ قرطبة المسلمة، بعد مقدِّمة أدبية جميلة ومُوحِية للمدينة التي ستصبح عاصمة الخلافة الأموية، منذ قدوم المسلمين إليها من شمال أفريقيا سنة 711 إلى فترة الصراعات والتناحرات الداخلية التي ستؤدي إلى تضعضع الخلافة، وتمكَّن مملكة قشتالة، بقيادة فرناندو الثالث من فرض سيطرتها على العاصمة الأموية في 1236.

في «قرطبة الأمويين»، مونيوث مولينا يرحل عبر تاريخ المدينة منذ القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر، في تسعة فصول، يستهلُّها بـ«رجال قادمون من الأرض أو من السماء»، مع بداية الغزو الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية. بدايةً، يسرد الكاتب كيف راقب أهل المدينة هذا الزحف بتوجُّس وخيفة، وقد سبقت هؤلاء العرب أخبارهم «المريبة»، إلا أن قرطبة التي أحفَّتها روايات إخباريي القرن الثالث عشر بمشاهد مروِّعة تكاد تصل بوصفها إلى مشاهد انجيلية منبثقة من سفر الرؤيا، يؤكد الكاتب أنها لم تشهد أية مقاومة تذكر عند دخول المسلمين إليها، اللهم من الحاكم وحاشيته الذين اعتصموا بإحدى الكنائس، خصوصاً وأن أهل المدينة كان قد طفح بهم الكيل من ظلم الحكم القوطي وسيطرة رجال الدين، وأن كل هذه المشاهد لا تتعدى كونها أدبيات في إطار حرب دينية عدائية، وبالتالي لم تكن بالمأساوية التي توحي بها أخبار مؤرخي ذلك العصر. ثم إن هناك وثائق لاحقة تثبت هذه المسألة وهي المعاهدة التي وقعها عبد العزيز بن موسى بن نصير والأمير القوطي تيودومير، والتي تنص بنودها على ضمان الحماية للحاكم، عدم عزله عن السلطة أو حتى خفض مكانته أو مكانة حاشيته، عدم أسرهم أو إبعادهم عن نسائهم أو أبنائهم، عدم التعرض لهم بالقتل أو لكنائسهم بالحرق أو السطو وعدم إجبارهم على تغيير معتقدهم. فإذا ما تركنا



الأدبيات التاريخية جانبا، يتضح لنا كما يؤكد الكاتب أن «الطاعون والجفاف والجوع أتوا إلى قرطبة قبل العرب، وكانوا مُبيدين أكثر بكثير منهم».

في الفصل التالي، «الأمير الهارب»، يحكي الكاتب قصة عبد الرحمن بن معاوية، الأمير المنحدر من سلالة الأمويين الذي فرَّ هارباً من سوريا بعد تصفية أسرته عن بكرة أبيها على أيدي العباسيين، والذي سيدخل التاريخ كعبد الرحمن الأول المعروف بالداخل.

عبد الرحمن كما يقول مونيوث مولينا، سندباد طريد، حياته أقرب ما تكون إلى «أوديسة» أوليسيس، الذي عليه أن يصنع وطنا موازيا، حيث أنه حُرِم من وطنه إلى الأبد. هذا الأمير الذي سيعيش متنقلا بين ديار الإسلام، متنكرا دائما، بلا عزاء ولا مؤازرة إلا من مولاه بدر، رفيق رحلته ومصيره، سيدخل بجيشه إلى قرطبة في 15 من مايو 756، ليبايَع من أهلها في الجامع الكبير كأمير ويشتهر تاريخيا بحبه الشديد للمغامرة والشعر وفنون الحرب.

في «المدينة- المتاهة» يصف الكاتب قرطبة الأمويين ب «متاهة من الأزقَّة والأعمدة والقصور المغلقة» و متاهة من الوجوه واللغات أيضاً، مدينة مولَّدة تتماهى فيها الثقافات الثلاث، حيث المسيحيون واليهود يتحدثون ويكتبون باللغة العربية، مع احتفاظهم بلغتهم الأصلية، وحيث لا أحد ولا حتى الأرستقراطيون الذين يفتخرون بسلالة عريقة تنتهي إلى قبائل ضاربة جذورها في القدم، يستطيعون المفاخرة بـ«نقاء الدم». يذكر تفاصيل مهمة ومعبرة عن الحياة اليومية لهذه المدينة التي تتمتع بهذه التركيبة الحضرية المميزة، ويصف بعض المنازل والشخوص والتقاليد التي تخضع لمعيار وعقلية ذلك العصر.

ثم ينتقل إلى قرطبة عبد الرحمن الثاني ويصفها من خلال شخصيتين بارزتين عاصرتا هذه الفترة، تربط كلاًّ منهما علاقة وثيقة بالقصر : زرياب والقديس المسيحي إيولوخيو قرطبة، من خلال فصل «موسيقي بغداد و رجل الدين الغاضب».

«غابة الرموز» فصل يخصِّصه الكاتب للحديث عن الجامع الكبير ومعماره المليء بالرموز، وعصر ازدهار قرطبة الأمويين الذي جسَّده عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر، أول خليفة للأندلس، لتشهد بذلك الخلافة الإسلامية انشقاقا لأول مرة في تاريخها، بوجود خليفتين في الوقت نفسه: العباسي في المشرق، والأموي في الأندلس، .

في «الكتب والأيام» يستعرض مونيوث مولينا فترة خلافة الحَكَم الثاني الذي لقِّب بـ«سيد الكتب» كناية عن شغفه الشديد بالكتب وحب الاطلاع، صاحب مكتبة ثمينة قورنت من حيث أهميتها بمكتبة الاسكندرية، والطريف في الأمر أن مكتبة الحكم لم تكن إلا إحدى أجنحة قصر الخلافة، وإن تمَّ نقلها فيما بعد إلى مبنى جديد، عندما ضاقت أرجاء القصر بما تحويه من نماذج ولم تعد تستوعب الزيادة المطَّردة للكتب، ليستغرق نقلها ستة أشهر كاملة.

الكتاب عبارة عن مسار تاريخي ينقلنا من خلاله مونيوث مولينا إلى قرطبةٍ في أوج بريقها وإشراقها، بجوِّها وحياتها اليومية وشخوصها، بأساطيرها وطرائفها، مستحضراً ذلك الماضي القرطبي المذهل بأدق تفاصيله، بنثر متألق يجعل من الكتاب، بالإضافة إلى مرجع تاريخي مهم، تحفة فنية فريدة.

المؤلف: أنطونيو مونيوث مولينا – عدد الصفحات: 238 ص – تاريخ النشر: 2007
التوثيق الأجنبي: Antonio Muñoz Molina. CÓRDOBA DE LOS OMEYAS
Fundación José Manuel Lara، Sevilla، 2007
اللغة: الإسبانية

ما تدين به أوروبا لإسلام إسبانيا

يعتبر مؤلف الكتاب، خوان برنيت، أحد رواد حركة الاستعراب الإسباني، وهو مؤرخ معروف وأستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة برشلونة، وعضو في الأكاديمية الملكية للتاريخ ومعهد الدراسات الكتلانية، إلى جانب مؤسسات علمية أخرى. صاحب رصيد ضخم من الأعمال التاريخية والأدبية، لديه أزيد من ثلاثمائة مقال وأربعون كتابا حول الأدب العربي وترجمات عدَّة، أهمها كتاب «ألف ليلة وليلة» وترجمة للقرآن الكريم، إلى جانب سيرة للرسول، بعنوان «محمد».

«ما تدين به أوروبا لإسلام إسبانيا» تعتبر أضخم دراسة قام بها وأكثرها طموحاً، فهو يحاول القيام بعملية جرد لكل الإرث الثقافي والعلمي الهائل الذي تركه المسلمون بإسبانيا على جميع الأصعدة، ويصف عملية نقل المعارف والعلوم الشرقية واليونانية التي تمَّت عبر إسبانيا المسلمة إلى أوروبا، وهو إذ يقوم بهذا الجرد التاريخي، يعير اهتماماً خاصا لنشاط ما سمي بـ«مدرسة طليطلة للمترجمين»، وهي مؤسسة لعبت دوراً أساسياً في نقل شتى المعارف من اللغة العربية إلى اللاتينية أو الإسبانية أو العبرية، وامتدَّ أثر نشاطها حتى القرن السابع عشر.

جاءت هذه الدراسة في تمهيد و أحد عشر فصلاً، أوَّلها «مقدمة تاريخية» يقف فيها برنيت عند بعض المحطَّات التاريخية الأساسية، ابتداء بصدر الإسلام والمراحل الجذرية التي عرفها، لينتقل بعد ذلك إلى العصر الأموي فالعباسي، وهنا كمؤرخ صارم، يوجِّه نقداً لاذعا للدولتين الأموية والعباسية والأسس الزائفة التي قامت عليها كل من الدولتين، ويندِّد باستغلالها السافر للدين من أجل مآرب سياسية واتخاذ خلفائها لألقاب توحي بكونهم ممثلين مباشرين للسلطة الإلهية على الأرض، ويعطي نماذج لانحراف بعض هؤلاء الخلفاء عن تعاليم الإسلام.

يتطرق بعد ذلك للإمارة العربية في إسبانيا وقيام الدولة الأموية الثانية إلى أن يتوقف عند ملوك الطوائف ووصول الزحف البربري، من شمال أفريقيا.

الفصل الثاني يذكر «مظاهر إرث العصور القديمة في العالم العربي»، كنظام الترقيم وعلم التنجيم والبحوث الطبية لديوسكوريديس، في الفترة التي كانت فيها اللغة اللاتينية لغة الثقافة في الغرب.

الفصل الثالث يخصِّصه برنيت للحديث عن حركة الترجمة التي بدأت تنشط في الشرق ابتداء من العصر العباسي،



خصوصاً من اليونانية واللاتينية واللغات الشرقية كالسريانية والفارسية، وقد حظيت العلوم الطبية والفلكية بالاهتمام الأكبر، وإن أخذت الآداب أيضاً حقها من الاهتمام.

وهكذا كان للترجمة إلى اللغة العربية دور كبير في إنقاذ رصيد مهم من العلوم القديمة، كانت سببا في وصولها إلينا اليوم، إذ أن العديد من المراجع التي فُقِدت باللغة الأصلية، أنقذتها الترجمة إلى اللغة العربية، لتصل إلى أوروبا وتترجم من جديد إلى اللغة اللاتينية، انطلاقا من ترجماتِها العربية. يشير الكاتب أيضاًإلى قصور بعض الترجمات ووقوع أصحابها في النقل الحرفي دون مراعاة المعنى وفي الكثير من الأخطاء، التي تعزى لعدم الفهم أو عدم الدعم للمترجمين، إلا أنه ابتداء من النصف الثاني للقرن الثامن، نظرا لازدياد اهتمام الخلفاء بالمعرفة والعلوم الإغريقية ووعيهم بضرورة نقل هذه المدارك إلى اللغة العربية، أحاطوا حركة الترجمة برعاية خاصة، انعكست بشكل إيجابي ليس فقط على حجم المعارف المنقولة، بل أيضاً على مستوى الجودة والأمانة في نقل النصوص.

الترجمات الأولى من العربية إلى اللغة اللاتينية بدأت في القرن العاشر، الذي يمثل بداية وفود بعض العلوم العربية إلى العالم اللاتيني عبر الأندلس، في المجال التقني، وهو ما يتطرق له الفصل الرابع بعنوان «العلوم في القرنين العاشر والحادي عشر».

الفصلان الخامس والسادس يركِّزان على «العلوم في القرن الثاني عشر» والدور الذي لعبته «مدرسة طليطلة للمترجمين» مذ أسسها المطران دون رايموندو، والتي جمعت ثلة من المفكرين والمترجمين البارعين، هم من سيحملون على عواتقهم مسؤولية صبِّ هذه المعارف إلى اللغة اللاتينية أو حتى العبرية، وهم من سيعرِّفون أوروبا على العلوم الشرقية واليونانية القديمة، وإسهاماتها في كل من الفلسفة والعلوم الباطنية والرياضيات والفلك والتنجيم والبصريات والكيمياء والطب.

الفصول الثلاثة التالية تستمر في رصد طريقة وصول هذه العلوم وتلقي هذا الإرث الهائل في أوروبا، خلال القرن الثالث عشر والعصور اللاحقة، في شتى المجالات التقنية والعلمية، كالفيزياء والكيمياء والملاحة وعلم النبات، ويفرد لها الكاتب بالدرس مجالاً واسعاً.

أما الفصل الأخير من الكتاب فيركِّز على الفن والأدب عند الإسبان-العرب والروابط الوطيدة التي نشأت بين الشرق والغرب والتلاقح الذي تمَّ بين الثقافتين لينعكس بشكل كثيف على مجال الأدب، بكل أجناسه وأغراضه.

ويشير الكاتب أيضاً إلى الدور الذي لعبته مكتبة الحكم الثاني في تنشيط حركة الأدب، وبلهجة لا تخلو من الحسرة يذكِّر القارئ بأن تلك المكتبة التي ضمَّت أربعمائة ألف مجلد، لم يبق منها الآن إلا كتاب واحد، تحتفظ به إسبانيا اليوم.

«ما تدين به أوروبا لإسلام إسبانيا» عمل مرجعي بكل المقاييس، يقرِّبنا من حقبة تاريخية كانت فيها إسبانيا -كما يقول عنها جورج سارتن- «أكبر مركز ثقافي في العالم بفضل المسلمين».

المؤلف: خوان برنيت خِنيس – عدد الصفحات: 560ص – تاريخ النشر: 2006
التوثيق الأجنبي: Juan Vernet Ginés. LO QUE EUROPA DEBE AL ISLAM DE ESPAÑA
El Acantilado، Barcelona، 2006.
اللغة: الإسبانية

دول ملوك الطوائف: تفكك سياسي وازدهار ثقافي

الكتاب ثمرة جهد لثلَّة من المؤلفين بتنسيق من بيير غيشار، الذي يُعتبر من أهم المختصِّين في التاريخ القروسطوي ومرجعية عالمية في التاريخ الأندلسي، ويصوِّر فترة دول ملوك الطوائف في القرن الحادي عشر، التي مثَّلت آخر مراحل الحضور الإسلامي في الأندلس وبدايةَ نهايةِ حضارة دامت ثمانية قرون.

على إثر أزمة الخلافة بقرطبة وتضعضعها، بعد سلسلة من الأحداث المطَّردة، تكمن وراءها عوامل اجتماعية وسياسية وثقافية ليس من السهل تحديدها دائما ـوالتي ستسفر عن تفككها السياسي ـ يعرض المؤلفون بالتحليل لهذه «الدويلات» بشكل دقيق ـوذلك باللجوء إلى مصادر وفيرةـ ويخصُّون بالتحليل تعُدد أصولها، العلاقات التي كانت تربطها، ثم علاقاتها بجيرانها في الشمال، التركيبة العسكرية، الاقتصاد، الثقافة والتطور الفني، في الوقت نفسه الذي يظهرون فيه بوضوح نقاط الضعف والقصور السياسي الذي سيقودها إلى نهاية مأساوية.

الكتاب من إحد عشر فصلاً، ينطلق من فترة تاريخية أصبحت الخلافة الأموية خلالها على شفا انهيار، وبات تفكّكها وشيكاً، وهي فترة لم تستغرق وقتاً طويلاً، بحيث يمكن حصرها بين 1008 و 1031، تمخَّضت عن سلسلة من الصراعات الباطنية وتضعضع في السلطة المركزية، أدت إلى الانقسام السياسي وجعلت الأندلس يتأرجح ما بين أطماع الحموديين والأمويين، والتي ستسفر أخيرا عن نشوء قوى مستقلة، بعضها ذات مشروعية أكثر من مشكوك بها.

وهكذا ستتشكل عشرات الكيانات سيشارف عددها على الثلاثين دولة، متفاوتة الأهمية، مختلفة الطبائع والأصول، والتي ستعرف تاريخيا باسم دول «ملوك الطوائف»، ممثِّلون وهميون لخلافة قرطبية لم يعد لها وجود، مما يدلُّ على أن هذا الواقع المرير كان أكبر من أن يدرك حقيقةً، ولربما كان التعامل معه آنذاك كأزمة سياسية مؤقتة، ـوإن كانت في ذات الآن ـ مفتوحة الأمد.

معظم هذه الدويلات كانت أندلسية، يحكمها مولَّدون أو عرب كانوا قد اندمجوا تماماً في المجتمع الأصلي، كانت مملكة التوجيبيين بسرقسطة أهمها وأسبقها في الإعلان عن ذاتها، لكن كانت هناك دول أخرى حكمتها أسر بربرية وأخرى سيطر



عليها أفراد منبثقون عن المرتزقة الصقالبة. لكن تجدر الإشارة إلى أن ممالك الطوائف، حتى عندما كانت في أوجها، كانت في حقيقة الأمر قِوى أسَرية ذات استقرار نسبي، أكثر منها دولا، إذ تميزت بعدم استقرار في جغرافيتها السياسية وتمدُّد وتقلُّص مستمر في تخومها، وصل في بعض الأحيان إلى ابتلاع بعض من هذه الدويلات للأصغر منها.

مع أواسط القرن الحادي عشر، الذي تزامن مع فترة حكم ملك قشتالة وليون، فرناندو الأول، بدأ الضغط العسكري والجبائي يتزايد من الجانب المسيحي على ملوك الطوائف، وفي عهد ابنه ألفونسو السادس، ستستسلم طليطلة (سنة 1085). شكَّل هذا الاستسلام حدثا جذريا ونقطة تحوُّل في التاريخ القروسطوي، وإن كان سببا مباشرا أيضاًفي أن تسارع باقي الدويلات إلى طلب المساعدة من المرابطين، وإن كان هؤلاء أيضاًسيتحوَّلون سريعا من حلفاء إلى أصحاب سلطة، مستغلين القوة والنفوذ الذي سيحظون به بعد تغلبهم على ألفونسو السادس، لتكون نهاية ملوك الطوائف «بين المسيحيين والمرابطين».

من الناحية الاجتماعية، يتحدث المؤلفون عن مجتمع معرَّب إلى حد كبير ومتماهٍ مع العالم الإسلامي الكلاسيكي، فقد استطاع الخمسون ألف عربي ـ وما يقارب ضعف هذا العدد من البربر ـ من مواقع السلطة التي كانوا يشغلونها، أن يفرضوا نظاماً اجتماعياً وثقافياً ودينياً جديداً، تبنته شيئا فشيئا فئات مهمة من المولدين الذين اعتنقوا الإسلام، وإن لم تَخلُ هذه الفترة من ثورات قامت بها هذه الشريحة، وهجرات واسعة إلى مناطق نفوذ مسيحية، تعزى إلى شعورها بالتمييز في ظل مجتمع لا يمكننا أن ينكر عن نفسه صفة الطبقية.

اليهود الأندلسيون، بالمقابل، الذين كانوا يتمتعون بصفة أهل الكتاب أيضاً وبحماية خاصة ومكانة اجتماعية واقتصادية بارزة، لم يشاركوا قط في هذه الثورات، إلا أن هذا الوضع سيتغير جذرياً مع قدوم المرابطين من شمال أفريقيا.

على عكس الانكسار السياسي الذي ميَّز هذه الحقبة التي كانت بمثابة احتضار طويل في تاريخ الأندلس الإسلامي، نجد ازدهاراً ثقافياً وفنياً لا يضاهى، تألقت معه الآداب والفنون، ومن نافلة القول إنها باتت لا تبارح مجالس هؤلاء الملوك حتى شغلتهم عن السياسة وأمور الدولة، فقد استطاع ملوك الطوائف مواصلة الازدهار الثقافي للخلافة، إلا أنهم عجزوا عن امتلاك قوتها السياسية والعسكرية، وسقطوا في الفخ المزدوج للجبايات والضغط المستمر الذي كان يمارَس عليهم من الملوك المسيحيين من جهة، ومن جهة أخرى، أمام امتداد النفوذ البربري للمرابطين. هؤلاء وإن كانوا بدايةً قد مكَّنوا هذه الدويلات من الاستمرار لمدة أطول ـ بمواجهتهم للمسيحيين ـ وبشروط مختلفة عن التي عهدوها قبلاً، سيصبحون بمثابة «حصان طروادة»، متمكِّنين من خلع ملوك الطوائف وإعادة توحيد الأندلس تحت لوائهم، على عهد يوسف بن تاشفين.

على أن هذا التوحيد لم يكن شاملاً، إذ ظلت طليطلة معقلاً للمسيحيين، الذين ستقوى شوكتهم لاحقاً، ولن تستطيع الدولة المرابطية أيضاً، رغم قوتها، منع سقوط سرقسطة في يد ألفونسو الأول ملك أراغون.

المؤلف: مجموعة مؤلفين – عدد الصفحات: 327ص – تاريخ النشر: 2006
التوثيق الأجنبي: VV.AA. Los reinos de taifas. Fragmentación política y esplendor cultural
El Acantilado، Málaga، 2006
اللغة: الإسبانية



وهم الأندلس

«وهم الأندلس» لمؤلفه سيرافين فنخول، كتاب وكاتب كلاهما مثير للجدل.

فنخول، أكاديمي معروف ومستعرب يُشهد له بالدراية الواسعة في هذا الميدان والإلمام بالتاريخ. خريِّج قسم الدراسات السامية، يعمل حاليا كأستاذ للأدب العربي بجامعة لا أوتونوما بمدريد، وهو صاحب عدة دراسات أدبية كـ«الأدب الشعبي العربي» و «أغاني شعبية عربية و»الموال المصري»، ولديه أيضاً عدة ترجمات أبرزها «كتاب البخلاء» للجاحظ، و«مقامات بديع الزمان الهمذاني». إيديولوجياً، انتقل فنخول -الذي اغتيل جدُّه على يد «الجبهة الشعبية»- من الصف الشيوعي إلى مواقف تميل إلى اليمينية. كان قبل هذا المؤلَّف قد نشر كتاباً سماه «الأندلس ضد إسبانيا: صناعة الوهم» (2000)، كان نجاحه وراء نشر الكتاب الذي بين أيدينا.

«وهم الأندلس» عبارة عن مجموعة من المقالات المستقلة، وإن كانت متقاربة من حيث المضمون، يقول الكاتب أنه يتوخَّى من خلالها هدم «الأساطير» التي لطالما أحاطت تاريخ الأندلس، والتي ما زالت –على حد قوله- سائدة في الأوساط الثقافية والسياسية، ويزعم فنخول أنه من واجب المؤرخ أن يتوخى الموضوعية، قبل مراعاة عنصر المحاباة أو مجرد ما هو صحيح سياسيا.

وفي هذا السياق، يقول المؤلف إن الأندلس لم يكن استثناء تاريخيا: برغم أن هذه الفكرة قد تكررت حتى الثمالة وبرغم أنها مترسخة في الخطابات السياسية والمقالات والصحف والإعلام، وحتى في المخيلة الشعبية الجماعية، إلا أن هذا الموقف لا يعدو أن يكون أسطرة لتاريخ لم يكن مجيداً ولا نظيفاً بالقدر الذي صُوِّر لنا. من يتحدثون عن فرادة الأندلس هم في الحقيقة أصحاب نظرة متحيزة تفتقر إلى الموضوعية، يجهلون أو يتجاهلون ماهية الإسلام القروسطوي والمعاصر على حد سواء، وأن شبه الجزيرة الإيبيرية لم تكن مسرح المواجهة الوحيد بين هذه الديانة وثقافتها من جهة، وبين ديانات المناطق التي غزاها العرب مثل صقلية وبلغاريا واليونان ويوغوسلافيا والهند. كلها أراضٍ دخل إليها الإسلام بحدِّ السيف، وانتهى بالتراجع عنها بسبب ردة فعل السكان الأصليين على المدى البعيد، أو بسبب قدوم غزاة جدد.



يذهب فنخول إلى أبعد من ذلك فيقول بإن الأندلس لم تكن يوما ذلك الفردوس الذي تتغنى به الأشعار، وإن الحديث عن «تعايش الثقافات الثلاث» خلال هذه الفترة هو ضرب من الوهم. حسب رأيه الخاص، هذا التعايش كان في أحسن الأحوال تزامنا وتجاورا لم يكن يرغبه أحد من الأطراف. ثم إن الانتماء لم يكن يحدِّده الموقع الجغرافي أو العيش داخل مملكة أو أخرى، وإنما الدين، بشكل أساسي. وعلى هذا الأساس يقول الكاتب، كان الدين الأكثر قوة آنذاك، مسؤولاً ليس فقط عن مذابح دورية للديانتين المتبقيتين، بل أيضاً عن حالة إخضاع عامة للمناطق الأخرى، أقرب إلى التمييز العنصري منها إلى التسامح الذي نتحدث عنه اليوم، ويعطي كمثال على ذلك قصة الفيلسوف اليهودي ابن ميمون، الذي أُجبِر على اعتناق الإسلام، ثم نُفِي إلى مصر لاحقاً وحكم عليه بالإعدام، لأنه عاد إلى يهوديته.

ويُنكِر فنخول النظرية القائلة بأن الإسبان ينحدرون غالبا من عرب الأندلس ويجزم بأن هؤلاء، بعد الزحف المسيحي، تمَّ طردهم وتعويضهم بساكنة جديدة هاجرت من الشمال، ذات جذور أوروبية هي أساس التركيبة الإثنية للإسبان الحاليين. أما بالنسبة للزيجات المختلطة، فيقول الكاتب بأنها كانت شبه استثنائية، بسبب معارضة الدين أوَّلا، والرفض المتبادل بين أفراد كل من المجموعتين، وينتهي إلى أن أصول الإسبان تتماهى جذورها مع الثقافة اللاتينية والمسيحية الغربية، كما هو الشأن بالنسبة لباقي القارة الأوروبية، التي كانت تُعرَف بموقفها الرافض للإسلام.

كما أن الإسبان المسيحيين ظل لديهم شعور بالانتماء إلى الفترة القوطية التي سبقت الإسلام ورغبة في استرجاع الوحدة الترابية المفقودة، وهذا الشعور هو الذي انبنى عليه ما سيعرف لاحقاً باسم «إسبانيا».

لا يتنكَّر الكاتب للجذور التاريخية والإثنية للإسلام بالأندلس فقط ، بل يُنكِر أيضاً أن يكون لهذه الثقافة إسهامات تُذكَر أو أثر في تشكُّل الثقافة الإسبانية الحالية، فعلى حدَّ زعمه، الآثار المعمارية الإسلامية طرازها روماني بالأصل، أما المصطلحات العربية التي دخلت اللغة الإسبانية فلا تتعدَّى نسبة 0،6 بالمائة، آل معظمها إلى النسيان، لكونه يتعلق بأدوات وآلات فلاحية لم تعُد تستعمل الآن.

في هذا الكتاب، يخصِّص فنخول فصلا للحديث عن الرواية التاريخية، وكان قد ضمَّن كتابه الأول مقاطع نقدية لمواقف بعض الكتاب والصحفيين والسياسيين، ملفتا النظر إلى ما اعتبره أخطاء فادحة، كالتي برأيه يقع فيها أنطونيو غالا أوخوان غويتيسولو. أما هنا فينتقد وبشدة كتَّابا مثل ميريمي ونوا غوردون، وغيرهم، من الذين -بحسب رأيه- يقومون بتوظيف ماض وهمي تاريخيا لا أساس له من الصحة.

يبرِّر فنخول كل هذه الآراء بكون الكتاب محاولة لكشف «الوهم» الذي يحيط بهذه المرحلة التاريخية، «دون عُقَد من أي نوع»، لكن الكاتب، للأسف، يوظف معلوماته حول الموضوع بطريقة متحيزة، وفي أحيان كثيرة، بتحزبية فاضحة.

المؤلف: سيرافين فنّخُول – عدد الصفحات: 271ص – تاريخ النشر: مدريد، 2006
التوثيق الأجنبي: Serafín Fanjul. LA QUIMERA DE AL-ANDALUS
Editorial Siglo XXI, Madrid، 2006
اللغة: الإسبانية

الثورة الإسلامية في الغرب: أسطورة الغزو العربي لإسبانيا

«الثورة الإسلامية في الغرب: أسطورة الغزو العربي لإسبانيا» كتاب أقلُّ ما يمكن أن يقال عنه أنه مثير للدهشة، ولا يمكن قراءته دون الاصطدام بالعديد من الإقرارات التي يقدِّمها الكاتب على أنها حقائق تاريخية. ولم يكن لمثل هذا الكتاب أن يمرَّ دون أن يثير زوبعة من النقد، منذ إصداره لأول مرة، قبل أكثر من ثلاثين سنة. في 1966، إغناثيو أولاغوي أرسل مسودَّة الكتاب إلى فرناند بروديل، الذي بعثها بدوره إلى جون بارت، لينشر هذا الأخير نسخة مختصرة عنه باللغة الفرنسية سنة 1969 بباريس، تحت عنوان «العرب لم يغزوا إسبانيا قطّ ». هذا الإصدار حظي بنجاح كبير في فرنسا، لكن النسخة الكاملة للكتاب لن تُنشَر بإسبانيا قبل سنة 1974.

إغناثيو أولاغوي (1974-1903)، عالم إحاثة ومؤرخ إسباني، صاحب عدد لا بأس به من الأعمال العلمية والأدبية والتاريخية، من بينها «انحطاط إسبانيا»، و«الثورة الإسلامية في الغرب»، يقدِّم من خلال هذه الدراسة نظرة غير كلاسيكية وقراءة فريدة لما يسمى بــ «الغزو الإسلامي» لشبه الجزيرة العربية في القرن الثامن، ويقترح تفسيرا بديلا لما حدث تاريخيا في شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث يذهب إلى أن «الأندلس» ما هو إلا ظاهرة إسبانية محضة، تمخَّضت عن «ثورة إسلامية»، جاءت كنتيجة لتطور دام قرونا.

الكتاب في نسخته الإسبانية الكاملة، يتضمَّن تمهيداً وثلاثة أجزاء هي: المشكل التاريخي، الثورة الإسلامية، والفن الأندلسي، بالإضافة إلى الخاتمة والملحقات. ويخصِّص أولاغوي ما يزيد عن الخمسمائة صفحة لهذه الدراسة، لمحاولة إقناع القارئ بأن الحضور الإسلامي على الأرض الإيبيرية لم يكن نتيجة لغزو عسكري ولا لحضارة عربية إسلامية دخيلة، بل هو ظاهرة أصلية تحوَّرت لعصور في قلب شبه الجزيرة الإيبيرية، ساهم وصول مبشِّرين مسلمين إلى أرض مهيأة للإسلام في انبثاقها، إذ أن المسيحية الكاثوليكية الثالوثية لم تكن قد ترسَّخت بعد، بما فيه الكفاية، بينما لم تختفِ تماماً المعتقدات الوثنية والغنوصية والآريوسية التي كانت سائدة من قبل. هذه الأخيرة، بشكل خاص، -وهي مذهب ديني انشقَّ عن المسيحية الثالوثية في القرن الرابع، ينفي ألوهية المسيح وفكرة الثالوث المقدس- شكَّلت النواة الأولى للأندلس المسلم.



بتعبير آخر، ما حدث تاريخيا كان نتيجة لفشل الدولة التيوقراطية أو الدينية القوطية، تلته حرب أهلية بين طرفين هما مناصرو رودريك، المدافعون عن الكاثوليكية الثالوثية، وأتباع الآريوسية الوحدوية، بتدخُّل من القادة الإقليميين، الثائرين ضد السلطة المركزية.

هذا الوضع الخاص، مهَّد لقبول التأثيرات الإسلامية الأولى، التي لم تأت عبر مضيق جبل طارق، وإنما عن طريق ميناء ألمرية -شرقَ الأندلس- ، لتنتشر هذه التأثيرات فيما بعد، في اتجاه الجنوب والشمال الشرقي.

نتيجة لهذا التقارب العقائدي والتمازج الثقافي الطبيعي بين الإسلام والآريوسية -وليس لأسلمة بحدِّ السيف- نشأت حوالي القرن العاشر ثقافة أصلية فريدة من نوعها، هي «الأندلسية» لم يكن أبطالها عرباً ولا برابرة، بل السكان الأصليون لشبه الجزيرة، وهي الثقافة التي يدين لها الغرب بالتطور، ثقافة «محمدية» ذات طابع متحرِّر ستصل أوجَّها في القرن التاسع وتستمر إلى القرن الثاني عشر، حيث ستبدأ بالانحطاط بسبب دوغماتية الغزو المرابطي والموحِّدي، على التَّوالي.

ويستند أولاغوي في طرحه هذا، لتفنيد فكرة الغزو الإسلامي العربي إلى أنه لا يمكن تصوُّر كيف استطاعت «شرذمة من الساميين» أتت من الصحراء الآسيوية والافريقية أن تغزو جزءا من أوروبا وتفرض سيطرتها عليها وتُدخلها في عقيدتها، بالسهولة التي يصوِّرها التاريخ، نظراً لعددها القليل، من جهة، و لقلة الوسائل اللوجستية التي كانت في متناولها آنذاك والتي تجعل هذه العملية أمراً مستحيلاً.

ويذهب أولاغوي أبعد من هذا كله عندما يجزم بأن هذه الحضارة الأندلسية التي تجد في مسجد قرطبة أهمَّ صروحها ومظاهرها، تدين للآريوسية بهذا الفضاء المميز، الذي لا تمكن نسبته لا للشرق ولا للغرب، إذ لم يكن في الأصل لا مسجداً مخصَّصاً للطقوس الإسلامية ولا كاتدرائية لأداء الطقوس المسيحية، وإنما معبداً آريوسياً تطوَّر لاحقاً إلى مسجد إسلامي. وأنَّ من عُرِف تاريخياً بعبد الرحمن الداخل، لم يكن في الحقيقة سوى محارب قوطي، تشير ملامحه الشقراء وعيناه الزرقاوان إلى أصله الأوروبي، أصبغ عليه المؤرخون العرب لاحقا لقب الأموي، ثم على عهد عبد الرحمن الثاني، نظرا لنشاط التبادلات التجارية والسياسة الحليفة للإسلام التي رافقها نشاط في الأدب وحركة الدعاة العرب، بدأت في التنامي ظاهرة ابتداع السلالات العربية بين النُّخب الحضرية، وبدأت بذلك حركة تعريب تدريجية انتهت بتنحية اللاتينية واللغات العامية المنحدرة منها.

كتاب بهذا الكمِّ من المفاجآت -والمفارقات أيضا- حول تاريخ إسبانيا، لم تكن لتغفل عنه أقلام النُّقاد، خصوصاً وأن منطق أولاغوي وإقراراتِه بقدر ما تبدو مُطلقة، تبدو ضعيفة أو غير مدعومة بدلائل قوية. فقد أشار بيير غيشار إلى نقاط ضعف الكتاب وإلى مفارقة نفي الغزوالعربي وإثبات «المشرقة»، أما بيدرو تشالميطا في كتاب «الغزو والأسلمة» فقد كان أكثر انتقاداً للكتاب إذ وصفه بأنه لا يتعدى مجرد الشَّطح الطوباوي الناتج عن الجهل بمعطيات الفعل التاريخي، ويؤكد أن الغزو العسكري كان عاملاً أساسياً للأسلمة، إلا أنه لم يكن الوحيد. فيما يعترف مؤرخون آخرون كتوماس غريك بقيمة الكتاب وإسهاماته، إذ يستثير قضايا مهمة كضرورة مراجعة بعض المسلَّمات التاريخية وإعادة النظر في مدى مصداقية المصادر التاريخية المتوفرة، لكنه لا يؤيِّد -مع ذلك- جملة ما يذهب إليه المؤلِّف.

المؤلف: إغناثيو أولاغوي – عدد الصفحات: 532 ص – تاريخ النشر: 2004
التوثيق الأجنبي: Ignacio Olagüe. La revolución islámica en Occidente: el mito de la invasión árabe de España. Plurabelle Córdoba، 2004.
اللغة: الإسبانية

الغزو والأسلمة: خضوع إسبانيا وتشكِل الأندلس

يغطِّي هذا الكتاب جزءاً من تاريخ الأندلس، وينطلق تحديدا من بداية الغزو الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية ليعرض بالدراسة لما يسمَّى بأسلمة شبه الجزيرة (ما بين 91 هــ / 710 م، و172 هــ/788 م)، وهي مسألة لم يتفق حولها المؤرخون، لذلك تشكِّل محور نقاش مهم في الكتاب الذي يقدِّم جميع الأطروحات التي صيغت حول هذه النقطة، بطريقة يصبو الكاتب إلى أن تكون محايدة ومنطقية، ولذلك يحدِّد بداية ما يجب أن يفهمه القارئ من خلال مصطلح «تاريخ» و «أندلس» تفادياً لسوء الفهم.

بِيدرو تشالميطا خندرون، أستاذ الدراسات العربية في جامعة لا كمبلوتينسي بمدريد، يحصر هدف هذه الدراسة في نقطة معينة ألا وهي تفسير كيفية نشوء أو تشكل الكيان الإسباني وطبيعته من خلال التركيبة السكانية في بعض المناطق، خلال فترة زمنية معينة، بشكل عملي وبعيدا عن الانفعالات العاطفية، لأن التأريخ بالنسبة إليه هو عملية بحث موضوعية وغير متحيزة. ومع تسليمه بأن المعلومات التي تكون في متناول المؤرخ هي مجتزأة ومبتورة، ومع مراعاة أن إعادة البناء التي تقوم على تجميع مسبق للأحداث والآثار التي خلَّفتها مجموعة إنسانية، هي عملية مقيدة ومرهونة بما قد يُكتشف لاحقاً، إلا أنه يجزم بأن التاريخ يجب أن يتجاوز مجرد التِّعداد أو الوصف أو السرد، لمحاولة تفسير ما حدث، محترِماً دائماً مساحة الموضوعية المطلوبة بين الحدث وتأويله. إلا أن هذا الطموح يقتضي في نفس الوقت نفسه، نوعاً من التقرب أو الاتصال بذهنية المجموعة التي يؤرَّخ لها وإدراك روحها، لفكِّ رموزها وتحويل مجريات الأحداث إلى قراءة مفهومة، وهذا ما يستدعي من المؤرخ - بالإضافة إلى الاطلاع التاريخي- التطبع مع الزمن والثقافة، فهذا التطبع هو أداة الباحث التي تمكِّنه من فرز ما هو أصليّ ممّا هو ثمرة تحريف أو دسٍّ، عندما تخضع الوثائق لمجهر شكِّ الباحث العلمي.

في تطرُّقه لمصطلح «الأندلس» يوضِّح المؤلف أن علينا أن نعرِّفه انطلاقاً من مدلوله الثقافي الواسع وليس الجغرافي الضيِّق والمتغير في نفس الوقت. المؤلفون العرب يطلقون هذا المصطلح على مجموع المناطق التي تمَّ غزوها -حتى ولو بشكل مؤقت- من طرف الجيوش العربية المسلمة، في أراضٍ تنتمي الآن إلى البرتغال وإسبانيا وفرنسا. ويعتمد الكاتب على مصادر لمؤلفين عرب كابن حيان والحجاري والحميري وياقوت والواقدي لتوثيق هذا المفهوم، .Septimania الذي يشمل، وفقاً للمنظور القروسطوي العربي، حتى مملكة القوط في «سيبتيمانيا».

إلا أن «الأندلس» مفهوم ينطبق بشكل أكثر دقة على كيان سياسي ديني إيديولوجي، مارس خلال تواجده التاريخي نفوذه على منطقة واسعة، دون أن تنشأ بين هذا الكيان السياسي والفضاء الفيزيائي الذي ينتمي إليه علاقة ثابتة أو قارَّة. وبذلك لا يكون الأندلس مفهوما جيو-سياسيا غير قابل للتفكيك، وإنما ببساطة، مفهوما ثقافيا، حيث المعيارالأهم هو الإنسان الأندلسي و«أهل الأندلس»، وليس الحدود.

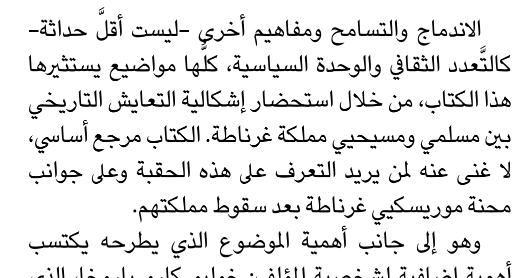
يتمحور الكتاب حول «غزو وأسلمة» شبه الجزيرة الإيبيرية، وهو موضوع أسال الكثير من الحبر بين المؤرخين الإسبان. ومع أنهم لا يكادون يختلفون حول المدة الزمنية القصيرة التي استغرقها الغزو، إلا أنهم يذهبون مذاهب شتَى فيما يتعلق بــ«أسلمة» الأندلس، نتجَت عنها خلافات عميقة وطروحات تتعارض جذريا: إذ ينزع بعضهم إلى جعل كلٍّ من الغزو والتعريب والأسلمة ظواهر آنية ومتراهنة، بينما يتعلق الأمر، في الحقيقة، بظواهر منفصلة تختلف مدتها ومراحل تطوُّرها. هذا التصور الذي كرَّس له الفكر الإنجيلي الكنسي غالباً، شبَّه هذا الثالوث التاريخي بوحش ثلاثي الرأس جسَّد غضب الإله على الأجداد المسيحيين لارتكابهم الآثام والمعاصي، وامتداداً للعقاب الذي حلَّ بأهل سدوم وعمورة، حيث أرسل الإله غضبه عليهم على شكل شواظ من نار، وجاء العقاب لأهل شبه الجزيرة على شكل «مسلمين». من يساندون هذا الطرح الآن، حتى مع تغير المنطق والتبرير، هم الأحفاد الإيديولوجيون للمنظِّرين التاريخيين لفكرة «غضب الإله» و «ضياع إسبانيا».

في المقابل، يذهب الفريق الثاني من المؤرخين -من ضمنهم مؤلف الكتاب- إلى أن الأسلمة لم تكن ظاهرة فورية، على شكل اجتياح كاسح، وإنما كانت ظاهرة تدريجية اختلفت مَّدتها بحسب الزمان والمكان، بدت متأنية خجولة أوَّل الأمر، ثم بدأت في التصاعد بشكل منظَّم ومحسوب، مع مرور الزمن. وبالتالي يتعلق الأمر بعملية تاريخية بطيئة، استغرقت قسطاً من الزمن، سرعتها المتصاعدة لا تكاد تلاحظ حتى منتصف خلافة عبد الرحمن الناصر، حيث أنه لا يمكن الحديث عن أسلمة نصف الساكنة الإيبيرية قبل سنة 930 م، ولا يمكن الاعتراف بالإسلام كديانة الأغلبية حتى النصف الثاني من القرن العاشر.

تجدر الإشارة إلى أن المؤرخ لا يُقصِر مصطلح «أسلمة» على مفهومه الديني الصِّرف، بل يستعمله بمدلوله الثقافي الشامل لتركيبة اجتماعية واقتصادية ومالية وقانونية وعسكرية وتربوية وثقافية ذات خصائص عربية إسلامية، وهذا الكمَّ من الشروط والمعايير-حسب الكاتب- يتحقق مع حكم الأمير الأول للأندلس، عبد الرحمن الداخل، وهي الفترة التي يتناولها في الكتاب بالدراسة والتّمحيص.

المؤلف: بيدرو تشالميطا خندرون – عدد الصفحات: 461 ص – تاريخ النشر: 2004
التوثيق الأجنبي: Pedro Chalmeta Gendrón INVASIÓN E ISLAMIZACIÓN: LA SUMISIÓN DE HISPANIA Y LA FORMACIÓN DE AL-ANDALUS Universidad de Jaén، Madrid، 2004
اللغة: الإسبانية

مسارات الإسلام في الأندلس



ينتمي الكتاب إلى سلسلة «مسارات ثقافية» الصادرة عن مؤسسة خوسي منويل لارا باشبيليه، لمؤلِّفه إميليو غونثالث فِرِّين، أستاذ الفكر العربي والإسلامي بجامعة اشبيلية، وصاحب «تاريخ الأندلس العام» الذي ينطلق فيه من أطروحة إيغناثيو أولاغوي في كتاب «العرب لم يغزوا الأندلس قطُّ»، ولديه أعمال بارزة أخرى في إطار التعاون الثقافي مع العالم العربي، من أهمِّها «الحوار الأورو-عربي» و«الكلمة المنزلة»، وهي قر اءة متأمِّلة في القرآن الكريم، حاز بها على جائزة خوبيجانوس العالمية للمقال.

«مسارات الإسلام في الأندلس» جولة في رحاب حضارة الأندلس، مع شخصياتها ورجالاتها الذين تركوا بصمة في التاريخ، تسلط الضوء على الأقاليم الأندلسية والعلاقات التي أقامتها مع الشمال المسيحي والشرق العربي، وتقوم بقراءة جديدة للماضي، عبر استنطاق مسارات الأدب والفن والفكر القروسطوي في شبه الجزيرة الإيبيرية.

أخذاً بالمثل العربي الذي يقول: «الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق»، يشرع غونثالث فرِّين جولته باستكشاف المسارات الآسرة لهذا «الجار التاريخي» ويعترف في تقديم الكتاب بأن رفيقه في هذا الطريق كان يَعِدُ برحلة مثيرة لا مكان فيها للملل، فهو ينطلق من مادة بيبليوغرافية متنوعة وغنية، تحوي مصادر تاريخية قيِّمة ودراسات متخصصة وشاملة، بالإضافة إلى المصادر العربية القروسطوية والآثار الأندلسية المعروفة.

والحديث عن الأندلس حديث ذو شجون، ليس فقط لأنه بطبيعته مثير للجدل، بل لأن أرضية النقاش فيه عرفت انقساماً واضحاً منذ زمن وتحدَّدت المواقف فيها بحسب التوجُّه الإيديولوجي. ولأن الكاتب لا يمكن أن يخدم سيِّدين في الوقت نفسه، الحقيقة والإيديولوجية، فإن الخيار الأول لا بد وأن يلغي الثاني، ويلغي معه عبئاً ثقيلاً يقيِّد حرية الكاتب. لذلك، فغونثالث فرِّين في هذا الكتاب يراهن على الخيار الأول، دون أن يدَّعي له كل الحقيقة، وإنما توخِّيها في كل الأحوال ومحاولة قراءتها بموضوعية. وهو إذ يقوم بهذه العملية الاستقرائية، يطمح إلى الخوض في غمار التاريخ واستحضار فصول من سير وشهادات حية، لأنه لا يستهين بذكاء القارئ الذي، لا شك، لا يبحث عن دليل سياحي بقائمة من الآثار التذكارية والشعوب التي شيدتها والحقب التي عاشت خلالها، وإنما عن قراءة للتاريخ، أعمق وأصدق.

معضلة الإسلام، حسب الكاتب، هي أنه ربما يخفي وجوده أو هويته الحقيقية خلف خنادق عميقة، تُشَيطِنُ صورته تارة، وتُأَسطِرها تارة أخرى. إلا أنه يعتقد أن المعطيات التي يمكن أن ينطلق منها الدارس وفيرة والمادة المتوفِّرة لديه تقبل أكثر من قراءة، وهذا يعني أن باب التحري واستقصاء الحقائق ما زال مفتوحاً.

لاستحضار تاريخ الأندلس، يتعقب غونثاليث في هذا الكتاب ثلاثة مسارات أساسية يعنونها «مسارات الذاكرة»، «مسار الأدب» و «مسار الفن».

في «مسارات الذاكرة» يستحضر الكاتب ذاكرة ذلك «الفردوس المفقود» الذي كان عبارة عن فسيفساء بشري وعرقي وديني وثقافي.

وهنا يقف عند شخصيات لمعت في ذلك العصر ولعبت دوراً فعّالاً في الرقي الذي وصل إليه الأندلس في تلك الفترة الزمنية: يخصص حيِّزاً للحديث عن قرطبة عبد الرحمن الداخل، صقر قريش، وهو أول أمير أموي استأنف مسيرة أجداده وجعل من قرطبة «رصافته» الثانية، ثم الحَكَم الذي اشتهر بحبه للعلم والعلماء وبمكتبته التي ضارعت في عظمتها وتأثيرها الثقافي أشهر مكتبات ذلك العصر في بغداد والإسكندرية، ولا ينسى إشبيلية المعتمد بن عباد، ما بعد تفكك الخلافة الأموية وبداية نهاية ازدهار الأندلس في عصر «ملوك الطوائف»، ويذكر عظمته التي آلت إلى مذلة بعد سقوط دولته ونفيه إلى «أغمات» في المغرب على يد المرابطين، ثم يخصص حيزا آخر للحديث عن هشام الثالث المعتدّ بالله، آخر خليفة أموي في الأندلس.

«مسار الأدب» يخصِّصه غونثالث فرِّين للحديث عن الحركة الأدبية والشعرية التي زخرت بها الأندلس في ذلك العصر، حتى صارت قرطبة قبلة للأدباء وأرباب الفكر وامتلكت إحدى أشهر المكتبات وأهمها، فقد أحاطها الأمراء والخلفاء الأمويون باعتناء بالغ، وعملوا على استقطاب كل حركة علمية أو فكرية أينما بزغت، كما أغدقوا الهبات والعطايا على الشعراء وقرَّبوهم من البلاط، حتى غدت القصور مرتعا للشعر والأدب، وكان لكل ذلك أثر بالغ في ازدهار الحركة الأدبية والفكرية في ذلك العصر.

«مسار الفن» فسحة للحديث عن جمالية الفن الأندلسي وتألقه، ينسج مسار هذا الفن والإرث الحضاري الزاخر الذي تبلور كنمط جديد، خصوصاً فيما يخصُّ المعمار والزخرفة.

من خلال هذه المسارات الثلاثة، يخلُص غونثالث فِرِّين إلى أن الأندلس كان أول النهضات الأوروبية، إذ كان معبراً للعلوم ومنبعاً تدفَّقت منه المعارف في مسارها نحو الشمال، بينما كانت أوروبا المستقبِل والمستودع الأخير لهذه النهضة الثقافية الأندلسية، فليس، إذن، بوسع من ورث هذا الزخم الثقافي أن يمارس «اغتيال الذاكرة».

المؤلف: إميليو غونثالِث فرّين – عدد الصفحات: 188ص – تاريخ النشر: 2004
التوثيق الأجنبي: González Ferrín، Emilio. Las rutas del Islam en Andalucía
Fundación José Manuel Lara، Sevilla ،2004
اللغة: الإسبانية



موريسكيو مملكة غرناطة

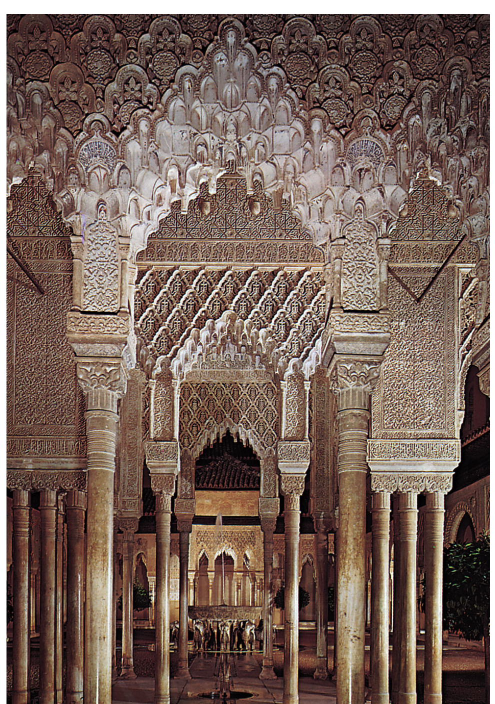
الاندماج والتسامح ومفاهيم أخرى -ليست أقلَّ حداثة- كالتَّعدد الثقافي والوحدة السياسية، كلُّها مواضيع يستثيرها هذا الكتاب، من خلال استحضار إشكالية التعايش التاريخي بين مسلمي ومسيحيي مملكة غرناطة. الكتاب مرجع أساسي، لا غنى عنه لمن يريد التعرف على هذه الحقبة وعلى جوانب محنة موريسكيي غرناطة بعد سقوط مملكتهم.

وهو إلى جانب أهمية الموضوع الذي يطرحه يكتسب أهمية إضافية لشخصية المؤلف: خوليو كارو باروخا، الذي ينحدر من عائلة أدبية، عالم اجتماع معروف وصاحب عدة مؤلفات في هذا الصدد نذكر منها « تزييف التاريخ»، «محاكم التفتيش والشعوذة» و «اليهود فى إسبانيا فى العصر الحديث». عمل أستاذاً بجامعة مدريد وعضواً بأكاديمية اللغة الإسبانية وبالأكاديمية الملكية للتاريخ، وحصل على أرفع الجوائز التي تمنحها الدولة، أهمها جائزة أمير أستورياس فى العلوم الاجتماعية.

في «موريسكيو مملكة غرناطة» يعلن كارو باروخا منذ البداية أن الكتاب ليس موجَّها للمؤرخ المحترف، ولا بالمقابل للشعراء الذين يتطلعون إلى التاريخ بعين الرومانسية، بل هو عبارة عن مقال يصنِّفه المؤلف في إطار ما يسمَّى بـ«التاريخ الاجتماعي»، ومع ذلك، في هذا الكتاب قد يجد القارئ العادي والمختص على حدٍّ سواء أسباباً ينزل بمقتضاها عنده منزلة خاصة.

يبدأ الكتاب بالحديث عن مملكة غرناطة قبيل سقوطها سنة 1492، ليقتفي الأثر التاريخي للموريسكيين منذ هذه اللحظة إلى حرب البشرات (ألبوخاراس) في 1568، التي مهَّدت لطردهم النهائي مع مطلع القرن السابع عشر. أكثر من قرنين من تعايش يصفه الكاتب بين الصعب و الصعب للغاية، منذ اللحظة التي نُقِضت فيها المعاهدات التي وقَّعها الملوك الكاثوليك وجاء هذا النَّقض بطبيعة الحال، من الجانب المنتصر. انطلاقاً من هذا المنعطف التاريخي، سيعرف الموريَسكيون الآثار الحقيقية للهزيمة، مع ازدياد سياسات التعسف ضدهم والتي ستنتهي بحرب مفتوحة، ليس قبل المرور بمرسوم سنة 1567 الذي سيتمَّ بموجبه منع استعمال اللغة العربية، إلى جانب أي مظهر من المظاهر الثقافية -وليس الدينية منها فقط- من لباس عربي أو حمام أو أسماء أو احتفالات يمارسها الموريسكيون.

تجدر الإشارة إلى أن الكتاب لا يعالج حالة مسلمي الأندلس في مجملها، بل يقتصر في الحديث على موريسكيي غرناطة، لكن لربما كانت هذه الأخيرة نموذجاً لما حلَّ بأهل الأندلس في المناطق الأخرى، مع بعض الاختلاف في التفاصيل وربما الحدَّة، لكن يبقى الجوهر واحداً، وهو حالة الاضطهاد التي تعرَّض لها المسلمون بعد انهيار دولتهم.



يشير كارو باروخا إلى أن المسألة ليست بالبساطة التي تجعلنا نصنِّف الأندلس خلال هذه الفترة إلى فريقين، فكما كانت هناك مراحل استقرار وصراع بين المسيحيين والمسلمين، كانت هناك مراحل استقرار وصراع داخل كل فريق على حدة، كما تثبت ذلك الصراعات الداخلية بين أطراف الكنيسة، فبينما كانت الكنيسة المحلية تميل إلى فكرة إدماج تدريجي طبيعي، نجد شخصية كشخصية الكاردينال ثيسنيروس ترى في التعميد الجماعي والإجباري الحلَّ الأمثل، كما يبدو الفرق واضحاً بين السياسة المعتدلة التي انتهجها نواب الملوك مثلاً واليد الحديدية التي استعملها الملك خوان دي أوستريا مع الموريسكيين بعد اندلاع الحرب. هذا الشد والجذب في فريق المسيحيين القدامى بين مناصري سياسة الشِّدة في التعامل مع الوضع ومناهضي عملية تنصير قسرية شاملة، كان محفوفا بالمشاحنات الشخصية والمصالح الاقتصادية لأسياد سرعان ما اغتنوا نتيجة سياسة النهب والسلب التي انتهجوها، ويدٍ عاملة مثَّلت وضعيتها شكلاً من أشكال الرِّق.

الجانب الموريسكي، الذي توالت فيه الثَّورات واستمرَّت تنطلق منه نداءات الاستنجاد بالأتراك أو البربر ، كان يشمل أيضاً أكثر من طرف، ف «المدجَّنون»، وهم معروفون بولائهم القديم للعرش، لم يكونوا يعامَلون كموريسكيي الداخل الذين تمَّ تنصيرهم، ولا كالمسلمين الأفارقة الذين كانوا أقل شأناً، أو أولئك المسلمين المنحدرين من سلالة مسيحية، وهم من كانوا الأكثر عرضة للإساءة، فتشبُّثهم بدينهم، على إثر حملة التنصير الواسعة بين صفوف المسلمين جعلهم محطَّ اتهام وريبة، باعتبارهم ليسوا من دين آخر فقط، بل -بحكم أصولهم المسيحية- منشقِّين أو خارجين عن الملَّة.

من جهة أخرى، يحرص الكاتب على أن يضع المشكلة في إطارها الاجتماعي ويسلِّط الضوء على مصطلح «نقاء الدم» السائد في تلك الفترة، حتى يمكَّن القارئ من إدراك بُعد جديد للمشكلة الموريسكية، فالموريسكي، مهما تنصَّر، من منظور اجتماعي، ظل ابنا لسلالة غير مسيحية أو باصطلاح العصر «غير نقي الدم» ، وبالتالي «أقل شأناً» من «المسيحي القديم». وهذا إن عنى شيئاً فإنما يعني أن مسلمى الأندلس جملةً، سواء من تنصَّر منهم أو من احتفظ بعقيدته سراًّ، قد تعرضوا تاريخياً للاضطهاد. لكن في الوقت نفسه، يذكر الكاتب نماذج لعلاقات طيبة ربطت بين مسلمين ومسيحيين والعديد من الزيجات المختلطة فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، أسهمت في تخفيف وطأة الحياة على المسلمين الذين آثروا البقاء في الأندلس رغم تعرُّضهم لملاحقة محاكم التفتيش الدينية.

يتوقف الكاتب أيضاً عند سِمات المجتمع الموريسكي بالدَّرس والتحليل ويركِّز على إحساسه العالي بالانتماء وتشبثه بجذوره، ولا ينسى أن يتوقف عند قضية التراث الإسلامي الذي تزخر به غرناطة، والذي تركه المسلمون بعد رحيلهم عنها. والمؤلف -في هذا التحليل- ينزع بلا شك إلى الموضوعية والحياد، إلا أنه عندما يتناول الشعائر الدينية بالوصف، ربما يقع في بعض اللبس، حيث يخلط أحيانا ما بين هو ديني وما هو مجرد طقوس من وحي الثقافة الشعبية.

ومع ذلك، قيمة الكتاب، كقراءة موضوعية للتاريخ ودراسة جادة في علم الاجتماع، لا تنكر، عدا أن أسلوب المؤلف الذي لا ينقصه عنصر التشويق والربط المتقن بين الفصول، يجعل منه قراءة سهلة وشيقة.

المؤلف : خوليو كارو بَرُوخا – عدد الصفحات : 376 ص – تاريخ النشر : 2003
التوثيق الأجنبي: LOS MORISCOS DEL REINO DE GRANADA Julio Caro Baroja
Alianza، Madrid، 2003
اللغة: الإسبانية

الأندلس: 712 -1492

يُعدّ مؤلف هذا الكتاب أحد أبرز الاختصاصيين في تاريخ إسبانيا المسلمة وعلاقاتها بالعالم المسيحي، وهو أستاذ تاريخ القرون الوسطى في جامعة ليون، فرنسا، وقد سبق له أن أصدر عملاً مميزاً بعنوان «صقلية المسلمة في القرنين 11 و12»، وأخر بعنوان «مسلمو بلنسية وإعادة الفتح في القرنين 11 و13». وفي كلّ مؤلفاته، كما في هذا الذي نعرض له، ينطلق غيشار من أن تاريخ إسبانيا المسلمة، أو الأندلس على وجه التحديد، لم يكن هادئاً أو وادعاً.

وحتى أيامنا هذه، تثور سجالات ساخنة بين المؤرخين، والإسبان في عدادهم، حول جوهر الأندلس: هل صارت شرقية مسلمة عربية؟ أم أنّ تأثرها بالوجود العربي والإسلامي ظلّ محدوداً، وتجاوزه الزمن بعد انحسار المالك العربية هناك؟ ولهذا فإن غيشار يعد قارئه، ومنذ الفقرات الأولى في الكتاب، أنه سوف يسعى إلى إعادة استقراء مجمل تاريخ إسبانيا المسلمة، في ضوء الخصائص الأهمّ التي ميّزت المراحل الكبرى في الحضارة الإسلامية هناك، على نحو موضوعي ومتجرّد قدر الإمكان من الأهواء الذاتية، مستذكراً أنّ التاريخ وحده هو الذي ينصف الماضي في نهاية المطاف.

ولكنه لا يغفل التشديد على حقيقة أنّ «الفتح الإسلامي للأندلس كان برهة أساسية كبرى في تاريخ العالم المتوسطي»، نسبة إلى البحر الأبيض المتوسط، صنعت منعطفات حاسمة في تاريخ المنطقة، وفي علاقات الغرب بالشرق عموماً، طيلة سبعة قرون. ولهذا يحذّر غيشار المؤرخين، العرب المسلمين والأوروبيين المسيحيين وسواهم، من «أسْطَرَة» الأندلس عن طريق تصويرها كفردوس مفقود تارة، أو اعتبارها فصلاً قاتماً من فصول انعدام التسامح بين الأديان السماوية الثلاثة.

الجزء الأول من الكتاب ينقسم إلى فصلين، ويتناول الفتح في «العهد الأميري» كما يسمّيه، أو أطوار تحالف وصراع الإمراء، كما يستعرض تاريخ الأندلس بوصفها إمارة تابعة للخلافة الأموية في الشام، وينطلق من حقائق وجود عرب يمانية في المغرب كانوا أصلاً قد هاجروا من اليمن إلى الجزيرة السورية، ثمّ لعبوا دوراً بارزاً في تسهيل الفتوحات الإسلامية في مناطق عديدة، بينها المغرب.

ويسجّل غيشار أنّ الجيوش التي تولّت الفتح كانت آنذاك تتألف من البربر والعرب والسكان الأصليين لشبه الجزيرة الإيبيرية، سواء بسواء. ومن جانب آخر، كان نظام الذمة يسمح بدرجة عالية من التعايش بين الأديان، ثمّ الأقوام، كما جرى عند سقوط إمارة طليطلة، وكيف أشرف عمّال من البربر والإسبان ـ الرومان على مساعدة العرب في نقل العاصمة من طليطلة إلى قرطبة. وفي هذا السياق، يتوقف عند ما يعتبره «نقاط ضعف» في المؤلفات التاريخية العربية عن تلك الفترة، بخصوص المغرب والأندلس تحديداً، رغم أنها تظلّ من أمهات كتب التاريخ كما يقول (تجب الإشارة، هنا، إلى أنّ معظم مراجع غيشار العربية مترجمة إلى الفرنسية والإسبانية، الأمر الذي لا يمسّ دقّة تعامله مع المصطلحات العربية).

وفي الفصل الثاني، وبعد استعراض الصراعات القبائلية بين اليمنية والقيسية، ونشوب حرب أهلية في قرطبة خلال سنوات 741 ـ 743، ينتقل غيشار إلى تفصيل القول في صعود قرطبة المستقلة، كإمارة أموية، وتوطيد سلطان عبد الرحمن الداخل، ثمّ تفاقم الخلافات بين أبنائه، ونقمتهم على أخيهم هشام الذي تولى الحكم بعد وفاة عبد الرحمن. وفي كلّ حال، بعد خسران برشلونة صارت حدود الأندلس الأموية ثابتة على وجه التقريب، ولن تتبدّل كثيراً على امتداد ثلاثة قرون.

وثمة، في هذا الفصل، وقفة مهمة عند اعتناق أهل الأندلس الإسبان، في طليطلة وقرطبة خصوصاً، لنمط الحياة الشرقية والعربية التي جاء بها المسلمون، بحيث صار رجل عراقي مثل زرياب، بمثابة مرجع العصر في المأكل والملبس والحلي والموسيقى. وفي المقابل، كان طبيعياً أن تُصاب بالضمور عناصر الجذور اللاتينية لإسبانيا المسيحية، وأن تنحسر تدريجياً أمام المدّ الإجتماعي والثقافي والعلمي والفلسفي العربي. ولهذا لم يكن غريباً أن تندلع، في الفترة بين 870 و880، حوادث الصدام التي أطلق عليها المؤرخون العرب تسمية «الفتنة»، وكانت أسبابها قبائلية في الشكل، وسياسية ـ إثنية في المحتوى.

الجزء الثاني من الكتاب يخصص غيشار لدراسة «العصر الكلاسيكي» للأندلس، والذي يبدأ مع عبد الرحمن الثالث، أوّل من تسمّى بلقب أمير المؤمنين عندما اضمحلّ أمر الخلافة في المشرق، واستبدّ الموالي الترك بسلطة بني العباس. وهو حاكم سعى إلى توسيع إمارته بعد سلسلة الفتوحات الظافرة، وتنظيم الحياة العامة، وسكّ نقود جديدة، ونسخ القرآن، وإنشاء مساجد في قرطبة، وبناء المسجد الفريد في غرناطة، فضلاً عن تشييد مقرّ الخلافة الذي سيُعرف باسم مدينة الزاهرة، ويعتبره الكثيرون بمثابة قصر فيرساي الأمويين.

وفي أقسام لاحقة من هذا الجزء، يناقش المؤلف التطوّر البارز الذي طرأ على هيكلية السلطة، وتمثّل في صعود نفوذ الوزراء والحجّاب، وتأزّم موقع الخلافة بعد ثورة قرطبة سنة 1009، وتدشين عصر الطوائف. لكنّه، أيضاً، العصر الذي شهد تنافس الامراء في ميادين أخرى غير السياسة، مثل الأدب والفنون والعلوم، بحيث صار القرن الحادي عشر أشبه بثورة ثقافية عربية إسلامية، وهذا ما يستفيض غيشار في تحليله، بأمانة وافتتان، لا سيما القسم الذي يعقده لتثمين عدد من الشخصيات الثقافية والفكرية والعلمية العربيةالأندلسية.

وإذ يتناول الجزء الثالث عهد المرابطين، ثمّ الموحّدين، وصولاً إلى سقوط غرناطة، فإنّ غيشار يعتبر هذا الحدث انطواء حزيناً لعالم زاخر بالمنجزات الحضارية المتنوعة، وبالصراعات والمصالحات، وبشيوع صيغة راقية من التسامح سوف تنقلب إلى تعصّب ومحاكم تفتيش. وإذا كان ذلك العالم قد انطوى سياسياً، فإنّ التراث الحضاري الذي خلّفه العرب في الأندلس لن يندثر على امتداد القرون.

المؤلف : بيير غيشار – عدد الصفحات : 270 ص – تاريخ النشر :2000
التوثيق الأجنبي: Pierre Guichard Al-Andalus: 712-1492 Hachette، Paris 2000
اللغة: الفرنسية

المرابطون

هذه النسخة لكتاب «المرابطون» إصدار جديد لعمل فذٍّ صدر لأول مرة سنة 6591، وهو ما زال لحدِّ الآن أكمل عمل تاريخي عن هذه الدولة التي لعبت دورا رئيسيا في التاريخ الإسلامي القروسطوي والإسباني، ما بين القرن الحادي عشر والثاني عشر. وهو لمؤلفه خثينتو بوش بيلا (5891-2291)، المستعرب الكبير الذي تقلَّد منصب أول أستاذ لتاريخ الإسلام في جامعة غرناطة، ولبعض الوقت، منصبَ مدير مدرسة الدراسات العربية بغرناطة. صاحب نتاج خصب ورصيد مهم من الأبحاث العلمية والتاريخية، من بينها مجلَّتَيْ «دفاتر عن تاريخ الإسلام» و«الأندلس الإسلامي. نصوص ودراسات»، وهي من أهم الآثار التي تلخِّص مسيرته التعليمية الثرية.

المرحلة الأخيرة من الإسلام الأندلسي جاءت مطبوعة بالعنصر البشري الشمال أفريقي، المرابطي ثم الموحدي لاحقا. هذه الحركة التي أنجبتها قبائل صنهاجة البربرية والتي انطلقت من صحراء المغرب، ساهمت عدة عوامل في ترسُّخها، كان العامل الديني أهمَّها على الإطلاق، وبسبب قوتها العسكرية والدينية والسياسية جسَّدت أكبر المفاجآت التاريخية، لمدة قرن من الزمن.

يقول بوش بيلا إن تاريخ القرون الوسطى في المغرب يتلخَّص في تاريخ ثلاث سلالات هي المرابطية، الموحدية والمرينية، تمثِّل نفوذ ثلاثة تحالفات قبلية على التوالي، هي صنهاجة ومصمودة وزناتة، وصراعاتِها عبر العصور من أجل النفوذ والسيطرة السياسية في المغرب الذي لن يعرف وحدة سياسية إلا مع قيام الدولة المرابطية، إذ أن مغرب ما قبل المرابطين كان «صورة مبكِّرة» لملوك الطوائف بالأندلس، حاله أقرب ما يكون إلى إسبانيا ما بعد سقوط الخلافة الأموية، من حيث التفكك السياسي.

كان المغرب -حسب غوتيي- قبل ظهور المرابطين، بساطاً ثلاثي اللون ونسيجاً من القبائل البربرية الحديثة العهد بالإسلام، بالإضافة إلى بعض العناصر العربية واليهودية، وفضاء مضطرب لم يكن من السهل الحديث فيه عن استقرار أو أمان. في غياب فكرة الجنسية التي تعتبر مفهوما عصريا، الرابط الوحيد الذي كان من شأنه أن يحقِّق بعض التلاحم هو الانتماء العرقي أو القبلي. ومع ذلك، سيطرة بعض القبائل أو التحالفات القبلية المتناحرة فيما



بينها على الوضع، وطابع الاستقلالية والتمرد الذي يتميز به البربر، جعل من القرن الثامن في المغرب فترة اضطراب وصراعات مستمرة حالت دون تحقيق وحدة سياسية.

القرن التاسع، سيشهد عدة تحولات وتكتلات سياسية، أهمها تجربة الأدارسة، لكنها ستظل مع ذلك دون توحيد المغرب. القبائل البربرية، نتيجة لاستيعابها التدريجي للتأثيرات الوافدة من المشرق وأقلمة تلك الأشكال السياسية والاجتماعية والدينية مع مؤسساتها وعاداتها وأعرافها ومعتقداتها الضاربة في القدم، أنجبت أسلوباً خاصاً بها يبتعد دينيا عن الإسلام الأرثدوكسي، متأثرا إلى حدٍّ كبير بالمذهب الخوارجي، ربما لأنها إيديولوجية تتلاءم والروح البربرية الاستقلالية التي تكره الخضوع أو التبعية السياسية. ومع أن الفكر الخوارجي لم يحقِّق وحدة التيارات المتعادية، إلا أنه هيأ التربة أمام الاعتراف بالسلطة الروحية لخليفة الأندلس، وولَّد في البربر هماً سياسيا وفكرة تشكيل كيان موحَّد.

القرن العاشر في المغرب هو حقبة وفود وتدفق التأثيرات السياسية والدينية القادمة من المشرق والأندلس على حدٍّ سواء، يتصدَّرها صراع قوتين وامبراطوريتين إسلاميتين، هي الفاطمية في القيروان والأموية في قرطبة، والتي كانت تتحكم عن بعد في المسرح السياسي المغربي وتُوقع بين القبائل، بهدف استئثارها بالسيطرة السياسية والدينية على شمال أفريقيا، فكان على هذه القبائل أن تحدد موقفها وتنضمَّ إلى أحد الطرفين: قرطبة التي تدعو إلى الأرثذوكسية السنية أو القيروان التي تدعو إلى التشيع. وبما أن السياسة والدين هنا يمضيان يدا بيد، فقد تكافلت عدة عوامل سياسية لتحسم المعركة لصالح المذهب السني، كان من أهمها انقسام صنهاجة الذي واكبه إنهاء التحالف مع الفاطميين في مصر والاعتراف بالسلطة الروحية لخليفة بغداد.

الخلافة القرطبية التي انتهجت دائما سياسة دفاعية ودبلوماسية تجاه البربر، استطاعت أخيرا كسب ولائهم لتكون قبائل زناتة أهمَّ حليف لها أمام تقدُّم الخطر الفاطمي الذي كان يتهدَّدها في شمال أفريقيا، قبل أن يصبح هذا الحليف البربري، لاحقا، مع الدولة المرابطية، سببا مباشرا في القضاء على آخر مظاهر هذه الخلافة، وهي دول ملوك الطوائف.

في أواخر القرن العاشر وبداية الحادي عشر، كان الأندلس والفكر الديني السائد في قرطبة قد استطاع الاستقرار في المغرب، ومع وصول المرابطين، كان كل المغرب تقريبا يتبع الفكر السني، مع بعض الاستثناءات الشيعية. المرابطون الذين قدموا من الصحراء بفكر إسلامي أرثذوكسي هم من سيكملون هذه المسيرة ويعززون تفوُّق قرطبة على القيروان، وتفوق الإسلام الغربي على الإسلام المشرقي. منذ هذه اللحظة، سيبدأ المغرب في تطوير تاريخه الخاص وسيحقِّق لأول مرة وحدة سياسية ودينية، وينطلق من ثَم إلى الأندلس، لإنشاء إمبراطورية واسعة تحمل لواء الإسلام، كانت قناة أو معبرا أساسيا لنقل حضارة الأندلس إلى المغرب.

التاريخ السياسي للمغرب يرتبط بشكل وثيق بالديني، بحيث لا يمكن الحديث عن أحدهما دون الآخر: الإسلام، برغم تعدُّد صوره ومذاهبه التي وصلت في بعض الأحيان إلى حدِّ الهرطقة في مغرب ما قبل المرابطين، كان نموذجاً جعل من المغرب القبلي كياناً قادراً على النمو والتطور وأخرجه من عزلته لينضم إلى «دار الإسلام» ويدخل تاريخ الغرب الإسلامي. المغرب، وقد أسلم تماماً خلال القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر، سيصبح حاضراً بقوة لا نظير لها، مع كل من المرابطين والموحدين والمرينيين. وما لا يمكن تجاهله، هو أن للإسلام اليد الطولى في هذا الإنجاز، فقد لعب دوراً حقيقيا في تصالح وتوحيد القبائل المتناحرة تاريخياً، وأعطاها شخصية قوية ودافعا للالتحام والوحدة، متمكِّناً من صقل الروح البربرية التي لا تعرف الانقياد أو الخضوع.

المؤلف: خثينتو بوش بيلا – عدد الصفحات: 436ص – تاريخ النشر: 1998
التوثيق الأجنبي: Jacinto Bosch Vilá. LOS ALMORÁVIDES. Universidad de Granada، Granada، 1998.
اللغة: الإسبانية

المحيط الأطلسي المسلم من الفتح العربي إلى حقبة الموحدين

بين أبرز فضائل هذا الكتاب، الموسوعي بحقّ، أنه يكثر من الاعتماد على أمهات المراجع العربية الكلاسيكية، ذات الطابع الجيو ـ سياسي والجيو ـ تاريخي، مثل «كتاب المسالك والممالك» للبكري، و«تقاسيم البلدان» لأبي الفداء، و«كتاب الوثائق والسجلات» لابن العطار، و«كتاب صورة الأرض» لابن حوقل، و«وفيات الأعيان وأبناء الزمان» لابن خلكان، و«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي، و«مروج الذهب» للمسعودي، فضلاً عن «المقدمة» لابن خلدون، و«رسالة القدس» لابن عربي، وسواها كثير.

ويندر أن تجتمع كل هذه المصادر العربية القديمة في كتاب بالفرنسية، لمؤلف فرنسي، يتناول تاريخ الملاحة العربية الإسلامية في منطقة جزئية محددة من المحيط الأطلسي، ويستعرض سلسلة المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المعقدة التي اكتنفت المشهد الملاحي، وساعدت في تطوّره، مثلما ساعد في إغنائها. غير أنّ هذه السمة، لتي تُعدّ خياراً منهجياً في الواقع، ليست بالغريبة عن مؤلفات كريستوف بيكار، أستاذ تاريخ القرون الوسطى في جامعة تولوز، والأخصائي في الغرب المسلم، وصاحب أعمال لامعة مثل «البرتغال المسلم: القرن السابع ـ القرن الثالث عشر»، و«البحر ومسلمو الغرب في العصور الوسطى».

وعلى امتداد 26 فصلاً، تتوزع على ثلاثة أجزاء، يرصد المؤلف تنامي حركة الملاحة المسلمة في المحيط، وتنظيم هذه الملاحة، وهيكليتها، والأنشطة التي اقترنت بها، لا سيما في التجارة والتبادل والاقتصاد عموماً، حتى أواسط القرن الثالث عشر. ففي الفصل الأول يعيد قراءة الإطار الجغرافي للملاحة الأطلسية المسلمة، من حيث قيمة السرديات الجغرافية للمحيط كما قدّمها الجغرافيون العرب من أمثال البكري والإدريسي وابن سعيد، إلى جانب كتاب مجهول المؤلف بعنوان «عجائب البحر»؛ وكذلك من حيث قيمة المعلومات العملية، الجغرافية والملاحية والمناخية، عن المحيط. ويفرد بيكار مساحة خاصة لدراسة الملاحة النهرية في علاقتها بالملاحة المحيطية، سواء في الواجهة الأطلسية للأندلس، أو في واجهته المغربية. ويستخلص من ذلك أنّ هذه الحصيلة ساعدت البلدان المحيطية على تحقيق درجة من الامتزاج أعلى من تلك التي نجمت عن الملاحة المتوسطية مثلاً.

في فصول لاحقة ينتقل بيكار إلى تفصيل تاريخ النشاطات الملاحية المسلمة خلال الأزمنة الأولى التي أعقبت الفتح العربي، وخاصة سياسات الأمويين في المناطق الأطلسية من الأندلس، وهجمات «المجوس»، من الفايكنغ والوثنيين وعبدة النار وبعض المسيحيين الإسبان أيضاً، والآثار التي خلّفتها تلك الهجمات



على امتداد القرن التاسع. وأما سياسة الخلفاء الأمويين فيمكن اختصارها في حرصهم على متابعة برنامج إعمار الدولة، الذي انقطع وتوقف عند اندلاع الفتنة، خصوصاً وأنّ الموارد المالية والإمكانات الإدارية والسطوة العسكرية صارت كافية لاستئناف ذلك البرنامج. وهكذا بُنيت التحصينات والقلاع، وشجعت على اندفاع السكان نحو السواحل المحيطية، وتنامت النزوعات الملاحية لدى بعض أمراء الطوائف، وحكام إشبيلية، وسلالات حكام الموحدين والمغاربة.

وهنا يعقد بيكار فصلاً خاصاً لدراسة الملاحة المسلمة على طول السواحل الأطلسية للمغرب الأقصى، مشدداً على أهمية المبادرات الأهلية المحلية، والتفاعل مع الفتح العربي (الذي بدا للوهلة الأولى وكأنه أصاب الملاحة بالركود، قبل أن يتضح سريعاً أنه اطلقها وحرّرها)؛ والتجديد الذي تحقق على يد الأدارسة، قبيل وصول الأمويين إلى الأندلس. ولا تكتمل الصورة الجيو ـ سياسية لهذا المشهد دون احتساب الهجمة العسكرية والاقتصادية للمسيحيين في المتوسط، وما انعكس من عواقبها على المغرب، وتسريع تراجع أو اضمحلال النشاط الملاحي في القرن الثامن عشر.

وفي دراسة تنظيم الملاحة وهيكليتها، يناقش بيكار خصائص المرافئ والموانئ والمراسي على الشريط الأطلسي، في تفاصيلها التقنية والهندسية، وحصّة المسلمين في تطويرها والارتقاء بها. كما يناقش الأغراض العامة للملاحة من جانب أول، وطرائقها وأساليبها من جانب ثانٍ، سواء اتصل الأمر بالملاحة النهرية أو المحيطية او المزيج منهما. وثمة وقفة خاصة، تثمينية تماماً، عند مصطلح «دار الصناعة»، التي لم تكن تختص بصناعة السفن فحسب، بل كذلك بتأهيل الملاحين والصنّاع على حدّ سواء، الأمر الذي يفسّر تنويعات هذا المصطلح في المؤلفات العربية. وفي ما يخصّ أسماء السفن، ثمة تنويعات من طراز آخر، نراها مختلفة بين لسان الدين بن الخطيب وابن حبيب وابن حوقل، على سبيل الأمثلة.

في الجانب الاقتصادي ـ الاجتماعي للملاحة، يستعرض بيكار مختلف المهن البحرية، على ظهر السفينة أو على اليابسة، من الربان والنوتي والنجار والخباز والديدبان (المفتش)، إلى المعدّي والقواربي والمراكبي والمحتسب. ولا يفوته الجانب السياسي ـ العسكري، فيناقش تجهيز السفن الحربية والأساطيل، ومراتب «قائد البحر» و«قائد الأسطول» وسواها من ألقاب أقرّها أوائل الخلفاء المسلمين، والتزم بها الأمراء المسلمون في المغرب والأندلس طيلة العهود التالية.

الجزء الثالث يتناول مختلف وقائع الملاحة المسلمة في الأطلسي حتى أواسط القرن الثالث عشر، وبينها تحوّل المحيط إلى ساحة حرب تصادمت على أمواجه وشواطئه نظريات شتى في استراتيجيات وتكتيكات الحروب البحرية، كما نشبت صراعات ثقافية وحضارية ودينية. ولقد أثمرت هذه الحال جملة من أصفى المؤلفات العربية العسكرية حول فنون القتال في البحر، بينها كتاب محمد بن منكلي الناحري «الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية». كذلك يتوقف بيكار عند المسائل البيئية، والنبات والحيوان، ومنتجات المحيط، ومشكلات نقل البضائع وتخزينها، والمكوس، وما إليها.

وفي خلاصة الكتاب يشدد المؤلف على أنّ خسران الأندلس كان، في أحد وجوه الخسارة، ضربة قاصمة لتاريخ عريق في الملاحة المسلمة، وكارثة أصابت المنطقة بأسرها، وليس الأندلس أو المغرب الأقصى وحدهما.

المؤلف : كريستوف بيكار – عدد الصفحات : 618ص – تاريخ النشر: 1997
التوثيق الأجنبي: Christophe Picard. L'Ocean Atlantique musulman. De la conquête arabe à l'époque almohade. Maisonneuve & Larose. Paris 1997
اللغة: الفرنسية



الفكر الإسلامي: مضمون وتاريخ التأثير في التصوُّف الإسباني

كريستوبل كويباس، دكتور في الأدب الروماني من جامعة غرناطة وأستاذ الأدب الإسباني في جامعة لا كوبلوتينسي بمدريد، يحاول من خلال هذا الكتاب تقديم «صورة للإسلام»، منذ بداية الوحيِ إلى تطوُّره كثقافة وتجربة حياتية وفكرٍ قائم بذاته، مركزا في هذه الدراسة على التصُّور الديني الروحاني، لا على الجانب الدنيوي للثقافة الإسلامية، فهو ينوِّه في مقدمة الكتاب بأن إسهامات المسلمين في الطب والعلوم والرياضيات والفلك، ليست هدفا لهذه الدراسة،على أهميتها وأثرها العميق الذي يمكن لمسه تلقائيا في مختلف مظاهر الثقافة الإسبانية، وإنما غاية الكتاب هي تاريخ العقيدة الإسلامية منذ جذورها، والتطورات التي طرأت عليها والصراعات الإيديولوجية والانشقاقات الداخلية التي عرفتها، ومن ثمَّ يخصص الكتاب حيزا هاماًّ لاستقراء الجوانب التي استمدَّتها الروحانية المسيحية من أصول إسلامية، كنتيجة لتلاقح الحضارتين على أرض الأندلس.

كان أسين بلاثيوس، المستشرق الإسباني الكبير، أوَّل من لفت الانتباه إلى هذه الظاهرة وأشار إلى أن الروحانية الإسبانية تتراءى مترعة بإشارات ورؤى من جذور إسلامية، حاضرة -ربَّما بطريقة لاواعية- في الفكر المسيحي، ويذهب إلى أن مفهوم الزهد عند القديس سان خوان دي لا كروث ينحدر من التصوُّرالصوفي الشاذلي. وقد تعقَّب أميريكو كاسترو لاحقا أثر هذه الظاهرة وتجلياتها في الأدب الإسباني المتشبع بالروح الإسلامية، سواء منه الديني أو الدنيوي، عند أعلام بحجم غونثالو دي بِرثيو والقديسة سانتا تيريسا دي خِسوس أو حتى قامات أدبية كميغيل دي ثِربانتيس.

يجزم كريستوبل كويباس بأن هناك كماً هائلاً من الأفكار والتَّصورات والمواقف الدينية الإسبانية التي تجد في الإسلام أصولها أو صدى معروفا، ابتداء بمفاهيم أساسية كالشهادة والحج والصوم، وانتهاء بمفاهيم مترسِّخة في الروحانية المسيحية، كالتسامح أو الفكر الجبري أو النهج التوكلي، التي نشأت أو تعزَّزت بممارسات موازية عند المسلمين، عندما تعايشوا مع المسيحيين في إسبانيا وتركوا لهم إرثاً ثقافياً هو الآن جزء لا يتجزأ من ثقافتهم الإسبانية. ويعزي منيندث بيدال هذه التأثيرات إلى التفوق الثقافي للحضارة العربية وللساكنة الإسبانية-المسلمة على الإسبانية-المسيحية، خلال العصور الوسطى، ابتداء من القرن الثامن، إلى أن يصبح هذا الزخم الثقافي أكثر كثافة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حيث ستنتقل هذه التأثيرات إلى الشعوب الأوروبية.

كل هذه العوامل تثبت سيادة العنصر الإسلامي وعمق تجذره في التاريخ الإسباني وثقافته، إلا أن كويباس يأسف لحالة الجهل التي تعمُّ حاليا بين الإسبان فيما يتعلق بالإسلام وثقافته الفريدة، رغم كونها أحد العناصر المكوِّنة للثقافة الإسبانية. لذلك، ما يصبو إليه الكاتب هنا هو إعطاء صورة تعريفية دقيقة عن الإسلام، عن مبادئه، عن نشأته وتطوره وزخمه التاريخي المذهل.

من حيث البنية، ينقسم الكتاب إلى جزءين أساسيين: «مضمون وتاريخ الفكر الإسلامي» و « التأثيرات الإسلامية في الصوفية الإسبانية»، ويقع في سبعة فصول، يضمّ الجزء الأول خمسة منها: في «الإسلام الأول» يعرض كريستوبل كويباس لحياة الرسول وشخصيته وفكرة الاقتداء بمنهاجه لدى المسلمين والخطوط العريضة لتصوُّر الحياة الإسلامية ومعايير الوحي، وكنقطة أخيرة، يتناول التوسع الإسلامي وظاهرة الاهتداء أو الدخول في الإسلام التي رافقت هذا التوسع.

«الوحي والسنة» فصل يتمحور حول القرآن، شكلا وبنية، ويعرض لمشكلات النص، المتعلقِّة بالنقل والتوثيق والتفسير والتأويل، قبل أن ينتقل للحديث عن المصدر الثاني للتشريع في الإسلام، ألا وهو الحديث والسنة النبوية. الفصل الثالث، «الأرثذوكسية الإسلامية: في العقيدة والإيمان» يتناول الجانب العقائدي والأسس أوالأركان التي يقوم عليها الإيمان.

بعد هذه الفصول التمهيدية، يدخل الفصل الرابع غمار «الصراعات الإيديولوجية التي نشأت داخل الإسلام، عارضا للانشقاق السني- الشيعي، ثم للمدارس الكلامية التي تمخَّض عنها الفكر الإسلامي، ابتداء من المذهب المعتزلي الباطني الذي يعتمد العقلانية والتأويل، والأشعري الظاهري الذي يلتزم بظاهر النص، ومروراً بالمذهب التوفيقي الذي انتهجه ابن حزم، واللاعقلاني الذي مثَّله الغزالي، لينتقل إلى الحديث عن التيارات المتشددة، ويخصص حيِّزاً للحديث عن السلفية.

الفصل الخامس -والأخير داخل الجزء الأول من الكتاب-، يخصِّصه الكاتب لحركة الزهد والتصوف، معرِّفا ًببدايات هذا التوجه الروحاني داخل الإسلام وتاريخه.

الجزء الثاني من الكتاب يتناول موضوع التأثيرات الإسلامية في الروحانية المسيحية أو ما سُمِّي بـ«الصوفية الإسبانية»، ثم يتطرق لحركة التصوف الإسباني الإسلامي، الذي كان قناة انتقلت عبرها مقوِّمات وخصائص عدَّة إلى الفكر الصوفي الإسباني، ويقوم في نهاية هذا الفصل بمقارنة بين الروحانية الإسلامية والمسيحية الإسبانية في محاولة لفرز هذه العناصر. أما الفصل الأخير فهو مقاربة لـ«تأثيرات الفكر الإسلامي في أدب الزهد والتصوف الإسباني»، ومن خلاله يستقرئ الكاتب الملامح والأصداء الإسلامية في مختلف المدارس الروحانية الإسبانية، كالدومينيكانية والفرانسكانية والكرملية والأوغوستينية، إلى جانب حركات أخرى تمثل المسيحية غير الأرثذوكسية.

المؤلف: كريستوبل كويباس – عدد الصفحات: 336ص – تاريخ النشر: 1995
التوثيق الأجنبي: Cristóbal Cuevas. EL PENSAMIENTO DEL ISLAM. CONTENIDO DE HISTORIA. INFLUENCIA DE LA MÍSTICA ESPAÑOLA
اللغة : الإسبانية

الغزو المسيحي والإسلامي لإسبانيا (1031-1157)

يتناول الكتاب تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى بالدراسة والتحليل في الفترة ما بين سقوط الخلافة الإسلامية في قرطبة (1031) وحتى وفاة ألفونسو السابع وتقسيم مملكته في عام 1157. وبالإضافة الى الحديث عن التعايش بين اليهود والمسيحيين والمسلمين في الأندلس.

يركز الكتاب على الأحداث المهمة التي وقعت في الممالك المسيحية والإسلامية في تلك الفترة وخاصة الحروب التي خاضها الفونسو الأول ضد المسلمين واستطاع أن يسيطر على بعض الممالك التي كان البربر (المرابطون) يحكمونها فلقد استطاع الفونسو الأول في الفترة من 1104 إلى 1134 أن يستولى على ثلثي الممالك التابعة للبربر والتي كان معظم سكانها من المسلمين، مع وجود أقليات يهودية ومسيحية. ومع تزايد هجمات ألفونسو ضد الممالك الإسلامية كان المسلمون يهربون نحو الجنوب.

وفي بادئ الأمر كان ألفونسو يحافظ على القوانين الإسلامية السائدة في البلدان التي استطاع غزوها حتى يتجنب تمرد المسلمين الموجودين في هذه البلاد وبعد أن بسط نفوذه على مساحات كبيرة من الأراضي التابعة للمسلمين البربر تحول ألفونسو إلى طاغية حيث كان جيشه يدمر المحاصيل والمواشي وينشر الفساد في الأرض. وكان ألفونسو يُحكم سيطرته على الطرق والمرات حتى لا يعود المسلمون الهاربون إلى الأماكن التي استولى عليها.

وكما ذكرنا أعلاه كان لا يتدخل في القوانين الإسلامية التي تحكم البلاد التي سقطت فى قبضته وكان يكتفي بالاستيلاء عليها وطرد الحكام المسلمين منها.

كما يتناول الكتاب تطور الأوضاع السياسية والاقتصادية في الممالك المسيحية الواقعة في شمال جزيرة أيبيريا بسبب الغزوات التي قام بها القادة العسكريون المسيحيون ضد المسلمين في الجنوب، ويرى المؤلف أن التسامح الديني الذي كان موجوداً في الأندلس قد بدأ يتأثر بسبب الحروب التي كان المسيحيون الشماليون يشنونها ضد الممالك الإسلامية.

ومن ناحية أخرى تطرق المؤلف للأوضاع داخل الممالك الإسلامية وأشار إلى أن العلاقات الوطيدة التي جمعت بين الممالك البربرية (المرابطون) وأقاليم شمال أفريقيا قد خلقت نوعاً من التوازن في القوى داخل المجتمع الإسلامي في الأندلس بين العرب الموالين للأمويين والبربر الموالين لشمال إفريقيا.



والكتاب في مجمله ليس سجلاً تاريخياً سياسياً ولكنه يُركز أكثر على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في إسبانيا في الفترة المشار إليها أعلاه.

ولقد أعطى المؤلف اهتماماً كبيراً للعلاقات بين الممالك المسيحية خاصة علاقات النسب والمصاهرة التي جمعت بين العائلات الحاكمة في تلك الممالك كما أشار إلى حفلات الخطوبة والزفاف وزواج المصالح الذي تم بين أمراء وأميرات هذه الممالك أثناء تحالفهم ضد المسلمين.

ويرى النقاد أن في الكتاب العديد من الأخطاء اللغوية والأخطاء الناجمة عن الطباعة ومع ذلك فالكتاب يُعتبر نافذة جديدة على التاريخ الإسباني في العصور الوسطى لأن المؤلف قد تعرض لبعض القضايا الجدلية التيُ تثار لأول مرة وخاصة علاقات النسب والمصالح بين الممالك المسيحية.

ولقد دأب المؤرخون على التركيز على التواجد الإسلامي في الأندلس وعلى طبيعة الحياة داخل المجتمعات الإسلامية مع إغفال الممالك المسيحية التي كانت موجودة على أطراف البلاد في أقصى الشمال والتي شكلت فيما بعد القاعدة التي انطلقت منها جيوش التحرير المسيحية التي استطاعت أن تستعيد الأندلس من أيدي المسلمين.

المؤلف: برنارد رايلي – عدد الصفحات : 284ص – تاريخ النشر : 1992

التوثيق الأجنبي : Bernard F. Reilly. The Contest of Christian and Muslim Spain: 1031 – 1157 (A History of Spain). Cambridge، Mass. Blackwell، 1992

اللغة: الإنجليزية



إسبانيا الإسلامية من 1250 – 1500م

خلف الوجود العربي في إسبانيا آثاره وراءه حتى بعد انسحاب الثقافة العربية من الأندلس. وهناك كلمات كثيرة ما زال معناها الدقيق ومصدرها الاشتقاقي محل خلاف بين المختصين. من هذه الكلمات مصطلحات مثل (موريسكو) و(مولد) و(مستعرب)...إلخ. كتاب «إسبانيا الإسلامية» يركز على تاريخ مصطلح واحد من هذه المصطلحات هو (مدجن). ومعناها: المسلم الذي بقي، بعد استسلام المنطقة الإسلامية لحاكم مسيحي، على دينه ولم يغادر المنطقة ودخل في علاقة خضوع في ظل ملك مسيحي. يرى بعض المختصين أن هذه الكلمة مأخوذة من كلمة (دجال) العربية، أو من كلمة (ديجار) الإسبانية، بمعنى (يغادر)، لكن هارفي يعود بها إلى عبارة عند الونشريشي في كتاب «المعيار»، حيث يصف المسلمين الذين بقوا في ظل حكم المسيحيين بأنهم «أهل الدجن»، أي أنهم « المدجنون». وسأستخدم الكلمة العربية (مدجن) بدلاً من الكلمة الإسبانية (موديجار).

والفكرة العامة لدى المؤرخين هو أن المسلمين الأندلسيين غادروا إسبانيا نهائياً إلى بلدان المغرب العربي. لكن المؤلف هنا يقدم لنا تاريخهم المفصل منذ عصور الحروب الأولى.

يعنى الفصل الأول من «إسبانيا الإسلامية» بدراسة البنية الجغرافية والسياق التاريخي للفترة التي يدرسها. ويؤرخ الفصل الثاني لظهور بني الأحمر، ويهتم الفصل الثالث بالمناطق المحصورة ومظاهر الشذوذ التي عايشتها. أما الفصل الرابع فيتناول منزلة المدجنين: وتعاليم المدافعين المسلمين والمواقف المسيحية منها. والفصل الخامس جماعات المدجنين وقلعتهم التي عاشوا فيها. والسادس المدونات القانونية من القلعة.

والسابع وجود المدجنين في أراجون، والثامن جماعات المدجنين في بلنسية، والتاسع في نوارة.

ويدرس الفصل العاشر عهد محمد الثاني (1273 – 1302)، والحادي عشر عهد محمد الثالث (1302 – 1309)، والثاني عشر عهد نصر (1309 – 1314) وإسماعيل (1314 – 1325) ومحمد الرابع 1325 – 1333)، والفصل الثالث عشر عهد يوسف الأول (1333 – 1354). ويدرس الفصل الرابع عشر عهد محمد الخامس (1354 – 1391)، وهو حكم اعترضه حكم إسماعيل الثاني ومحمد السادس. ويتناول الفصل الخامس عشر عهد أبي الحجاج يوسف الثاني (1391 – 1392) ومحمد السابع (1392 – 1408)



يوسف الثالث (1408 – 1417)، والفصل السادس عشر الحكم المتشابك لمحمد الثامن ومحمد التاسع ومحمد العاشر ومحمد الحادي عشر ويوسف الرابع ويوسف الخامس (1417 – 1452). أما الفصل السابع عشر فيدرس عهد سعد (1453 – 1464) وأبي الحسن علي (1464 – 1482)، والثامن عشر آخر عهد من عهود استقلال غرناطة، والتاسع عشر سقوط غرناطة، ويدرس الفصل العشرون الفترة التي صار فيها جميع المسلمين في إسبانيا مدجنين، أي إسبانيا الإسلامية من 1492 – 1500م.

تتخلل هذه الفصول أوصاف لعلاقات الأندلس بشمال إفريقيا تجارياً وسياسياً ودبلوماسياً. كما يعرض لتطور الصناعات العسكرية، وبالذات المدفعية، وكيف دمر المسيحيون مزارع غرناطة، وحصار ملقة وغير ذلك.

المؤلف : ل. ب. هارفي – عدد الصفحات : 386ص – تاريخ النشر : 1992

التوثيق الأجنبي: L. P. Harvey. Islamic Spain، 1250 to 1500 University Of Chicago Press 1992.

اللغة: الإنجليزية

مسيحيو الرب: تجربة المنشقّين المثيرة

«مسيحيو الرب» كتاب لبرتلومي بنَّاصر، مؤرخ وكاتب وأستاذ فرنسي، من كبار المختصين في التاريخ الإسباني للقرن السادس والسابع عشر، عمل أستاذاً لثلاثة عقود في جامعة تولوز وحصل على عدة أوسمة من بينها الدكتوراة الشرفية من جامعة بلد الوليد بإسبانيا. من بين أبرز أعماله «محاكم التفتيش الإسبانية» و «تاريخ الإسبان» و «مسيحيو الله»- بمساهمة لوسيل بناصر- الكتاب الذي يعتبره المؤرخ أهمَّ مؤلفاته.

رغم أن الإسلام كان ديناً موصوماً بالشبهات ومكروها من قِبل غالبية «المسيحيين القدامى»، إلا أن ما يقارب اثني عشر ألفاً من المسيحيين الإسبان اعتنقوا الإسلام، ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، عُرِفوا باسم «المنشقِّين».ويبدو الأمرغريبا لأول وهلة، في بلد جعل من ثقافة «الاسترداد» سمةً للهوية في مواجهة ثقافة الإسلام، إلا أن هذه الظاهرة التي تدعو للدهشة بدايةً تخضع لمنطق معقول، إذ أن أغلب هؤلاء المرتدين كانوا أسرى قد وقعوا في يد الأتراك أو البربر في المغرب، خلال غاراتهم المتكررة على السفن المسيحية أو المناطق الساحلية.

هؤلاء الأسرى -وبينهم مشاهير كميغيل دي ثربانتش- كان ينتهي بهم المطاف في سجون الجزائر وتونس وطرابلس، ويؤول أمرهم إلى الرِّق، وباستثناء بعض المحظوظين الذين كانوا ينحدرون من عائلات ميسورة تفتديهم، الطريقة الوحيدة التي كانت أمام هؤلاء الأسرى للانعتاق هي التحوُّل إلى الإسلام. وبالتالي، فإن من آثروا هذا الطريق كانوا الأسوأ حالاً ولم يكن بوسعهم الحصول على الحرية، بينما كان طقس التحول إلى الإسلام بسيطاً ولا يقتضي غير النطق بالشهادتين في السِّر، إذ لم يكن يشترط الإشهار في هذه الحالة إلا إذا تعلَّق الأمر بمسيحي معروف، بالإضافة إلى الختان واتخاذ اسم ولباس عربيين. لم يكن الإسلام سببا مباشرا للعتق، وإنما كان بوسع الأسير آنذاك، بعد أن ينتهي من أداء فديته، أن يرتقي اجتماعياً واقتصادياً، وهناك من الأسرى من وصل إلى مراكز سياسية مهمة في الجيش أو الإدارة التركية أو الجزائرية أو المغربية، ومنهم من عاد أيضاًإلى إسبانيا، برغم وجود خطر ملاحقته من قِبل محاكم التفتيش، بتهمة جُرم الرِّدَّة.

الكتاب الذي يقع في ثلاثة أقسام، يصف فصلاً من التاريخ الأوروبي ويروي تحديداً تجربة هؤلاء «المنشقِّين» وأثرها في جلِّ البلاد الأوروبية، ويقوم بقراءة لتاريخ هذه الفئة التي انتقلت من المسيحية الأوروبية إلى الإسلام المغاربي أو العثماني. هذا الانتماء المزدوج لشخصيات عُمِّدت باسم المسيح، ثم -طوعاً أو كرهاً- تحوَّلت إلى الإسلام، يطرح إشكاليات مثيرة يفرد لها الكتاب بالدرس ويعرض نماذج وشهادات لهؤلاء الأشخاص الذين خاضوا هذه التجربة.

ولربما من الجوانب الأكثر حساسية في هذا الكتاب هي تلك التي تتحدث عن أطفال أوروبا الغربية الذين سقطوا في الأسر بعد اختطافهم من ذويهم. فقد كان الأطفال يتعرَّضون للسبي كما الكبار، إلا أن الفدية في حالهم لم تكن تُقبَل تحت أي ظرف. الذاكرة الجماعية لهؤلاء الأطفال التي تستحضر بمرارة قسوة تلك الغارات المفاجئة على صقلية وكورسيكا وجزر الباليار وسواحل بلنسية وجنوة التي رزأت عائلات ومجتمعات بأسرها، نزعت على الأرجح إلى تضخيم حجم المأساة والمبالغةِ في سرد الأحداث فيما يتعلق بظروف اعتناقهم للإسلام والعوائل التي تربوا في كنفها، أمام محاكم التفتيش.

لكن لربما كان أيضاً لهذه الشهادات الكثير من المصداقية، إذا ما استقرأنا الظروف التي أحاطت هذه التجربة القاسية، فقد كان الأطفال يجبرون على التحول إلى الإسلام، قصد إدماجهم في المجتمع الإسلامي. لكن هنا يذكر الكاتب مسألة مهمة، فالشريعة الإسلامية لم تكن تسمح بتفريق طفل أسير عن أمه، إلا بعد اكتمال تغيير أسنانه الأولى، وبالتالي كان بوسع الأطفال المأسورين أن يبقوا سنينا مع آبائهم، وفي هذه الحالة كانوا يحتفظون بديانتهم المسيحية، حتى عندما كانوا يجبرون على ترك عقيدتهم. ويذكر الكاتب تجربة أحد هؤلاء الأطفال، خوسي بوالديس، الذي انتهى به المطاف في آسفي وتربي في ظل عائلة جعلت منه مسلماً حقيقياً، قبل أن يوهَب إلى ملك المغرب بعد وفاة سيِّده، وينتقل إلى حياة المغامرة بعد ذلك في الجزائر، ويقبض عليه في إسبانيا، بتهمة القرصنة، عندما كان عمره ثلاثون عاماً. وقد اعترف هذا الأخير بالعناية التي أحاطته بها عائلته المغربية، وبأنه آمن فعلا بالإسلام. إلا أن هذه الشهادة نادرة، إذ أن معظم هؤلاء «المنشقين» كانوا ينزعون إلى البحث عن ظروف مخفِّفة واستحضار المعاملة السيئة التي كانوا ضحية لها من أربابهم، وإن اضطروا لاختلاقها، أمام محاكم التفتيش.

تجربة هؤلاء «المنشقين» -سواء من أُجبر منهم على الدخول في الإسلام أم من اعتنقه عن طيب خاطر- لعبت دور الوساطة بين حضارتين وثقافتين كانتا متعاديتين أقل بكثير مما يقال عنها أو يتصوَّر. المهتدون منهم والذين التزموا بتعاليم الإسلام، احتفظوا بذكرى بلدهم الأصل كما احتفظوا بلغتهم وأقاموا علاقات تجارية مع أبناء بلدهم، وساهموا حتى في افتداء أسرى رفضوا التحوُّل إلى الإسلام. أما من عاد منهم إلى الأراضي المسيحية، فلم تخلُ تجربتهم من ذكرى طيبة لمسلم أحسن إليهم أو أعتقهم، حتى إن بعض من عاشوا هذه التجربة، اعتقدوا أو حتى جازفوا آنذاك -ولم يكن ذلك بالأمر الهين في ظل هيمنة محاكم التفتيش- بجهر أنهم يعتقدون أن «المسلم الطيب سوف ينجو بإيمانه».

المؤلف: برتلومي ولوسيل بناصر – عدد الصفحات: 560ص – تاريخ النشر: 1989

التوثيق الأجنبي: Bartolomé y Lucile Benassar. LOS CRISTIANOS DE ALLÁ: LA FASCINANTE AVENTURA DE LOS RENEGADOS . Nerea، san Sebastián، 1989

اللغة: الإسبانية



فتح العرب لإسبانيا 710 – 797م

ينطوي كتاب «فتح العرب لإسبانيا» على ثمانية فصول. يعنى الفصل الأول، «مملكة تتطور»، بالتطور الداخلي «لهسبانيا الفيسكوثية» قبل الفتح الإسلامي، ودراسة أوضاعها من الداخل والظروف التي كانت تعيشها.

ويتناول الفصل الثاني مشكلات الفتح العربي وقابليتها لاحتمالات التأويل في الظروف التي صاحبت الاختلال العسكري واستعادة النظام. ويتطرق الفصل الثالث إلى إمكان استعادة التقاليد باستذكارها من خلال الحوليات المسيحية وحضور الحكام العرب فيها، وموقف طليطلة والكنيسة الإسبانية.

بينما يعرض الفصل الرابع للانشقاقات التي حصلت في داخل الفاتحين بعد عقد هادئ ساد في شبه الجزيرة الإيبيرية. ولكن ما إن انتهى هذا العقد، حتى ظهرت الخلافات بين العرب والبربر، ثم بين العرب أنفسهم. ويرى المؤلف في الفصل الخامس، المعنون: «ظهور مغامر»، أن تكوين السلالة الأموية في الأندلس ليس سوى أسطورة، بعد انقلاب عسكري.

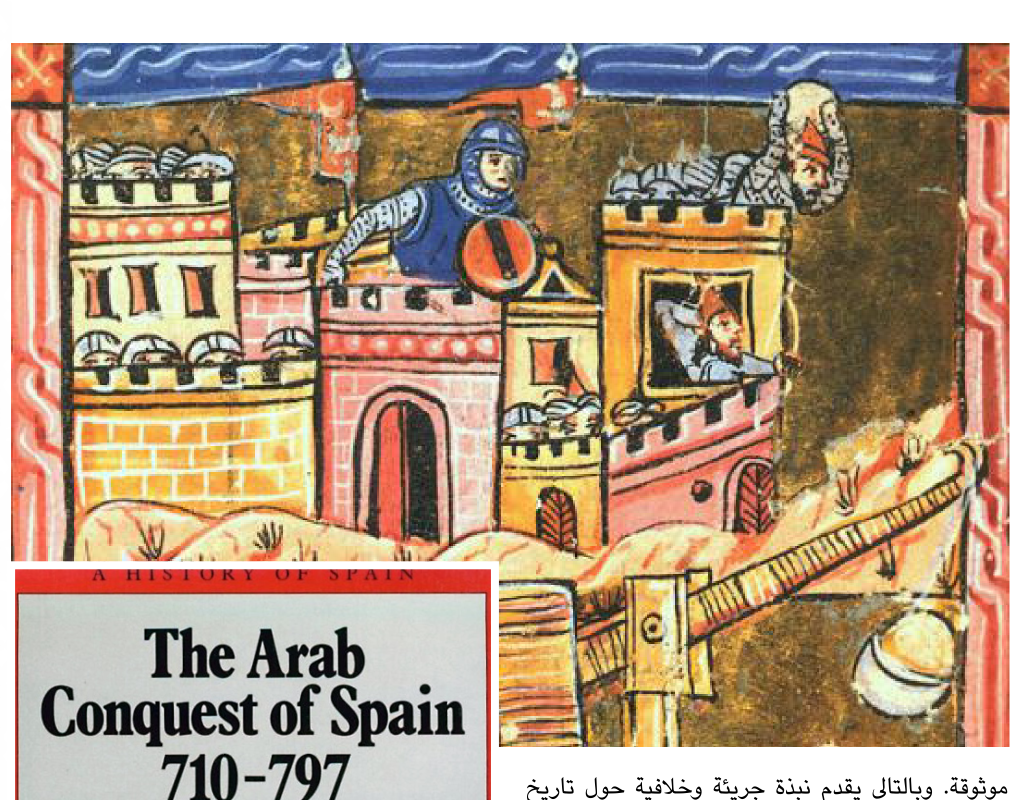
وفي الفصل السادس، سلالة الانتهازيين، يعرض المؤلف لموقف بيلاجيوس والتمرد الأستوري، ويتناول خصوم المملكة «الأموية» من المسلمين والمسيحيين.

ويصور الفصل السابع نضج النظام وزحفه باتجاه نهر «إيبرو»، وطرق الإدارة والسيطرة التي مارسها في البلاد. ويتناول الفصل الثامن والأخير الموازنة بين الرابحين والخاسرين، والصراع على تولي الحكم، وعودة الفرانكيين، وما يسميه بنزعة التبني وسقوط طليطلة.

ومنذ الفصل الأول من الكتاب، يشكك المؤلف بالروايات العربية عن فتح الأندلس، ويعتقد أن من العبث الاطمئنان إلى روايات مصادر مثل «فتح الأندلس»، وابن قتيبة وسوى ذلك من المؤرخين الأوائل.

بل يذهب أبعد من ذلك، فيشكك حتى في الكتب التاريخية من طراز تاريخ ابن الأثير وابن خلدون، ويرى أنها لا تثبت أمام النقد التاريخي، قائلاً إن هذا يترك مؤرخ إسبانيا القرن الثامن يواجه مصاعب جمة ما دام يطمئن إلى هذه المصادر. «لأن عملية نقد المصادر لم تجرِ بما يكفي، وسيتضح الاعتماد الساذج على مواد لا قيمة لها».

في المقابل يرجع المؤلف إلى المصادر البيزنطية، وبالذات إلى بروكوبيوس، الذي يطابق بين رواياته وموارد الحوليات الكنسية. ويرى المؤلف أن المؤرخين المحدثين أهملوا تاريخ إسبانيا «الفيسكوثية» إهمالاً تاماً برجوعهم إلى مصادر غير موثوقة. وبالتالي يقدم نبذة جريئة وخلافية حول تاريخ الأندلس في القرن الثامن.



إذ يعيد روجر كولينز النظر في التأثير الثقافي والسياسي الذي أحدثه الحكم العربي على إسبانيا طوال القرن الأول من الفتح، وهي في تقديره، فترة أهملتها الدراسات التاريخية النقدية، باعتمادها على مصادر ثانوية غير نقدية، عن مظاهر الاستمرارية في تاريخ إسبانيا الفيسكوثية. وكما يعلن غلاف الكتاب «فهذه الدراسة ذات قيمة ليس فقط باعتبار الكيفية التي تحقق فيها الاحتلال العسكري العربي لإسبانيا، بل أيضاً بغية إضفاء سياق أوسع على التطورات في فرنسا وشمال إفريقيا والشرق الأوسط».

عمل مؤلف الكتاب، روجر كولينز، محاضراً لتاريخ القرون الوسطى في جامعة ليفربول، وهو مؤرخ من أعماله «الباسكيون» (الذي صدر عن الدار نفسها بلاكويل، 1990).

المؤلف : روجرز كولينز – عدد الصفحات : 256ص – تاريخ النشر : 1989

التوثيق الأجنبي: Roger Collins. The Arab Conquest of Spain، 710 – 797. Blackwell، 1989

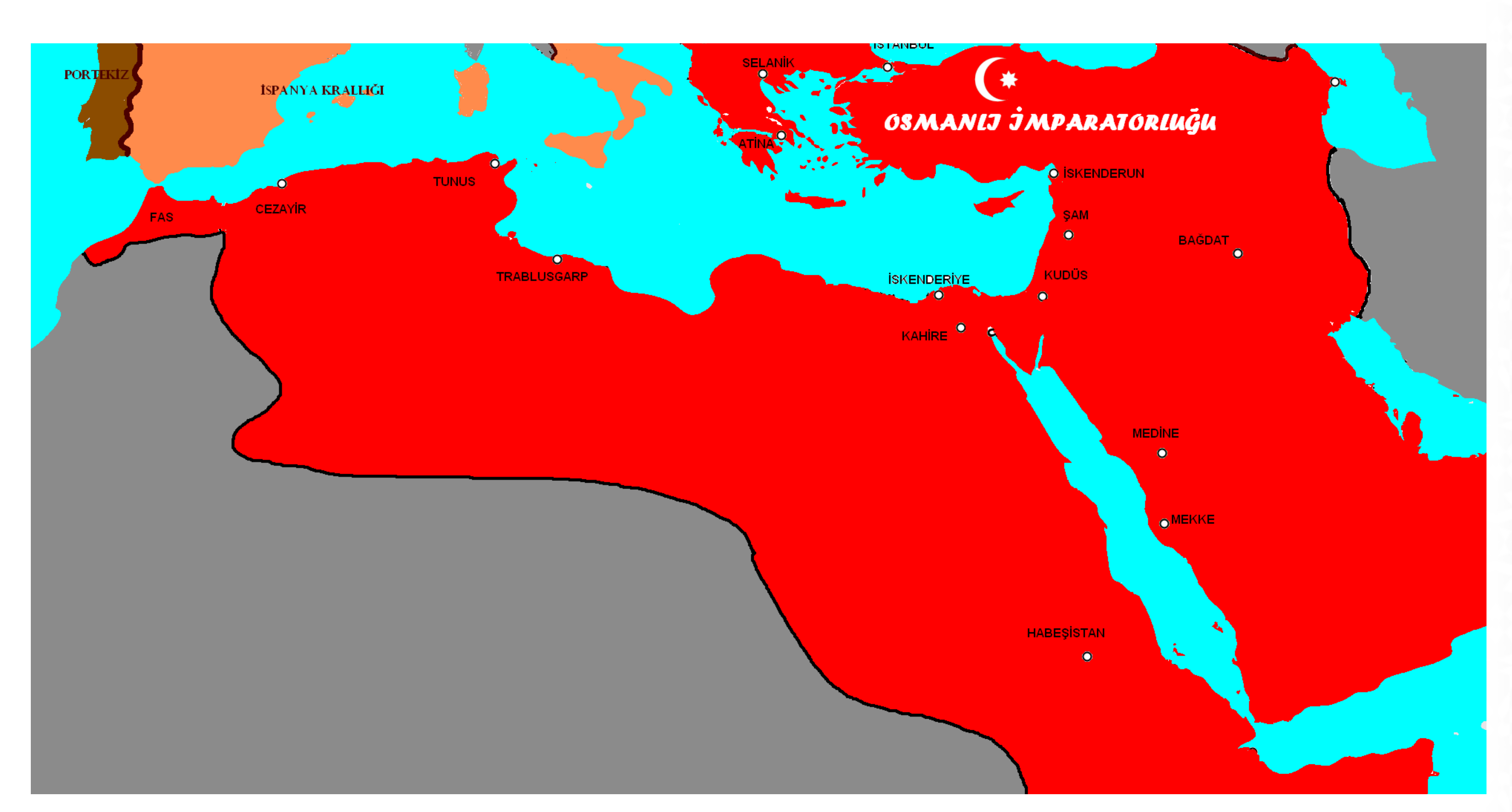
اللغة: الإنجليزية



الإمبراطورية العثمانية

الأراضي العربية تحت الحكم العثماني (1516-1800)

تاريخ الشرق الأوسط



يعتبر هذا الكتاب من الأعمال التاريخية المهمة لأن المؤلفة جين هاثواي أستاذة التاريخ بجامعة أوهايو الأمريكية من المتخصصين البارزين في مجال الدراسات العثمانية ودراسات الشرق الأوسط. وكانت المؤلفة قد أصدرت كتابها الكلاسيكي الشهير عام 1966: مصر وبلاد الهلال الخصيب، ثم أصدرت هذا الكتاب بعد مرور أربعين عاما على صدور الكتاب الأول ، والكتاب الحالي عبارة عن دراسة مسحية شاملة لتاريخ العالم العربي في ظل الحكم العثماني والكتاب يصلح لأن يكون مرجعاً لطلاب التاريخ والدراسات الشرق أوسطية فهو يقدم صورة محايدة للتاريخ العثماني في العالم العربي، ولقد كتبته المؤلفة –بالتعاون مع كارل بربير– بطريقة مهنية متخصصة.

ويتناول الكتاب بالدراسة الآثار التي تركها العثمانيون على العالم العربي في مصر والعراق واليمن وبلاد الهلال الخصيب في الفترة من 1516 إلى 1800.

وعلى عكس المؤرخين الذين تناولوا هذه الفترة الزمنية على أساس أنها بداية لنشأة فكرة القومية العربية التي تحولت فيما بعد إلى حركات تمرد ضد الأتراك وسياساتهم، وأدت إلى قيام الدولة القومية في العديد من البلدان العربية، ركزت المؤلفة على النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في العالم العربي آنذاك.

وأشارت المؤلفة إلى أن التواجد العثماني في العالم العربي قد شجع على التنوع العرقي والإثني والتعدد اللغوي حيث انتشرت الأقليات المختلفة في العالم العربي وكانت المجتمعات المتعددة الجنسيات والثقافات متواجدة في جميع أرجاء البلاد.

وترى المؤلفة أن التعددية الثقافية وتلاقح الحضارات وعملية التهجين الإثني والثقافي التي تمت في ظل الحكم العثماني قد وضعت أساسات للشرق الأوسط الجديد.

وتتناول المؤلفة بالدراسة والتحليل التغيرات التي طرأت على النخب السياسية في البلاد بسبب التواجد العثماني في العالم العربي والتغيرات التي طرأت على مجتمع التجار ومجتمع المزارعين والمجتمعات القبلية والنساء والأقليات المتعددة الأعراق والإثنيات بسبب التواجد العثماني في المنطقة. وترى المؤلفة أن التواجد العثماني الذي سمح بالتعددية الثقافية والدينية قد ترك آثاراً إيجابية على المجتمع العربي القبلي بحيث ساعد على صهر جميع الأقليات والإثنيات في بوتقة واحدة، كما ساعد على تغيير الاتجاهات السياسية لبعض المجموعات ذات النفوذ والسلطة بالإضافة إلى التطورات الإيجابية التي أحدثها العثمانيون في البناء الاجتماعي والفكري والثقافي للمجتمع العربي.

المؤلف: جين هاثواي وكارل بربير – تاريخ النشر: 2008
التوثيق الأجنبي: Jane Hathawayg، The Arab Lands Under Ottoman Rule،1516–1800 Longman،2008
اللغة: الإنجليزية

الحروب العثمانية (1700-1870)

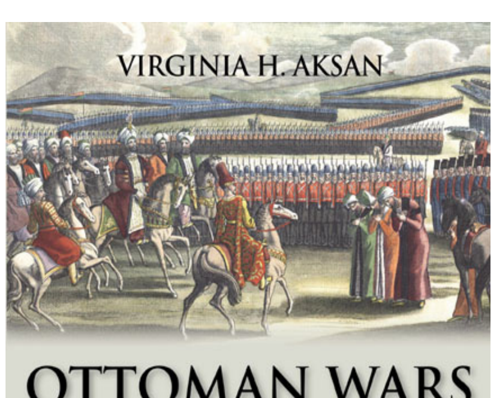
الإمبراطورية المحاصرة

في أوج قوتها، توغلت الدولة العثمانية في قلب أوروبا عام 1683 ودكت مدافعها فيينا، وحاصرتها، لكنها في أوج ضعفها، انكمشت على نفسها حين حاصرتها جاراتها أوروبا وروسيا من الخارج، وقادتها العسكريون من الداخل.

يقع كتاب «الحروب العثمانية» في (624) صفحة، تتوزع على أحد عشر فصلاً. بعد المقدمة التي تقارن بين إمبراطوريات ذلك العصر، والخط الدفاعي الشمالي للسلطنة العثمانية، والإصلاح العسكري، والقضايا الشرقية والعثمانيين الجدد، يتناول الفصل الأول، الخريطة السياسية لأوروبا الوسطى والشرقية بحدود 1700م، والوضعية الجيو سياسية للدانوب، وأعضاء الحلف المقدس، وعلاقة العثمانيين بالتتار، والأهداف التوسعية لدى عثمان وهابسبورغ ورومانوف، والثورات في إسطنبول بحدود 1700، وولاءات الجنود الانكشاريين وأخلاقهم.

ويعيد الفصل الثاني النظام العثماني، التفكير بالتاريخ التوسعي العثماني، وطبيعة الانكشاريين وتكوينهم، والقيادة الانكشارية وانضباطها، والقوى المحلية في الولايات العثمانية المعروفة باسم «السباهية»، وأنظمة الدفاع عن الحدود، وإستراتيجيات البقاء، والحدود الشمالية، والحدود الجنوبية في مصر والولايات العربية، والقوى المساعدة التي تشمل العامل الديني والفتاوى التي يصدرها شيوخ الإسلام، ووقائع حرب الدانوب، وإدارة الحروب التي جرت هناك على خط حصن بلغراد – آزوف، ومالية الحملة.

ويتضمن الفصل الثالث، من بروت إلى بلغراد: أوهام النجاح والفشل، الوضع السياسي من عام 1700 إلى 1750، وموقف النمسا ومطامعها، والتوسع الروسي، ومركزة السيطرة على العنف، وتماسك الجيوش النمساوية، وأصول حملة بروت، والزحف على بروت عام 1711، واسترجاع موريا، ودخول النمسا في الحرب، وتجدد الصراع بين عثمان وهابسبورغ على الدانوب عام 1736،





والتحالفات المتعثرة، والجيش البوسني بقيادة الوالي علي باشا، وانتصار العثمانيين على أورسوفا عام 1738، وأوجه القوة العسكرية والضعف لدى العثمانيين.

ويركز الفصل الرابع على المواجهات التي جرت على جبهة الدانوب في الأعوام 1768 – 1792، سواء على جبهة العثمانيين أو الروس أو النمساويين، فيعرض لمركز هذا الصراع على جبهة الدانوب الأسفل، وإعلان الحرب والاستعدادات لها عام 1768، وانهيار منظومة التجهيزات العثمانية، وسنة الكوارث عام 1770، ومفاوضات السلام، والمواجهات بين كل من الروس والنمساويين والعثمانيين في الأعوام 1787 – 1792، ثم العبر المستقاة من السلام.

ويعنى الفصل الخامس، السلطان سليم الثالث والنظام الجديد، بالأزمة التي نتجت عن هذه الحروب وطرق إصلاحها اقتصادياً، والتنظيمات العسكرية الجديدة والإصلاح العسكري في ظل سليم الثالث، والبارود والأسلحة، وخلق نظام جديد، يبدأ بالتوسع خارج أسطنبول، وإصلاح المدفعية. ويدرس الفصل السادس الأحوال في عهد سليم الثالث، فقد بدأ العثمانيون بممارسة دبلوماسية متطرفة، بعد التسعينات، فأرسلوا أول سفير إلى أوروبا، وفي هذه الفترة بالذات، احتل نابليون مصر، ثم أخلاها. وفي عهد محمد الثاني، الذي يدرسه الفصل السابع، أخذ العثمانيون يتهيأون لحملة جديدة باتجاه أوروبا، أسفرت عن معركة الرسجق ومعاهدة بوخارست عام 1811 – 1812. لكن الانتفاضات سرعان ما تتابعت: انتفاضات الصرب، وعلي باشا، واليونان 1821 – 1827، والجزر الأيونية وأثينا.

ولم تكن الجبهة الغربية هي الخطر الوحيد الذي يتهدد الدولة العثمانية، فقد أخذ محمد علي باشا يحدث التغيرات التي تنم عن بوادر استقلال في مصر التي يعمل على سلخها عن الدولة العثمانية. وفي الوقت نفسه ظهرت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية. فكان من الواضح أن الإصلاح يجب أن يبدأ بالداخل، من هنا جاء إلغاء البكتاشية، كنظام أيديولوجي للتربية الانكشارية، ثم محاولة إعادة بناء الجيش في تنظيمات (عسكري منصوري)، التي استمرت حتى الثلاثينات.وما لبثت الجبهة الروسية العثمانية أن استأنفت القتال من جديد عام 1828 – 1829. فجرى حصار فارنا. وأسفرت حملة 1829 عن انهيار العثمانيين، مما أفضى إلى معاهدة «أدريانوبل» عام 1829. وظهرت القضية السورية عام 1831، وحصار عكا على يد إبراهيم باشا. وكل هذه الظروف دفعت العثمانيين إلى البدء بإصلاحات جديدة عام 1834.

يركز الفصلان الأخيران على ترويض محمد علي باشا في مصر، وانتفاضة حلب، وعلى جبهة القوقاز وحرب القرم عام 1853. وتلي ذلك مجموعة من الملاحق والمسارد لأسماء الأماكن والأعلام.

مؤلفة الكتاب هي: فرجينيا أكسان: أستاذ مساعد في جامعة ماكماستر في كندا، معنية بالتاريخ العثماني، وقد أصدرت من قبل : سياسي عثماني في الحرب والسلم: أحمد رسمي أفندي 1700 – 1783 (1995).

المؤلف : فرجينيا أكسان – عدد الصفحات : 624ص – تاريخ النشر : 2007
التوثيق الأجنبي: Virginia Aksan. Ottoman Wars: An Empire Besieged (Modern Wars in Perspective). Pearson Education Limited، 2007.
اللغة: الإنجليزية

حلم عثمان: تاريخ الإمبراطورية العثمانية

يستطلع الكتاب تاريخ الإمبراطورية العثمانية منذ القرن الرابع عشر (1300) إلى القرن العشرين(1922)، في محاولة لتقديم قراءة جديدة للتاريخ العثماني بهدف مراجعة القراءات السابقة للمؤرخين الغربيين الذين تناولوا الإمبراطورية العثمانية من زوايا ضيقة وأهملوا الجوانب المشرقة فى التاريخ العثماني.

وترى المؤلفة أن قلة من المؤرخين الأوروبيين قد ركزوا في كتاباتهم على أسباب نشأة الإمبراطورية العثمانية وانهيارها بينما اهتم آخرون بتقديم الإمبراطورية العثمانية للقارئ الغربي على أنها دولة يحكمها السلاطين الذين لا همّ لهم سوى إشباع رغباتهم الجنسية والجري وراء النساء الشهوانيات اللائي يقمن في بيت الحريم.

ولم يجد هؤلاء المؤرخون- حسب رأي المؤلفة- في التراث العثماني سوى قصور ذات قباب تعج بها إسطنبول ويسكنها العبيد الخصيان والوزراء الفاسدين.

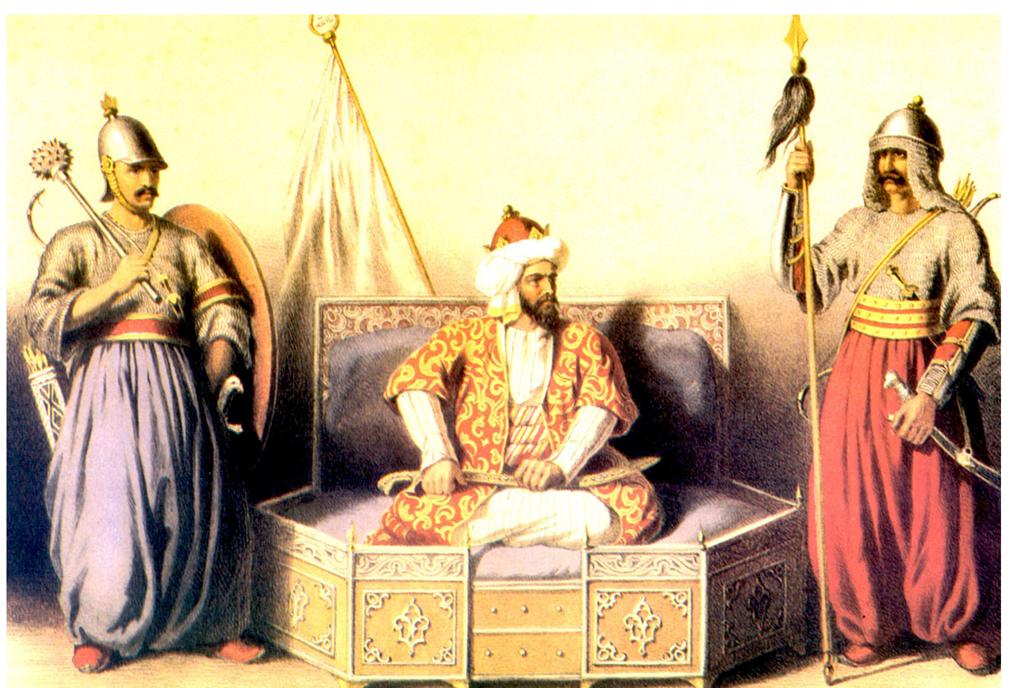
ولذلك تسعى المؤلفة لتقديم رواية جديدة تطرح فيها رؤيتها للتاريخ العثماني بشكل موضوعي حيث أن المؤلفة قد درست هذا التاريخ وتخصصت فيه وعاشت خمسة عشر عاماً فى تركيا و لقد تناولت المؤلفة النقاط الآتية في دراستها..

إن الإمبراطورية العثمانية كانت تماثل في عظمتها وتراثها الإمبراطوريات الأوروبية الكبرى مثل الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية الهابسبورغ النمساوية.

وقد ارتكب المؤرخون الغربيون خطأ فادحاً عندما تناولوا التاريخ العثماني من منظور خيالي حيث تعاملوا بإستخفاف مع هذا التاريخ الإمبراطوري العظيم.

لقد كانت الإمبراطورية العثمانية تسيطر على دول جنوب أوروبا وتمتد حدودها عبر دول الشرق الأوسط وآسيا ولذلك كانت إمبراطورية متعددة الأجناس والأعراق و اللغات وكان الجيش الإمبراطوري يضم جنوداً مسلمين ومسيحيين ويهوداً.

لا يمكن التعامل مع تاريخ الإمبراطورية العثمانية على أنه مجموعة من الغزوات والفتوحات والهزائم وتجاهل الثراء الفكري والثقافي والمعماري للبلاد.



دأب المؤرخون في الغرب على تناول التاريخ العثماني بشكل سطحي مع التركيز على الألقاب التي كان يتمتع بها الحكام العثمانيون وخاصة لقب خليفة «المسلمين» واعتبروا أن هذا اللقب رمز للرجعية والتخلف في حين أن هذا اللقب لم يطلق على حكام الدولة العثمانية إلا في مرحلة الانهيار التي بدأت منذ القرن الثامن عشر.

سعت المؤلفة إلى تقديم التاريخ العثماني الذي يستقي رؤيته للإمبراطورية العثمانية من خلال الصور النمطية التي تراكمت في الوعي الجمعي الغربي عن الشخصية العثمانية.

ولذلك فلقد فتحت هذه الدراسة آفاقاً جديدة حيث أشارت المؤلفة إلى الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المعقدة التي شكلت البناء الداخلي للدولة العثمانية.

يعتبر هذا الكتاب الدراسة الوحيدة الشاملة التي تتبعت حركة التاريخ العثماني على مدار سبعة قرون وبالرغم من حجم الكتاب الكبير إلا أن أسلوب المؤلفة المشوق والذي يعتمد على السرد القصصي والتاريخي للأحداث قد جعل من قراءة هذه الكتاب تجربة ممتعة والكتاب يسعى إلى ربط الماضي العثماني بالحاضر التركي مع إلقاء الضوء على التاريخ السياسي العثماني عبر العصور وما طرأ عليه من تحولات بسبب الظروف المحيطة بالإمبراطورية.

يحسب للمؤلفة أنها لم تكتف بالتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للدولة العثمانية وإنما ألقت الضوء على التاريخ المعماري والتاريخ الديموجرافي للإمبراطورية وذكرت على سبيل المثال أن عدد السكان المسلمين الخاضعين للحكم العثماني قد بدأ في التراجع منذ أوائل القرن التاسع عشر.

لقد أهملت المؤلفة بعض الجوانب القليلة المهمة في التاريخ العثماني ومنها تاريخ «الإنكشارية» أو «الجند الجدد» وهم القوات والأتباع المعروف عنهم الولاء.

ولقد لعبت جماعات الإنكشارية دوراً مهماً في التاريخ العثماني.

ويحسب للمؤلفة أنها استخدمت العديد من الخرائط المهمة التي ساعدت القارئ على تتبع تطور الجغرافية البشرية عبر التاريخ العثماني.

المؤلف: كارولين فنكل – عدد الصفحات: 704ص – تاريخ النشر: 2007
التوثيق الأجنبي: caroline، finkel، Osaman's Dream: The History Of the ottoman Empire، Basic Books، 2007
اللغة: الإنجليزية

رعايا السلطان، الثقافة والحياة اليومية في الإمبراطورية العثمانية

في مطلع القرن التاسع عشر، كان الإنكشاريون يتباهون بسعة القدور التي يستعملونها، بل يمكن القول إن شعارهم كان القدر، وكانت سمعة أحدهم ترتفع بقدر الإقبال الجماعي على قدره.

ومع بداية القرن العشرين، صار «الأفندية» الذين طلعوا من صلب الإنكشارية القدماء، يترفعون عن الشرب من ماء السبيل، بحجة أن فيه «مقروباً».

كتاب «رعايا السلطان: الثقافة والحياة اليومية في الإمبراطورية العثمانية» يدرس التحولات الثقافية والحياة اليومية التي سادت في عصر الدولة العثمانية منذ بداياتها الأولى حتى عصر الانحلال.

بعد المقدمة، التي تشكل فصلاً طويلاً إلى حد ما، يأتي الفصل الثاني بعنوان: انبثاق الدولة العثمانية.

وبعد هذه الفرشة التاريخية حول أصول السلالة العثمانية، ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام. عنوان القسم الأول: الثقافة: كيف خلقت وانتثرت.

وفيه يعنى الفصل الثالث بـ«البنية الاقتصادية والاجتماعية للدولة العثمانية في بواكير الأزمنة الحديثة».

والفصل الرابع بعنوان: صور العالم والأزمنة.

والفصل الخامس: الحدود ومن عبرها.

والسادس: ثقافة النساء.

وينصرف القسم الثاني للفنون. فيدرس الفصل السابع فن العمارة وأسسها التقوية وجماليات البناء. ويدرس الفصل الثامن حياة البلدات: الهوية الحضرية وطراز العيش. بينما يتخصص الفصل التاسع بالاحتفالات والمهرجانات وفنون الزينة. والفصل العاشر بالقراء والكتاب والحكواتيين. والفصل الحادي عشر بالأطعمة والأشربة والضيافة.

ويتناول القسم الثالث «التغير الثقافي». وفيه يبحث الفصل الثاني عشر الأزمات والبدايات الجديدة في فترات التحول الممتدة من 1770 – 1839.

ويتناول الفصل الثالث عشر التحولات الثقافية لدى الطبقة العثمانية العليا من 1840 – 1914. وينتهي الكتاب بالفصل الرابع عشر الذي هو خاتمة تنتهي معها في الاستنتاجات رحلة طولها ثلاثمائة صفحة من البحث في الحياة اليومية التي سادت في الدولة العثمانية طوال قرون.

مؤلفة الكتاب هي ثريا (أو سورايا) الفاروقي، وهي واحدة من المختصين بالتاريخ العثماني، وقد سبق لها أن أصدرت عدداً من الأعمال حوله.

وشملت قوائم مصادرها الكثير من الأعمال التي تدرس تاريخ العثمانيين في اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية.

ويتخلل الكتاب الطابع السردي التاريخي، ولكن يلازمه في الوقت نفسه تحليل نقدي لفهم التحولات الثقافية في الظواهر المعروضة.

وبالرغم من أن الكتاب يناقش في الأساس الجوانب الثقافية في المجتمع ويرصد تغيراتها في العمارة والفن والكتابة، لكن قدراً من الكتاب ينصرف لتناول التنوعات الدينية ومواقف الأقليات الدينية كاليهود والمسيحيين من رعايا الدولة، فضلاً بالطبع عما يقف وراء ذلك من دواعٍ اقتصادية واجتماعية.

وقد وصفت «مجلة الدراسات الإسلامية» الكتاب بقولها: «ثريا الفاروقي هي أفضل شخص أتيح له أن يكتب عن الحياة اليومية في الدولة العثمانية».

المؤلف: ثريا فاروقي – عدد الصفحات: 368ص – تاريخ النشر: 2005
التوثيق الأجنبي: Suraiya Faroqhi. Subjects of the Sultan: Culture and Daily Life in the Ottoman Empire. I. B. Tauris 2005
اللغة: الإنجليزية

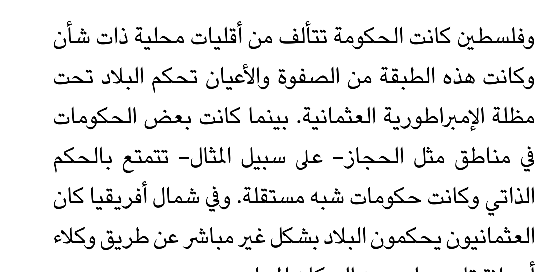
الإمبراطورية العثمانية والعالم المحيط بها

في هذا الكتاب المثير للجدل تسعى المؤلفة إلى إلقاء الضوء على التاريخ العثماني من أجل سبر أغوار أحد الموضوعات التي تجاهلها المؤرخون الغربيون أو تعاملوا معها بسطحية. فمعظم المؤرخين في الغرب يعتقدون أن الأمجاد العسكرية التي حققها العثمانيون قد أدت إلى نشأة ثقافة فوقية تشوفينية في إسطنبول بحيث سعى العثمانيون إلى إيجاد فوارق بينهم وبين الشعوب التي كانت خاضعة لهم إبان العهد الذهبي للإمبراطورية العثمانية.

وترى المؤلفة أن هذا التصور غير حقيقي ولذلك تحاول أن تدحضه من خلال دراسة علاقات العثمانيين بجيرانهم وبالشعوب التي كان خاضعة لسيطرتهم. ولذلك فإن هذا الكتاب يعتبر نقطة تحول في مجال الدراسات التركية والدراسات التي ترتكز على علاقة أوروبا المسيحية بالعثمانيين.

ونقطة الضعف الوحيدة في هذا الكتاب – حسب رأي معظم النقاد- افتقاره إلى خرائط توضيحية دقيقة لأن جغرافية الإمبراطورية العثمانية كانت معقدة للغاية ولذلك كان يجب على المؤلفة وضع ذلك في عين الاعتبار فالكتاب اشتمل على خريطتين للإمبراطورية العثمانية وذلك غير كاف لتوضيح البعد الجغرافي للقارئ غير المتخصص.

والكتاب في مجمله عبارة عن مسح شامل للعلاقات العثمانية المتعددة مع جيران الإمبراطورية بدءاً من القرن السادس عشر وانتهاء بالقرن الثامن عشر، وتعتمد المؤلفة في هذه الدراسة على العديد من المصادر التاريخية ومنها تقارير البعثات الدبلوماسية ويوميات كبار الوفود وتقارير الرحالة وتقارير الحجاج المسلمين والمسيحيين واليهود بالإضافة إلى تقارير من وقعوا في الأسر أثناء المعارك وغير ذلك من البيانات الأرشيفية المهمة. وتؤكد المؤلفة أن حدود الدولة العثمانية مع جيرانها كانت مفتوحة طوال الوقت ولم يكن هناك أي خطر على تبادل العلاقات وتلاقح الثقافات بين العثمانيين وجيرانهم وكانت الأسرة الحاكمة ومن يمثلها حريصين على فتح آفاق جديدة من العلاقات مع الآخرين ومع كل من كانت أراضيه تقع تحت السيطرة العثمانية. وينقسم الكتاب إلى تسعة فصول بما في ذلك المقدمة والخاتمة . والفصول الرئيسية السبعة التي تمثل العمود الفقري للكتاب تتناول أوجه التعاون بين الإمبراطورية العثمانية وجيرانها من أجل التأكيد على عدم عزلة الإمبراطورية وتقوقعها داخل الحدود التركية.



وفي الفصل الأول تتناول المؤلفة بالدراسة العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل الإمبراطورية العثمانية نفسها. أما الفصل الثاني فيستطلع علاقات الإمبراطورية مع جيرانها والدول المجاورة لحدودها كما يتناول مجموعة من الموضوعات المتعلقة بالنواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ومدى التواصل بين العثمانيين وجيرانهم على كافة المستويات ابتداءً من عام 1560 وانتهاءً بعام 1774. أما الفصل الثالث فيركز على علاقات الإمبراطورية العثمانية مع بعض المقاطعات الواقعة على أطرافها في الحجاز ومولدافيا وأماكن أخرى. وتؤكد المؤلفة على بعض الحقائق التي أهملها المؤرخون في الغرب فالأقاليم التي استطاع العثمانيون ضمها إلى الإمبراطورية كانت تخضع لعدة سياسات حسب موقعها وأهميتها وطبيعة المشاكل الموجودة فيها. ففي سورية ولبنان وفلسطين كانت الحكومة تتألف من أقليات محلية ذات شأن وكانت هذه الطبقة من الصفوة والأعيان تحكم البلاد تحت مظلة الإمبراطورية العثمانية. بينما كانت بعض الحكومات في مناطق مثل الحجاز- على سبيل المثال- تتمتع بالحكم الذاتي وكانت حكومات شبه مستقلة. وفي شمال أفريقيا كان العثمانيون يحكمون البلاد بشكل غير مباشر عن طريق وكلاء أو ولاة تابعين لهم من السكان المحليين.

أما الفصل الرابع من الكتاب فيتناول الحروب التي خاضها العثمانيون مع جيرانهم وخاصة الروس والبولنديين وإمبراطورية الهابسبورغ النمساوية المجرية. وفي هذا الفصل تدحض المؤلفة كل الأساطير التي زعمت بأن العثمانيين كانوا دعاة حروب وقتال كما تدحض كل الأكاذيب التي زعمت أن الاقتصاد العثماني كان يرتكز على الغنائم التي جمعها العثمانيون أثناء الحروب مع الجيران، كما رفضت بشدة الأكذوبة التي روج لها بعض المؤرخين في الغرب عن التخلف التقني والعسكري للجيش العثماني.

أما في بقية فصول الكتاب فلقد تناولت المؤلفة بالدراسة بعض الموضوعات الفرعية مثل تبادل أسرى الحرب والعبيد بين العثمانيين وجيرانهم والدور الذي لعبه التجار في تدعيم العلاقات بين العثمانيين وجيرانهم بالإضافة إلى التواصل الحضاري والثقافي بين الحجاج المسلمين والمسيحيين واليهود الخاضعين للإمبراطورية العثمانية.

ناهيك عن العلاقات الحميدة التي كانت تربط بين كل الطوائف والأديان داخل حدود الإمبراطورية حيث كان التسامح الديني يسود البلاد.

أما الفصل الثامن فلقد ركز على صورة العالم الخارجي عند العثمانيين حيث استقت المؤلفة مصادرها من كتابات السفراء العثمانيين الذين زاروا كبرى مدن دول الجوار مثل طهران القديمة وفيينا وسانت بطرسبرج وباريس في القرن الثامن عشر. كما تطرقت المؤلفة في هذا الفصل إلى المعاهدات السياسية والعسكرية والاقتصادية والجغرافية التي وقعها العثمانيون مع جيرانهم .

المؤلف: ثريا فاروقي – عدد الصفحات: 290ص – تاريخ النشر: 2004
التوثيق الأجنبي: Suraiya Faroqhi. The Ottoman Empire and the World Around It Library of Ottoman Studies. New York–London. I.B.Tauris. 2004
اللغة: الإنجليزية

السرايا المتزعزعة
مقالة في وفاة، و خلع، و جلوس السلاطين العثمانيين (القرنXIV -XIX)

يذكر مؤلفا هذا الكتاب إنّ فكرة تأليفه اختمرت لديهما قبل عشر سنوات من الشروع في كتابته، وكانا في الأصل ينويان وضعه ضمن مشروع دراسات أوسع حول موضوعة الموت لدى الأتراك، وكانا يعتقدان أنّ تحليل وفاة السلاطين يشكّل وجهة للمعالجة، بين وجهات أخرى. غير أنّ مراجع أبحاثهما التركية بالذات كانت هي التي قادتهما إلى تعديل مسار الموضوع، حين تنبّها إلى أنّ موت هرم السلطنة في تركيا، وربما أكثر من أيّ مكان آخر، لم يكن منفصلاً عن النظام العامّ لمسائل السياسة الأساسية، هذه ذاتها التي تجد تعبيراتها في شعائر التشييع أو الخلع أو ارتقاء العرش التي صوّرت، وحفظت، شرعية السلالة العثمانية منذ القرن الرابع عشر وحتى التاسع عشر.

ونيكولا فاتان أستاذ في المركز الوطني الفرنسي للأبحاث، وسبق له أن درّس في المعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية في إسطنبول، وكتب كثيراً حول العثمانيين وشرق المتوسط وتقاليد الموت لدى الأتراك، لعلّ أبرزها كتابه «العثمانيون في وضعية الجزيرة». شريكه جيل فينشتين هو أستاذ الدراسات العثمانية والتركية في الكوليج دو فرانس، وصاحب مرجع أساسي بعنوان «الإمبراطورية العثمانية والبلدان الرومانية»، وآخر عن حياة أحد السفراء الفرنسيين في البلاط السلطاني. واجتماعهما في هذا الكتاب الفريد أعطى حصيلة تاريخية وعلمية، فيها الكثير من عناصر الثقافة وعلم الإجتماع والأنثروبولوجيا، عن الإمبراطورية العثمانية.

يتألف الكتاب من خمسة فصول، يعالج أولها مسألة نهاية العهد، مبتدئاً من النُذر المبكرة للوفاة، وموقف جهاز السلطنة من مرض السلطان أو تعذّر علاجه أو احتضاره ودنوّ أجله، وما ينطوي عليه ذلك كلّه من احتمالات سياسية وأمنية وعسكرية، داخل السلالة ذاتها وعلى نطاق الإمبراطورية بأسرها. والمؤلفان يسردان طرائق وفاة السلطان (الموت بطلاً في المعركة، الموت الطبيعي على العرش، الموت في خلوة)؛ وطرائق مغادرة السلطة (الخلع، الموت خنقاً بعد تمرّد الإنكشارية، كما في حالة عثمان الثاني الشهيرة، أو الإنقلاب العسكري)؛ وتبعات فقدان العرش. ويشدد فاتان وفينشتين على أنّ 20 سلطاناً، من أصل 32 يتناولهم الكتاب، توفوا وهم على رأس السلطنة، الأمر الذي يؤكد أنّ الشروط غير الطبيعية لتناقل العرش كانت الاستثناء وليس القاعدة.

الفصل الثاني يتناول الأزمة السياسية التي يمكن أن تنجم عن تبديل السلطان، وكيف تزعزع السرايا حين يصبح احتمال غياب «شمس السلطان العليا» عن أرجاء القصر والإمبراطورية أمراً محتماً، وقضاء الله وقدره.

النقيض، أي اندلاع حرب مفتوحة علنية أو سرّية حول خلافة العهد، فهو موضوع الفصل الثالث، وفيه يتناول المؤلفان عهد محمد الثالث (الذي قيل إنه قتل 19 من أخوته غير الأشقاء ليحتفظ بالعرش)، ثمّ إقرار مبدأ تحكيم الأشراف، وتبنّي قاعدة الأقدمية في السنّ، وتفاصيل التعريض بالموقع السلطاني من خلال نماذج عثمان الثاني ومصطفى الأول وإبراهيم، فضلاً عن حالات الاستقالة أو التوريث القسري.

الفصل الرابع يدرس العهد الجديد، أي التنصيب (الجلوس) والبيعة، فيتوقفان بالتفصيل عند مختلف الشعائر والمراسم والطقوس والإجراءات، ويهتمان بجوانبها السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية، سواء في ما يخصّ القصور والسلالة والسلطة عموماً، أو ما يخصّ الرعية والشارع العريض والممالك والأمصار. وثمة وقائع تبدو طريفة للوهلة الأولى (مثل انتقال الحريم القديم، وحلول الحريم الجديد، وموقع السلطانة الزوجة والسلطانة الأمّ...)، لكنها في دلالاتها العميقة ترسم سلسلة محاور عن توازنات السلطة وأنساق التداول واتخاذ القرار).

الفصل الخامس يكمل هذه الدائرة، بموضوع شعائر الدفن السلطانية، وكيف تتدرّج في مستويات الإعلان عن الوفاة، وأسباب التكتم عليها أو تأخيرها، وأشكال البروتوكول التمهيدية، وأماكن العزاء ومراتب المعزّين، وصولاً إلى اختيار المقبرة وإعداد القبر، واستكمال مراسم الدفن. وهنا يطبّق المؤلفان منهجية استقصاء الوقائع في مدلولاتها المباشرة وفي رموزها أيضاً، ويتوصلان إلى أنّ المجتمع العثماني لم يكن يتحدد أولاً عن طريق شعب أو لغة أو ثقافة أو دين، رغم أنّ هذه المعايير كلها لم تكن غائبة، بل عن طريق سلالة بعينها، هي آل عثمان.

وفي هذا كلّه يحاول المؤلفان الغوص في المصادر التركية القديمة، لتلمّس إجابات على أسئلة من الطراز التالي: إلى أية درجة كان السلطان شخصية استثنائية، وهو في الآن ذاته كائناً بشرياً له نقاط قوّته وضعفه؟ أي دور كان للشريعة الإسلامية، والفقه عموماً، في هذا المضمار تحديداً؟ كيف تمتعت شعائر الوفاة أو الخلع أو الجلوس باستقرار نسبي في ذاتها، رغم أنها كانت على الدوام صيغة تعبير سياسي وعسكري عن التوازنات الداخلية في السلالة العثمانية والسلطنة؟ وهل كانت التعديلات على تلك الشعائر بمثابة منعكسات مباشرة للتعديلات على أنساق الجلوس، من حيث تحكيم الأشراف وترجيح السنّ؟

وهما يوفّران للقارىء مسرداً تفصيلياً عن السلاطين، من عثمان الأول إلى محمود الثاني، وشجرة للسلالة العثمانية من القرن الرابع عشر وحتى التاسع عشر، ومسرداً بكتب التاريخ والمؤرخين العثمانيين الذين غطّوا وقائع السلطنة، ومسرد مصطلحات، ولائحة مراجع عامة للكتاب، وخريطة لمدينة إسطنبول وقصر توبكابي الشهير، إلى جانب رسوم إيضاحية ولوحات عثمانية ملوّنة.

المؤلف : نيكولا فاتان وجيل فينشتين – عدد الصفحات : 523ص – تاريخ النشر : 2003
التوثيق الأجنبي: Nicolas Vatin et Gilles Veinstein. Le Sérail ébranlé essai sur les morts, des sultans ottomans (XIVe–XIXe siècle), dépositions et avènements. Fayard, Paris 2003
اللغة: الفرنسية

مأساة عثمانية: العلاقة بين التاريخ الحقيقي والتاريخ المكتوب

يستطلع المؤلف العلاقة بين الأحداث التاريخية الحقيقية وطريقة كتابتها وتدوينها بأقلام مؤرخين ينتمون إلى اتجاهات مختلفة ويؤمنون بنظريات تاريخية متعددة. ويركز المؤلف على الفترة بين عامي 1617 و 1623 وهي السنوات التي حدثت فيها ما أسماه المؤرخون بالمأساة العثمانية حيث تم الإطاحة بالسلطان مصطفى الأول في ربيع عام 1622 بعد أن خلف أخاه السلطان أحمد الأول ولقد أطيح بالسلطان مصطفى بعد اتهامه بالجنون والخبل ثم تم تنصيب ابن أخيه الراحل أحمد الأول سلطاناً على عرش البلاد.

وكان السلطان الجديد وهو عثمان الثاني مجرد مراهق لم يبلغ سن الرشد. وبالتعاون مع بعض المستشارين في البلاط السلطاني والعبيد الخصيان من خدمة السلطان قرر السلطان المراهق القيام ببعض التغيرات الجوهرية التي رآها بعض العاملين في البلاط تهديداً لوجودهم. ولقد انتشرت الشائعات أن السلطان الجديد سوف يستبدل الجنود الانكشارية في إسطنبول بجنود آخرين من الأناضول وسورية وسرت شائعات أن السلطان سوف ينقل العاصمة من إسطنبول إلى بورصة.

وفي شهر مايو من عام 1622 قامت القوات الانكشارية بالتعاون مع مجموعات أخرى بحركة تمرد وقاموا بإعادة السلطان مصطفى إلى العرش رغما عن أنفه، ويروى المؤلف أن السلطان مصطفى لم يكن يعلم عن الأمر شيئاً وأنه كان يقضي بعض الوقت مع النساء والجواري ولقد فوجئ بالقوات الانكشارية تلقي القبض عليه أثناء تواجده في جناح الحريم بقصر الطوبكابي وتحمله إلى القصر السلطاني وتنصبه سلطاناً للمرة الثانية. وتم إحالة السلطان عثمان الثاني إلى أحد الوزراء الذي قضى بإعدامه.

وظل السلطان مصطفى على عرش البلاد لمدة 16 شهراً بالرغم من اتهامه بالجنون والخبل. وبعد ذلك تمت الإطاحة به وتولى الحكم الأخ الأصغر للسلطان عثمان الثاني الذي تم إعدامه وقت التمرد.

ويرى المؤلف أن المؤرخين قد تناولوا هذه الواقعة بطرق عديدة وكتبت عنها سرديات تاريخية مختلفة تماماً وأحياناً تتناقض الكتابات التاريخية مع حقيقة الأحداث الفعلية التي وقعت داخل القصر الإمبراطوري في إسطنبول والتي تسببت في المأساة العثمانية المعروفة. وبمعنى آخر فلقد





يرى المؤلف أن هناك فارقاً بين رؤية المؤرخين العثمانيين لتاريخ بلادهم والسرديات التاريخية التي كتبها المؤرخون الغربيون

اتخذ المؤلف من الأحداث الخطيرة التي وقعت في هذه الفترة الوجيزة- والتي أطلق عليها المؤلف اسم «مأساة عثمانية» نقطة إنطلاق لدراسة التاريخ العثماني في القرن السابع عشر في عهد ما بعد السلطان سليمان.

ويرى المؤلف أن هناك فارقاً بين رؤية المؤرخين العثمانيين لتاريخ بلادهم والسرديات التاريخية التي كتبها المؤرخون الغربيون عن الأحداث التاريخية المهمة التي شكلت لب التاريخ الإمبراطوري العثماني. فالمؤرخون العثمانيون الذين يمثلون وجهة النظر الرسمية- وجهة نظر الدولة- كانت لهم رؤية مختلفة للتاريخ العثماني- حسب وجهة نظر المؤلف – لأنهم اعتمدوا على المعلومات الأرشيفية والوثائق التاريخية المتاحة لهم. ويرى المؤلف أن هؤلاء المؤرخين لم يعتمدوا على المصادر التي يوفرها التاريخ الثقافي للإمبراطورية وإنما استقوا بياناتهم من الوثائق الأرشيفية التي احتفظت بها الحكومة.

ويعترض المؤلف على بعض المصطلحات التاريخية التي استخدمها المؤرخون الغربيون في حديثهم عن التاريخ العثماني في القرن السابع عشر. وهو يرفض مصطلح «رجل أوروبا المريض» الذي أطلقه المؤرخون في الغرب على الإمبراطورية العثمانية آنذاك. كما يرفض مصطلح «انهيار» أو «إنحدار» الإمبراطورية لأنها لم تستطع أن تتماشى مع التطور العلمي في أوروبا الغربية. ويرفض المؤلف التصور الغربي بأن الإمبراطورية العثمانية كانت تعاني من عوامل الانهيار لمدة 300 عام ويرى أن هذا التصور خرافي وغير موضوعي.

ويرى المؤلف أن المؤرخين العثمانيين الذين يمثلون وجهة نظر الحكومة لم يكن لديهم خبرة كافية ولم يكن لديهم دراية بالنظريات التاريخية الحديثة. ويرى أن المؤرخين العثمانيين من أمثال مصطفى نعيمي وحسن بيزيد ورفعت علي أبو الحاج وكمال سيلاي وغيرهم قد اهتموا بدراسة الأرشيف السياسي والاقتصادي للتاريخ العثماني ولكنهم أهملوا دراسة ما أسماه بالتاريخ الثقافي أو النصوص الأدبية التي تناولت تاريخ العثمانيين في القرن السابع عشر. ويرى أن هؤلاء المؤرخين المحليين لم يصلوا إلى مستوى المؤرخين المعروفين من أمثال هيدن هوايت ودومينك لاكابرا ولين هنت وجين هاثواي وليزلي بيرس وغيرهم من المؤرخين الذين يستخدمون النظريات التاريخية الحديثة في كتاباتهم.

المؤلف : جابريل بيتربيرج – عدد الصفحات: 256ص – تاريخ النشر : 2003
التوثيق الأجنبي: Gabriel Piterberg. An Ottoman Tragedy: History and Historiography at Play (Studies on the History of Society and Culture, 50). Berkeley : University of California Press, 2003.
اللغة: الإنجليزية



الإمبراطورية العثمانية (1300 – 1560): نظام السلطة

جرت العادة في الغرب على النظر إلى الإمبراطورية العثمانية على أنها «رجل أوروبا المريض» الذي أُعلنت وفاته في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كما دأب المؤرخون في الغرب على التركيز على المذابح التي ارتكبها الأتراك ضد الأرمن. أما كتاب كولن أمبر فإنه يستعرض بموضوعية وحياد تاريخ الإمبراطورية العثمانية منذ عام 1300 على يد مؤسسها «عثمان» حتى سقوطها الذي بدأ في عام 1648 عندما أصيب السلطان إبراهيم بالجنون ثم تم اغتياله آنذاك. ويتتبع المؤلف التاريخ العثماني في مراحله المتعددة حيث يتناول بالدراسة البلاط الملكي وتوزيع السلطة داخله وخارجه، وتقسيم السلطات على الأقاليم التابعة للإمبراطورية بالإضافة إلى تحليل القوانين الإسلامية والوضعية التي تتحكم في إدارة شؤون البلاد وموضوعات أخرى. ويرى المؤلف أن الإمبراطورية العثمانية بدأت تتعرض لسلسلة من الأزمات ابتداءً من عام 1600 مما وضع حداً للمد الإمبراطوري التوسعي وأدى إلى إحداث تصدعات في البناء المؤسسي للإمبراطورية مما عجل بانهيارها.

يتألف هذا الكتاب من ثمانية فصول. أما الفصل الأول فهو عبارة عن دراسة تاريخية متسلسلة للأحداث الرئيسية التي شكلت التاريخ العثماني. أما الفصول السبعة الباقية فهي تتناول جوانب مختلفة من التاريخ الإمبراطوري مع التركيز على المؤسسات الإدارية والعسكرية والاقتصادية والسياسية في الإمبراطورية العثمانية ودورها عبر التاريخ.

ويؤكد المؤلف على أن الإمبراطورية العثمانية ليست دولة واحدة ذات دين واحد وإنما خليط من الأجناس واللغات والأديان حتى المسلمين داخل حدود الإمبراطورية لم يشكلوا مجموعة عرقية أو إثنية أو دينية واحدة وإنما مجموعات مختلفة ومتباينة. ولذلك يؤكد المؤلف على التنوع العرقي والتعدد الثقافي والتباين الإثني الموجود داخل حدود الإمبراطورية.

ويعتمد أسلوب المؤلف على عرض الأحداث ثم تقييم كل مرحلة على حدة، فعلى سبيل المثال يتم عرض مجريات



الأحداث في عهد السلطان مراد الثاني ثم يتم تقييم المؤقف السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري في نهاية عصره . ولقد اتبع المؤلف هذا الأسلوب في التحليل التاريخي والتقييم مع كل السلاطين(السلطان سليم الأول ص48). وفي الفصل الثاني -(الخلافة)- يتناول المؤلف الأسرة السلطانية والمكانة الدينية التي منحها لها المذهب الحنفي (مذهب أبي حنيفة النعمان).

ويؤكد المؤلف أن السلاطين العثمانيين كانوا يفضلون إنجاب الأبناء من الجواري ولكن في بداية العهد الإمبراطوري كان السلاطين يتزوجون زيجات مصالح وكانوا يتزوجون من المسيحيات ومن بنات الأمـراء الأتـراك من الطبقة الأرستقراطية. وكان السلطان يتزوج في المقام الأول من أجل إنجاب ولي العهد أو الوريث الذي سيتولى الخلافة من بعده. وفي هذا السياق تتبع المؤلف أنساب الأسرة الحاكمة وامتدادها عبر التاريخ العثماني.

أما الفصل الثالث فيناقش الدور الذي لعبه العبيد وأولادهم في السيطرة على الإمبراطورية العثمانية فلقد بسط هؤلاء سيطرتهم على الإمبراطورية خاصة في عهد السلطان مراد الثاني. ويرى المؤلف أن هناك تشابهاً بين العبيد في تركيا والمماليك في مصر حيث سيطر الفريقان على مجريات الأمور في الدولتين. وفي الفصل الرابع يتناول المؤلف بالتحليل دور البلاط الملكي في السلطة والحكومة. ويرى أن البلاط هو مركز السلطة للإمبراطورية بأسرها، ففي البلاط يُعقد مجلس الخليفة (الديوان) ومنه تصدر القرارات . كما تطرق المؤلف إلى سكن الخليفة داخل القصر وإلى الجواري والغلمان داخل الحريم الملكي كما تحدث عن مجريات الأمور في مكاتب الوزراء والأمراء وكبار المسؤولين داخل القصر.

أما الفصل الخامس فلقد اختص بمناقشة النظام الإداري في إقاليم الإمبراطورية كما أشار المؤلف إلى المقاطعات التي كان السلطان يهديها إلى أبنائه وأقاربه. وهذا الفصل عامر بالتفاصيل الخاصة بنظام توزيع الأراضي والأملاك على المسؤولين داخل نطاق الإمبراطورية كما يناقش العديد من الأمور الخاصة بالسكان في المناطق التابعة للإمبراطورية.

أما الفصل السادس فهو من أهم فصول الكتاب حيث يستطلع المؤلف دور التشريعات الإسلامية والقوانين الوضعية (العلمانية) في تسيير دفة الأمـور داخل الإمبراطورية. وفي الفصل السابع (الجيش) يتحدث المؤلف عن الجيش الإمبراطوري العثماني الذي كان في الأصل عبارة عن ميليشيات من القناصين وحملة الأقواس والرماح الذين جاؤوا من أواسط آسيا. وفي عام 1400 تحولت هذه الميليشيات إلى جيش نظامي مدرب قادر على تنفيذ كل المهام العسكرية التي يكلف بها مثل حصار المدن وزراعة الألغام ومقارعة الأعداء في ميادين القتال وفي ساحات الوغى، كما أصبح الجيش قادراً على استخدام الآلات العسكرية الحديثة، كما ضم الجيش سلاح الفرسان والمشاة من الجنود الإنكشارية، ذوي الولاء الشديد للسلطان والحكومة. كما يشير المؤلف إلى الأسلحة التي كانت بحوزة الجيش والتي كانت تصنع محليا على أيدي الصناع المهرة.

وفي الفصل الثامن يتحدث المؤلف عن الأسطول التركي ذاكراً أن الأتراك لم يكن لهم اهتمام بسلاح البحرية حتى عام 1450وبعد قيام السلطان محمد الفاتح بفتح القسطنطينية شعر العثمانيون بأهمية السلاح البحري ولذلك بدأوا في بناء أسطول قوي لعب دوراً مهماً في الحروب اللاحقة.

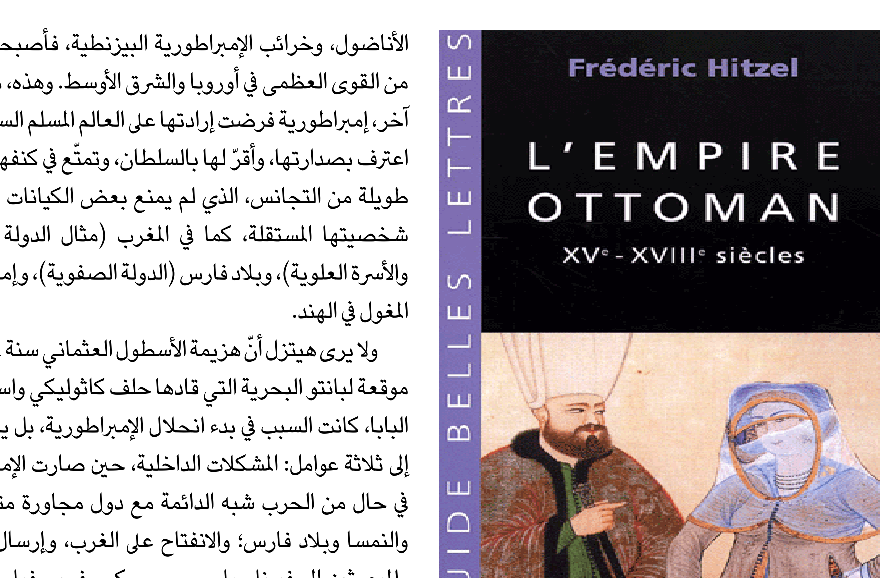
المؤلف: كولن إمبر – عدد الصفحات: 405ص – تاريخ النشر: 2002
التوثيق الأجنبي: Colin Imber. The Ottoman Empire 1300–1650: The Structure of Power. European History in Perspective. Hampshire : Palgrave Macmillan . 2002
اللغة: الإنجليزية

الإمبراطورية العثمانية القرن XV - XVIII

طمح هذا الكتاب إلى أن يكون دليلاً يعرّف بالإمبراطورية العثمانية، ليس على المستوى التاريخي فحسب، بل كذلك على مستويات أخرى عديدة، منها الاجتماعية والثقافية والمعمارية، أو حتى السياحية. وهو يتوجه إلى القارىء العريض الذي يحمل في قرارة نفسه سلسلة من الوقائع الفاصلة التي تثقل وجدانه كمواطن أوروبي، ومسيحي: استيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة 1435، وطيّ صفحة الإمبراطورية البيزنطية؛ وحقيقة أنّ السلطان سليمان القانوني، الذي يلقبه الغرب بـ«الرائع»، كان في أواسط القرن السادس عشر حليف الملك فرنسوا الأول ضدّ شارل الخامس؛ وأنّ مصر، حين غزاها نابليون بونابرت سنة 1789، كانت ولاية عثمانية؛ وأنّ «المسألة الشرقية»، التي تصف اعتلال الإمبراطورية العثمانية، كانت واحدة من كبرى الموضوعات السياسية في القرن التاسع عشر. هذا إذا تناسى القارىء الفرنسي دلالات الشخصية العثمانية في مسرح راسين وموليير، وفي قصائد فكتور هيغو، وأوبرا موتزارت...

والميل إلى تأليف الكتاب في صيغة دليل لا يعني أبداً أنّ مؤلفه ليس حجة في الشؤون العثمانية، بل يتوجب القول على الفور إنه بين أبرز المؤرخين الفرنسيين المعاصرين في هذا الميدان، فهو أستاذ في المركز الوطني للأبحاث في باريس، ومؤلف أعمال مميزة حول مدينة إسطنبول، ومنطقة إزنيق، والفنانين الرحالة إلى الباب العالي، والتصنيع والتجارة والعلاقات الإجتماعية في تركيا العثمانية. ذلك يجعله يرجّح شخصية المؤرخ على سواه في هذا الكتاب، فيفرد مساحات أوسع لبدايات صعود العثمانيين، وإقامة ركائز الدولة، وتوسّعها في القرون الثلاثة الأولى، إلى جانب المشهد الداخلي التركي ضمن هذه السياقات جميعها، مع تركيز جغرافي خاصّ على منطقة الأناضول والعاصمة إسطنبول.

ومنهجيته العامة تقوم على النظر إلى الإمبراطورية العثمانية بوصفها، مثل كلّ إمبراطورية أخرى، نتاج صيغة تركيبية، تنشأ التباينات في داخلها على أساس من معطيات عصرها، التي كانت دينية في العموم، ولكنها أفسحت المجال للعناصر الثقافية واللغوية والإثنية وما إليها. ولهذا فإن تطبيق المعايير الغربية حول الأمة ـ الدولة على هذه المجموعات ذات الأساس الديني، لن يسفر عن حصيلة صائبة علمياً، كما أنه سوف يُلحق الغبن



بتاريخها في مختلف جوانبه. والأهمّ، في ما يطمح إليه كتاب هيتزل، هو تقديم مفاتيح ضرورية لفهم جملة الوقائع الحاسمة التي شهدتها أربعة قرون من صعود وأفول الإمبراطورية العثمانية.

يتألف الكتاب من 20 فصلاً، تتوزع موضوعاتها على تاريخ نشوء الدولة، وقيام الإمبراطورية وإنشاء عاصمتها، وتنظيمها السياسي والاجتماعي، وحياتها الاقتصادية، وإنجازاتها في التقويم السنوي وحساب الزمن، وحياتها الدينية، وأنشطة الأدب والفنون، وأنماط الحياة العامة والخاصة. وفي كلّ فصل يحرص المؤلف على الإلتزام بمنهجيته الصارمة في قراءة المادة اعتماداً على معطيات عصرها، في صيغة تركيبية تأخذ بعين الإعتبار مقدار التنوّع الاجتماعي واللغوي والعرقي، وكذلك الديني، الذي طبع الإمبراطورية العثمانية.

وهو يختار تقسيم نشوء الدولة إلى ثلاث مراحل: الشباب، وهو طور التأسيس والنهوض؛ والنضج، حين ساد التوازن مختلف قطاعات الدولة؛ وأخيراً الشيخوخة، التي سوف تفضي إلى المحاق والاندثار. هذه، في اختصار هيتزل، دولة نشأت ببطء في مطلع القرن الرابع عشر، على خرائب الدولة السلجوقية في الأناضول، وخرائب الإمبراطورية البيزنطية، فأصبحت واحدة من القوى العظمى في أوروبا والشرق الأوسط. وهذه، من جانب آخر، إمبراطورية فرضت إرادتها على العالم المسلم السنّي، الذي اعترف بصدارتها، وأقرّ لها بالسلطان، وتمتّع في كنفها بمراحل طويلة من التجانس، الذي لم يمنع بعض الكيانات من تأكيد شخصيتها المستقلة، كما في المغرب (مثال الدولة السعدية والأسرة العلوية)، وبلاد فارس (الدولة الصفوية)، وإمبراطورية المغول في الهند.

ولا يرى هيتزل أنّ هزيمة الأسطول العثماني سنة 1571، في موقعة لبانتو البحرية التي قادها حلف كاثوليكي واسع بقيادة البابا، كانت السبب في بدء انحلال الإمبراطورية، بل يعزو الأمر إلى ثلاثة عوامل: المشكلات الداخلية، حين صارت الإمبراطورية في حال من الحرب شبه الدائمة مع دول مجاورة مثل روسيا والنمسا وبلاد فارس؛ والانفتاح على الغرب، وإرسال السفراء والمبعوثين إلى فيينا وباريس وموسكو وفرصوفيا، وتأثير ما حملوه من أفكار على التجانس الفكري والعقائدي للدولة؛ وأخيراً، إدخال إصلاحات جذرية على الجيش، بعد سلسلة الإخفاقات التي مُني بها.

وفي فصل ممتع للغاية، يكرّسه المؤلف للعاصمة إسطنبول، نقف على تطور هذه المدينة الفريدة قبل العثمانيين، أي في العهد البيزنطي، وأثناء حكم السلاطين، وبعد أفول أمجادهم. وإذْ يستند إلى خرائط مفصلة ورسومات إيضاحية، فإنّ هيتزل يقود قارئه في جولة شاملة إلى قصر توبكابي وحدائق السلاطين والأحياء الرئيسية، ويعرّفه على أنظمة الريّ والمياه، وتقسيمات السكان، وما إلى ذلك من تفاصيل شيقة بقدر ما هي توثيقية دقيقة.

فصل آخر طريف يتناول تفاصيل الحياة اليومية، من طقوس المأكل والمشرب والملبس، إلى الخدمات العامة وأشكال الترويح عن النفس (من المسرح الشعبي واحتفالات المولد النبوي والأعياد الدينية والرسمية، إلى المقاهي والخانات السرّية والحمامات العامة)، فضلاً عن الرياضات والألعاب الجماعية.

ولا تكتمل طرافة هذا الفصل إلا بما يحفل به فصل آخر عن الحياة الشخصية والعائلية، حيث يبرهن هيتزل أنه متحرّر تماماً من تلك التنميطات الإستشراقية الغربية حول «الحرملك» وعادات الزواج والحياة الجنسية بصفة خاصة.

وإلى جانب تعريفات وجيزة بأهمّ الشخصيات في تاريخ الإمبراطورية العثمانية، ومسارد أحداث بين فصل وآخر، يفرد هينزل مساحة كريمة لأهمّ المراجع الفرنسية والإنجليزية التي ينصح القارىء بالرجوع إليها، إذا شاء الاستزادة.

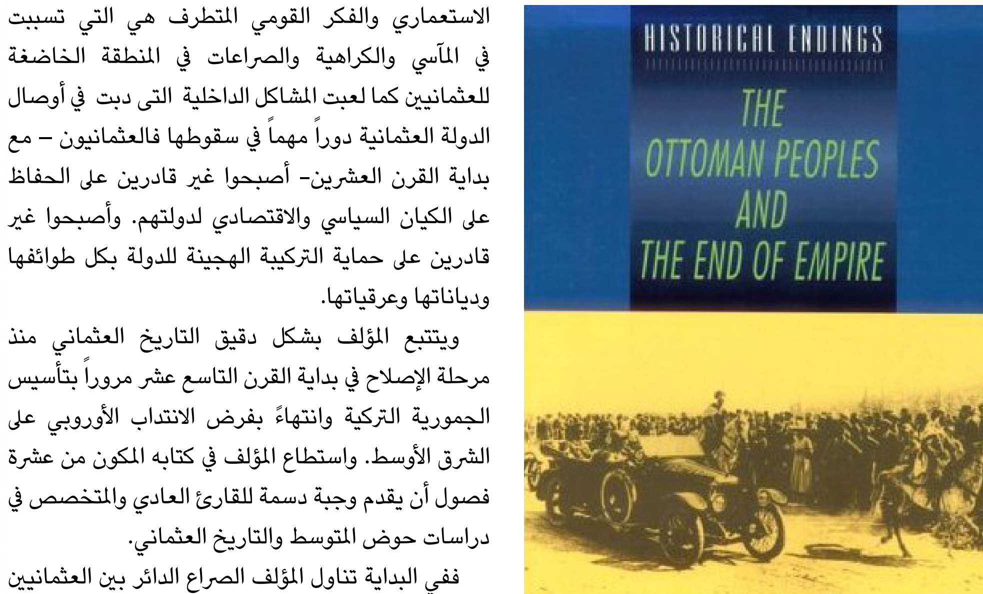
المؤلف : فردريك هيتزل – عدد الصفحات : 319ص – تاريخ النشر: 2001
التوثيق الأجنبي: Frédéric Hitzel. L’ Empire ottoman XV – XVIII siècle
Les Belles Lettres, Paris 2001
اللغة: الفرنسية

الشعوب العثمانية ونهاية الإمبراطورية

إن هذا الكتاب المثير للجدل يحكي قصة انهيار الإمبراطورية العثمانية -والنتائج المترتبة على ذلك -وآثاره على الشعوب السلافية والأتراك واليونانيين والعرب والأرمن. ولقد استطاعت الإمبراطورية العثمانية- حسب رأى المؤلف - لمدة سته قرون أن تجمع تحت مظلتها العديد من الأقليات والإثنيات والأديان، ولكن مما يدعو للأسف أن انهيار الإمبراطورية قد أدى إلى ظهور نعرات قومية وعدائية حادة تسببت في نشوب الصراعات الدامية في منطقة البلقان والشرق الأوسط لأن الدول الصغيرة التي نشأت في أعقاب انهيار الإمبراطورية العثمانية لم تسمح للأقليات الدينية بالإندماج فيها لأنهاكانت تسعى طوال الوقت الى استبعاد الآخر وتهميش الأقليات والقضاء عليها. ويعتقد المؤلف أن الخريطة السياسية والديموجرافية للشرق الأوسط والبلقان التي رسمها الحلفاء بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولى قد أججت الصراع بين الطوائف والعرقيات في الدول الناشئة والتي قامت على أنقاض الإمبراطورية العثمانية.

ويحتوي الكتاب على 23 خريطة توضيحية بالإضافة إلى الهوامش والحواشي ويركز على تاريخ شرق المتوسط في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث بدأ العثمانيون يفقدون سيطرتهم على هذه المنطقة التي ظلت في قبضتهم قروناً طويلة. وبعد انحدار الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى نشأت تطورات سياسية وديموجرافية واقتصادية خطيرة في البلقان وشرق المتوسط وآسيا الصغرى والشرق الأوسط مماأدى إلى ظهور مشاكل عديدة. وكانت منطقة شرق المتوسط تحت الحكم العثماني تخضع لنظام سياسي واقتصادي واحد. وفي مطلع العشرينات من القرن الماضي تم تقسيم هذه المنطقة ونشأت حدود جديدة وتلاشت حدود قديمة وكانت التطورات جميعها تدعم النعرات القومية والإثنية لكل من الصرب والبلغار واليونانيين والأتراك والمصريين والعرب ومسلمي البلقان.

كما تسببت هذه التطورات في المعاناة الإنسانية لسكان هذه المنطقة وفي العديد من المآسي والنكسات على المستويين الاقتصادي والسياسي. ويطرح المؤلف عدة أسئلة ويسعى للإجابة عليها في ثنايا الكتاب. ومن بين الأسئلة التي يطرحها المؤلف ما يلي: لماذا تنشأ الإمبراطوريات وتنمو بسرعة فائقة ثم تبدأ في الانهيار حتى تسقط وتموت؟ ما هي



النتائج الإيجابية والسلبية المترتبة على انهيار الإمبراطورية العثمانية في البلقان والشرق الأوسط؟ ويرى المؤلف أن الإمبراطورية العثمانية قد سقطت بسبب سعي القوى الإمبريالية الأوروبية – فرنسا وإنجلترا- للاستيلاء على الإرث العثماني كما لعبت روسيا وألمانيا واليونان وإيطاليا دوراً مهماً في إسقاطها. فلقد سعى الإنجليز والفرنسيون إلى إثارة النعرات المسيحية في أرمينيا وفي البلقان من أجل إضعاف الإمبراطورية العثمانية كما قام الروس بدعم الصرب منذ عام 1790 في صراعهم ضد الأتراك العثمانيين.

ويرى المؤلف أن الإمبراطورية العثمانية كان يمكن -بشيء من الإصلاح الداخلي- أن تتحول إلى دولة متعددة الجنسيات والأعـراق وبالتالي كانت البشرية ستتجنب الدماء التي سالت أثناء الحروب التي اندلعت لأسباب طائفية وقومية. ويرى المؤلف أن الشرور الآتية من الفكر الاستعماري والفكر القومي المتطرف هي التي تسببت في المآسي والكراهية والصراعات في المنطقة الخاضعة للعثمانيين كما لعبت المشاكل الداخلية التى دبت في أوصال الدولة العثمانية دوراً مهماً في سقوطها فالعثمانيون – مع بداية القرن العشرين- أصبحوا غير قادرين على الحفاظ على الكيان السياسي والاقتصادي لدولتهم. وأصبحوا غير قادرين على حماية التركيبة الهجينة للدولة بكل طوائفها ودياناتها وعرقياتها.

ويتتبع المؤلف بشكل دقيق التاريخ العثماني منذ مرحلة الإصلاح في بداية القرن التاسع عشر مروراً بتأسيس الجمورية التركية وانتهاءً بفرض الانتداب الأوروبي على الشرق الأوسط. واستطاع المؤلف في كتابه المكون من عشرة فصول أن يقدم وجبة دسمة للقارئ العادي والمتخصص في دراسات حوض المتوسط والتاريخ العثماني.

ففي البداية تناول المؤلف الصراع الدائر بين العثمانيين والقوى الاستعمارية الغربية الساعية الى السيطرة على البلقان والشرق الأوسط وأشار إلى الدور الذي لعبه الاستعمار في إثارة النزعات القومية بهدف ضرب الوجود العثماني في عقر داره وفي مقتل. ويشير المؤلف إلى جهود العثمانيين لإصلاح النظام السياسي والاقتصادي والتعليمي في البلاد كما أشار إلى قيام العثمانيين بتطوير النظام الإداري وإدخال أنظمة متطورة للإدارة بهدف تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة الى تحديث خطوط المواصلات داخل أراضي الإمبراطورية .

ويرى المؤلف أن القوى الاستعمارية الغربية قد فشلت في فهم العقلية العثمانية ويؤكد أن هذه القوى كانت متطرفة ومتعصبة للمسيحية وكان الاستعمار الغربي يناصر المسلمين ويعادي الأتراك والمسلمين طوال الوقت. ويرى المؤلف أن قوى الاستعمار والامبريالية الغربية ومن سار في ركابهم من المسيحيين الشرقيين أو الغربيين هم مجموعة من القتلة والمجرمين الذين تسببوا في سفك دماء المسيحيين وغير المسلمين على حد سواء.

المؤلف: جاستين مكارثي – عدد الصفحات: 234ص – تاريخ النشر: 2001
التوثيق الأجنبي: Justin McCarthy. The Ottoman Peoples and the End of Empire
(Historical Endings). London : Arnold Publishers, 2001.
اللغة: الإنجليزية

الإمبراطورية العثمانية: 1700-1922

يتناول الكتاب تاريخ الإمبراطورية العثمانية التي ارتوت جذورها بالتراث الثقافي والسياسي البيزنطي والتركي والإسلامي بالإضافة إلى التراث الذي خلفه عصر النهضة الأوروبية، على عكس الكتب الأخرى التي تميل إلى اعتبار الإمبراطورية العثمانية كياناً عجز عن تجديد نفسه وعمه الفساد والتخلف وبات يتطلع إلى من ينقذه من مصيره المحتوم، يسعى هذا الكتاب إلى تناول التاريخ العثماني بشكل أكثر موضوعية وإنصافا. ولذلك لم يكتف المؤلف باستطلاع التاريخي السياسي فحسب بل تناول أيضاً الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والتجارية ، بل إنه تعدى ذلك وتطرق إلى إلقاء الضوء على قضية الرق وآراء علماء المسلمين ورجال الدين اليهود والمسيحيين في تلك المسألة.

ويؤكد المؤلف على أن التجارب التي مرت بها الدولة العثمانية غنية ومتنوعة وأحياناً فريدة من نوعها، واستخدم المؤلف في هذا الكتاب المنهج التحليلي نفسه الذي اتبعه المؤرخون في دراستهم للمجتمعات في كل من الصين (أثناء حكم إمبراطورية المنغ)، واليابان وكذلك إمبراطورية الهابسبورغ وإنجلترا في العهد الفيكتوري. ويرى المؤلف أن المؤسسات السياسية والاجتماعية العثمانية كانت وليدة أحداث تاريخية معينة شأنها في ذلك شأن الإمبراطوريات والمجتمعات الأخرى.

خطرت فكرة تأليف الكتاب على ذهن المؤلف عام (1983) عندما شاهد التلاميذ في فيينا يسيرون في جماعات في طريقهم إلى المتحف الأثري للاحتفال بمرور 300 عام على فك الحصار العثماني حول مدينة فيينا عام (1683).

ويشير المؤلف إلى أن الإمبراطورية العثمانية قد ظهرت على مسرح الأحداث عام 1300م بالقرب من مدينة إسطنبول المعاصرة في الجزء الغربي من آسيا الصغرى، ثم توسعت شرقاً وغرباً بعد أن هزمت المملكة الصربية والبيزنطية والبلغارية ناهيك عن الإمارات التركية في الأناضول ودولة المماليك في مصر.

وبحلول القرن السابع عشر تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم على مساحات شاسعة من غرب آسيا وشمال إفريقيا بالإضافة إلى جنوب شرق أوروبا. ولقد أخفقت الجيوش العثمانية في الاستيلاء على فيينا مرتين عامي 1529 و1683 . ففي عام 1683 وصلت جيوش الحلفاء لنجدة المدينة- وفي مقدمتهم جيش ملك بولندا- مما أدى إلى إجبار العثمانيين على التراجع والإنسحاب بعد أن تكبدت قواتهم خسائر جسيمة وتمكن المدافعون عن المدينة من الاستيلاء على خيمة «الصدر الأعظم» ومتعلقاته الشخصية.

ولقد استطاع العثمانيون أن يلقوا الرعب في قلوب الأوروبيين لسنوات عديدة إلا أن هزيمتهم وإنسحابهم المفاجئ من فيينا أدى إلى تغيير ميزان القوى بين العثمانيين والإمبراطورية النمساوية (إمبراطورية الهابسبورغ)، ولذلك فلقد توقف التهديد العثماني نهائياً لأوروبا بعد عام 1683 بالرغم من احتفاظ الأتراك بأجزاء من جنوب شرقي أوروبا ظلت في حوذتهم لمدة مئتي عام سيطروا خلالها على أراضي تحولت فيما بعد الى بلدان مثل بلغاريا وصربيا واليونان ورومانيا.

ولكن معاهدة برلين (1871) قد أجبرت العثمانيين على التخلي عن كل الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها في البلقان، وظل الأتراك يسيطرون على مناطق أخرى في العالم مثل سورية ولبنان والعراق وفلسطين والأردن والحجاز حتى عام 1922 حيث تولى أتاتورك إنهاء عهد العثمانيين.

وهنا يجب أن نشير إلى الفارق بين كلمة تركي وكلمة عثماني ، فكلمة «تركي» بالنسبة للأوروبيين هي مرادف لكلمة «مسلم» ولكن يجب التنويه إلى أن الجيوش العثمانية التي دخلت إلى أوروبا لم تكن من الأتراك بل ضمت جنود ينتمون إلى قوميات ومذاهب عاشت في كنف الإمبراطورية العثمانية التي أسسها آل عثمان ولذلك ينبغي التسليم بمصطلح الإمبراطورية العثمانية وليس «التركية» كما دأب الأوروبيون على تسميتها.

يتناول الفصل الأول التاريخ العثماني من حيث الدور الذي لعبه العثمانيون في تطور أوروبا. أما الفصول الثاني والثالث والرابع، فتتناول الوقائع والأحداث التاريخية منذ نشأة الدولة العثمانية مروراً بتقهقر الجيش العثماني في عام 1683 واندحاره خارج أسوار فيينا، ثم التاريخ العثماني في القرن الثامن عشر وأخيراً الفترة الزمنية الممتدة من عام 1800 إلى عام 1922 حيث لفظت الإمبراطورية العثمانية أنفاسها الأخيرة. أما بخصوص الفصول المتبقية من الكتاب فإن المؤلف يتناول بالتحليل بعض القضايا المحورية التي تمس السياسة العثمانية على الصعيدين المحلي والدولي بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعادات والتقاليد الشعبية والعلاقات بين رعايا الإمبراطورية.

أما الفصل الأخير فيتناول الآثار الناجمة عن الحكم العثماني وما خلفه من انعكاسات على الشعوب والدول التي رزحت تحت نير العثمانيين لسنوات طويلة والتي يبلغ عددها أكثر من 30 دولة.

المؤلف: دونالد كواتارت – عدد الصفحات: 236ص – تاريخ النشر: 2000

التوثيق الأجنبي: Donald Quataert. The Ottoman Empire 1700–1922 New Approaches to European History. Cambridge: Cambridge University Press, 2000

اللغة: الإنجليزية



أسياد الآفاق: تاريخ الإمبراطورية العثمانية

يبدأ المؤلف كتابه بما يلي:«أخيراً سقطت الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى بعدما امتدت حدودها من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى بلاد البلقان وبعد أن بسطت سيطرتها على بلاد شاسعة لفترة تزيد عن ستة قرون .وأثناء الثلاثة قرون الأولى من الحكم العثماني كانت الإمبراطورية في أوج مجدها وكان حكامها يسيطرون على نهر النيل ونهر الدانوب، وكان الملوك في فرنسا والهند يتسولون المساعدات من الإمبراطور العثماني، وفي الثلاثة قرون الأخيرة من الحكم العثماني انهارت الإمبراطورية رويداً رويداً حتى سقطت في أوائل القرن العشرين. وبعد سقوطها المروع ظلت أشباح الإمبراطورية تخيم على البلدان التي كانت تسيطر عليها سابقاً وأدى ذلك إلى بعض التداعيات الخطيرة التي تركت آثارها على المسلمين في كوسوفو والبلقان».

ويرى المؤلف أن الإمبراطورية العثمانية قد استطاعت أن تسيطر على العالم عندما نجحت في إقامة مجتمع متعدد الأعراق والأديان والجنسيات لا فرق فيه بين مسلم ومسيحي ويهودي أو وثني. كما أن السبب الرئيسي في انهيار الإمبراطورية هو تصاعد النزعة القومية والعرقية في المجتمعات التي كانت تابعة لها.

كما لعبت التدخلات الخارجية دوراً بارزاً في إسقاط الإمبراطورية وإنهاء الحكم العثماني.

ويرى المؤلف أن الإمبراطورية العثمانية في سنوات مجدها كانت تعارض الطموحات الضيقة التي تصاحب الأيديولوجيات القومية، ويشير المؤلف إلى التعايش السلمي الذي كان قائماً في المجتمعات الخاضعة للإمبراطورية العثمانية في جنوب أوروبا. كما يشير المؤلف إلى الأسباب التي مهدت الطريق إلى سقوط الإمبراطورية بعدما سقطت البلاد فريسة للمشاكل الاقتصادية والفساد الإداري بالإضافة إلى رغبة بعض الدول الاستعمارية في الاستيلاء على الإرث العثماني ولذلك لجأت هذه الدول إلى المؤامرات من أجل التغلغل داخل المجتمعات التابعة للخلافة وإحداث الفتن وخلق الخلافات مع الحكومة المركزية في إسطنبول.

يعتقد النقاد أن هذا الكتاب –بالرغم من أهميته- إلا أنه لا يعتبر عملاً أكاديمياً لأنه اعتمد على الانطباعات والملاحظات التي جمعها المؤلف من الرحالة والدبلوماسيين الغربيين الذين لهم علاقة بالتاريخ العثماني. ولذلك فالكتاب يقدم التاريخ العثماني بصورة تتشابه مع أدب الرحلات وتخاطب القارئ غير المتخصص لأن الدراسة تعتمد على سرد الوقائع التي تروق لهذه النوعية من القراء، بمعنى أن الكتاب يقدم تاريخياً شعبياً فلكلورياً وليس دراسة أكاديمية متعمقة.

المؤلف: جاسون جودون – عدد الصفحات: 363 ص – تاريخ النشر: 1998

التوثيق الأجنبي: Jason Goodwin. Lords of the Horizons: A History of the Ottoman Empire. New York. Henry Holt and Company, 1998

اللغة: الإنجليزية

بيت الحريم الإمبراطوري: النساء والسلطة في الإمبراطورية العثمانية



على عكس الدراسات التاريخية الأخرى التي تتناول ظاهرة بيت الحريم في قصور الخلافة على أنها انعكاس للترف والانغماس في الملذات والجنس الذي اعتاد عليه الخلفاء والحكام في الشرق الإسلامي، تسعى المؤلفة إلى تقديم صورة أخرى مغايرة لتلك الصورة النمطية الإستشراقية التي دأب المؤرخون الغربيون على رسمها في خيال القارئ الغربي. وترى المؤلفة من خلال دراستها للتاريخ العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر أن نساء الأسرة الحاكمة سواء من بنات آل عثمان أو من الجواري والمحظيات المقربات من السلاطين كن يتمتعن بسلطات لا محدودة داخل البلاط الملكي وخارجه. وترى المؤلفة أن هذه السلطات قد ازدادت عندما تولى الحكم سلسلة من السلاطين الضعاف الشخصية في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ونساء القصر والبلاط العثماني قد مارسن السلطة وتدخلن في القرارات السياسية ولم تكن النساء في البلاط الخلافة كما تم تصويرهن في الكتب التي ألفها المؤرخون الغربيون مجرد دمى وماكينات لممارسة الجنس، وإنما كان لهن دور فعال سواء بشكل مباشر أو عن طريق أبنائهن وبناتهن من الأمراء والأميرات. وترى المؤلفة أن السيدة روكسانا (حورام) التي كانت جارية في قصر الخليفة سليمان القانوني ثم أصبحت زوجته المفضلة قد لعبت دوراً مهماً في تسيير دفة الحكومة العثمانية إبان عهد زوجها.

وفي الفصل الأول من الكتاب تتناول المؤلفة كيفية سيطرة النساء على السلطة في البلاط العثماني من خلال إنجاب الأبناء الذين أصبحوا سلاطين وحكام فيما بعد في حين كانت أمهاتهم مجرد جواري ومحظيات في القصر. كما أشارت المؤلفة إلى المؤامرات التي قامت بها بعض نساء البلاط الإمبراطوري من أجل الوصول إلى السلطة في حين لجأت بعض النسوة إلى عقد حفلات ولقاءات لتدعيم مراكزهن داخل البلاط، ويتناول الفصل الخامس تسلسل السلطات في حريم القصر الملكي وتؤكد المؤلفة أن دور المرأة في البلاط هو جزء من التراث والتقاليد العثمانية على عكس الاعتقاد السائد لدى المؤرخين الغربيين الذين تناولوا المرأة في القصور الملكية على أنها مجرد جارية أو خادمة للرجل.

وتسعى المؤلفة في هذا الكتاب إلى دحض الأفكار الغربية السائدة عن البلاط العثماني حيث دأب المؤرخون في الغرب على تشويه صورة السلاطين والتركيز على الفساد الجنسي والأخلاقي داخل قصور الخلافة. وتؤكد المؤلفة أن معظم ما كتب عن الفساد والانحلال في البلاط العثماني مجرد مبالغات بنيت على تصورات وخيالات وصور نمطية ولم تؤسس على دراسة تاريخية حقيقية وإنما تم نشرها لأسباب سياسية. وتذكر أن السلطان مراد الثالث قد أصر على دفن والدته بجوار والده السلطان سليم الثاني تعبيراً عن احترامه للدور الذي لعبته أمه في تسيير شؤون الخلافة.ويعترض بعض النقاد على الطريقة المثالية التي صورت بها المؤلفة السلاطين العثمانيين ويرون أن السلطان مراد الثالث قد قتل خمسة من إخوته غير الأشقاء بعد وفاة والده السلطان سليم الثاني.

والكتاب يحتوي على «شارح» يستعين به القارئ كما يحتوي على بعض الخرائط بالإضافة إلى بيان عن أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة وتسلسل أنسابهم.

المؤلف : ليزلي بيرس – عدد الصفحات : 374ص – تاريخ النشر: 1993
التوثيق الأجنبي : Leslie P. Peirce. The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire (Studies in Middle Eastern History) New York . Oxford University Press. 1993
اللغة: الإنجليزية

الإمبراطورية العثمانية، الخطوط العريضة لتاريخها

مؤلّف هذا الكتاب، هو المؤرخ والمستشرق الهنغاري الأصل: جوزف ماتوتس(1925 – 1992)، الذي حصل على الدكتوراه في الدراسات العثمانية عام 1961م من جامعة ميونيخ، وواصل بحوثه في هذا المجال في جامعة فرايبورغ التي ظلّ يعمل فيها حتى عام 1990م.

يُعدّ هذا الكتاب واحداً من المصادر الأساسية المهمة في تاريخ الإمبراطورية العثمانية، وقد صدر الكتاب عام 1985م، إلا أنّه طبع بعد ذلك غير مرة؛ لأنه لا يزال فاعلاً في هذا الحقل التاريخي.

يغطي كتاب جوزف ماتوتس حقبة زمنية طويلة؛ فمن المعروف أن الإمبراطورية العثمانية قد بقيت مايقرب من ألف وثلاثمائة سنة، وإن كانت وصلت إلى أقصى قوّتها بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر. وكانت تمتد على رقعة مكانية شديدة الاتساع، وتضم الكثير من القوميات بين جنباتها. وقد شهدت حقبة الوزير العثماني: كارا مصطفى باشا (1634 – 1635)، الذي كان شخصية مركزية في تلك الحقبة، محاولات للتوسع في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية، حتى وصلت حملاته إلى أسوار مدينة فيينا عاصمة النمسا. ويقع الكتاب في حوالي 360صفحة، ويحوي فضلاً عن المقدمة القصيرة، تمهيداً وتسعة فصول.

يتناول ماتوتس في التمهيد نشوء الأتــراك، ونشوء الإمبراطورية، ودخول الإسلام إلى تركيا. ويعود في الفصل الثاني من التمهيد ؛ ليتوسع في الحديث عن بدايات الأتراك وأصولهم التركمانية.

يتحدث المؤلف في الفصل الثالث عن السلاجقة، السلاجقة الكبار، وسلاجقة الاناضول. ويتحدث كذلك عن الإمارة الآسيوية الصغيرة، ومن الجدير بالذكر أن السلاجقة دخلوا في الإسلام عام 960ميلادية، أثناء حكم زعيمها سلجوق.

أما الفصل الرابع وهو بعنوان: نشوء الدولة العثمانية وبداياتها؛ فيجيء حديث المؤلف من ثلاثة أقسام، هي:

أ. أسلاف بني عثمان. ب. من الإمارة إلى السلطنة.

ج. تيمورلنك والتفكك المؤقت للدولة العثمانية.

وهنا يشير المؤلف إلى القائد المغولي الشهير تيمورلنك (1336– 1405) الذي اقتحم آسيا الصغرى، وهزم السلطان بايزيد الأول في معركة أنقرة عام 1402م.

يتكون الفصل الخامس الذي يسميه المؤلف: القوة العظمى للإمبراطورية العثمانية من ثلاثة أجزاء، هي:



أ. استقرار الدولة العثمانية. ب. من قوة إقليمية إلى قوة عظمى. ج. من السلطنة إلى الخلافة.

ولعل من الجدير بالذكر أن يشار في هذا المقام إلى أن أول من حمل لقب خليفة المسلمين من آل عثمان هو سليم الأول الذي تولى الحكم من 1512– 1520م.

يحمل الفصل السادس عنوان: الدولة والمجتمع، نحو ازدهار الإمبراطورية العثمانية، ويتكون من أربعة أجزاء، هي:

أ. الدولة، السلطان، الإدارة المركزية.

ب. إدارة المناطق. ج. الجوهر العسكري.

د. الاقتصاد والدولة.

يتوقف هذا الفصل عند النظام الإداري في السلطنة العثمانية، ويتحدث عن دور السلطان والصدر الأعظم والولاة والسناجق والدفتردار(الذي يتولى الشؤون المالية في الولاية)، في حين يتوقف الفصل السابع عند: القوة العثمانية العالمية، يتكون من أربعة أجزاء:

أ. حقبة سليمان القانوني العظيم.

ب. بدايات السقوط.

ج. اشتداد الأزمة في القرن التاسع عشر.

د. ثورات جيلالي، Gelali .

ومن المهم أن يشار إلى أن المؤلف يقصد بثورات الجيلالي، عدداً من حركات التمرد التي شهدتها الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، الذي كان يعود، على نحو رئيسي، لطبيعة النظام الضريبي السائد آنذاك.

في الفصل الثامن يجيء حديث المؤلف تحت عنوان: تدهور الإمبراطورية العثمانية، وفيه يناقش أبعاد هذه المسألة من خلال خمسة أجزاء، وهي:

أ. عصر سيادة الحريم ب. محاولات توطيد حكم الوزراء المعروفين بالصدر الأعظم. ج. الهزيمة على أسوار فيينا عام 1683م ونتائجها.

د. عصر الزنابق. هــ . تلاشي القوة العظمى

ومن الضروري أن يشار إلى أن هذا العصر الذي يسميه المؤلف بالألمانية Tulpenzeit وهو بالتركية derin Lale، يقع بين 1718–1730، وهو يدعى كذلك نسبة إلى الزهور التي كانت منتشرة بكثرة في حدائق القصر، ويتميز هذا العصر بأنه بداية ظهور التغريب والدعوة إلى الاصلاح.

أما الفصل التاسع فعنوانه: عصر الإصلاح، ويتكون من خمسة أجزاء:

أ. إصلاح الجيش، إزاحة المملكة الأرستقراطية، ونهاية حكم – ثمار–. ب. عصر التنظيمات.

ج. دستور عام 1876م د. مؤتمر برلين وانفراد عبد الحميد بالحكم. هــ. إفلاس الدولة.

ومن المهم أن يشار إلى نظام – ثمار هذا يتعلق بمسألة توزيع الأرض في الإمبراطورية العثمانية الذي ظلّ مستمراً طيلة قرنين، وكان يمنح ريع الأرض للقادة العسكريين والضباط والجنود، دون أن يكونوا قادرين على تملكها.

أما الفصل قبل الاخير فعنوانه: تركيا الفتاة، ويتكون من أجزاء ثلاثة:

أ. بدايات حركة تركيا الفتاة.

ب. وصول الحركة إلى السلطة.

ج. حرب طرابلس وحرب البلقان.

ويجيء الفصل الأخير تحت عنوان: تدهور الإمبراطورية العثمانية:

أ. الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى.

ب. نهاية السلطنة العثمانية – بدايات تركيا الحديثة.

ويتميز الكتاب فوق هذا العرض التاريخي الحافل بالأحداث، بفهارس دقيقة للشخصيات والأماكن والشعوب والمصطلحات الجغرافية، إضافة إلى وجود خرائط دالة تشير إلى تحولات الإمبراطورية العثمانية، طيلة هذه الحقبة الطويلة، فضلاً عن قائمة دقيقة من المصادر العثمانية والأخرى المكتوبة باللغات الأوروبية.

المؤلف: يوسف ماتوتس – عدد الصفحات: 354ص تاريخ النشر : 1985
التوثيق الأجنبي : Josef Matuz. Das Osmanische Reich Grundlinien Seiner Geschichte. Darm Stadt: 1985
اللغة: الإلمانية

الإمبراطورية العثمانية والتراث الإسلامي

هذا الكتاب الصغير الحجم يستطلع التاريخ العثماني منذ نشأة الإمبراطورية عام 1300 على حدود الدولة البيزنطية وتطورها حتى اصطدامها مع أوروبا الحديثة في القرن الثامن عشر. ولكن المؤلف قد توقف عند عهد السلطان سليم الثالث ولذلك لم يتطرق الكتاب إلى عهد الإصلاح العثماني. ويرى المؤلف أن التزام العثمانيين بالتقاليد الإسلامية هو السبب في نجاحهم في بناء الإمبراطورية كما أن انهيار الإمبراطورية يرجع إلى الفساد الذي دب في أوصالها بسبب انتشار عناصر الإسلام الرجعي في البناء الداخلي للدولة.

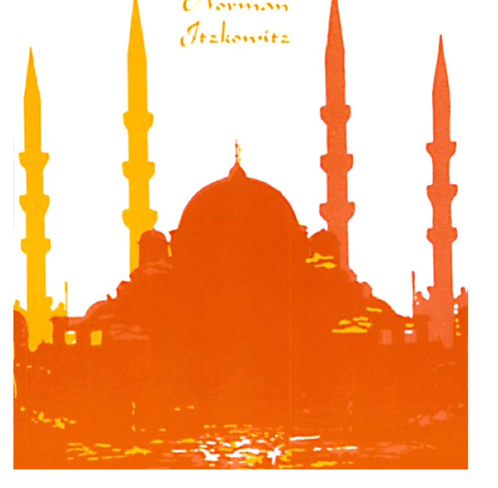
ويتتبع المؤلف في هذه الدراسة التجربة التاريخية العثمانية مع التركيز على المؤسسات الرئيسية التي شكلت المجتمع العثماني والتي كانت بمثابة الأسس والدعائم التي قامت عليها الدولة ويرى المؤلف أن تاريخ الإمبراطورية العثمانية التي سيطرت على ثلاث قارات وبسطت سلطانها على الأرض لأكثر من 700 عام جدير بالدراسة والاهتمام، وبالرغم من أهمية الإسلام بالنسبة للعثمانيين إلا أن المؤلف يعتقد أن الإمبراطورية العثمانية تتشابه مع الإمبراطورية المغولية الهندية والإمبراطورية الصفوية في إيران وهي وليدة التقاليد التركية المغولية التي سيطرت على أواسط آسيا وملكت الطرق البرية المهمة التي كانت تربط بين أوصال العالم القديم. ويشير المؤلف إلى التاريخ السياسي العثماني وإلى الدور الإمبراطوري الذي لعبته أسطنبول في تاريخ العالم من خلال دراسة متسلسلة زمنياً وبالاستعانة بالخرائط والهوامش والملحقات وشارح للمصطلحات المهمة.

ويرى بعض النقاد أن الكتاب لا يقدم تاريخاً كاملاً للإمبراطورية العثمانية ولذلك يجب على القارئ الذي يسعى إلى الإستفادة من هذه الدراسة أن يلم بالخلفية التاريخية للإمبراطورية العثمانية أولاً وأن يطلع على تاريخ آسيا وأوروبا عندما كانت أجزاء شاسعة من هاتين القارتين تقعان تحت السيادة العثمانية.

ويرى نقاد آخرون أن العنوان الذي اختاره الكاتب ليس موفقاً وربما يكون مضللاً نظراً لضيق مساحة الفضاءات التاريخية التي تناولها الكاتب بالتحليل والدراسة، فالعنوان يعطي إيحاءً بأن الكتاب دراسة شاملة عن الإمبراطورية العثمانية والتراث الإسلامي ولكن تفاصيل الكتاب لم تكن بهذه الشمولية وإنما دارت حول فترة تاريخية معينة .

وُيحسب للمؤلف أنه نأى بنفسه عن التفاصيل الغامضة الخاصة بكبار الشخصيات المؤثرة في البلاط العثماني كما تجنب الخوض في الموضوعات الهامشية مثل النزاعات الضيقة التي كانت تنشب بين الحين والآخر داخل الأراضي التابعة للإمبراطورية ويرى نقاد آخرون أن الكتاب يمكن استخدامه كجزء من منهج يُدرس لطلاب التاريخ والدراسات العليا للإستفادة من هذه الدراسة في كتابة رسائل الماجستير والدكتوراة والتاريخ المقارن في مجال الدراسات التاريخية.





المؤلف: نورمان إتزكوتز – عدد الصفحات: 128ص – تاريخ النشر: 1980
التوثيق الأجنبي: Norman Itzkowitz. Ottoman Empire and Islamic Tradition (Phoenix Book). Chicago. Chicago University press 1980.
اللغة: الإنجليزية